الأعمال الكاملة

خيري شلبي

Amly

الأمالي

لأبي علي حسن: ولد خالي

سيرة ذاتية شعبية في ثلاث أجزاء

- وثانينا الكومي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة أعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى

أيام الأسبوع سبعة:

الأولة ـ هلت ليالي القمر

نجحت أمي ذات ليلة في أن تتصيدني في حالة رائقة، إذ أن الامر الذي ودّت أن تحدثني فيه قد يسعدني فاطير في الهواء فرحا، وقد يصدمني فاشكمها في وجهها بقبضة يدي. لكنها أمي يا بوي ولا كل الامهات، حويطة أشد من حوط المشير ولد أبو عامر يا بوي، تصيدت روقان مزاجي وضحكي على الفاضية والليانة فصارت تحكي نوادر وأخبارا ونكتا تمثل خلالها أدوار الهتماوات والاطفال والمفتشين وسباع الليل ـ أي الكلاب، حتى ضحكت وصفّيت الغم كله، وقلت: «كفاك يا أمْ لقد أوجعت بطني من الضحك». فسرعان ما أمرت إخوتي البنات بأن يفضضنها سيرة ويقمن لتصميق (الجلة) وتبييت الفراخ والتتميم على الأرانب وسد هواء الباب الكبير وخروم العشة حتى لا تجد العرسة منفذا تنفذ منه للدجاج، والحذر من الثعبان الساكن بجوار العشة في أمان لا يؤذى إلا من حاول إيذاءه، إلى أن يأذن الله باستقدام أحد الرفاعية القبض عليه يدًا بيد في صنعة لطافة.

دلقتني الاطمئنان يا بوي وحدثت بقلبي «نغمشة» مفرحة في انتظار لخبر طيب، وقبل أن أتهيأ لاستماعه يا خال كانت أمي قد

رمت به في جملة واحدة كأنها لاتزال تحكي النوادر والأخبار والنكت. التهيت برهة ثم انتبهت فجأة فصحت فيها: «ماذا قلت يا أمُّ؟» قالت كأنها تخشى من ترديد الخبر مرة أخرى «ألم تسمع؟»قلت:«أحب أن أتأكد». قالت بكثير من الحرج وقليل من الفرح المضمر، مشوحة:«يو..و..ه .. قلت: إن خرابة يدوّر على أختك سعدية!».

رجعت بدماغي إلى الوراء يا بوي، اعتدلت في قعدتي عدة مرات، شوك في كل موضع صار يشكني في قلبي، صارت كل الدماء في عروقي أسنان شوك تسعى في عروقي تشعل النار في حلقي في رأسي في عيني، ربنا ما يوقعك في ضيقة كهذه يا خال، تحلف اليمين إنها ولا ضيقة القبر!..

«خرابة»؟! «خرابة» بذات نفسه يا بوي؟! يدّور على أختي «سعدية» يريد أن يخطبها ويتزوجها، وهو الذي يستطيع بإشارة أصبع أن يخطفها ويستحلها كخليلة، كجارية دون أن يجرؤ على اعتراض طريقه نفر واحد لا من الناس ولا من الحكومة من التخين للجعيص فيها. أما أنا فلست سوى قشة، ريشة إذا تطلع وتفخها طيرها الريح بددًا. الحكومة بجلالة قدرها لم تجرؤ على اعتراضه يا بوي ولم تفلح في الإمساك به يا بوي، فهل أقدر أنا يا غلبان يا مسكين أن أعترضه أو حتى أعترض عليه؟! هذه والله محنة جديدة منيت بها ياحسن يا ولد أبي خضب فهل لم تجد المحن في الدنيا هدفا تستضعفه سواك؟! لولا تأكدي من حب أمي لوثقت أنها دعت على بالأ يجبرني الله ويجعلني أبد الدهر في قلق ووجع دماغ!..

- ٦ -

هي برهة واحدة يا بوي، سرعان ما رأيت نفسي بعدها قد تمسحت وصرت في آخر روقان، اختلست البصر نحو أمي فوجدتها مطرقة إلى الأرض وجهها ملفوف برداء أحمر وليس أسود كالعادة - توحي لي به أنه من علامات الفرح والموافقة عندها. فقلت لنفسي ولماذا لا توافق يا ولد أبي خضب؟ لقد كان بإمكان «خرابة» أن يفعل ما يحلو له لكنه استرجلك واعتبرك وعمل لك حسابا ووقارًا فجاء يدخل البيوت من أبوابها، رغم أن دخول البيوت محرم عليه منذ سنوات وسنوات باعتباره أحد ستة مطاريد يحكمون الجبل يتسلطنون عليه. قل يا بوي: إنني شعرت بالعزة مقدما، انتفخت في قعدتي وانتويت الحديث في المهمات على أرض الموافقة. لكن خاطرا ملعونا جرى كحشرة البرص في ركن من دماغي، فاقشعر جسدي من نعومته وزفلطته واختراقه نخاعي: كيف تأتّى لخرابة أن يرى أختك «سعدية» يا ولد وهو الذي لا ينزل البلدة قط إلا بتدبير يتم على مدى أيام، ومراقبة مستمرة على طول ليال وفي لحظة لا يعرفها أحد، حتى من رجاله المرصوصين على امتداد الطريق الذي سيرتقيه رائحا غاديامن

الجبل إلى داره ومن داره إلى الجبل والبنادق والمدافع الرشاشة مخبأة في أعشاشها داخل الثياب كالدجاج الراقد على بيض يتكسر، والقذائف العمياء على أهبة الانطلاق بدون تفاهم مع الصدور أو الأكتاف أو الأدمغة أو القلوب فإن نفد الرصاص فالخناجر والسكاكين والسيوف مربوطة على السيقان والزنود والسواعد غير بائنة. هكذا هو كلما نوى رؤية أولاده في يوم موسم أو يوم عيد أو ليلة مفترجة وهكذا زوجته هي الأخرى كلما نوت أن تأتيه في مربضه السري بالجبل تحت نفس الحراسة المشددة!..

لـ «خرابة» يا خال مطرود منذ ما يربو على عشرين عاماً، ومحكوم عليه بمائة وخمسة وسبعين عاما من السجن المؤبد والأشغال الشاقة المؤبدة مع أن عمره كله لم يبلغ الأربعين بعد، حيث إنه قتل أرواحا لا حصر لها، في معارك مع أولاد عمه ومع الحكومة، نجح خلالها في ترحيل أبناء عمومته إلى بلدة أخرى، مكتفين شره بالبعاد، ونجحت الحكومة في أن تسكنه الجبل إلى الأبد كبديل عن السجن. لكنها - لرزاخة مخها، لم تفطن إلى أنها عينته إمبراطورًا على الجبل وعلى البلدة كلها. فمن يتحكم في الجبل يتحكم في البلدة. على الدوام: حاكم الجبل هو حاكم البلدة، وإن كان لها عمدية وخفراء يسندهم عسكر ومآمير وحكمداريون ومخاليق لا حصر لهم. البلدة، والبلاد المجاورة كلها تحب «خرابة» لأنه حماها من لصوص ومن عائلات متجبرة كثيرة كبيرة فطارد

اللصوص حتى محاهم، واستبقى أرجلهم، فتوبهم وضمهم لرجاله، فصاروا من خلصائه. أما العائلات المتجبرة فكسر أنفها، يفرض عليها الفرضة تدفعها عن يد وهي صاغرة: تقول سبحان الله والحمد لله. اسمه «خرابة» لكنه سخي جواد على رجاله يخطب لهم أجمل الفتيات وأغنى السنابير يكلف لهم ولهن أعراسا داوية حافلة يرقص فيها الخيل ويرتع القوم على المزمار والطبل البلدي ليالي بطولها حتى الصباح، لهذا تمنى كل شبان البلدة أن يكونوا من رجاله يا بوي، ولو جئت للحقيقة لقلت إن شبان البلدة كلها بالفعل من رجاله، يخدمون تحت إمرته أو إمرة زوجته، أولاده صحابه، حتى من يشاع عنهم أنهم من رجاله، لهم في صدور الناس مراتع وفي قلوبهم مدافن وفي رحابهم خيرات. ويل لمرشح الدائرة، إذا لم يتصل بـ «خرابة» وينسق معه كل شيء؛ على المرشح أن يتنكر حتى في زي امرأة خليوصة ويسلم نفسه لرجال «خرابة» ليجد نفسه بين يوم أو أكثر قد التقى بامرأة مثلها أو كهلا طبيب القلب أو شحاتا غلبانا أو درويشًا أبله يتكلم معه باسم «خرابة» كلاما لا ترد فيه سيرة «خرابة» على الإطلاق ولا شيء يتعلق بأمره. إنما هو كلام عن الانتخابات والعائلات والأحزاب مما يتكلمه عموم الناس في كل مكان دون أن يثيروا شبهة ولا قبلة. ولكن المرشح يعرف بعد لحظة الانفضاض والانصراف أن هؤلاء الذين قابلهم كانوا«خرابة» بذات نفسه. والمرشح مهما كان شريرا لن يكون غبيا أبدا فيبلغ عسكر الشرطة والمباحث ليقيموا كمينا للقبض على «خرابة» لأنه لو فقد عقله، ففعل ذلك، فإن مذبحة

سيعلو أوارها في الحال، يكون هو أول ضحاياها من أول بادرة شك تُشتمُ ريحتها في المحيط الجبلي كله. ولهذا يفعل المرشح ذلك وهو يمني نفسه برضاء «خرابة» ليفوز بالتزكية، فلو فاز ـ ولابد أن يفوز ما في ذلك ريب ـ فـ آه ثم آه على التعميم الذي يحل على كليهما ويفيض على أهل الدائرة، النائب يتعهد بينه وبين نفسه بالعهد الذي قطعه على نفسه تلميحا أو تصريحا مع «خرابة» بأن يظل يحمي أهل الدائرة. فكيف يحميها يا بوي؟ يعني أن يظل يحامي عليها ويمنع أرجل الحكومة من النزول إليها أو إقامة نقط ومراكز فيها، ومهما كثرت القرى وتغولت المدن يظل كل مركز شرطة يحتوي على مجموعة كبيرة من البلاد يحار في حكمها الفرس والروم يا بوي، وتظل المدارس مقصورة على المدن البعيدة، حتى لا تصيب القرى بكثير من المتلامضين المتفلحسين جلاَّبي المشاكل ووجع الدماغ، هذا هو عين ما كان يطلبه المرشح لكي تبقى دائرته مجرد ضيعة يمتلك ثلاثة أرباعها على الأقل. فمعظم الناس عنده إذن أجراء، وكان «خرابة» يعرف دائما أن المرشح يخدمه بطلاء القول فكان يلف عليه من وراء لوراء ويطلب وساطته لإدخال أبناء الناس الموسرين سلك المدارس، وثمة شبان كثيرون في الدائرة يدينون لـ «خرابة» بفضل إلحاقهم بكلية المحامين وكلية الدكاترة وكلية المهندسين وبالوظائف:

تومرجية في المستشفيات وكتبة في التفاتيش وملاحظي أنفار في الوسايا. هذا كله لخرابة وحده فما بالك بخمسة مطاريد آخرين عتلأت من حكام الجبل؟!..

«خرابة» هذا كله يا بوي، جاء يخطب أختي «سعدية» فيا لها من أملة كبرى، ولكن كيف بالله يا مسلمين عرف «خرابة» أن لي أختا واسمها «سعدية» بالذات، وأنها جميلة لدرجة تستحق أن يتزوجها على زوجته أمّ أولاده الجدع التي لم تفرط في عرضه قط، ولم تكن أقل شهامة منه! دعنا من هذا، ولكن لا تدعنا من هذه النقطة التي ربما كانت ثقبا غائرا يا بوي: كيف تعرّف «خرابة» على أختي؟!..

وهنا غاضت الدماء في وجهي وارتفع دق الطبول في قلبي، لكن أمي كانت أسرع من دقات قلبي، إذ قالت: «كان خرابة نازلا في العيد الفائت في نُغَيشة الفجر متنكرا في زي درويش عبيط، فرآها خارجة من الدار إلى الترعة تملأ البلاص وهي تتدلع في المشي على راحتها ظنا منها أن الطريق خالية. فرآها. فسحرته، فسأل عنها، فدلوه، فبعث يطلب منا عنوانك في مصر ليفاتحك في أمرها. فاستمهلناه بعض الوقت زاعمين أنك عائد في القريب العاجل!».

الصدق كان واضحا في نبرة الولية يا بوي. فلم أشأ أن أصدقها أو أكذبها. لكنني قلت على سبيل الاختبار وإطالة مهلة التفكير: «وهل توافقين يا أم على أن تزوجي ابنتك على ضرة!» . شوحت بيدها قائلة: «يا خويه! النبي عليه الصلاة والسلام اتجوز أربعة، واحنا في ديك الساعة! لما نبقى من عيلة خرابة! وفي عزوته!» وجدت نفسي أقول لها: «على بركة الله يا أمّ مادمت

تريدين هذا فلا يحق لي أن أمانع! مبروك على سعدية هذا العريس التخين! ولكنني يا أمّ لن أكون من رجاله في يوم من الأيام: فما أظن أن لي لقمة عيش في الجبل بعد أن شفت بعيني حلاوة الدنيا في البندر. قالت الولية بقروغ بال أفزعني والله يا بوي: «ياعالم! يا ترى من يعيش!» لكنني صحت من ورائها في ورع «على رأيك! يا ترى من يعيش!» ووالله كنت في قرارة نفسي قد بدأت بهذا النسب التخين.

الثانية ـ عُرْس القمر

تحلف اليمين يا بوي أن مخي يتبرجل كلما تذكرت أن «خرابة» سيصبح زوجا لأختي «سعدية». الخوف كان يجري في مفاصلي، فهذا رجل من عتاة المطاريد، فكيف يتهيأ له أن يقيم فرحا لنفسه كعريس لابد أن يحضر زفته بنفسه أمام القوم كلهم، أنا طبعا لست أقبل أن يدخل على أختي بدون فرح حتى لو وافقت الولية، دخول العروس بدون فرح يحضره الجميع هو سبي واغتصاب وعار، ستكون الفضيحة بجلاجل وشخاليل، ستقول الستة السوء إن في الأمر سرا آخر، ولسوف يؤلفون من عندهم ويلتمسون الأعذار لـ «خرابة»، ولكنهم في نفوسهم، لن يصدقوا أعذارهم. لا، لا، لا، يا خال، كل شيء في بلدنا مقبول ويمكن تبريره إلا العرس بدون فرح تلعلع فيه الزغاريد وتنقش الطبول صفحة السماء بالنقر ودوائر الأنغام.

لكنه «خرابة» يا بوي والأجر على الله، فالرجل الذي دوخ الحكومة وهزمها لن يعجز بالطبع عن إقامة عرس له. صدق أو لا تصدق يا بوي أن عرس «خرابة» على أختي «سعدية» لم يكن له

ضريب في البر كله، لقد رأيت من الاعراس كثيرا، فلم أجد لهذا العرس أخا. إذ خرجت الوفود من لدن «خرابة»في السر إلى كل أصدقائه ومعارفه وعملائه وكل من يفرض عليهم حمايته وإتاوته، فأبلغوهم خبر الزفاف وموعده بالساعة والدقيقة: ولم يكن من بين كافة المدعوين وغيرهم من يجرؤ - أو يقبل - أن ينبئ الحكومة حتى يبقى العرس في نظر رائيه مجرد عرس كبير والسلام..

يوم العرس اصطحب رجال «خرابة» من أول الجبل حتى قلب البلد فأحاطوا بدارنا ودار «خرابة» وساحة العرس إحاطة الأسورة للمعصم وأحيط دوار العمدة وداره من غير أن يشعر هو بشيء، وقطعت أسلاك التليفون على الطرقات ليصبح التليفون في دوار العمدة جثة هامدة لا نفع فيها، واتخذ رجال آخرون مواقعهم على كل السكك ومداخل البلدة من جميع الجهات، كل هذا حدث في أول النهار فما كاد العصر ينطق حتى وافانا أهل الزمار والطبل البلدي، ثم أهل الفراشة، فنصبوا السرادق الكبير المهول، وأقاموا منصة لرقص الغوازي بعيدا عن ساحة رقص الخيل، عند خروج الناس من صلاة العصر فوجئوا بزيطة وزمبليطة في الوسعاية أمام دار«خرابة» وأمام دارنا، الطبل يصدح والزمار يزار والخيول الاصيلة ترقص تحت الرجال تفعل الاعاجيب. أما دارنا فقد امتلأت لتمتها بالنساء، وكانت الماشطة قد جلت أختي «سعدية» وجعلت منها عروسا بحق وحقيق، زادتها جمالا حتى خيل لي أنها

تغري قابحة من البندر، ولحظتئذ استخسرتها في «خرابة».. ثم عدت فقلت لنفسي: إنه رجل وهي تستاهل!..

راحت طلقات الرصاص تدوي محلقة في سماء البلدة كأسراب العصافير الضبية، وكان العريس ناميا يستحم في دار خاله قبلي البلد وطلقات الرصاص تزغرد له طوال الطريق بعد صلاة العشاء، انطلق موكب الزفة من دار الخال فلف البلدة كلها ساير داير، تتقدمه المزيكة، وتتقدم المزيكة طلقات الرصاص، «خرابة» في قلب الزفة كالبلية لا يكاد يبين، إذ هو قصير القامة، نحيف الجسد كنصف فرع يابس ورأسه كرأس الهدهد مستطيل مدبب، والعمامة الكبيرة حول اللبدة في عرض كتفيه، ووجهه يطل من تحتها مجرد عينين صقريتين تطلقان رصاصات مشتعلات، ومن تحتها أنف صغير دقيق كبز متكلس فوق راحة يد، والجلابية الكشمير تحتها القطنية، فالصديري، فالفانلة ذات الأكمام، والعطر يفوح من صدره، فإذا رفع يده بالتحية وجدتها صغيرة كيد طفل صغير تكاد لا تبين في فراغ كمه الواسع، تنسدل ثيابه حتى الأرض فتخفي قدميه الصغيرتين..

كانت هذه ثاني مرة أرى فيها «خرابة». أما الأولى فكانت قبل ذلك ببضعة أسابيع، يوم جاء إلى دارنا بليل كي يخطب «سعدية» مني ومن أولاد أعمامي الفقهاء، ويقبضنا مهرها: مائة وخمسين جنيها أخضر من أميف القد ممشوق القوام، وفوق ذلك، يأمر واحدا من رجاله بتشغيلي حارسا لواحد من معارفه القبط في

بلدة «أبو حجر»، فنفذ أمره ثاني يوم، واستلمت الشغل والعربون، فكان ذلك شيئًا جميلا من «خرابة»، جعلني أحبه وأعرف أن الرجال كرامات وعقول وليست أجسامًا وأموالا..

خرجت «سعدية» من دارنا في زفة كبيرة تتقدمها الدربكة والمغنية، وهنه تتقدمها الزغاريد منافسة لعلعة طلقات الرصاص، حتى وصلنا بها إلى دار العريس التى ابتناها خصيصا فى بضعة أيام، أجلسنا العروس فى الحوش فوق كرسى عال وبجوارها شقيقتها «هندية»، التي بدت أخطر منها، وبجوارها، من الناحية الأخرى، شقيقتها التالية، وبجوارها ابنة خالتها «فوقية»، وسط حشد من النسوة ترش عليه الملح فلا تسقط منه حبة واحدة على الأرض. والمغنية شغالة والنقوط يرف عليها من كل امرأة وصبي. في نصف الليل وصل العريس فدخل على عروسه والفرح شغال في السرادق رقصا ومغنى ونمرا متوالية من كل صنف ولون. أولاد عمي والبنات يلطون تحت شباك العريس، وأيديهم على قلوبهم، يتعجلون خروج الماشطة بالمحرمة البيضاء، وقد شبقعت بدم الشرف الغالي. صار أولاد عمى الأشقياء يغنون ساخرين «إن كنت غشيم اطلع بره» فما كادوا يتمون غنوة استحثاثه، حتى دوت صرخة سريعة مفاجئة مقطوعة، دوت في أعقابها الزغاريد، وانفتح الباب، وخرجت الماشطة فاردة المحرمة بين يديها كالعلم، فانبرى النسوة يغنين: قولوا لابوها الدم بلّ الفرشة! قولوا لابوها يروح بقى يتعشى!».. بعدما خرج العريس لتحية المعازيم وحصر

النقوط، وكان القادمون من صلاة الفجر العائدون من العرس فيسلمون على بعضهم البعض فى فرح.

عدّت الليلة على خير يا بوى، وفى اليوم التالي وضعنا أيدينا على قلوبنا وبقيت موضوعة هكذا شهرا كاملا يا بوى و «خرابة» مختفٍ في داره الجديد يعتصر نفسه داخل عروسه ويعلمها نفسه على حقيقتها، وكلما ارتفع صياح فى أى مكان فى البلدة، جرينا نستطلع الخبر، وفي يقيننا أن الحكومة وصلت وقبضت على «خرابة» من حضن عروسه فلما أصبحنا ذات يوم، ذهبنا كالعادة للصباحية على العروس وجدنا «خرابة» قد رحل. فدخل الاطمئنان قلوبنا وأيقنا في ستر الله.

الثالثة ـ زمن الولاد

جرى القرش في يميني يا خال وطابت لي الحياة في الصعيد حيث الرجل الذي أخدمه يكرمني أشد الكرم. ولست أعرف إن كان إكرامه لي انبساطا مني أم خوفا من «خرابة». لكنني مشيت في البلدة مرفوع الرأس منفوخ الصدر يا خال، الناس يشيرون نحوي من طرف خفي قائلين: هذا صهر «خرابة».. فيعتدل السامعون في الحال يغيرون نظرتهم لي، يختلف تعاملهم معي، سعى إلى مصاحبتي خلق كثيرون، أصبحت أنعزم على الغداء، والعشاء، والأفراح كل يوم في كل مكان، لا أدخل إلا بعد صلاة الفجر..

من بين من صاحبوني على حس «خرابة» ولد مجدع اسمه «مليِّل» وأبوه فلاح من ذوي الأملاك يدعى «يوسف النجار» حلو التقاطيع كابنه مبسم الملامح، عشري اللسان رقيق الكلام. الولد كأبيه، ولا خلاف بين الاثنين حتى في مظهر العمر؛ إذ أنّ الأب يبدو في سن ابنه مع أن الولد في العشرين من عمره باليوم والساعة والدقيقة ـ كلاهما يرتدي ثياب الآخر، ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما سواء في الصوت أو في الشكل أو في طريقة الكلام.

الوالد يضع يده على مساحات كبيرة من أراضي طرح النهر في أزمنة الفيضان، يسهر على زراعتها ليل نهار، وما على الولد إلا السعي في بيع المحاصيل وطلوع الأسواق للمتاجرة فيها وفي المواشي الصغيرة السن نتاج زريبة كبيرة أنشأها الوالد من شطارته. ولد: ولا كل الولدان يابوي، كريم، سخي، جواد، يكسب كثيرا مع أنه زاهد في الدنيا، قليل النفقات على نفسه وملذاته، إلا حين أكون معه، فحينئذ يصرف بلا حساب، وهو في غاية الاستمتاع لرؤية الصحاب مسرورين بسببه، كان مؤمنا يؤدي الفرض بفرضه، يفكر في طلوع الحجاز غير أنه يؤجل السفر إليه حتى يأتي الأوان، كما يقول، والأوان في نظره، أن يكون هو نفسه قد أصبح يثق في أنه قادر على احتمال مسئولية الحج، التي هي ليست لعبة يشتريها كل من معه المال: تعلمت الصلاة تقليدا له لا خوفا من الله، وواظبت عليها حبا في أن يربطني الناس بصاحبي «مليِّل» حين يمتدحونه، وما أكثر ما يفعلون.. فكانوا يرونني معه كلما ذهب إلى المسجد لأداء الفريضة، ويرونه معي كلما ذهبت للسهر في مكان بعيد أشرب فيه الحشيش، غير أنه كان لا يشرب إلا خطفا لأنفاس سطحية لا تستقر في الدماغ..

بفضله ـ عليك يا بوي ـ انتقلت دارنا من حال إلى حال، حيث أصبحت طواجن الحليب تعرف طريقها إلى دارنا صباح كل يوم، تحمل سخونة الضروع، حتى صرنا كالفلاحين أصحاب المواشي: نخثر الحليب ليروب، فنحصل على قشدة، وزبد، وسمن، وجبن قريش وكذلك نصنع الفطير المشلتت. قل يا بوي إن صحوبيتي لـ

«هميّل» ولد «يوسف النجار» صارت حديث الناس كلهم، وغطت على خبر زواج «صراية» من أختي «سعدية».

من طيبة قلبي يا بوي لم أفهم إلا مؤخرا. كنت كالأطرش في الزفة أندهش من اندهاش الناس لهذه الصحوبية إذ كانوا يفتشون عما يكون وراءها من غرض. أما أنا فأسخر من رجاحة عقلهم، وأقول في كل مناسبة إن الحب نفسه غرض، حب الإنسان لآخر هو في حد ذاته شيء يقوم في النفس من غير أن تعرف النفس ماذا قام.

إلى أن جاء يوم ظهرت فيه الحقيقة يا بوي، إذ فوجئت بصاحبي «هميّل» يعزم نفسه ـ وأباه ـ على العشاء عندنا في يوم اختاره. أنا قلت مندفعا بكل حماسة «ولماذا لا يكون ذلك الآن يابو العم؟ تظن أننا نعطي نفسنا مهلة نستعد فيها لضيافتك؟ والله ياخال! طلاق بالثلاثة من ذراعي لتجيئ اليوم أنت وأبوك وكل من تهواه مرافقا من العائلة». قال «انتظرونا ليلة الخميس القادم بعد يومين». قلت: «وماله؟ يا تلتميت مرحبا». أنبأت الولية أمي بالخبر فاشترت جديا صغيرا شعرته وشوته، واشترت قفصا من الفاكهة من سقط الجنائن، وبعد صلاة المغرب يوم الخميس طرق بابنا، ودخل صاحبي «هميّل» ساحبا أباه «يوسف النجار» خلفه، فلم نعرف من فيهم الأب ومن الابن. كنا قد فرشنا وسط الدار كله بالحصير والمساند، فجلسنا جميعا نتحدث في أمور الدنيا وأحوالها. جاءت الطبلية فتوسطتنا، من فوقها الصينية النحاسية الكبيرة ـ صينية العشاء ـ وتوالت أطباق الشوربة، والثريد

وأكوام اللحوم المسلوقة والمشوية والمقلية في السمن. فأكلنا حتى بشمنا من التخمة، وجيء بالطست والإبريق، اللذين استعارتهما أمي من دار عمي الشيخ الكبير في آخر الحارة، فاغتسلنا وحمدنا الله، وقلبنا أيدينا ظهرا لبطن شكرا لله على نعمته، وجيء بالوابور وبعده الشاي، وجعلنا نفرقع السجائر، ونشرب الشاي، ونقول النكت والنوادر نضحك على الفارغة والملآنة، ومحسوبك، يلهو وفي الباطن، لا حد لانشغالي وقلقي من سر هذه الزيارة في الظاهر وكانت الولية أمي، لذكائها، تروح وتجيء من بعيد لتلتقط الأخبار. نتعجلها، كلما أحست أننا رأيناها، وقفت وتكلمت بعض الكلام عن الستر، وأولاد الأصول، وحسن التربية. ففهمت أن أمي فقست اللعبة، وفسرت هذه الزيارة بأن «يوسف النجار» جاء بولده «هميّل» للحديث في أمر ترفع له الزغاريد مدوية. عندئذ، بدأ الموضوع يدور في دماغي يا بوي، قلت لنفسي أقطع ذراعي إن ما كان «يوسف النجار» قد جاء يخطب أختي «هندية» لابنه الوحيد «هميّل» صاحبي العزيز. وتذكرت أمي في حضور سابق للصعيد زوجت اثنتين من أخوتي بضربة واحدة، زغرودة في ذيل زغرودة، فتيقن قلبي في الحال أن هذه الفرحة ستتكرر اليوم أيضا، وأنني في هذه الحضرة سأستمع إلى الزغرودة الرابعة في حوش دارنا، ولن يبقى في الانتظار لأمي سوى زغرودة لي بعد وقت يعلمه الله، حسب شروط القسمة والنصيب يابوي.

رقص قلبي والله من الفرح لأنني رأيت الوجد والبهجة لائحين على وجهيهما أتم تمام. ثم زعقت بيني وبين نفسي يا حال الولد

إنى كان يصاحبني من أجل «هندية» وليس حبا في شخصيتي. كاد الغضب يعصف برأسي، فجاءني خاطر خبيث يورني على رفض طلبه - إن طلب - احتجاجا على عدم اعتباره لي، حيث كان يجب أن يكلمني من الأول ليعرف رأيي قبل المجيء ليخطب. غير أنني لم أقدر يا بوي، فأنا أحب الولد، وما صدقت أن عثرت على صاحب مثله يعزني ويودني ولا يبخل علي بشيء.

- وأخيرا تكلم يا بوي فإذا به صامت من فرط الخجل

واعتدل في قعدته، وأطرق برأسه إلى الأرض، فبدت عليه الحيرة الكبيرة، وفي كل مرة يشرع في الكلام، ثم يسكت، ويختلق موضوعا آخر يهرب إليه. فلم أطق صبرا يا بوي، وإذا بي أبادره قائلا مع ابتسامة مرتعشة «مقصد في كلام تود قوله؟» فإذا به يرفع رأسه صائحًا «نعم والله! عندي كلام مهم جئت من أجله!».

صحت فيه بدوري «قله يا بن العم وإلا فقعت مرارتي!» فاعتدل قائلا في خجل «أصل! صراحة! أنا مكسوف!» رقص قلبي من الفرح، والشك. فشرحت قائلا «إذن دع والدك يتكلم نيابة عنك يابن العم! لماذا جئت به إذن! أليس ليتكلم نيابة عنك يابن العم!».

إذا بالولد «هليل» يكتم ضحكة في صدره، وإذا بأبيه يبدو عليه الخجل كالعتاة، قال صاحبي «شف يا أبو علي يا صاحبي! الآن تنعكس الآية. افهم قولي! يعني أنا الذي جئت لأتكلم بالنيابة عن أبي» تجمدت الابتسامة على شفتي، ونشف ريقي، قلت. «كيف يا

خال!» قال صاحبي بشجاعة سريعة «صراحة يابو العم! أصل الحكاية أن أبي يطلب القرب منك في أختك هندية!». تنفست قائلا «أهلا وسهلا! يا مرحب بيه! بوديها لحد الدار!». فانتفض الرجل يا بوي كالملسوع من عقربه كاد يتنطط كالأطفال، يملأ الدنيا زئيطا، ثم قال: «إذن أسمعونا الفاتحة!».

قلت «إهدا قليلا! فالعريس نفسه ليس فرحا هكذا مثلك!» فإذا بالرجل يجهد حيله في الحال وتنقبض ملامحه، وإذا بصاحبي «هليل» يشوح في وجهي بجدية كبيرة «افهم يا صاحبي! إن العريس هو أبي».

تخشب قلبي يا بوي، قلت «أبوك بذات نفسه! إذن! هو الذي يريد أن يتزوج من أختي هندية!». رد بكل بساطة وقد ازداد جرأة. «وماذا فيها؟ سيدفع المهر الذي تطلبون بدون مساومة». أحدث، والله، أنظر فيهما معا، نظرة عليه، وأخرى على أبيه، فلا أكاد أميز فرقا بين الوجهين، اللهم إلا بعض تجاعيد بسيطة لا يراها إلا من يدقق في وجه الأب، فصرت من شدة اللمة والحرج أضحك بصوت زاعق، فلما رأيتهما ينظران لي في كثير من الغضب، خفت أن أخسر صاحبي، فصرت أردد «وماله! دحنا يزيدنا شرف! من إيدكم حصة!»

تعثرت داخلا على أمي المتقرفصة خلف باب القاعة تسمع الحديث. فلما انفردت بها، انفجرت أضحك في عبي، حتى كادت روحي تخرج من الضحك. فزغدتني الولية، وقالت بصيح غاضب.

«بتضحك على إيه يا ولد؟». قلت: «إنك لم تعرفي الخبر يا أم!». قالت منشرحة: «عرفت كل شيء وسمعت كل شيء!». مسحت دموع الضحك وقلت: «فما رأيك إنتِ يا أم؟». تحلف فليمين يا نوى أن الولية كانت تطيّر برجا من دماغي، إذا بها تقول بكل بساطة: «خير وبركة! هل تحول يا ولد! رجل غني وملء هدومه كهذا لا نرضى به؟! فمن نرضى إذن؟». فكرت قليلا وقلت: «يا ولية إنه كبير في السن، وابنه رجل كبير». قالت الولية: «النبي محمد عليه الصلاة والسلام تزوج ستنا عائشة وكانت سنها تسع سنوات وهو في عمر الخمسين! هذا الرجل لن يزيد عن الخامسة والثلاثين! لقد تزوج وهو صغير فأنجب وهو صغير إنه الآن في عز شبابه ورجولته! تعرف يا ولد! لو كان الذي سيخطب ابنتي هو صاحبك فقليل ما فرحت كما فرحت الآن بأن يخطبها أبوه لنفسه! صاحبك طائش مهما علا وصار! قد يتزوج عليها بعد حين، أما أبوه فعاقل وحكيم يفهم قيمة البنت! سيضعها في عينيه ولن يتزوج عليها أبدًا! افهم كلامي ولا تجعله يخرج من هنا إلا مجبور الخاطر».

طب ما رأيك يا خال! أمي قلبت كلامها في دماغي بسرعة فوجدته حكيما موزونا مقنعا! أي والله يا نوى، هذا ما شعرت به في كلام الولية، فقلت لها: «صدقت والله يا أم». وطلعت على الضيوف ابتسم بصدق هذه المرة قائلا: «مبروك عليك يا عم! عشنا وشفنا الأولاد يخطبون لآبائهم!». وصعّرت خدي نحو صاحبي راميا إليه نظرة هازئة ماكرة وقلت: «أنت إذن كنت تصاحبني من

أجل هذا الغرض يابو العم! نشكر على كل حال! ميتتي لكي يحط أبوك على ظهري ويدخل دارنا يتزوج أعز بناتنا! طب يا أخي كنت تعال دوغري من الأول! ما كان هناك داع لأن تلف علي وتصاحبني فأتوهم في نفسي أني واحد جدير بالصحوبية». فهرب صاحبي من نظري وغرق في بحار من الخجل، والعرق، والاحمرار صارت الابتسامة المجنونة ترتفع وتنخفض على ثغره كصور التليفزيون على أيامكم هذه حين يصيبها الرعاش. وصار يقول: «أبدا والله، يابو العم! أنت أمر صحب لي العكس ما حصل، والله، يا خوي! أبي هو الذي ميلني وحط فوق ظهري من لحظة ما علم أنني صاحبتك. صار يشجعني ويغريني ويمدح لي فيك وفي أعمامك الفقهاء الكبار حتى صورك لي ملاكا نازلا من السماء فأحببتك كل هذا الحب يا حسن! هذه كل المسألة والله على ما أقول شهيد». فانبسط قلبي من هذا الكلام يا خال، وانفتح للولد أكثر وأكثر، كدت أنهمه باكيا، إذ إنني لم أكن صادفت في حياتي من يحبني لله مثل هذا الولد. ولما شعرت بسخونة الدمع تنحدر على خدي مسحتها بكم جلبابي مبتسما أقول: «خلاص يا عم! براءة! براءة براءة». انبسط الرجل هو الآخر آخر انبساط. صار ابتسامة كبيرة تبك الدم وقال: «أتراك وافقت إكراما لي أم للولد الذي جاء معي؟!».

اعتقتني أمي من الرد، إذ بانت قائلة: «من أجلك طبعا يا زين الرجال! يا أصيل! يا سيد الناس!». أسرع الرجل قائلا كأنما

يخشى أن نرجع في كلامنا: «اسمعونا الفاتحة من أجل النبي».
فرفعنا أكفنا جميعا، واندمجنا في قراءة الفاتحة بفرحة صادقة.
صدق الله العظيم. حينئذ مال «يوسف النجار» نحوي هامسا:
«شف يا ولدي سأدفع مهرا ضعف ما دفعه حراية مرتين! افهم
كلامي. لست أتحدى حراية فهو حبيبي؛ إنما أنا أحب العروس
وأعرف قدرها!». قلت مع أمي في نفس واحد: «يكفينا شخصك يا
رجل! نحن لا نتاجر ببناتنا!».

وكان عرس «هندية» أشد من عرس «سعدية» بكثير يا بوي،
حضره كل من يمشي على الطريق. وبقي هذا الزواج حديث البلدة
شهورا طويلة يا بوي، وحياتك جاءت أختي «سعدية» لتحضر
عرس شقيقتها «هندية» كانت حاملا وبطنها كبيرة. وحينما ذهبت
أختي «هندية» لتحضر ولادة شقيقتها «سعدية» كانت حاملا
وبطنها كبيرة. أما أنا فقد بت أمشي في سبهللة بكامل حريتي،
أضرب عصاي، وأجري وراءها، شاعرا بأسى، أخيرا قد تخلصت
من جبل من الهموم كان يكتم أنفاسي، وبأنني قد آن لي أوان
النعيم.

الرابعة ـ يوم الهول

قلت إنني لن أكون من رجال «حراية» ذات يوم، وقد شهد الله
على قولتي يا بوي، فبقيت مصمما عليها، فأنا أحب الحرية يابوي،
وأتعشقها كالعصافير تتعشق البراح، تذوب في هواه، أبو غير
«حراية» يا بوي «حراية»، في الأصل، يعشق الجبل عشقا. ومنذ
كان طفلا صغيرا وهو يهرب من أهله إلى الجبل، في الجبل يجد
متسعا لمضاجعة النساء والفتيات الساقطات وتجار المسروقات
وكل شيء. كان يقدم المطاريد خدمات كبيرة، فيكون لهم مرسالا
إلى نسائهم، أو عشيقاتهم، أو رجالهم المحبوسين في دوار العمدة،
يشترى لهم الطلبات فلا يطلب أجرا عن أي خدمة، فأحبوه
ونشروا عليه حمايتهم. قل إن «حراية» نشأ وتربى في الجبل، فلما
كتب عليه الحظ الأغبر أن يكون منفيا مطرودا من الحكومة في
الجبل لم يكن في ذلك أي عقاب له، بل إنه لو سجن لهرب من
السجن إلى الجبل، بل لو تركوه حرا في البلاد لهرب من الحرية
وجاء يسكن الجبل. نعم يا بوي، فالجبل غرامه الأوحد، وهو
يعرف كل شبر فيه. يعرف كيف يدخل من هنا، ويخرج من هناك،
دون أن يدري أحد من المراقبين، يعرف كيف يتوه مطارديه توهان

لا فوقان منه ولا اهتداء إلى الأبد. بعض مطارديه من المخبرين السريين وضباط المباحث المغامرين ظل يغريهم بمطاردته، مسهلاً لهم أمر القبض عليه بعد خطوات قليلة حتى دخلهم إلى عمق سحيق من الجبل يبدو كأنه المغارة وهو مجرد طريق إليها طوله أمدية. وتتخلله صخور كثيرة من كل حجم وأتربة، فصخرة لابد من صعودها، وكومة أتربة لابد من خوضها وصخرة أخرى تسد الطريق تاركة منفذا كالبرزخ لا يعبره إلا من كان جسمه كجسم العرسة. لكن «حراية» يسلك فيها كلمح البصر. أما مطاردوه فقد اعتراهم الصرع والصراخ والحمى والخوف فرجعوا يتخبطون شهوراً، يتعذبون في السراديب، حتى ماتوا، وتعفنت جثثهم، وأكلتها ذئاب الجبل وطيوره الجارحة.

ذمة ودين يابوي، لقد ماتت الحكومة كمداً، وسلمت أمرها لله، وحرمت ارتكابها لهذه الفعلة الحمقاء مرة ثانية كل هذا و «حراية» أيامها مجرد شاب صغير السن لم يلغ في الإجرام بعد، كان لا يزال مجرد واحد يعشق حياة الجبل بين المطاريد الذين يطلبونه ويأسرون قلبه بشجاعتهم وتحديهم للحكومة وللعائلات الكبيرة الغنية. لم يكن محتاجا يابوي، وهذا هو العجب. ذمة ودين يابوي، إن أهله ناس مستورين كل الانبساط. والعمدة كان منهم ذات يوم. العمدة كان عمه لزم، وكان «حراية» مرشحا للعمودية إذا مات عمه. تشاء الصدف أن يموت العم ميتة ربانية و «حراية» سارح في الجبل لا يعلم، فلما وصله الخبر بعد يومين، كانت لجنة العمودية قد طبخت في المديرية لتأكلها عائلة شيخ البلد الكبيرة

للعمد والأطيان والدواب. فما كان من «حراية» إلا أن ركب حصانه الذي يسميه الأدهم ـ على اسم حصان «عنتر بن شداد» ـ وتمنطق بسيفه وخنجره وبندقيته التي هي في العادة من آخر طراز وصل إلى الجيش المصري. إذ أن سماسرة السلاح وجلابه لا يهدأ لهم نشاط ما بقي في الجيش دُفع من المجندين أيديهم قريبة من مخازن الأسلحة. نزل «حراية» يومها من الجبل يتبختر فوق ظهر الأدهم، وخلفه أربعة رجال شباب على أربعة أفراس شداد، كل رجل بفرسه جاء من طرف أحد المطاريد الكبار مجاملة «لحراية» ومساعدة له على استرداد حقه في العمدية. كان قد سبقهم ولد من الأشقياء، قام بقطع أسلاك التليفون من مكان بعيد. الوقت بعد صلاة العشاء، وقد كمن الناس في دورهم منكمشين في الدفء وكان العمدة الجديد ـ شيخ البلدة سابقا ـ قد نقل التليفون الأم من دوار عم «حراية» إلى دواره. وجلس بين رهط من أصحابه وأبناء عمومته يشربون الشاي ويتحدثون في أمر جوهري بالنسبة لهم كعائلة. إذ إنهم عائلة نقية الدم يا بوي، لو جلس واحد منهم على جبل لتفتت عيشه ونكالا، وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم حق المعرفة يا بوي، وهم أول من يدركون أن خلق الله، كلهم يتمنون زوالهم من الوجود. غير أنهم لا يبالون بذلك، ولهذا كان حديثهم تلك الليلة ينصب على هذه النقطة وحدها، يوصون العمدة الجديد بأن يستقوي ويجمد قلبه وإلا هزأت البلدة به وبهم وضاعت منهم العمدية هدرًا وكان العمدة الجديد يحد[illegible] ذلك

في تلويح واضح بأن الله يفعل ما يريد. إلا وصهيل الأفراس يجلجل في الخلاء أمام الدوار. فترعرعت القعدة وتكومت فوق بعضها تتشاور، وقفز منها من يرى الخبر. ثم عاد، وقال إنه «حراية» يطلب مقابلة العمدة الجديد ليبارك له. فلما سمع العمدة ذلك استقام عوده من جديد، ومشى الدم في عروقه، فنهض واقفًا مظهرًا علامات الترحيب والسعادة، ونهض من خلفه بقية الرجال ومضوا وراءه نحو باب الدوار، فاجتازوا الحوش الواسع إلى باب الشارع حيث يقف «حراية» ورجاله بأفراسهم راكبين. ربك والحق استاء العمدة واتكدر في نفسه من أن «حراية» لا ينزل عن الحصان في مواجهته لكنه ابتلع غصته وقال «أهلا وسهلا اتفضل يا رجل واشرب الشاي أو تناول العشاء». فقال «حراية»: «أما الأكل والشرب فقد ملأت به بطنك في غيبتي، وظننت أن الطبيخ في المديرية وشرفها الحكمدار بتحمير البصل وغسل اللحم وعصر الطماطم يمكن أن يجعل الأكلة شهية، أو أن يعجبك الله من صاحب الحق الذي أكلت لحمه! يكفيني، وحق سكناي في الجبل، أن أدعك تهضم هذه الأكلة الدسمة، فأنا البقية الحية من اللحمة التي أكلتها اليوم مطبوخة، ولو لم تكن غدرا لعفوت عنك وباركت لك حقا، لكنك أثبت غدرك ولؤمك فلم تصبر على جثة عمي حتى تترطب من سخونة الموت في قبرها، فنقلت التليفون إلى دارك، وهو الآن جثة هامدة، وإني لأعرف أنك تعرف أنني رجل ولا كل الرجال. فكيف إذن تجرأت على خيانة الميت وتتجرأ على خيانتي وأنا حي؟!»

ومع العمدة من طوله يا حال، صار ينظر حواليه يستنجد بأي واحد. ارتفع صوت برطمة وطلسمة وصوت زعيق وتهديد من داخل الدار، ورأى «حراية» شبح بندقية ترتفع ماسورتها من منطقة مظلمة في حوش الدار تستعد للتنشين عليه بعد برهة قصيرة فسحب في الحال مدفعه الرشاش وبش على ماسورة البندقية بطلقة طيرتها في الهواء بددًا، وطيّرت خلفها صرخا هائلا، ثم حول وجهة المدفع نحو صدر العمدة فأفرغ فيه، وإلى صدور الذين حوله فأفرغ فيهم. صارت الجثث تتساقط وهو يخوض بفرسه فوق الجميع رائحًا غاديا و مدفع الرشاش يصب النار في كل اتجاه، ومن خلفه الفرسان الأربعة يصولون ويجولون في كل من يأتي من عائلة العمدة. فلما نفد سهم الرصاص، جردوا سيوفهم، وانهالوا فوق الرقاب تقطيعا وتمزيقا. كانوا يفعلون ذلك وهم يلوون أعناق الأفراس لتمضي بهم في اتجاه الجبل، حتى إذا ما تملكوا الخلاء، انفردت أرجل الأفراس عن آخرها تسابق الريح طائرة، حتى اختفت تماما في الجبل. وفي تلك الليلة حصرت عائلة العمدة خسائرها فكان عدد الموتى عشرة رجال أشداء من بينهم اثنان من أولاده وثلاثة من أولاد أخيه والباقي من مؤيديه وحضراته. أما الجرحى وفاقدو الأطراف وذوو العاهات المستديمة فكثير عددهم، وكلهم من عائلة العمدة شيخ البلد سابقا.

حقٌّ مالك «حراية»، كان يعلم ويثق أن البلدة كلها ستكون في صفه كرها في هذه العائلة وحبا في شجاعته وهيبة أهل عائلته وكان واثقا لذلك أن شيئا لن يحدث له في هذه المعركة

منذ عدة أياما وأصبحت الجثث متكومة تنتظر مجيء النيابة والحكومة. بعد دفن الجثث والتحقيق مع بعض الخلق ممن شهدوا الواقعة. انطلقت مجموعة من سيارات عالية يسمونها الجيب ترعق بشدة وتتسلق صخور الجبل كالقطط المفترسة وأهل البلاد من فوق أسطح الدور يتفرجون على السيارات وهي تغوص في أحشائه فتختفي في سفوحه وتظهر ثانية على صخوره ومنحنياته يوما كاملا من الصباح إلى المساء دون طائل. فبعضها عاد إلى البندر لاهثا وبعضها لم يعد نهائيا وقد شهد معظم أصحاب السطوح العالية أن ست عربيات دخلت الجبل من كل الاتجاهات فلم يعد منها سوى أربع. وبقيت الحكومة شهرًا تطلق عصابات من الراجلين والراكبين والكلاب الشمامة تلف الجبل تدخله شقا شقا وفي النهاية عادت كلها بخسران كبير مبين مؤكدة - ويا للعجب - أن الجبل ليس يسكنه أحد، لا من البشر ولا من الحيوانات، كيف يا بوي؟ حقيقة الأمر يا بوي أنهم حكموا على الجبل من مظهره الجواني أقصد من طرقاته السالكة الواضحة أما سفوحه وشعابه وبحاره الجافة وشقوقه ومغاراته السحرية وقلاعه المنحوتة فيه من أيام الفراعين فليس يهتدي أحد إلى مواقعه وإن فطن بالصدفة فليس يجرؤ على الاقتراب منها، وإذا كان معهم كلاب شمامة معي أعماق الصخور المسمومة كلاب أبوها ديب لا تعرف ريب أما إذا هيأ لهم جنونهم إطلاق الرصاص فسيهال عليهم وابل من النيران من أماكن خفية في قلب الصخور

دمة ودين ما خال أن العربيات الجيب التي لم تعد من الجبل يومئذ بحثت عنها عصابات الأهالي المتصلين بحياة الجبل فعرفوا أن المطاريد قد اعترضوها وأسروها وخبؤوها في أماكن سرية ليستخدموها في أغراضهم الخاصة تنفع في جلب المخدرات وتوصيل الطلبات والهرب مع الحكومة.

قل إن الأوضاع استمرت على ذلك حوالي العشر يا بوي، وكانت عمدية البلدة قد انتقلت إلى «هريدي» ود عم العمدة القتيل، فبدأ يسايس الناس، يأخذهم باللين، يقضي لهم مصالحهم، بدون مقابل. لكن أهل البلدة، مع ذلك، كانوا يتحسبون للعداوة المتأصلة في نسله، فلا يصدقونه، ولا يثقون به. ولقد ذهب المرسال إلى «مغراية» في الجبل بأن العمدة الشاب يسايس الناس في الظاهر، ويدعي الأمانة أما في الباطن فإنه لشر متأصل فيه ينوي الإيقاع بالبلد كلها في قبضة الحكومة. بجعل الحكومة هي اليد التي ينتقم بها. إذ هو يستقبل كل يوم ضيفا أفنديا يقوم هو بإطلاقه على الناس متكلما كلاما غامضا عن «المال» و «نكوس» و «السخرة» و«الجهادية»، وعن أشياء تنوي الحكومة أن تحفرها وتبنيها، أو تشقها، ويلزمها، تبعا لذلك، أعداد وفيرة من الرجال، ومبالغ طائلة من الأموال. فيرتعد الخلق ويدفعون تبرعات ويبرطلون دفاعا عن أولادهم وممتلكاتهم، ودرءا لتهم غامضة قد يتعرضون لها. والعمدة الشاب - حامل ابتدائية الأزهر - فرح بهذه المناظر تحدث أمام دواره ومناظر الخلق يتقون من طولهم أمامه رعبا ورهبا، يتحولون إلى عبيد، يتوسلون ويستجدون الرحمة والرأفة من هذه

الطرابيش المعووجة على ناحية والمستعدة دائما للحكم عليهم بأربع سنين في الزنازين يا حال.

لم تمض ثلاثة أيام على وصول هذا المرسال إلى «حرابة» في الجبل، حتى تهيأ للنزول في اليوم الرابع، فملأ جيوبه كلها بالطلقات النارية، وحمل بدلاً من السيف سيفين وخنجرين وربط كل ذلك في ثيابه المحكمة حول جسده رباطا وثيقا لكل شيء جرابه المخصوص. ومثله فعل الفرسان الأربعة الذين باتوا من رجاله بعد أن تنازل عنهم أصحابهم كهدية منهم لـ «حرابة»، الذي سبق له أن خدمهم جميعا خدمات كبيرة يا بوي، وبعد لصالحهم عمليات لم يكن سواه يستطيع تنفيذها مهما كان جبروته نفذها «حرابة» بقلبه الجامد كأنه يمر على قارعة الطريق للتخلص من ضرورة. الفرسان الأربعة أحبوا «حرابة» حبا شديدا وسهروا على حياته وملذاته بإخلاص، ودربوا له عشرات من الولدان لا حصر لهم جيء بهم بخيول مسروقة من ولايتها ومرباة على الغالي في إسطبلات الجبل العريضة بلا حدود. أما هو فقد أسكن الولدان في دور في البلدة وفي قصور منحوتة في الجبل حسب درجاتهم في القوة وفي الصفاء والإخلاص المتين. بفضلهم كان «حرابة» ينزل الدرب أحيانا إلى البلدة كل سوق ليمشي راكبا فرسه الأدهم مخترقا جمهور الباعة في صلافة وكبرياء لا يهمه أن يدوس الفرس في سربة بائع نحمة أو يدفع لكعبا متطاوسا فيرميه على الأرض معلقسا، ولو قام وشتم فإن عشرات من أولاد الحلال المشفقين عليه سوف يسارعون بإغلاق فمه وتنبيهه بصيحة لطائفة إلى الدواهي المطرين السائرين خلف «حرابة» على الدوام على

شكل باعة سريحة وناس عاديين طيبين لكن آه لو احتكوا بك أو احتككت بهم يا بوي فرصتهم والقبر والعياذ بالله يا حال - بفضلهم كذلك يا بوي كان يذهب مسافرا إلى مصر المحروسة في مولد الحسين بن علي سيد الشهداء وإلى طنطا في مولد البدوي شيء لله يابو عرب وإلى دسوق في مولد الدسوقي شيء لله يا أبا العينين. يمكث في المولد أسبوعه كله على هيئة واحد من الدراويش الصالحين لا يساورك الشك في منظر وجهه البريء المشع وذقنه النظيفة والسبحة المتدلية بين يديه كأسلاك الاتصال بينه وبين الذات العلية. شيخ ومن حوله دراويشه يرتعون في معيته، رجل هو - أحيانا - من المجاذيب السائحين في الملكوت لا بأس. إن المطاريد لا تنقصهم الحيل يا بوي، وحيلهم كلها خطيرة، ولهم في تجمد قلوبهم وبرود أعصابهم بلاط ثابت يمشون فوقه بعزم شديد، دون أن يطرف لهم جفن يا حال. اسألني أنا عنهم يابوي.

كان «حرابة» قد ركب فرسه الأدهم وتلبسته شخصية عنترة بن شداد، فأخذ يصيح ويجمر ويتحسس الحصان فيرطع في المدى المتاح من الجبل ثم يرتد عائدا ونشطا بحصانه كلاعب الكرة يسخن قبل نزوله للملعب. أما الفرسان الأربعة فقد ركبوا هم الأخرين وأخذوا يصيحون في الولدان الذين سيمشون في الطليعة راجلين أن يسرعوا فالوقت قد حان، والشمس مختنقة كانت تلهث في محاولة لاسترجاع قرصها الأحمر الواقع بين سنامين متجاورين على ظهر الجبل متعاليين متحديين والقرص يصرخ بأعلى ألسنة اللهب، والأفق برمته يكاد يتفحم بالسحب

السوداء، ومع ذلك مشرخة الهلال كانت كأصابع الموز واقفة على مبعدة قليلة في بطن الأفق البعيد وكان يتحرك فيبدو مثل الكتكوت ينزع شيئا فشيئا قشر البيضة كتل من السحب البيضاء المغبرة المتكسرة. لحظتها صاح «حرابة» قائلا «قدامي يا رجال» فهبط فريق من الولدان المسلحين بالمطاوي والسنج والقضبان الحديدية مهمتهم فتح الطريق واستكشاف غوامضه وأسراره للمسارعة بإبلاغ القادمين وراءهم ليسرعوا بدورهم في الإرشاد، هؤلاء الولدان مدربون على اكتشاف المؤامرات والكمائن والعصابات يا بوي، ولد روامي يابوي أجارك الله منهم. يقدرون في التصرف النهائي عند اللزوم، إنهاء حياة رجل أو رجلين مصدر شك أهون عليهم من الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء.

إن هي إلا برهة وجيزة وهبط فريق من الولدان راكبي الحمير والبغال الحمولة والخيول السريعة العدو مهمتهم حمل الذخيرة الاحتياطية وحمل الرسائل الفورية عند تلقيها في منتصف الطريق من الراجلين المتقدمين فيكون سهلا على الخيول أن ترتد مسرعة لكي تعطل «حرابة» عن النزول، فتهبط به، تسربه من مكان خفي إلى مكان أخفى، دقائق معدودة وهبط «حرابة» يحوطه الفرسان الأربعة، اثنان على يمينه ويساره، وواحد أمامه والآخر خلفه مباشرة يتلقى عنه أي غدر محتمل. دقائق أخرى معدودة وهبطت فرقة من الخيالة بالكرابيج المخفية أما الطريق من مهبط الجبل إلى المكان المقصود فمحفوف بالعرس المسلح في مظهر خفي. وصل «حرابة» إلى دوار العمدة فوجده قاعدا بين بعض الطرابيش

المعوجة على ناحية وبينهم ثلاثة من الفلاحين. لم يكن «حرابة» يعرف أن هؤلاء الذين يجلس العمدة معهم هم المحضر التابع للمحكمة جاء يحجز على أحد الفلاحين وفاءً لضريبة أو أنطبه غرامة من غرامات الحكومة التي لا تفرغ على الدوام تكبل خلق الله بالقيود تحرمهم متعة الدنيا بالحال. أما الطربوش الثاني فإنه مهندس الري الذي جاء يعاقب بعض الناس على اعتداءات وهمية على أراضي الحكومة. وأما الطربوش الثالث فإنه لواحد مجهول من عباد الله تعرف به المحضر على مقهى مجاور للمحكمة في المدينة فاصطحبه في هذا المشوار الرسمي، إذ إن وجود أفندي آخر معه يقوي موقفه في نظر الناس ويجعل البرطيل مضاعفا لقسمته على اثنين. باختصار جاء به المحضر لينصب به على الناس لكن سوء الحظ جمع بينهم في تلك اللحظة من أجل الدرهم.

دوار العمدة كانت شبابيكه مفتوحة على البحري، لذا فقد كان «حرابة» وهو مقبل نحوهم ينظر إلى وجوههم ورقابهم. وعلى مبعدة قليلة أعطى الأمر لرجاله بالتوقف، وبأمر آخر توزعوا على الشبابيك مسرعة، ومن خلال قضبانها الحديدية المتشكلة على هيئة مربعات ودوائر ومستطيلات متداخلة سعت أرواح السابق على أرواح الجالسين من رقابهم وبطونهم. الذخيرة النارية متتالية متضاعفة كالمطر يصب نيرانا متلاحقة كبرق الرعد المخيف، فسقطوا جميعا جثثا هامدة. العمدة والثلاثة الطرابيش وخفيران وتملي غليان وبقر أجير، قبل أن تفيق سماء البلدة من دوي الانفجارات النارية كانت الخيول ارتدت مسرعة تكاد حوافرها لا تلمس الأرض، ومن خلفها يلتئم الطريق شيئا فشيئا فيتدفق فيه

العوام ويتعرف الحرس على بعضهم البعض يدفعون عن بعضهم البعض ما قد يلحق بهم من عدوان متوقع، ثم إنهم صاروا يذوبون في الطريق، بدأ الطريق يصفو من عكارتهم وتأهبت عائلة العمدة للم الحدود والصراخ وإرسال المراسيل هنا وهناك.

مثلما حدث في القتلة الأولى حدث هذه المرة. حضر طاقم من العربيات الجيب والخيول والرجال والكلاب طافوا بأطراف الجبل وبعض أحشائه المتاخمة للعمران شهورا طويلة دون أن يكشفوا عن شيء دون أن يعثرا على خيالهم أو في قلب الجبل سوقا شعبية كاملة كبيرة وثابتة تباع فيها جميع السلع والمطالب من المأكل والمشارب والملابس والنساء العائشات فإنها سوق الهوى والمتع وكل ما لا يوجد في أي سوق في أي بلد من بلاد القطر يا خال. إسمع ما أقوله لك وصدقني بدون كلام؛ احذر أن تتبس بحرف، أوصيك والزمان يوصيك أن تشبع نفسك من الدهشة عن الدهشة حتى لا يصيبك الخبل. إعلم يا بوي أنني رأيت كل ذلك بعيني رأسي ولمسته بيدي وجبيني وبطني وظهري ودماغي وكل عرق فيّ والله على ما أقول شهيد.

الله وكيل يا بوي، لم يعد من هذه الفرقة الهاجمة سوى نفر قليل. بعدها كفت الحكومة وصمتت، وجاءت الأخبار بأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة وبالإعدام فبقيت مجرد حبر على ورق سوف تأكله الفيران حقا في دواليب الحكومة في المحروسات الرسمية التي تندفن فيها بعون ربك كل القوانين التي تصدر في مصر المحروسة، نعم يا بوي، فليس يسري القانون في ديارنا إلا

على الغلابة والمساكين وأبناء السبيل، هي هكذا ديارنا منذ عهد آدم وحواء: حاميها حراميها.

عائلة العمدة يئست من العمدية كرهتها حيث لم يعد في رجالها من يصلح لحماية العمدية طلقة لطلقة ورجلا لرجل وجيلا بجيل، فإذا بهم يتقاعسون عن السعي وراء العمدية. فظفرت عائلة «حرابة» فاستردتها بفضل جهود من «حرابة» بدلها في اختيار واحد من عائلة أخواله في بلدة «دير الجبادلة»، وهي عائلة عصية مرهوبة الجانب، لكنها والحق يقال في حالها دائما، ولا تتدخل في شئون أحد. اختار «حرابة» خاله «عبدالكريم أبو عميلة» وضغط عليه حتى أرغمه على ترشيح نفسه في البرلمان عن دائرة البلدة وكان الشيخ «عبد الكريم أبو عميلة» مستنيرا وورعا وفيه تقوى حتى لقب بالشيخ مع أنه لم يتعمم في حياته ولم يدخل الأزهر وإن قرأ القرآن وخطب في المسجد مثل أفاضل الشيوخ والمعممين، وكان الرجل يأنس في نفسه القدرة على النجاح في الانتخابات لحسن سمعته وجانب عائلته المرهوب لكنه كان عازفا عن الدخول في معارك من أي نوع، ويعمل حسابا لوصية تركها جدهم القديم ـ الذي قيل إنه كان من مماليك السلطان الغوري ـ يوصيهم فيها بأن يبتعدوا عن سوق السياسة فلا يبرحوه طوال عمرهم، لكن الشيخ «عبد الكريم أبو عميلة» تحت ضغط «حرابة» المتواصل قرر ترشيح نفسه بالفعل. بالفعل فاز بالمباشرة بجولة انتخابية واحدة قام بها رجال «حرابة» وصحبته برسائل شفوية لرءوس العائلات، وكل رأس من هذه الرءوس يعلم علم اليقين أنه معرض للخطف ذات يوم، وهتك الحرمة حتى يدفع الفدية. ولذا ما إن تلقيه رسول «حرابة» حتى

يلتقيه الفرح والمتعة في نفس الوقت إذ إنه سيكون سعيدا غاية السعادة بتلقي رجاء «حرانة» وسيكون أكثر سعادة بتقبيله

بين يوم وليلة صار الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» بائنا عن الدائرة وارتمت العمدية تحت أقدام «حرابة» فشاطها بقدمه إلى أعلى كالكرة ثم تلقفها بيده وسلمها لابن عمه في حفل كبير، فقد حضر بنفسه حفل تنصيب ابن عمه «عبيدة» على العمدية، والعجيب يا بوي هذا الحفل شرفه بالحضور طرابيش تخينة من طرابيش الحكومة ولم يفطن أحد منهم ـ أو لعله لم يعلم أصلا ـ بأن هذا الولد المجدع الجالس بينهم من هدومه وقعدته رغم سماجته هو «حرانة» صاحب أكبر صيت بين مطاريد الجبل. ولم يكن أحد منهم ـ فضلا عن ذلك يابوي ـ يعرف أو يخطر على باله أن «حرانة» هذا الولد المفعوص هو الذي سيدير العمدية والدائرة الانتخابية من الجبل وليوصل صوته إلى البرلمان ويصل إلى «أبو عبد الناصر» نفسه فهكذا الحكام دائما يا بوي يحاربون اللصوص الكثرة الصغيرة لكنهم في داخليتهم في ذوات أنفسهم يحبونهم ويتمنون أن يصيروا من رجالهم. ألم تسمع بذلك اللص الظريف الذي أحبه السلطان وحاربه فلما لم يقدر على فريسته أتى به وعينه رئيس شرطته؟ جاء السلطان بلص يحارب به اللصوص، والسلطان يخصصها لنفسه فـمثلا ليسرق رجل واحد هو رئيس الشرطة خير من آلاف السارقين. وغاية الأمر يابوي أن كل سلطان يريد أن يؤمن ظهره بقوة وهو لن يجد هذه القوة وهذه الحماسة إلا عند عتاة اللصوص والمجرمين ممن يقدرون على سفك الدم دون أن يطرف لهم جفن يابوي. هذه هي الحقيقة يابوي فدعك من أي كلام آخر

الخامسة ـ يوم الفزع الأكبر

ها هو ذا «حرانة» قد صار في عز مجده يا بوي، وفي مقدوره أن يتزوج ابنة أحد الباشوات المصاحبين لخاله «عبد الكريم أبو هميلة» لكنه ـ ويا للعجب ـ تقدم ليخطب شقيقتي «سعدية» ولقد اتضح لي ويا للعجب أيضا ـ أنه خطبها إكراما لنفس أعمامي الفقهاء أولا، ولجمالها الفريد ثانيا، حيث إنها كانت ذات بشرتين على وجهها يابوي فتحت بشرتها السمراء القمحية بشرة أخرى حمراء كلون الورد تضفي على البشرة القمحية على الدوام. وقال لنا «حرانة» بالحرف الواحد يوم الخطوبة إنه خطب «سعدية» لأنها تجمع بين كرم الأصل وجمال الخلقة وحسن الخلق والسلوك والسمعة وهذا ما يضمن أصلا كريما لنسله القادم

وبالفعل يا خال، أكرم الله شقيقتي «سعدية» فأنجبت له ولدا وبنتا جميلين فتبارك الخلاق فيما خلق. كما أكرم شقيقتي «سعدية» فأنجبت لزوجها ولدا فرح به صاحبي «هليل» كأنه ابنه هو

وقد بات من الواضح لنا وللبلدة كلها يا خال أن الحياة في حضن شقيقتي «سعدية» قد طابت لـ «حرابة»، فركن إليها

واستحلافها إلى آخر الحدود، فبات لا يغادر خصمها إلا في أوقات معينة تستلزم وجوده في الجبل، أو حين يبلغه البريد أن في الجو غيامة

إلى أن كان يوم لا ردّه الله ولا أرانا وجهه ثانية أبدًا

كنا في ساعة القيالة و «هرابة» راقد في حضن زوجته القديمة مدخرا الليل كالعادة لحضن زوجته «سعدية»، إذ جاءه البريد بأن أقدام عربية وطأت أرض البلد متوجهة إلى دوار شيخ البلد وهو من عائلة أخرى بعيدة. فلماذا لم يتوجهوا لبيت العمدة؟ الأمر إذن فيه سر غامض وعلى «هرابة» أن يتخذ كامل احتياطاته. لما كان من «هرابة» إلا أن سحب نفسه من حضن زوجته واغتسل بسرعة ولبس ثيابه وأرسل في الحال نفرا من الخفراء النظاميين يتسقط الأخبار خلسة من دوار شيخ البلد. فعاد رسولهم لاهثا يبلغ «هرابة» أن خبر استقراره في البلدة قد وصل إلى الحكومة وأن المباحث جاءت تسأل فقط عن حقيقة الأمر لكن من الواضح أنهم جاءوا للقبض عليه بدليل وصول عربة سوداء محملة بالجنود المدججين بالسلاح!!

كان «هرابة» يتلقى هذا الخبر وهو راكب فرسه ورئه باب العرش ومن حوله الفرسان الأربعة راكبين، فما إن سمع الخبر حتى أزاح الباب وعبر الحمصى فانفلت منه خارجا وانفلتت وراءه خيول مرافقيه فسلكوا الطريق المتجه إلى خارج البلدة

و . . ه يا خال! واه.

أدركته عربة الشرطة السوداء يا خال، التي اتضح أنها غير الواقفة عند دوار شيخ البلد وأنها كانت كامنة في مكانها هنا تحسبا لخروجه. الجنود كانوا خائفين فأطلقوا على الخيول وابلا من الرصاص، فسقطت بعض الخيول على الأرض ومن بينها الأدهم حصان «هرابة». فنزل «هرابة» على الأرض يجري متخفيا من حلاوة الروح، فظل يجري وبعض الجنود وراءه وهو يضللهم ويروغ منهم في الحواري الضيقة وبين النخيل حتى وجد أمامه قمينة مبنية حديثا وطوابق الطوب لا تزال خضراء لم تشتعل تحتها النيران بعد.

شاهده الجنود المطاردون وهو ينحرف مستترا بهذه القمينة، فلما لاحقوه، وجدوا ثلاث قمائن متجاورة، تفصل بينها طرق ضيقة، لا تتسع لمرور شخص بينها وكان من الصعب عليهم أن يعرفوا أي طريق سلك، فلابد إذن أن يكون قد ذاب في الهواء، أو ابتلعته الأرض هكذا صاروا يقولون يا بوي، وهم يصفقون كفا على كف.

انشغلوا به فلم يتمكنوا من القبض على أحد من صحابه إذ هربوا جميعا يا بوي، لكن أمر «هرابة» كان مثيرا للغيظ يا بوي وكانوا جميعا كأنهم حبكوا من الحلف، فصاروا نسوانا، وهكذا انتشرت فرق من العسكر راحت تفتش القنوات والترع وجذوع النخيل، ويقف على كل قمينة طوب نفر من العسكر، وراح نفر آخر يفتش دور البلدة كلها دارا دارا وخُصًّا خصًّا وصندوقا صندوقا حتى غطيان الطلل المقلوبة على الأرض رفعوها ونظروا تحتها مفتشين

عن «خرابة»، أى والله يابوى فالحكومة حين تعيب تصبح أعمى من الخواجة «بينى»، الذى جاء يوما ليبيع الماء للصعايدة فى زجاجات، لم يسلم صاحب دار أو أحد المارين فى الشوارع من ضربهم، كانت مجزرة والله يابوى، ضرب فى ضرب فى ضرب، بدباشك البنادق وبالكرابيج والسوارق والجزم الميرى، ضرب غبى أعمى لا يرحم عجوزا ولا يشفق على مريض، والسؤال يتكرر مع كل ضربة «حرابة فين يا ولد؟» والجواب أيضا يتكرر. ما اعرفش! ما اعرفش! ما اعرفش انضربت البلدة كلها ضربا مبرحا لم ينج منه النساء ولا الفتيات ولا الأطفال.

عند دكان القماش الطوب أمسك العسكر بأحد أصحابها وظلوا يضربونه وهو يقول. ما اعرفش، حتى تعبوا من الضرب، فكتفوه وانهالوا جميعا عليه حتى لفظ أنفاسه، فانتقلوا إلى رجل آخر من أصحاب القماش وانهالوا عليه بالكرابيج السودانى وهو يقول. ما اعرفش، فلما أوشك يلفظ أنفاسه هو الآخر جاء طفله الصغير يصرخ ويلطم خديه قائلا للضارب «اترك أبى وأنا أريك مكان خرابة» فتركه وتقدم الطفل فأشار إلى قمينة الرجل الميت وقال. هنا فصار العسكر ينظرون إلى قمينة الطوب من كل ناحية فإذا هى مجرد بناء مسدود بالطين من كل ناحية. فتعجبوا من إشارة الطفل، وظنوه محتالا صغيرا يسرح بعقولهم فخط فيه المندى متقمط بالأحرمة «فين يا ولد؟»، فأشار الطفل مرتعشا إلى طاقة صغيرة مسدودة بالطين وقال. «هنا»، أخذ الضابط يتحسس الطاقة فوجد عليها طرية، فأشار إلى بعض الرجال أن يزيلوا هذا

الطين، فتقدم نفر من العسكر ونحروه فانفتح فى القمينة ثقب كبير يتسع لجسد كجسد «خرابة»، وتبين لهم أن «خرابة» لحظة أن كان يجرى لحق به الرجل الميت فأمسكه وسرب جسده كالثعلب من الخلف فإذا هو فى سرداب طويل معد لحطب النيران التى ستشتعل تحت هذا الطوب، ثم إن الرجل الميت أغلق عليه بالطين فى لمح البصر تاركا ثقوبا خفية يدخل منها الهواء.

نظروا جميعا فى ثقب السرداب فرأوا جسد «خرابة» ممددا كالثعبان، فجروه حتى أخرجوه، وفى الحال كتفوه، وهم يرعدون كالسماء، فى مقابل صراخ منتحب يرتفع أواره فى سماء البلدة ـ شحنوه فى عربة الشرطة وجروا به إلى دوار شيخ البلدة الذى كان منذ شهور قليلة قد نجح فى أن يركب لنفسه تليفونا خاصا من حر ماله ـ البلدة كلها من خلف العربة تلطم الخدود وتصرخ وتقذف العسكر بالطوب والحجارة وأقراص الجلة الطرية والشتائم المقذعة، والعسكر يهددونهم بإطلاق الرصاص فى الهواء فيرتد روع الناس ويبهالون عليهم بالطوب حتى نفدت ذخيرة العسكر فاستعملوا العصى الغليظة والكرابيج.

فى دوار شيخ البلدة وقف الحكمدار كالزعزوع الأجرودى يدوح ويجئ فى فرح شديد، وجهه أصفر كالليمونة وعلى شفتيه الدقيقتين شارب تركى غشيم. العسكر وضعوا «حرابة» أمامه مكتوف اليدين والقدمين فبدا صغير الحجم مشكل لم يتوقعه أحد، بدا صبيا صغيرا غرا نظر إليه الحكمدار بغيظ قائلا فى سخرية «إنت بقى حرابة؟» إنت؟». فرد عليه «خرابة» قائلا «ولسه حرابة»

وسأبقى «حراية»!». فما كان من الحكمدار إلا أن بصق في وجهه يابوي، وقال بغيظ «ماتردش على بالوطني يا ابن القحبة!». فإذا بـ «حرانة» يرد عليه البصقة بأشد منها حتى ملأت وجه الحكمدار وقال «اللوطي هو انت والقحبة هي أمك!». الحكمدار صار ينتفض كالجدي المذبوح يقول في شعور بالخوف «تشتمني وتبصق في وجهي يالوطي؟» ـ رد «حرانة» على الفور «ما لوطي إلا أنت».

ثمة غفير نظامي كان يقف بجوار «حراية» حاملا بندقيته ذاهلا لا يعرف ماذا يفعل، وإذا بالحكمدار يصرخ فيه قائلا «افرغ فيه الرصاص ياغفير!» فوقف الغفير ذاهلا يابوي، فتح فمه مرددا كالأبله «هه!»، في حين ينتفض الحكمدار مواصلا الصراخ فيه «إني آمرك أن تفرغ فيه الرصاص». تلجلج الغفير المسكين، ماذا يفعل يابوي؟ صار كالفأر في المصيدة يلتفت حواليه يستغيث بالله في صمت، وأخيرا خلع البندقية من كتفه وتقدم بها نحو الحكمدار قائلا

«لا أقدر ياسعادة البيه! هذه بندقيتكم، خذوها! وهذه ليدتكم أيضا.خذوها!» ووضعهما على الترابيزة ومضى. فصار الحكمدار يضرب في «حراية» ببوز حذائه قائلا «تشتمني يا كلب!» و «حراية» يرد عليه قائلا «ماكلب إلا أنت وأبوك» طاش صواب الحكمدار يا خال، نزع مسدسه من خاصرته، وأفرغ في قلب «حراية»ست رصاصات كومته على الأرض قتيلا

واه يابوي على منظرك يا حرانة وأنت تنتفض في قيدك كالذبيحة من حلاوة الروح والدم ينزف منك على الأرض.

الجنون أصاب الناس كلهم يا خال، فاندفعوا صارخين مولولين، واندفع شيخ البلدة فأمسك بالتليفون وصاح في كل ذعر «يامديرية! أنا قبضت على الشقي المعروف حراية ولكن سيادة الحكمدار قتله الآن بست رصاصات! إلحقني بي يا مديرية قبل أن تقوم القيامة!» فقفز الحكمدار وانتزع منه السماعة وصار يجعر فيها: «أنا الحكمدار! أنقذونا حالا! أرسلوا لنا قوة كبيرة! البلدة كلها هائجة علينا تضرب فينا بالرصاص حتى اسمعوا!»، وصار يضرب الرصاص بمسدسه في الهواء.

هاج الناس يا بوي هيجانا كبيرا وكانوا يلتمون أمام الدوار في قوة متراكبة. من بين هذا الهرج والمرج لمحت الجموع من بينها رجلا رفيع القوام ملثما يضع يده في فتحة سيالته، اقتحم حجرة الدوار ونزع من جنبه من تحت ثيابه مدفعا رشاشا صوبه بسرعة مذهلة في صدر الحكمدار وصب عليه النار فأرداه قتيلا في الحال يتخبط في دمائه، ثم اندفع يجري داخل الدار ليوهم أنه سيختفي في قاعاتها الداخلية وهو في حقيقة الأمر سيهرب من بابها الخلفي المطل على جرن موصول بالحقول البعيدة المتاخمة للجبل.

العسكر هاجوا وماجوا وتدفقوا جميعا على الحجرة ينظرون في أمر حكمدارهم ووابل من الرصاص ينهال عليهم من كل فتحة في الحائط حتى تكومت جثثهم فوق بعضها بما فيهم شيخ البلد الخائن. أما نحن أهل «خراية» وسببه فقد جرينا هنا وهناك نبحث عن ذلك الرجل العظيم الرفيع القوام الملثم الذي أوقع بحكمدار الحكومة وشيخ بلدنا وبعض الضباط والعسكر في مقابل «حراية». لفينا حول الدار، فوجئنا بفارس يمتطي ظهر جواده

تقف قرب الباب كأنه ينتظر أحدا ثم خرجت بعد برهة ـ ويا للعجب ـ امرأة تخرج من الباب الخلفي منكوشة الشعر مصفرة الوجه تكاد من فرط الاضطراب تكفئ على الأرض يا بوي، بل إنها انكفأت بالفعل ونهضت بسرعة تجري نحو الفارس الواقف بعيدا بحصانه. شئ إلهي جذبني إليها يا خال، فجريت نحوها كشفا وجهها فإذا هي أختي «سعدية»!! واه يابوي، أختي «سعدية» كانت هي الرجل الملثم الذي أوقع بالعسكر؟ واه يابوي كيف أصدق هذا؟ أمنيك هذه الشجاعة كلها وهذه المرجلة كلها يا سعدية؟ الله يخرب عقلك يابنت! هل ورثت ذلك من أهلنا أم أن حراية عمر فيك رجولته عن حق؟

لحقت بها ياخال وأنا من شدة إعجابي بها وشدة خفقان قلبي خوفا عليها أكاد أقبل الأرض التي تجري عليها. حين وصلت إليها عند الحصان استصغرت نفسي جنبها والله يا بوي ووجدتني أتلجلج ولا أعرف كيف أتكلم معها. وحق النبي أشرف خليقة الله لقد غاب صوتي كما يغيب لحظة أتكلم مع رجل واعر كبير المقام. وكانت هي ـ شأن كبار المقام ـ قد أسلمت يديها للفارس الذي أركبها خلفه. وقد ظهر لي أنها ستتجاهلني وتمضي غير عابئة بي، فصرخت بكل عزمي «سعدية! رايحة فين؟» قالت: «الجبل ياروحي! لم يعد لي مكان سواه. سوف أحتل مكان خرابة حتى آخذ بثاره كاملا ممن وشوا به! لا تخشوا علي من شئ فأنا رجل كما تعرف والآن صرت أرجل مما تعرفون». ثم هزت ساقيها تستحث الحصان على المشي فحركه الفارس فانطلق يسبق الريح في اتجاه الجبل

السادسة ـ يوم الطوفان

كالسكران هرولت جريا مولولا أشق الثياب أصوصو في الشوارع المبدورة كلها بحق الله، المذهل الصارخ المولول، فما يدري أحد علام يصرخ جاره وعلى من يولول. تقول قامت القيامة يا بوي وتحقق قول عمي الفقيه، إذ انفتحت كل مرضع عما أرضعت. أطفال صغار يزحفون على الأرض يصرخون لله ما يغيثهم يا خال، الأقدام الداهلة تدوسهم تعجنهم وتمضي متعثرة فيضيع صراخ اللحم المدهوس في صراخ عمومي آت من عموم النواحي فيه النواح والصرخات والعراك والضرب والرصاص. خلق كثيرون يروحون ويجيئون في كل مكان من كل مكان إلى كل مكان ولا أحد يعرف ماذا يفعل ماذا يحدث ماذا تخبئ الأقدار. لو رأيتهم لظننتهم جماعة كثيرة وهم كل واحد منهم في واد يصطدم بأخيه بالحائط بالسائر يدوس فوق ابنه وقرابته وهو لا يدري ماذا يفعل. من حين لحين يدب فيهم ذعر مفاجئ وكبير فإذا هم طوب يجري يتقاذف يتصادم. إذا عربات الكبسون والكافوري تدخل البلدة مشحونة بالعسكر المسلحين بالعصي والدروع والقنابل والبنادق. وحيث أنت داهل في طريقك ناسيا ماذا أنت

وماذا كنت فعدهمك وقوف العربة وتقافز العسكر منها كالقرود المتوحشة تتجمع في سرعة الطيور تهجم عليك صفا واحدا بالعصي والقنابل والرصاص، كل واحد من الحلق وحظه يا حال، منهم من مات برصاصة، ومن لم يمت بعشر رصاصات، ومن مات بركلة بوكس في الجنب، ومن مات من العصة

هجت السماء يابوي وارتجت السماء بالأصوات يا بوي، بدوي الزلازل يا بوي، نبحت الكلاب في عواء صارخ يا بوي، انذعر الحمام واليمام والغربان والحدات. لعلعت طلقات المدافع الرشاشة تحلف اليمين يا بوي أنها صبغت السماء بلون جهنم وارتفعت ألسنة اللهب في كل الأركان النابتة من خيمة السماء وكانت أسراب الحمام الملثاث - بنفس الحالة المعروفة عنه يابوي - تتكفل بنقل بريد اللهب على جناحيه إلى أكوام القش والحطب، وأقراص الجلة فوق أسطح الدور، وفي الأجران، وعلى شواشي النخيل الجاف، والأشجار اليابسة. وكان صوت طقطقة النيران يبتلع كافة الأصوات يحول البلدة في رمشة السماء حتى صرنا داخل كرة من النيران الحمراء ننتظر وصول معجزة إلهية يا حال، والواحد منا ماشي يطوح وجهه يمينا وشمالا كالفقيه عندما يقرأ تحاشيا لألسنة النار الصغيرة التي كانت تتطاير في الهواء بسرعة متمهلة كالريش الملون كحلوى عزل البنات أو تقاليبها سوجهك علقت بحنفانك التي تلبسها يابوي.

الله وكيل يابوي، الحلق أماتت مرة واحدة، كيف يابوي؟ أشهد يابوي والله وكيل أمس ما كنت أراهم يفيقون إلا حينما يتمكن

واحد من حماق عسكري، واه يا بوي مما يجري لحظتها تقول كلب أمسك بقطعة عظم وقبض عليها فصارت هي وعمره سواء؟ مذ وحق الله ما رأيته ياحال، كل الداهسين ما إن يروا عسكريا في قبضة الأهالي حتى يفيقوا فجأة ويرتموا فوقه نهشا وتمزيقا، يظهر يا حال أن الأهالي حين ذاقوا طعم لحم الحكومة وجدوه لذيذا فأصابهم السعار وركبهم جنون العرقان أو قل فوقان الجنون وقالت أنيابهم هات يا حكومة لحمك الطري الملفوف من زمنا لناكله ونقرمشه، هات لحمك يا حكومة هات فنحن أولى بلحم ثوره

تحلف اليمين يا حال، أن جميع ما كان في أيدي العسكر من سلاح خطفته الأهالي - أما جثث العسكر فواه عليها وعلى ماجرى لها، يعز على الفائت أن يرى جثة بثياب صفراء دون أن يحرقها، ولم يعد يميز جثث الأهالي من جثث الحكومة سوى الجزمة الميري في الأرجل، فكل من وجد الأهالي في قدميه جزمة ميري حملوه وألقوا بجثته في الحرائق التي صارت متجاورة متلاحمة لا أمل في مقاومتها

الله وكيل يا بوي، لو كنت مكاني في قلب هذه الأتون لأيقنت أن البلدة فانية حيث الكل في غيبوبة يائسة. ولابد أن ملائكة من السماء اخترقت خيمة الجحيم ونزلت بخراطيم المياه والبلاليص حتى أطفأت النيران كلها، لكننا عدنا من تشردنا السوين في البلاد والغيطان المجاورة لنبحث تحت أنقاضنا عن بقايا متاع، فلا نجد إلا بقايا لهب مشتعل وركام سواد متفحم.

السابعة ـ يوم الطلوع من الهديم

الناس أصبحوا يعثرون على ذويهم بالصدفة والله يا نوري يتصادف أن يكون العجوز ماشيا في دهوك بعد بضعة أيام، لا يعرف أين يذهب بل لا يعرف نفسه فإذا بابنه أو أحد أقاربه يلتقيه على الطريق في بلدة بعيدة فيأتي به. أما أنا فحينما أفقت وانتصبت من رأسي ومن عيني خيمة الجحيم الحمراء المغبرة بدخان أسود، وبدأ الهاتف يجيبني ويقول لي إمشي إلى دار وأهل يجب أن أسأل عنهم وأعرف المصير الذي آلوا إليه. كنت لمحتها كمشاهد في حضن الجبل السفلي بين عشرات من العرايا المجروحين المليئة أجسادهم بالقروح والتهاليب. وكنت أتذكر أنني شاركت في إطفاء الحرائق التي لابد أنها نشبت في دارنا هي الأخرى، رغلت من نفسي آخر رغل والله يانوري، جاءتني وأرغ يودي على قتل نفسي في التو واللحظة قبل أن أعرف أي خبر. تذكرت أن المعسكر حين طاردونا جريت مع الداخلين حتى وصلنا إلى أطراف البلدة فقطعت علينا الحرائق طريقنا من كل ناحية. فطردت هذا الهاتف وقلت لنفسي إذا كانت أختي مسعدية، هجمت بمقودها على الحكومة وجندلت عساكرها بمدفع رشاش فإنني يجب أن أمشي على

قدمي وأكون رجلا يستطيع الوقوف أمام الحرائق والأخطار المؤسفة. كنت أجري نحو النار والطريق يلاحقني ويلحظ المحطات فأعود إلى الوراء فألاحظ أكثر فأعود ثانية لأدخل حارة يتضح بعد برهة أنها ليست حارتنا.

مكثت على ذلك من الضحى حتى أذان العصر أخبط في البلدة تخبطا دون أن أعثر لحارتنا على أثر. منظر البلدة قد تغير يا خال إذ أن دورا احترقت بكاملها على الجانبين وغيرت وجه الشارع، ودورا انهدمت فوق دور فسدت الشارع، حواري انسدت من ناحية وتم فتحها من نواح أخرى فنشأت حارات جديدة لم نكن نعرفها. حواري أخرى كان بينها وبين بعضها مسافات كبيرة مشيها في تلك ساعة أصبحت داخلة في بعضها. التقاني صاحبي «حسن» أجير حلاقتي مغبرا ذاهلا وكان هو يجر بعض الجمال المحملة بالطوب. فتركها تمضي إلى وجهتها المعلومة وجرى نحوي باحضني بالحضن يقول «دوختنا يابو العم الأهي ربما يدوخك' يومان ونحن نسأل عنك في كل مكان' خفنا أن تكون ضعت في النيران مع الذين التهمتهم الحرائق! أو دفنت تحت الهديم! وقلنا لعله هرب مع الذين هربوا من مدافع العسكر وقنابلهم إلى بلاد بعيدة'»

قلت وأنا أبكي من كل عين حفان «مضى على الحريق إذن يومان ياحوي؟» قال «سلامة عقلك! مضى يومان وليلتان! تعال، تعال!». قلت ذاهلا وأنا أمضي معه كطفل عثر على أبيه في غربة

موحشة. «ألا تعرف أين ذهبت دارنا يا مليل يا خوي؟» ضحك بعين دامعة وأشار نحو كومة هديم على بعد حارتين بين بضع جدران تقف وحدها عريانة وقال. «هذه داركم فلا تأمل فيها الآن! خلي عوضك على الله؟ لابد أنه سيعوضك! فكن صادق الإيمان ولا تحزن على ما حدث!». وقعت من طولي يا خال، رميت نفسي على الأرض، صرت أمرمغ رأسي في التراب وأصرخ بعزم ما في من ألم «أمي! أمي! أمي! أمي». قبض «مليل» على كتفي ورمحني صائحا: «امسك نفسك يا جدع فأمك بخير وأخوك أيضا بخير وهما عندنا الآن في دارنا! كان أبي عند الحريق قرب دارو حملته لعود ليحفظني من النيران! فلما شبكت النيران في داركم كان هو أكبر المطفئين وكنت وحدي أطفئ النار التي شبكت في دارنا من الناحية البحرية ولم ينفعني سوى الطلمبة في حوش الدار! مندية بالطشوت والطين؛ في ظرف ساعات تمكنا من إزالة أحمال القش والحطب على سطح دارنا ودور الجيران التي لم تلحقها النيران! ولولا أننا هدمنا الجدران فوق الخشب والحطب المحترق ما نجونا! ولقد عاد أبي بحماته وأخيه إلى دارنا؟ وأنا الآن ذاهب بهما الطوب لترميم الجدران المتهدمة ترميما مؤقتا»..

تلقف قلبي هذه الكلمات يا بوي، كما تتلقف الأرض الشراقي قطرات الغيث، فاستكن قلبي في صدري قليلا، لكنني بقيت أولول وأشد خلقاتي أكاد أمزق ما على فيها، فلكزني «مليل» قائلا «لماذا تبكي يا جدع مادام الله نجاك ونجى أمك وأخوتك؟» قلت

باكيا: «الدار يا مليل! كيف أبنيها من جديد بعدما انهد حيلها؟». قال «مليل» بكل بساطة «مثلما بنيتموها في الأول تبنيها ثانية بإذن الله!». جعرت من جوف بطني «كيف يا مليل كيف.. من يده في الماء ليس كمن يده في النار!» قال «مليل» وهو يغمزني في كتفي «الحكومة سوف تساعد الخلق يا جدع. أتظن أنها تتركهم هكذا بعد أن بهدلتهم كل هذه البهدلة! الحكومة يجب أن تدفع العداق عشرا». شوحت في وجهه بغيظ «حكومة مين يابو العم! الحكومة التي تحرقنا لا تساعدنا على القيام ثانية!». قال «الحكومة لم تحرقنا يا جدع؟ الحمد لله أن الحكومة لم تحرقنا وحدها! الذي أحرقنا بحق وحقيقي هم أهل المشير!» تسمرت في الأرض مرتعشا يا خال! أعماك مشيرا غيره!» ووضع يده على كتفي يستحثني على السير قبل أن تتفرق الجمال وتضيع من النظر.

لكنني – تحلف اليمين يا بوي – تسمرت في الأرض وشعرت أن شواكيش غليظة تدق فوق رأسي تريد ألا تكف عن الدق إلا بعد أن تغطس رأسي كلها في الأرض كالمسمار في الخشب، قلت لصاحبي بفحيح مرتعش ينتفض بالخوف والذعر «ما دخل أهل المشير في هذه المسألة يابو العم؟ هل داست لهم بلدتنا على طرف!» قال صاحبي. «اتضح يا جدع أن الحكمدار المقتول أصله من بلدة المشير وعلى صلة قربى متينة به! ولهذا كان الحكمدار منفوخا وفعل ما فعل في حراثة وعيباء»..

يوه يوه يوه! المسألة هكذا إذن يابوي!.. قلت وقد اقشعر بدني من الرعب «مسألة مادامت هكذا فإنسا بعون الله مقضي علينا قل علينا يا رحمن يا رحيم! وهل نحن على مقاس المشير يابوي؟ إن مأمورا في مركز يستطيع أن ينفينا من المغرب لو أراد ويمحقنا العافية! فأين نروح من المشير يا بوي ومع أهله الذين طلعوا من المنيا وضموا الصعيد كله تحت جناحهم؟»

أردت أن أمشي مع صاحبي لكنني لم أستطع نزع القدم واحدة من الأرض، فصحت في صاحبي بشيء من القوة كأنني اكتشفت أمرا خطيرا غاب عن بال صاحبي. «كيف يا خوي تقول هذا الكلام؟ ألسنا نحن الأسايطة تبع الرئيس أبو عبد الناصر يا خوي؟ هل يتجرأ المشير على أهل الرئيس؟ كيف يابو خالة؟» إن المشير له عائلة كبيرة في المنيا وفي كل مكان في الصعيد؛ أما الرئيس فليس له عائلة! لا في أسيوط ولا في أي مكان غير إخوته الذين يعيشون على مقربة منه». قلت مشوحا في وجهه أنا الآخر «كيف يابو خالة! إننا كلنا أهل الرئيس وعائلته؛ مصر كلها أهله وعائلته؛ وهو لا يرضى أن يحصل ما حصل لنا!» شدني صاحبي من ذراعي في استحقار واستصغار لشأني «رد هذا كلام الجرانين يا جدع! فضك منه. فأبو عبد الناصر مسكين مثلما كان الله في عونه! ألم تسمع ما يقوله بعض الناس في نواحينا أن المشير هو الذي يسند الرئيس! ويستطيع نزع الرئاسة منه وقتما يشاء؛ لكنه لن يفعل لأنه والرئيس أصدقاء عمر طويل وبين أولادهما حب وغرام!»

قلت: «نعم أسمع! لكن الذي يقول هذا الكلام يقوله من تحت لسانه ولا يجرؤ على التصريح به! نحن لا نعرف غير الرئيس وحده يا أبو خالة! نشكو إليه حالنا وما حل بنا من خراب!» شدني «قليل» صاحبي بقوة قائلا «اشتكي لله فلن ينفعك أحد سواه! لو كانت الشكوى لغيره تفيد لنفعت جثث ووجوه الحكام كلهم بورق الشكاوى! امش ياجدع امش وخليك عاقلا! فأيام الملك والإنجليز لم تذهب ولكن اسمها هو الذي تغير؛ الأمر له من قبل ومن بعد!»

قلت وأنا أنطلع من الأرض بسهولة «عيب الشكوى لله إنها لا تأتي بنتيجة يا أبو خالة! إن الله عادل وعظيم أي نعم ولكن المصيبة أنه يؤجل كل الحسابات إلى يوم القيامة؛ فالواجب أن نأخذ حقنا بأيدينا يا أبو خالة! هل نعصي الله! إشمعنى هم عصوه؛ أقول لك: فلنفعل أفاعيلهم! وحينئذ مثل يوم القيامة أمام الله نقول له يامولانا هم فعلوا بنا كذا وكذا فكان لابد أن نرد عدوانهم بمثله على الأقل وهم أقوياء عنا يامولانا ومهما فعلنا بهم لا نفعل ربع مافعلوه بنا؛ فإذا لم يصدقنا حلفنا له بالله العظيم وبالقرآن المجيد أننا لم نكذب عليه!»

همزني في ذراعي غمزة مفاجئة وقال يستحثني على المشي «أهم شيء الآن هو أن تراك أمك وتطمئن عليك أختك هدية!»

مضيت معه بإخلاص؛ وحماسي الهائف قمصحت بسرعة «أولاد حرامية! ماذا حل بهم؟» انفجر صاحبي «قليل» في الضحك كمن

يرى أمامه مسخة. قلت مغتاظا «علام تضحك يا بو العم!» قال وهو يطبطب على ظهري بحنو وفي صوته شفقة كبيرة على حالي: «لا حول الله يارب! حدث لعقلك شيء يا حسن! جسمك سليم فهل شبكت النار في صندوق دماغك الجواني!» قلت فاغرا فاهي من الدهشة «كيف يابوي!» قال بجدية تقطر تقول لي إني كنت طول هذا الزمن! قل لي من الذي كان يحكيلك في الجبل أو في مكان بعيد كل هذا الوقت؟ كيف تنسى الأمانة التي أوصتك بها أمك سعدية ساعة حبسها وحين قالت لك خلّ بالك من العيال!»

حرقني الكلام يابوي في قلبي عيني تكب الدمع مدرارا على صدري، ولساني العاجز عن النطق يتلوى في حنكي قائلا ـ القصد محاولا أن أقول «معك الحق ياهليّل؛ معك الحق وحق هذه الليلة ومساها أنني لا أعرف أين كنت نحيت! ماذا فعلت! كل ما في دماغي الآن أنني كنت في قلب حريق يزحف بي من مكان لمكان! عقلي الآن يكاد يكون مشى من دماغي! ألا تعرف أين ذهب ياهليّل يا خوي! أيكون قد وقع مني في قلب الهول الكبير ياهليل؛ قلبي يحدثني أن القيامة قامت ياهليّل وأننا من أهل الجنة الحمراء؛ قلبي يحدثني أننا ناس طيبون ولهذا نجونا من الهول ونذهب الآن إلى موضع الموازين ليعرفوا ماذا بقي علينا لله من ديون فندفعها أو نأخذها مصاريف حبس في أحد السجون الواقعة في المنطقة الفاصلة بين جهنم والجنة القيماء!»

قال هليّل ببساطة وثقة «عقلك الآن مدفون تحت هديم داركم». وصمصم بشفتيه متصعبا ثم سحبني فمشينا صامتين

لبرهة طويلة ثم دهمنا الهول المفاجئ: عربات مصفحة وعربات إسعاف وزمامير وأجراس تصلصل وخيول يركبها عسكر بطرابيش وبرانيط وطاسات نحاسية. أراد «هليّل» أن يحششني سحبني قائلا «الحكومة تنقل الجثث من تحت الأنقاض ورماد الحرائق تذهب بها إلى كردون نصبوه خارج البندة لفرز الجثث! فالجثث التي تفحمت وتمزقت يكومونها على جنب! والجثث التي بقي فيها شيء يدل عليها على جنب! هكذا يفعلون من صبيحة ربنا وهذه الإسعاف طالبوها من البارحة من أجل ناس كانت لا تزال فيها الروح! رمانها الآن قد فارقتهم! ولن يهوب أصحابها من عربة الإسعاف إلا البهدلة والغربة. وقانا الله شر فظاعة غربة الجثة؛ فهي أشد والله من غربة الروح يا جدع!» وتصعّب «هليل» وصمصم بشفتيه قائلا «ولكن بالله يا جدع؛ مع من ستحقق الحكومة الشاطرة هذه؛ الحكومة أم الطرابيش والأقمطة الصفراء! مع من ستحقق هذه الحكومة التي تموج الطرابيش على ناصية وتحكم بأربع سنين! أخذوا جثة حكمدارهم وجثث عسكرهم كلها البارحة ولن يتعرفوا على باقي جثث العسكر التي أكلتها النيران!».

الدموع رجعت تهطل من جديد يا خال فيما صرت أردد «ما قلت لي أولاد حراية أين ذهبوا وبلدهم ماذا دهمها». مسح دموعه بكمه الواسع وحضنني قائلا «إهدأ وسأقول لك كل شيء!» ثم تحدرت كلماته تحكي لي العجاب. «النار ـ تخيل يا جدع ـ ماحرقت على الاقتراب من دار حراية ولابد أنها هي الأخرى

تحاف وبهذا خشيت بأس خرابة! فاحترمت دياره! وانأت بنفسها بعيدا عن الجدران الواطئة التي كانت شواشي العش على رأسها تصطدم بطلقات الرصاص! والعمائم المشتعلة تهوى فوقها موهوجة! وديار خرابة كما تعلم يحميها ظهر الجبل! إذ هي تقع خلفه بين مجموعة من الدور بناها أصحابها من عائلة خرابة على مشارف أراضيهم الزراعية فكان الجبل يصد اللهب بصدره! وحين خمدت النيران تماما صباح ذلك اليوم، وبدأت السماء تغسل نفسها من بطع الجحيم، وسحب الغبار والدخان المحترق، حيث ساعدت الأشجار العالية التي لا نهاية لها، والزروع الكثيرة على استنشاق أنفاسها وصار من الممكن أن يمشي الناس في الطرقات، كان القلق قد وصل بأمك إلى منتهاه فراحت تصوت وتلطم وتجعر طالبة خبرا عنك وعن أولاد خرابة إذ أن الحريق لم يكن في نظرها شيء من لحظة ما وصلها خبر القبض على خرابة أما لحظة أن وصلها خبر مصرعه فكانت لحظة الموت للعالم أجمع، ولقد ماتت بالفعل مرات عديدة! وربت فيها الروح طالبة أولاد خرابة، فذهبت بصحبة أبى إلى ديار خرابة وصباح اليوم عن الشروق فالتقتنا زوجة خرابة الأولى في احتفال كبير وأكرمتنا آخر كرم وغادرت جميع النساء العربيات خارجة إلينا متعصبة بالشاش الأسود غارقة في السواد إلا وجهها الكبير الأبيض كالرغيف الفلاحي المرحرح، بعينين واسعتين زرقاوين في قلبهما كرتان صغيرتان من سواد الثوب والشاش والليالي التي قضاها حزانة معيبا عنها في أعماق الجبل، كانت جميلة كالبدر ليلة تمامه! قوية كثور معلوف، مسرجلة

كشبح قبيلة، قالت لأمك بكل هدوء واتزان - ناسية أنها أم صرتها - وبطوبة الدمع في عينيها وشفتيها كأوراق الورد تتشرب قطرات الندى لتوها: إن سعدية قد أصبحت اليوم في مركز خرابة بالنسبة لأهله والعائلة كلها! إنها هي التي سبقت كل رجال العائلة وفتياتها لتمسح عن العائلة عارا لم تكن تمحوه السنوات وإن طالت! وكتب على هذه العائلة أن تبقى إلى نهاية العمر مسموعة حاضرة في الكبيرة والصغيرة، سعدية حقنت عيالنا كلهم بحقنة الرجولية والشهامة والفداء ستظل في دم العيال تصرخ في العروق إذا كانت امرأة جدكم خرابة قد ثأرت له من الحكومة نفسها في عقر دارها في أحصن حصين فيها فماذا ينتظر منا نحن يا رجال ويا شباب؟ هي لقد فجأت العائلة كلها بهذا الفعل العظيم وإني لواثقة أن زوجي خرابة حين أحبها وتزوجها فوقي إنما كان ذلك بوحي إلهي؛ إن خرابة ليس يختار أي أحد! من يتزوجها خرابة لابد أن تكون داهية من أعظم الدواهي، إن سعدية لم تحدثكم عن شروط عقد الزواج الذي تم بينها وبين خرابة وهو عقد آخر غير الذي قرىء عليكم ليلة العرس فمن بين شروطه الاتفاق على تنفيذ الثأر في حموته في الحال وإن من تواتيها فرصة المبادرة بالعملية عليها أن تلبس ثياب خرابة وشخصيته أبد العمر ولها أن تحتل مركزه تحمل مكانته تحل محله في الجبل! إني ضعفت لبرهة قصيرة باعتباري أم تعز أولادها وإنني لنادمة عليها الآن كل الندم! إني لأحسد سعدية قدر ما أحببتها! لقد سرقت مجدي الذي قضيت العمر أحلم به! أن

أكون أول امرأة تمتطي صهوة الجبل تسكنه بين المطاريد الرجال!
سعدية الآن هي الرجل وعيالها في عهدتي أنا، هي أمانة لن أفرط فيها لأي سبب من الأسباب. إنهم لابد أن يكونوا عيال حرابة بحق وحقيقي ولن يكونوا كذلك إلا أن تربوا في عهدتي تحت رعايتي أسقيهم أباهم! وأهلا وسهلا بك أنت الأخرى يا أم العالية! والله لو أكرمتني يا أم العالية وأكرمت روح أستك تحت ثراه لبقيت معنا في هذه الدار أنت وابنك إلى آخر الأيام!»

فلما سمع «هليّل» وأبوه هذا الكلام الطيب انصرفا على وعد بإحضار جدة الأولاد لكي تراهم وتطمئن بنفسها.

ثم قال «هليّل» وهو يعود بي وراء الجمال إلى الكوعة التي هي دارهم الكبيرة.

- «وعلى كل حال فالحمد لله أنك ظهرت لتذهب معنا لرؤية أولاد أختك».

وكان واضحا أن دارهم هي الأخرى قد تغيرت.

أبواب الجنة ثمانية

الأول ـ قيام العَجَل

استقبلتنا «بهانة» زوجة «حرابة» الأولى ففتحت لنا المندرة الكبيرة وتربعت أمامنا تستقبل وفودًا من الرجال والشبان من العائلة والعائلات المجاورة. جيء بالعشاء خروفا مذبوحا لتوه، فصرنا نأكل ونتفرج على أولاد أختي يمرحون في الدار لاهين، غير عابئين حتى بوجودنا فاستعجبت والله يا خال. واستعجبت أمي، كما استعجب «هليّل» وأبوه من الأولاد الذين قتل أبوهم منذ أيام ونفيت أمهم طريدة إلى الجبل. ومع ذلك يمرحون. مع الأولاد يلعبون يغنون. وأمي ترى ذلك فتزداد إشفاقا عليهم، وتمسح من عينيها الدموع. لكنها في النهاية مسحت دموعها وصارت تتكلم مع «بهانة» في أمور الدنيا والدين، وألاعيب الزمان، وسالفة الأقدار، وغدر الأيام، وعندما أذنت العشاء قامت لتصلي. فقامت «بهانة» لتصلي خلفها، وقمنا نحن لننصرف فحلفت «بهانة» بتربة العزيز الغالي، أن أمي لا ترجع معنا وأنها تظل مقيمة في ديار «حرابة» حتى ننتهي من بناء دارنا على الأقل من مهلنا

«بهانة» شخصية ليس من السهل تضييع حلفانها يا بوي، كما أنه ليس من الصواب تضييعه وليس من العقل مجادلتها في أمر

فضت دماعها دونه. فسلمت عليها ومضيت فسلمت على أمي وشعرت وأنا أطيل السلام عليها أني أودعها لغيبة طويلة لا أعرف عنها شيئا بعد لكني سوف أغيب. قلت لها باكيا: «ادع لي يا أمه» فانبرت تدعو وهي تقيم الصلاة في نفس اللحظة وتخلط كلام الدعاء بكلام الإقامة

في طريق العودة، ونحن نلف حول جذع الجبل في سفحه السحيق كان القمر يشجع نفسه على الظهور شيئا فشيئا، وينسحب من فوق شواشي السحاب، لينظر متلصصا، ويعود فيتخفى وراء موجات من الدخان الشبيهة بالجبال الرمادية. فلما لم يجد القمر أحدا في سماء البلدة، أظهر جزءاً كبيرا من كتفه، فصرنا نرى القيعان الرفيعة، والصخور المتجمعة، والحفر المتكررة. والد «هليل» استخلف صخرة كبيرة كأنها أصبع في قدم الجبل، وجلس فوقها، فجلسنا جواره وورع سجايره، وجعلنا نبحث في صمت. وقتها كنت أشعر أن الدنيا تجر أسيي وتدخل معي في حوار مأساوي ثقيل الدم وأن أياما من النحوس تريد أن تتحالف معي على العيش والملح، وكانت الشريحة المقوسة من كتف القمر تريد أن تواسيني وتكلمني طالعة نازلة مع أمواج السحاب. تخيلتها والله تقول لي: «عيشك مطروح ها هنا يا حسن يا ولد أبي ضب فارحل فأيام النحوس لن تني تطاردك في هذا البلد وليس أمامك سوى الجبن وأنت يا حلو لست في مقاسه أما مصر المحروسة فهي واسعة لك فيها مدارر ومسح للشقاء فارحل إليها وانج بنفسك

ميلت على صاحبي «هليل» وقلت له إني نويت السفر في أول قطار يقف على محطة مصدفة. شهق صاحبي واندهش أبوه وشوح بيده في وجهي غاضبا: «أجننت يا ولدي. خليك معي يا ابن الناس! تشتغل مع أخيك هليل! إنه يحتاج لك في شغله ورزقك ورزقه على الله» بدلا من الغربة في بلاد الله». رفعت ذراعي قائلا بصوت قاطع: «والله والله! لن أبقى في هذه البلدة الخراب ساعة زمن واحدة! وإن كان ولدك ياصاحبي حق فليستلف أجرة السكة أردها إليه بعد أيام! وإذا لم يفعل فسوف سأركب القطار بدون تذكرة فوق سطحه!». فقام هليل وحضنني وبكى. كان يعرف أن مخي ناشف كالزلطة، وأنه سيتعب من الكلام معي. فقال: «خلاص يا عم! لكن أتسافر هكذا!» وأشار إلى هدماتي البالية المصبوغة بالفحم والوسخ. قلت: «لقد انهدمت ناربا فوق جوانبها!». قال: «وثيابك؟ أليست ثيابي؟ فثيابي إذن ثيابك!». قلت: «طبعا! طبعا». قال: «قم معي لحد الدار». ذهبنا معا إلى الدار فأعطاني ثوبين وقميصين وسروالين وبلغة صفراء عتيقة ولبدة جديدة وخمسة جنيهات بحالها وأوصاني بعدم قطع الجوابات فعاهدته على ذلك وحضنته ثم حضنت والده وأختي «هندية». ومضيت فمضى خلفي «هليل» عازما ألا يتركني وحدي في هذه الساعة المقطوعة. وكان شبح ذراعه المرفوع بالتلويح يتراجع من ظلام الرصيف للسحب تحت شباك القطار

الثانية ـ الحضور المباغت

صدق من قال إن الأرض كروية يابوى وأن الدنيا دوارة. فمن الذى جاء بالواد «بربش» رفيق القمار فى «مصر عتيقة» أيام كنت صاحب مقهى إلى قطار الصعيد فى محطة «جبيعة»؟ ما كدت أجلس والقطار ينسلخ من بيوت البلدة ويرتع فى مزارعها حتى سمعته ينادى علىّ من الكرسى الملاصق للشباك المقابل: يخرب مطنك يا بربش من الذى جاء بك هنا يا ولد يا شقى؟ تعال اقعد هنا جوارى. لم أكن أتوقع أن يجىء لكنه جاء، ترك كرسيه المجاور للشباك وجاء يحشر بجوارى. كنت أظنه سيتكبر بحكم هذه البدلة الفخيمة التى يلبسها أو على الأقل سيستاء من قولتى «يا ولد» أمام الخلق من الركاب، بدون أن أحترم بدلته ورباط عنقه المحبوك وشعره المصفف الناعم اللامع كحذائه الذى لابد أنه لاشغلة له غير تلميعه. سرى فى عروقى شعور متأسف يقول لى إنى كان يجب علىّ احترامه أمام الخلق فأكلمه مثلما كنت أكلمه فى «مصر عتيقة» قائلا له يا وحيد بيك ـ (الاسم الذى نحل به علىّ أول يوم ويناديه به الرفاق دائما). لكننى عدت فشعرت بالخوف يابوى، شئ إلهى فى نفسى قال لى: خل بالك منه يا حسن.

فربما مرادُه يلعب عليك لعبته بهذا الود وهذه النعومة لينش ما معك أو ينصب عليك نصبة، خصوصا أن قرصنته والقبر فأنا أعرفه ولدا يلعب بالبيض والحجر وكان هو الذى يتحدث باسم رفاقه ويرسم لهم ما يفعلون وفى النهاية يسرقهم فى لعب القمار بخفة يد فيها ألف حاو شاطر. وكان يزعم لى أنه صعيدى الأصل. غير أنى لم أكن أصدقه أبدا، لأن وجهه نحيل: أبيض، طويل الأنف، ثقيل الحاجبين، أزرق العينين، مهيب الطلعة، لسانه طرى ناعم، وصوته رنان مرن، كأنه مدينة من ألف جنى، فكيف يابوى أصدق أنه صعيدى، وليس فيه من الرجلية قلامة ظفر؟ خذ منه كلاما حلوا من هنا لحد الصبح يملأ دماغك فتصدق أنه «بيك» فعلا، وهو فى حقيقة أمره لم يفطر بعد، ولم يذق طعم الزاد من أيام عديدة. ولحظة أن تصدقه يكون على الله العوض فيما معك من نقود وجواهر وأشياء ثمينة تستحق البيع أو الرهن، إذ أنه سوف يقودك إلى دارك تخلعها له عن طيب خاطر بل ربما استأمنته برهة تذهب خلالها إلى دارك لكى تحضر له نقودا كبيرة قد يحتاجها. ذلك هو «بربش» الجبار المسجل خطرا فى دفاتر الشرطة.

ورغم أنى عرفت حقيقة أمره بعد ثلاث قعدات فى مقهاى تلك المرحومة بـ «مصر عتيقة»، وجئت ندعه، إذ عرفت اسمه الحقيقى، وحارة درب عجور التى ولد وتربى فيها، لأب ماسح أحذية، وأم تعمل بلانة، فإنه مع ذلك، كان كثيرا ما يحاول أن يبيع لى

البكونة، وإن يلبسنى الطرطور، يقرطسنى، لكى أعطيه وضعه أمام الحق، حتى يتمكن من النصب عليهم على راحته

دنك يا بوى كان أول شلة «مصر عتيقة»، التى بسببها أغلقت القهى أما «غرولى» ـ ثانى واحد فى هذه الشلة ـ فإنه من الصعيد فعلا والصعيدية واضحة عليه وفيه، برغم أنه أوجه من «بريش»، وأجمل وأأنق، يتصوره المرء مثلا من أهل السينما، يغير ملابسه باستمرار، فيجئ كل يوم ببدلة جديدة أنيقة، بعكس «بريش» الذى لديه بدلة واحدة يعتنى بها جيدا، ويحافظ على نظافتها و«غرولى» كبير الدماغ يابوى. غليظ الملامح، واسع العينين كبيرهما كأنهما لوزتى قطن، تطل منهما نظرات عصبية، تتلصص، تكيد فى حلول الدرة، تهجم عليك أثناء الكلام معك، يطق منها الشرر إذا تكلم فبصوت عال رنان، يطلب منك أن تجعل بالك معه لحظة واحدة فإن فلتت بعد لحظات تعارك معك. فإن تمارج هاج وأرغى وأزبد، وبرطم وهلفط وبوظ دور اللعب، وربما دفع الورق فبعثره، أو الترابيزة فقلبها، ولسانه الصعيدى المعووج المطرطش لا يكف عن البرطمة والجعجعة تحلف اليمين أنه فلاح صعيدى يتعارك عند الساقية، لكن سريعا ما يهدأ يا بوى أما إذا عرفت خلقه، فصرخت فيه بعنف وأظهرت زعلك، فعندئذ يعتذر بنفس الصوت العالى ويطيب خاطرك مرددا «خلاص يا بوى! خلاص يا بوى حقك علىَّ!» وكان الظن عندى، أنه ربما يكون من عائلة صعيدية غنية ترسل له النقود بغير حساب، يلعب بها القمار، يشترى فاخر الثياب يعطر كل هذه العطرة. حتى أنا صعيدى

أكثر منه يا بوى، ويقع فى المطبات بسرعة، لكننى أعرف كيف أطلع قدمى فى الحال يا بوى، قبل أن تنغرز فى الوحل أو أنكفئ على وجهى. قعدتان ثلاثة جمعت فى دماغى بعض كلام مما يتبادلونه مع بعضهم بطريقة السيم المكشوف، فهمت منها أنه ولد محربش هو الآخر. والمحربش يأتى بالنقود من جميع الأبواب. غير أننى لم أكن عرفت بالضبط ماهى هذه الأبواب يا بوى، إنما عرفت أنها كثيرة أمام الولدان المحربشين الذين لا يتقون الله فى أنفسهم أو فى دينهم.

الدور والباقى على «بسبوسة»، ثالث واحد فى هذه الشلة إنه اسم على مسمى والله يا بوى، أقصرهم قامة، طوله مثل عرضه، مرغد، ملظلظ، كبير الوجه، ممتلئ وجهه باللحم، إلى حد اختفاء الخدود بين الملامح، إذ ترهلت خدوده على عينيه، ويضيع أنفه الدقيق فى حنك واسع، غليظ الشفتين، عارى الرأس، شعره قصير واقف، لكنه مصفف، مدهون بالزيت، ومعووج قليلا على الجنب اليمين. هو الوحيد فيهم الذى يلبس جلبابا، وجلبابه دائما نظيف وتطبيقة المكواة مرسومة عليه، تفوح منه رائحة خزائن الثياب، مزيج من الطيب والنفثالين، ياقة الجلباب كبيرة وواقفة حول رقبته التخينة الغليظة، والجلباب جيب على الصدر، فيه على الدوام نقود كثيرة مطبقة فوق بعضها، فوقها علبة سجائر هليود لارج، وفى بنصره الأيمن خاتم ذهبى كبير بفص فيروز أزرق، وفتحة الجلباب طويلة واصلة إلى ما فوق السرة بقليل، فانلته البيضاء

ظاهرة من فتحة الجلباب، نظيفة، يظهر من قطعها الشعاف شيان كبيران كثديي امرأة نتابة، لدرجة أن القناة الفاصلة بين الثديين كانت تتوهم أحيانا فاتنة امرأة. وكان هو بطراوة صوته، ونعومة حركاته، وذبول نظراته، يؤكد لي من طرف خفي أنه بسكويته، وأن هؤلاء الولد يأكلونه يا بوي. عن شغلته يقول إنه «معلم»، معلم ماذا، في سوق الخضار مثلا، صاحب محل؟ هو معلم والسلام، معلم معلم، كل عشرين معلما في بعض، مالي أنا؟ المهم أن تدفع لي ما يصير من حقي طرفك. من هذه الناحية لم يكن يعيبه شيء بصراحة يا بوي، هو الوحيد الذي لم يكن يجادلني في الحساب، إذا قلت إنني أطلب كذا. وكنت أستطيبه، لكني كنت نافرا من طيبته هذه، وكان الشيطان يصور لي أن هذا الولد يقف في صفي للغرض في نفسه

الوحيد فيهم الذي كنت أحبه بحق وأراه محترما بحق هو الولد «هندي». كان أرجلهم يا بوي، وبوادر الرجولة تظهر في سحنته النائم الذي بلا نهاية، حيث ينام شاربه المنصال على شفتين رفيعتين خلقتا للانطباق على بعضهما، كفتحة الكيس، ولولا الشارب الأسود الثقيل ما ظهر له فم، من كثرة انطباق الشفتين يتصدد ذقنه داخل الفكين. من فوق الشارب يستقيم أنف رفيع مدبب، ملتحق بجبهة ضيقة، يكاد شعر رأسه يغطيها من أعلاها ومن جنبيها فلا يبقى منها إلا مساحة عارية كالطعمة الجبن السمبوكسة التي يسمونها الطعمية. إن ضغطت عليها يغوص إصبعك فيها يلمؤها بالتجاعيد. كانت هذه الجبهة تبقل تكاد ترسل بقابيق الرغوة الملونة حين يغضب، أو يتوتر من اللعب، أو من كثرة الكلام الفاصي معه، إذ تتراجع هذه الجبهة إلى الوراء مسطوحة، لتصعد من تحتها عينان ذكيتان، ليستا في حاجة إلى لسان يتكلم، إذ هما تقولان كل شيء، بعبير لتّ ولا عجن. كنت أعرف أنه ماء من تحت تبن يا بوي، وداهية من دواهي الزمن، هو أصغرهم سنا، لكن دماغي حكم حال رؤيته أول مرة بأنه أكبرهم عقلا، أشدهما نصاحة، أكثرهم فصاحة لهذا يا بوي كنت أحترمه أكثر منهم جميعا وأراعي شعوره عند الكلام معه، وأراعي كذلك الحد والمصلحة، وقلبي يحدثني أن هذا الولد ربما يكون لي معه شأن ذات يوم، وربما اتخذته صاحبا وفيا لي في هذه القرية العجيبة، والذي يزيدني احتراما له يا بوي أنه كان الوحيد بينهم صاحب عمل واضح، يمكن لك أن تزوره فيه، وتراه وهو يعرق مثل خلق الله العاملين، شغلته فحام، له في الفسطاط ورشة يصنع فيها الفحم على يديه، لكي يبيعه لمقاهي ومحلات الكباب، بأسعار مريحة على قد فحمها الجيد، الذي يشيعون أنه يشتعل بعود الكبريت وهو يكسب كثيرا من هذه الورشة، ويظل طول النهار إلى عبد متفحم الوجه، لا يساوي خردلة، لكنه في المساء يخرج من الحمام أفنديا معتبرا، تهفهف الثياب الثمينة على جسده، ليصرف كل ما كسبه طول النهار في قعدة القمار

■■■

الثالثة ـ التقاء الزبانية

علبة سجائر بلموت كبيرة مطلطة رعدتني في صدري برفق، فتنبهت إليها، فرقص قلبي لمرآها، وسكرت رأسي من رائحتها العطرة. كانت يد «بريش» ـ أو سعادة البيه ـ ممدودة بالعلبة، فلمحت في أصابعه الخواتم الذهبية، فتفاءلت خيرا يابوي. وقلت الحمد لله لن يورطني في أي مصيبة، إذ أن حالته متيسرة. سحبت سيجارة ومددت يدي لإخراج علبة الكبريت، فأسرع هو مشعلا ولاعة ذهبية، خضني صوتها، وسحرتني تكتها وانسياق شعلتها، كورقة ورد مستطيلة. أشعلت السيجارة، واستوعبت دخانها في مشاشي بلذة كبيرة، وقد بدأ الخوف يتسرب مع الدخان. شئ إلهي في نفسي يوعز لي أن مثل هذا الشخص كلما ازداد كرمه كان ذلك مؤشرا على أنه يحكم حولك شباكه الخطيرة. لكن صوتا يشبه صوت أبي صاح في مسامعي ساخرا إيش تاخذ الريح من البلاط؟ قلت في نفسي صدقت والله يا من قلت هذا. فإن كان «بريش» ريحا كاسحة فأنا البلاط ولن ينوبه مني شئ. ركنت إلى هذا الصوت، فوضعت ساقا على ساق، وصرت أنحل في لذة، ثم تذكرت، فبشرته. «قلت لي ما الذي جاء بك في القطار الصعيدي؟»

قال باسما: «لكي أجعلك تصدق أنني من الصعيد الجواني». قلت بلهجة ذات معنى غطيته بالطيبة: «كنت في زيارة أم في مهمة؟» لكزني بكوعه في جنبي بكزة موجهة وقال: «دي ودي». وكانت لهجته كأنه يقول لي: «اسكت ساكت».

سكت بالفعل يا بوي. فلما فات بائع السميط اشتريت سميطة وقطعة جبن رومي، وبيضة مسلوقة. وعزمت على صاحبي فقال إنه شبعان ولكن لا مانع من لقمة صغيرة يغير بها ريقه. ثم طوح بثلاثة أرباع السميطة في فمه، وقضم الجبن الرومي كلها، فانطبقت يدي على البيضة، حتى حويت اللقمة في فمي، وطوحت بالبيضة كلها وراءها. وقلت الحمد لله على ذلك، وأشعلت سيجارة لف من علبتي، ومن شدة غيظي على الحركة التي فعلها لم أعزم عليه بسيجارة، فأخرج علبته وأشعل واحدة. وفجأة مر بائع سريح يبيع الخوخ في سلة، فاستوقفه «بريش» واشترى منه من كيس من الخوخ، وضعه في حجري قائلا: «كل يا أبو علي». ثم حاسب البائع وصار ينتقي ويقضم بشراهة ويستحثني على القضم. فصرت أفعل مثله وأنا نادم على حركتي الناقصة تلك.

جاءت محطة فوقف ناس ودفعوا نحو الأبواب، فخلت معظم الكراسي من حولنا، فانتقل «بريش» إلى الكرسي المواجه. في دقيقة واحدة مرت وفوجئت بالولد «عرولي» يجلس جواري مطبقا على كتفي قائلا: «إزيك يابو علي؟ والله زمان». ماذا أقول يا حاج فرفرت في الأرض من الدهشة. «عرولي» هو الآخر هنا في قطار

الصعيد؟ كيف يابوي! هو صعيدي المركة نعم لكن رؤيته هو الآخر الآن أمر لم يجر على بالي أبدا. صرت أقول هذا ناظرا إلى «برنش» وإليه ماراهما يبتسمان لبعضهما، لم يكن أحدهما قد سلم على الآخر يابوي، فلابد إذن أنهما مع بعضهما من الأول يابوي. أن مثلهما ولد مصربش ومتلطم وماصح. صوت في رأسي قال: ولكن غزولي ركب من هذه المحطة؛ صوت آخر رد قائلا: هما معا في مشوار واحد يلزم أن يركب كل واحد من محطة. نظرت فيهما من جديد وقلت: «عال عال الحالة رائجة كما يبين لي!». لطمني الولد «غزولي» بكفه فوق قاعية رأسي بمراح قائلا: «طول عمرها رائجة معنا ياصعيدي يانفس!». تلقيت اللطمة ضاحكا وقلت: «على خيرة الله! ربنا يوفقكم». صارا يبتسمان،فأحسست أن وراء هذه البسمة شرا لم ينكشف لي بعد من ولد الفرطوس هؤلاء.

محطة أخرى جاءت فغربلت القطار ممن فيه وألقت فيه بدفعة أخرى من الخلق. وإن هي إلا برهة، حتى فوجئت بكل من «بسبوسة» و«عندي» مقبلين نحونا، صائحين في نفس واحد: «أهلا أهلا أبو علي! والله مامصدقين!». وقفت على حيلي رافعا ذراعي صائحا وقد ركبني فرح مفاجئ: «والله ما معقول صح! والله صح ما معقول! إيه ياولاد الأبالسة! أين كنتم تفطون في بلاد الصعيد! ألا تعرفون أنني عمدة الصعيد! وكان الواجب أن تأخذوا الإذن مني قبل أن تفعلوا». أخذت الولدين بالحضن وأجلستهما جواري، فصرنا جمعا، وصرت في قلب «مصر عتيقة» في المكانة التي كنت افتقدتها مقهى، وهؤلاء الولد يلعبون القمار عندي، وأنا

أراقبهم لقبض الكرتة على كل دور يلعبونه. انمحى الزمن يابوي، واختفت اللحظة التي كنت فيها، وحضر الماضي كله، لكنني طويته بمسحة من يدي على رأسي، وبهرشة عابرة مثلت إلى أن أربعتهم كانوا في مشوار يسترزقون منه، وسرح خيالي بعيدا، صار يتخبط في نواح كثيرة، وفي النهاية اغتظت من نفسي ومنهم يابوي، قلت لنفسي هذه نحن في قلب الصعيد لانعرف نكسب مليما! وسكان مصر القاهرة يجيئون لتكسب من الصعيد؟ ألا لعنة الله عليّ وعلى حظي النحس، هؤلاء الولد لابد أنهم أشطر مني يابوي، وأنا معترف بهذا، ولهذا تمنيت بيني وبين نفسي أن أكون في رفقتهم علني أعرف كيف أسرق من مصر القاهرة. فمن جاور السعيد يسعد.

جاءني صوت الولد «عندي» من آخر الكرسي يقول: «إيشمالك يابو علي؟ مابانا تشتغل اليوم؟» انشرح صدري والله يابوي من هذا السؤال وأجبت «عندي» إذ يسأله. وقلت: «والله ياعندي ياخوي أنا الآن أمر والعياذ بالله مأيام نحوس كئيبة الطلعة! لا داعي لذكرها فالشكوى لغير الله مذلة!». قال «بسبوسة» وهو يتحسس شنبه الكبيرين بمهارة وطراوة صوت: «فإلى أين تسافر اليوم ياترى! وراءك مشوار معين؟». قلت: «لا والله يابسبوسة! إنني قاصد وجه الكريم ومن يقصد وجه الكريم لا يضام». قال «غزولي»: «عندك مكان ستتوجه إليه؟». قلت: «ماعندي والله ياغزولي سوى الستر». قال «برنش»: «عندك مكان تبيت فيه؟». قلت: «من أين يابرنش ياخوي؟ لقد تركت الغرفة التي سكنتها في

اصطبر عشر مقد بصمع سنين! ظننت أن الله لن يكتب لي عيشا في مصر القاهرة ثانية. لكن العبد في تفكير والرب في تدبير! وها أنذا عائد إليها رغم أنفي!»

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض وقال «بريش» في لهجة حاسمة: «خلاص خليك معنا ورزقك ورزقنا على الله». قلت: «أنا معكم من شوشة راسي لحد أظافري!» قال «بريش» وهو يلوح بيديه في نزق كبير: «يلزمنا أولا أن نعرفك على رجل مثل السكرة! يعجبك هو ويملأ دماغك!». قلت مشوحا بيدي: «عرفني على الجن الأحمر! الجن الأزرق لو أحببت!». قال: «هو جن أي نعم ما في ذلك شك! أحمر على أخضر! الأحمر له والأخضر لنا!». ثم ضحكوا كأنهم فهموا، أما أنا فإن الكلمة لخبطت مخي يابوي وعجزت عن فهم مقصده بالفلهوة، فقلت حانقا: «وما الأخضر! وما الدنيا وما الدين! قال «بريش» اللعين: «ما الأحمر هو هذا» - وأخرج من جيب صدره ورقة بعشرة جنيهات حمراء الوجه قانية - ثم أضاف: «والأخضر هو هذا» - وطرح من جيب البنطلون ورقة من فئة الجنيه خضراء مزركشة مبهجة يا بوي.

رقص قلبي ورفرف كالعصفور بجناحين كبيرين، فشوحت قائلا في طرب ونشوة: «أنا مع الأحمر والأخضر والأزرق وكل الألوان الملونة بالصلاة على حضرة النبي!». فضحكوا جميعا. وكان القطار يدخل ساعة محطة الجيزة، والمدينة تتلمسنا شيئا فشيئا. فلما نزلنا على الرصيف سرت في أثرهم لاهثا، أخشى أن يضيعوا مني في الزحام فتضيع الفرصة من يدي. لم أكن قد

صدقت بعد كل ما قالوه وظننته تلك مجالس فجعلت كعبي في كعبهم حتى غادرنا الرصيف وصرنا في الشارع الموازي له، فإذا هم يتجهون نحو عربية كبيرة كانت راكنة بجوار الرصيف، فتحوا أبوابها وركبوا فاندسست بجوارهم متوقعا أن يضحكوا فجأة من سذاجتي ويأمروني بالنزول. بعد برهة جاء سائق عجوز من مكان ما، فركب وأدار المحرك فانطلقت العربية وسارت، وقال «بريش» بلهجة آمرة: «مصر عتيقة يا اسطى». لكن شيئا إلهيا حدثني بأن السائق يشتغل معهم وأنه كان في انتظارهم حسب موعد هذا القطار. لكن «بريش» لا يزال يعتبرني غريبا عليهم فيلبسني العمامة، يفرطسني. لحظتها اعترفت لنفسي أن «بريش» ولد حويط بالفعل ويجب أن أحسب له حسابا، كي لا يوقعني في شر أعمالي.

سارت العربية الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض تخبط يمينا وشمالا، والسائق كالبهلوان يتلوى بها وبما يتموج يخطف يخطف، ولا يستعمل زمارة التنبيه، كأنه يخشى من لفت النظر إلى العربية. شيء إلهي أرعشني وقبض على قلبي بكلابات من حديد. ولقد وقر في ذهني أن العربة لابد يكون فيها ممنوعات خطيرة، أي ممنوعات، وهذه الممنوعات لابد أن يكون هؤلاء الولد قد جاءوا بها معهم من بلاد الصعيد. ظني يقول لي إنها مخدرات، ومخي الصعيدي يقول إنها أسلحة وذخيرة جاءوا بها أو يشحنها من بلاد الصعيد. الكذب خيبة يابوي، فأنا لم أر معهم شيئا يمسك باليد. غير أنني لم أفتش شناطهم يابوي، ولم ألحظ فيها جعبة أو انتفاخا.

فلما انتبهت إلى ذلك صرت أتحكك فيمن يلتصق بي، فأيقنت أن جيوبهم صلبة يا بوي وفيها دمامل كبيرة، قلت: ربما يسقى، ورميت عن نفسي كل قلق، شمخت صدري وأشعلت سيجارة وكانت «مصر عتيقة» تدخل في حياشيمي وتزحف على صدري بقراطيس من الضوء المغمص العيني، مرايه بعث النكد في روحي غير أني لما نظرت من شباك العربة ورأيت الخلق يسيرون كالقرود مهانين متشعلقين في أبواب الأتوبيسات قلت لنفسي: حظك من السماء ياولد أبي ضب، مكتوب لك عيش في «مصر عتيقة» رغم أنفك وأنفها، آه يامصر عتيقة، دخلتك بالأمس مهيض الجناح أمشي على قدمين دامعتين واليوم، أدخلك راكبا سيارة بعيدة عن شوارب عمدة بلدتنا، وفي عربة من الصحاب، وغداً أحيكك في مؤخرتك يا بلدة كلها قرع وطبيخ من كل لون.

الرابعة - الباب المنهوب

على مشارف الفسطاط، هدأت السيارة، ثم ركنت على الرصيف، بجوار شادر كبير يمتد على مساحة لا تقل عن ثلاثة أربعة أفدنة بالراحة يا بوي.

نزل السائق، ونزل الصحاب، فنزلت معهم ومضيت خلفهم بجوار تيل السرباتي الممدود على عواميد من الخشب، فلما وصلنا إلى نهايته دخلنا، لاقانا بقاية هائلة، جدرانها وسقفها من قماش الخيم، ومملوءة لتمها بضروب من أنواع البراميل، بأشكالها وأحجامها، والحديد المفردة بأنواعه، وحديد التسليح بكميات كبيرة، ومراتب عالية، من رصات شكائر الأسمنت كهرم سقارة المدرج، ورصات أخرى من شكائر الدقيق، وغيرها من أجولة الأرز والسكر، ورصات كالعمائر الشاهقة من صفائح السمن والزيت والجبنة والزيتون، وأشياء أخرى كثيرة ليس عندي دماغ لحصرها، يستغرب المرء كيف توجد كلها، مع كل هذه المنقولات، في شادر كهذا يابوي. وكل ذلك مغطى بأحمال القش والعيش والقمح، لكنه نوع من التغطية يظهر المغطى أكثر مما يخفيه. حتى هاجت عيوني وهاج قلبي في هذه الغابة المملوءة بكل هذا الخير

الوهير رن في صدري صوت يقول إن صاحب هذا الشادر لابد أن يكون الحكومة نفسها، أو أحد مشايخ العرب الكبار ولا غير ذلك يا بوي. إذ كيف يمكن لرجل بمفرده أن يمتلك محرما شديد الوعورة كهذا المحرم يا بوي؟، وعلى عينك يا تاجر هكذا يابوي؟

على أن الولد «هندي» ما أحلاه من رجل، غمزني في جنبي غمزة فهمت مقصدها ومشيت بجواره وقد لمت عيني عن البحلقة، ومضيت أعتقل الرعشة في ساقي، إذ أيقنت يا بوي أنني موشك على مقابلة داهية من دواهي الزمن وآفة من آفاته الكبرى. ظللنا ماشيين مسافة داخل الشادر، ضعف المسافة التي مشيناها بجواره، فإذا بي أرى باب دار على غاية من الرشاقة والأبهة، مطرزا بالمشغولات والمشنقات والمربعات والدوائر والمثلثات. الباب يفتح على الشادر، وسقف الشادر ملتصق بسقف أول تراسينة في الطابق الثاني. لما وصلنا إلى هذا الباب صفق «هندي» بين يديه صائحا: «يا حاج!». فجاءنا من الأعلى صوت رفيع، رفيع ناعم، مليء بالورع. تعود على التسبيح والتهجد. قال: «اطلعوا يا أولاد». نظرت إلى فوق، فإذا في التراسينة رجل يتسربل بجلباب أبيض نظيف جدا، وطاقية بيضاء من نفس قماش الثوب، الذي بدا أنه من الحرير يهفهف يتطاير حوله. ذقنه طويلة واصلة إلى آخر صدره، لونها ضارب إلى الصفرة، البياض والرمادي تشبه بقايا شيء من حلفاء محترقة، وجهه سُقَيِّف، ضئيل القسمات كرقعة من جلد غير مدبوغ، مليء بالتجاعيد، والشعر المهوش، المتشعث، القادم من خلف صلعته وفوق حواجبه. ضيق

العينين جدا، لكن شعاعا وامضا على الدوام ينطلق منهما، ينقش في كل بقعة في جسدي، أما فمه فلا يكف عن البسملة والبسبسة، من خلال ابتسامة ذابلة، تلمع تحتها أسنان ذهبية وبلاتينية كزر في سماحة، مع هزات من رأسه. «ادخلوا يا أولاد ادخلوا».

دخلنا يا بوي، فإذا بنا في دهليز دار من الدور الأثرية العتيقة. كنت أرى مثلها في مقابر الفراعنة، على بالمصاحب المصرية البارلتية، ويفتح في قلبه منور مخروطي، يشدك للنظر إلى أعلى، فإذا طيرت بصرك شاهدت شبابيك ومشربيات الطوابق العليا كلها ولقد فعلت، فخيل لي أن عيونا من وراء هذه المشربيات ترقبنا. دخلنا بابا واطئا في آخر الدهليز فإذا به باب سلم جميل غاية الجمال يابوي، يهون عليك أن تفرش وتنام على درجاته الرخامية الصقيلة اللامعة كأنهم يغسلونها كل يوم باللبن والعطور. ما هذا العز كله يا بوي؟ ما الذي يفعله ساكن هذه الجنان لله كي ينعم عليه بكل هذا النعيم يابوي؟

صعدنا بضع درجات، حودنا على بسطة عريضة مربعة، يحفها درابزين من الخشب المشغول المخرطة على هيئة سيقان وخصور مبرومة، لكن بدون نساء. وقفنا في هذه البسطة قليلا، حتى انزاح باب قصير القامة عريض من الخشب الثقيل، عليه مستطيلات ومربعات تشبه شكل صفحة المصحف بالضبط يابوي، الخالق الناطق، حتى الذي يشبه الفوانيس على هوامش الصفحات كان مرسوما أيضا على الباب، ونفس التكورات

«مزخرفة»، التي تفصل بين آيات المصحف. فلما دققت النظر يا بوي، وجدت أن سورة يس كلها مكتوبة على ضلفة الباب، من أوله إلى آخره، من أولها إلى آخرها، وعلى سلخ الهامش مكتوب - بالخط كذلك - أسماء الله الحسنى. أعمامي فقهاء يا بوي، وأنا مع ذلك تعلمت فك الخط من الولد وكيل النيابة الذي كان مسجونا معي في زنزانة واحدة في سجن مصر القلعة، وبيني وبين صفحات المصاحف سابق معرفة. ارتعش قلبي في الحال، رقص، وقع في حبائل شبكة من المشاعر الغامضة. لست والله أعرف إن كانت هذه الرعشة التي سربلتني أساسها سورة يس والقرآن الحكيم وأسماء الله الحسنى، أم أساسها ذلك الرجل الذي انزاح عنه الباب فظهر مقبلا نحونا يخوض بشبشبه الزنوبة في وبر السجاجيد الكثيف الشعر، ويخطر حاملا مسبحته اليسر الطويلة السوداء بين بوفيهات وشوفنيرات وبوريهات وترابيزات من كل شكل وكل حجم وكل لون، مبذور فوقها تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والعاج والصيني والنحاس، لأشباه رمسيس ونفرتيتي وشيخ البلد، وأخرى لسباع وثعالب وذئاب ووطاويط ونسور وجواميس، وميداليات وأساور، وعلب صغيرة كالتحف، كل ذلك مفرودة على الترابيزة والمسطحات. أما الحوائط كلها مطعمة بالمرايا البلجيكية التي تعكس كل ذلك. ومن السقف تتدلى تعاليق كثيرة، بسلاسل رفيعة، منها زخارف ولمبات على شكل بلحات، ومحايات وكمثريات، وعناقيد عنب.

ركبني الرعاش ثانية يا حاج، فوقفت متسمرا في مكاني، وصحابي يدخلون بجرأة قائلين: «ادخل يا راجل». بدون أن أشعر خلعت البلغة وطويتها تحت إبطي مثلما أفعل عند دخول المسجد. ضحك الصحاب وضحك الرجل حتى اهتز جسده وكاد ينكب على الأرض، ثم سحب من صدره نفسا وقال: «كويس كويس! عملت الواجب!». استدار ومضى أمامنا ونحن من خلفه نتعثر في وبر السجاجيد الناعم ونخوض في رسوماتها المزركشة فوق ميادين ومآذن وإيوانات ودوائر، وقد عجبت والله يا حاج كيف يهون على المرء منا أن يدوس فوق هذه النعمة بأقدامه؟ وقلت لنفسي: ما الذي بقي من الجنة لم يستحضره هذا الرجل إلى هذا المنزل العامر؟ ماذا أبقى هذا الرجل للجنة يا ترى؟ والجنة علام تكون إذن بعد كل هذا؟ هناك إذن خلق من عباد الله أمثالنا أولاد تسعة أشهر، يستحضرون الجنة من الله، ويركبونها على الأرض في العمر، مثل هذا الرجل العجيب الشأن. هكذا قلت لنفسي وأنا ماض في ذيلهم، ونظري معلق على مصحف كبير جدا مفتوح، ومركون فوق بوريه كبير بعرض الحائط فوقه مرآة، وفيها يمتد المصحف بمصحف شقيق وصفحاته ذات الهامش الوردي المشغول بالزخرفة ومتنه الكريمي ملون بأحرف سوداء منقوشة فوقه كالمصابيح، ما إن لامسته، تبركا به، حتى تكشفت أنه من الخشب لمصحف مفتوح على آية الكرسي، وبجواره برواز كبير يلف صورة الرجل سمح الوجه بلحية طويلة، بيضاء متسقة جميلة الشكل، وزبيبة الصلاة على جبينه تحت حافة الطربوش

المقصير الذي تضحك البصر من لمعانها، والابتسامة على الشفتين تكاد تبدو لتكلمه، فرحة أنس ظللت عاوجا رقبتي نحوها، في انتظار أن تكلمني حتى نبهني الولد «هدى» إلى أنني لو كسرت شيئا هنا ولو صغيرا فعمري كله لن يساوي ثمنها. فاعتدلت وجعلت عيني في وسط رأسي ومشيت في إثرهم، نخرج من صالة إلى غرفة، ومن غرفة إلى ممر، ومن ممر إلى سلم ضيق نصعده إلى صالة أخرى نقطعها إلى ممر، فسلم آخر، نهبطه إلى بهو طويل، نعبره إلى باب تحيط به الستائر طبقات فوق بعضها، يزيحها الرجل بحركة من أصابعه متجرى للوراء نجد أنفسنا في باحة مطلة على السماء المليئة بالمآذن والقباب والأبراج وأشباح الأشجار، وبسيف عريض النصل يلمع في مدى البصر يترجرج لمعانه تكاد صفحة النصل تتدهور تحت هبوب الرياح لكنها ما تلبث حتى تستقيم حادة، كحلم من الحرير يتراقص بنشوة فوق وفود الرياح. فتأكدت من هذا النظر يابوي، ثمته مسحورا يابوي، فعرفت أنه نهر النيل، فتأكدت أكثر يابوي وقلت لنفسي، هذه هي الجنة من غير إثم أو دستور يابوي، وما علي الآن سوى انتظار بنات الحور والولدان المخلدين، وأباريق الخمر والعسل المصفى. وإذا نحن في برج فوق سطح المنزل يا حال، مربع مغلق كالعلبة، له سقف جملون، وحيطانه من الداخل من الخشب السميك، مزركشة بالزخارف بالألوان الساحرة، كل حائط بنصفه شباك مفتوح فأنت ترى أربعة أركان الدنيا، من هنا مجيل، ومن ها هنا مآذن، ومن هنا أبراج، ومن ها هنا مراكب

النهر، الآتي من الشلال البعيد يسكب عرق جبينه على كل الأراضي لتنبت خيرًا يعم به الخلق، أمثال صاحبنا هذا الذي يحفر على جبينه زبيبة الصلاة. هذا الذي صلى من أجل أن يطبع السجود هذه الزبيبة على جبينه، حتى خفت أن يضبطني مراه أمام الرجل، فانكمشت على روحي، والضحك يزُزّ على لا يريد أن يتركني في حالي يا حال، لكنهم جميعا انفجروا ضاحكين فقلت ضحك بضحك فصرت أقذف الضحكات المتدفقة، وهم يرددونها خلفي كالمغناطيس، حتى انهد حيلنا جميعا، وصرنا من فرط الجهد والانبساط نتمايل على بعضنا متساندين، بما فيه لحية الرجل، التي صارت في متناول يدي عدة مرات. أعبث بها كيف أشاء لو أردت لولا أن جسمي كان يقشعر منها. إذ هي تذكرني بلحية عمي الفقيه وحيزبوناته اللاسعة. كما تذكرني بملمس الروحة الخشنة

دعونا الشيخ يابوي، فرمينا جثثنا فوق شلت منجدة بريش النعام مشغولة بالحرير المزركش بالزخرفة شيء يشوه العقل يا بوي، شيء لا ينسى العطار حرجه بل ينسى الحرج عطاره الرجل تماسك نفسه، ومسح عينيه بمنديل حرير شفاف، ونسي فجأة أنه منذ برهة كان ذلك الطفل المكروت الشقي، الذي لا أمان لمقالبه، فنظر إلينا بجدية شيخ في الثمانين من عمره، وقال: «تتعشوا يا أولاد؟» ثم نهض في الحال كأنه لا ينتظر منا أي رد. كأنه سيغير رأيه، إذ التفت نحونا بعد أن لبس الشبشب الزنوبة وقال من جديد كأنه يقرر هذه المرة «ستتعشوا طبعا. وجبا»، ومضى ظهره

النحيل المحدودب قليلاً عند القفا ـ من فرط الخشوع لله فقط ـ وساقاه الرفيعتان من خلل الجلباب يخطوان في ثبات متعقّل متوازن، وأساور الكلسون القطني تحبك على رسغي القدمين الضويتين. فلما غاب عن نظرنا سمعنا أبوابا تفتح وتغلق، ووقع خطوات تهبط ثم تصعد، ثم تهبط على السلالم الخشبية جعجاعة. يتداخل وقع صبيبها في أصداء سالفة. حينئذ قام كل واحد منا فانعطف على شباك ركن إليه، وبعثر نفسه في الريح في الخلاء الفسيح. زاحمني الولد «هندي» على شباكي، لأنه فيما قال يحب نهر النيل مثلي ولا يمل من النظر إليه ويتمنى لو يقضي عمره فيه ولو غريقا. فلكزته بكوعي في عشم وقلت في حسد حقيقي: «بل إيه وبتاع إيه يابو العم!؟». قال «هندي» إن دوام الحال من المحال كما قال أهل زمان، فارتعد قلبي رعدا نفذ من صدري إلى الخلاء. وسألته ما هذا الرجل النادر المثال في هذا العصر والأوان من طقطق لسلامو عليكم.

في فحيح يتخلله حروف واضحة كتكتكة التلغراف تفهمها فهامة مجهولة في دماغي، قال لي إن هذا الرجل إن لم أكن أعرفه هو «الحج أحمد نورالدين السمني»، تاجر خردة في الأصل والأساس. لكنه في العرف ابن سوق بشكل عمومي، يتاجر في المواد القديمة لا بأس، في العملة نفسها لا مانع، في البني آدم لا يهمه، كله ماشي عنده. وربنا ـ يقول هندي ـ راضي عنه آخر رضا، إذ ملّكه ثروة لا حدود لها، من بينها هذا المنزل الأثري عن أبيه الذي كان من الأعيان الكبار، عن جده الذي كان قاضيا

للقضاة، عن جده الأكبر الذي كان هو الآخر قد نصب للقضاء في الفسطاط القديمة أيام لا أدري منْ منْ السلاطين والملوك. على أن «الحاج أحمد نور الدين السمني» وهبه الله قبولا حسنا عند كافة الخلق. يمسك الحديد والصفيح بيديه، فيحوله إلى ذهب. قلبه جامد. يشتري خرج البيوت، ومخلفات الأسر الكبيرة التي أبلاها الزمن المذل وأجلى عنها المجد. بحكم أن «الحج السمني» في الأصل من هؤلاء القوم يابوي، فإنه يفهم قيمة هذه المخلفات التي يتخلى عنها أهلها. لكنه يشتريها بتراب الفلوس. مَنْ يعرف يا خال أن هذه المشغولات الخشبية الأثرية، إن لم يحمها رصيد كبير من البنكنوت الأخضر، تقل قيمتها. وتصبح كعدمها، فيسهل التخلي عنها أمام احتياجات الجسد والبطون. كما وأن «الحج أحمد نور الدين السمني»، رغم أنه من علية القوم قبل أن يصبح تاجر خردة وتاجر الشهار، فإنه قد نزل عن حياة طبقته ظاهريا، ليعيش بين الرعاع والزعر والمراذيل والجعيدية من الصيع والجرابيع وأبناء السبيل، والمعربشين، وحقيقة الأمر يابو العم، أنه بات يعيش حياتين، يعرف أحلى ما في علية القوم من النظام، والأخلاق وترتيب الحياة وتدبير أمورها، وأمور السيطرة فيها، ويتحيل عليهم. وعندما يدخل المزاد ليشتري مخلفاتهم الثمينة، في حالة عوزهم، فإنه يدخل في هيئة معلم جاهل حشاش نطيع لا يفقه من أمور التحف الثمينة شيئا لا يعي من أمور الفن ولوحاته ومشغولاته أي شيء، لكي تريح نفسك من أي كلام تقوله بشأن قيمة هذه الأشياء وجوهر أصالتها. سيقول لك بصريح العبارة، أنه لا صالح له في

هذا الكلام، ولا قدرة له على فهمه. إنما هو يشتري منك الأشياء باعتبارها أشياء من مخلفات مستعملة، وكل مخلف مستعمل فهو خردة، بدون زيادة أو نقصان، وأنه في الأصل طهقان ضيق النفس مما أنت فيه من عوز. ربما يسعر علينا وعلى ولايانا حد ما أنت في حاجة إليه بدون بيع ولا شراء عندما يكرمك الله رد لي ما أخذت. وأنت تجد أنه قد شفع القول بالفعل، إذ دس يده في سيالته الكبيرة وأخرجها برزمة كبيرة مطوية من ورق البنكنوت الأحمر القاني، يأخذ في فرها بسرعة. ليتوقف عند عدد معين ينزعه من الرزمة هو على التحديد المبلغ الذي قدره ثمنا لأشيائك. يطويه على بعضه، يخفيه في راحة يده، يقدم لك كفه مقلوبة، قائلا «بركة بالصلاة على النبي»: لا تحاول أن تفتح ما أعطيت لتعده، وإلا جلبت على مظهرك المهانة، ثم إنك لن تفلح في زحزحته عن هذا المبلغ شعرة واحدة. حتى لو مدحت بنت مري، سيقسم لك بالأيمان المغلظة وبحق صلاته وصومه وفجره وابنته الوحيدة التي يتمناها من الله أنه مكارمك ومعطيك فوق ما تستحقه البيعة بكثير. وإنها ليست بيعة ولا حاجة إنما هي بركة منك وهذا المبلغ بركة منه. وهو ونصيبه فقصده، وحق جلال الله، شريف، إذ هو يريد ـ فقط! ـ أن يفك عسرا! جعلنا الله ممن يفكون عسر الناس، المعسر عسر ومن فك عسر الناس فك الله عسره، قل يا رب، رح إلهي رب يفتحها في وجهك ويرزقك برزق أولادك. لا تغرنك الأزمة فهي مؤقتة، وهي امتحان من الله يا رجل.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها   فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وهكذا يأخذك في عشرة دروشة، أوبطة في عوة، في حدوتة، في كاني في ماني، تكون عربيته قد حملت الأشياء وربطتها ووقف السائق في انتظاره، زمارة والأخرى من السائق يكون هو قد مد يده مستترا بها يحك عصبا عنك، يسلم عليك ويشد على يدك بقوة صلبة كقوة فارس صنديد على المحاش، وبيده الأخرى يربت على ظهرك مطيبا خاطرك، متمنيا لك صحة وعافية راجيا أن يراك ليطمئن عليك، وعلى أحوالك، وما يهمكش، أي خدمة في أي وقت أنت تأمر، ورقبتي سدادة. لا يغرنك تمسكي في مسائل البيع والشراء فدي نقرة وذي نقرة!!..

سألت يابوي لبرهة، فاستعبرت، إذ وجدت أن الصحاب كلهم ملتمين فوقنا يتبادلون معنا الحديث في نفس الشباك. فما عرفت والله يا خال متى جاءوا ولا كيف عرفوا أننا نتكلم عن صاحبنا «السمني» ولا كيف اشتركوا في الحديث، إذ كل ما أذكره لحظتها أنني و«مدي» كنا نتهامس في سيرة الرجل، فمتى صرنا نتكلم عنه كلنا هكذا بصوت عال؟ هذا ما يكاد يلحس مخي والله يابوي، «بربش» وزع علينا دورا من سجاير البلمونت وأشعلها لنا قائلا في صوت خفيض «على فكرة! الحاج السمني من الإخوان المسلمين! ولهذا فأهل المدينة كلهم يحبونه» إذ هو رجل يعطف على الغلابة والمساكين! يوزع الزكاة بالهبل! ويشاع أنه من زعماء الوفد الكبار! وهو لا ينفي ذلك بل يتفاخر به كثيرا إذا ما سأله أحد! أما الآن فهو عضو في الاتحاد الاشتراكي على مستوى المحافظة! وعضو

كذلك في مصائب ودواهي كبيرة كثيرة؛ إنما هو محبوب ما أحد يستطيع ... سوقي وابليجي وركي وستم؛ مشهور كالخط
ومحبته؛ في الصبح قد يجلس في غرزة الحشيش بين ... من اللصوص والنشالين والهجامين يبادلهم بوصة الجوزة بنفس لنفس لكنه مع ذلك لا يتحرج؛ فهو معروف لكل الناس ولن يقبض عليه الضابط إذا هاجم الغرزة؛ وفي الظهر قد يجلس مع أصحابه على سفرة الغداء يتباحثون في أمور البلد وسلع تموينها وشوارعها ومجاريها ومساكن إيواتها ومستوطني مساجدها والمجوبين في أوتوبيساتها الحرجة؛ وفي المساء قد تراه في حفل أم كلثوم أو في دارها وربما في داره هو؛ إن عبدالحليم حافظ صديقه وقد رأيناه كثيرا معه وزارنا هناك وكنا نحدم عليه وقد غني في عيد ميلاد شيماء ابنة الحاج؛ أنا مرة رأيت عنده الكاتب الصحافي المرحوم كامل الشناوي وكان يسهر عند الحاج كثيرا يلعب الكوتشينة ويقول الشعر ويمصمص في خلق الله؛ مرة رأيت عنده ـ في هذه القمرة التي نقف فيها الآن ـ مصطفى أمين وفهد رستم وحسن الإمام وجميل السداوي؛ ومرة أخرى إحسان عبدالقدوس ونديه لطفي؛ إنه رجل جامد؛ وكل هؤلاء يقصدونه في خدمات يؤديها لهم لأن اتصالاته كثيرة وجامدة؛ أما مرة رسلني إلى المطار لأحضر هدية جاءت له من الملك فيصل؛ والملك الحسن ملك المغرب بعث له السلام في حوابات وكروت المعايدة؛ وله أصدقاء في أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وسفند العرود؛ والسياح يجيئون للسؤال عنه فيسألهم عن صحة أولادهم

وأصهارهم وأهلهم؛ كنت أظنهم يجيئون للفرجة عليه وعلى شكله التحفة لكنني فهمت بعد ذلك أنه متكلم حريف يسحر السامعين! وهو عفريت يا جدع؛ أسمعه يتكلم في التاريخ فاستحر مثلهم من وقوة المعرفة إشي فرعوني وإشي قبطي وإشي روماني وإشي إسلامي؛ ساعات يظهر أمامي كالمجنون المحترف حين يتكلم عن الحميري والسماري والبابلي والآشوري والبلاء الأزرق. ففهمت أن السياح يتعشقون كلامه خصوصا وهو يمشي بين الممرات التي مشيت فيها مند قليل يا صعيدي يا قحف؛ لقد دست على سجاجيد يقول الحاج أن السلطان الغوري هو الذي اشتراها ولم يسعده الحظ بأن يعيش حتى يدوس عليها».

وهنا قاطعه «بسبوسة» قائلا بصوت طري من بين ضحكات متقطعة محصورة، لا نعرف إن كانت ضحكات أم تأوهات صارخة. «ألا تعلمون أنه من عائلة الشبير؟» ضحكت رغما عني قائلا في انفعال «كيف يابن العم؟ من الذي جاء بعائلة عامر الصعيدية إلى عائلة السمي الصراوية». قال «بسبوسة» مستدركا: «أقصد أنه صهر لعائلة الشبير! فابن بنت خالته متزوج من عائلة الشبير! والله أعلم كلها إشاعات في إشاعات ولكن الغريب أن الحاج لا يكذب ما يسمعه أثناء شروح «عروبي» في وجوهنا بأصبعيه اللذين يمسكان السيجارة وقال بثقة تامة وحق من جمعنا من غير ميعاد أنكم جميعا أقفال تربيس! لا تفهمون شيئا! الحاج السمي يا هبل ليس اسمه السمي إنما السمي هذه فوق اسمه

تدري نقب جده!». تقرفص «هندي» هامسا: «لبكن الجن الأزرق! إنها دنيا ملأنة بالعجب! اللهم أنت أقل حق الله عجب! إننا بالنسبة لهم ملائكة أطهار». وقف «سبسوسة» وهو يتحسس بطنه وثدييه «سمعته مرة يقول إنه من أصل مغربي!». فقال «غرولي» متعجبا «كان قبل ذلك من أصل يمني». شوح «هندي» قائلا بلهجة مقوس كبير: «الحاج السني لو سرح بك في سرحة مزاج متجلية سيثبت لك أنه يمت بصلة قربى إلى ربنا شخصيا! ولو انشرح صدره قليلا فسيجيء لك بشجرة العائلة العتيقة المبروزة بإطار من الذهب المشغول. يريك صورة منها بحبر حديث مضافا إليها بخط يده خطوط تشبه أوراق الشجر فيها أسماء مكتوبة حديثا يعقبها لقب الملك والباشا والعالم العلامة والإمام! يريك كيف أن هذا الفرع تزوج من العائلة الفلانية، فخلف هذه الأوراق وهذه الأوراق كونت هذه الفروع! يسمعك أسماء في الوريقات تسمعها في الراديو وتقرؤها في الجرائد، يوضح لك أن فلان هذا يقول لأبيه: يا ابن عمتي، وأمه ـ أم الحاج السني ـ تقول لأم عدلي يكن يا ابنة خالتي!»..

تحلف اليمين يابوي أن دماغي صارت كالكرة التي كانت من قبل فارغة من الهواء فجاء من نفخ فيها بمنفاخ آلي حتى تحجرت وصارت على وشك أن تتفرتك من مفاصلها. أمسكته بيدي حتى لا ينفرط. تنهدت من قعر بطني الدفين، قلت: «أهم من كل هذا يا أبو العم! ماذا يربطكم بهذا الرجل؟!».

تبسموا جميعا يابوي، ثم ضحكوا يابوي، وانتهى ضحكهم بشخر وضجيج يابوي. فكأن صفائح مياه ساقعة انهمرت فوق جسمي. قلت باسما كالأهبل في الزفة: «علام تضحكون يا ولاد؟». قال «سريش» في لهجة عمر مريحة فيها عمر وعمر: «هذا الرجل صاحبنا! حبيبنا! يحب قعدتنا ونحب قعدته!». قلت: «عال عال! كسبنا صلاة النبي!». قال «بسبوسة» مقلدا لهجة الأفلام: «إنه أبوي الروحي يا جدع»، ثم قطع ضحكته المائعة فصارت ترن في صدره فيهتز وتتدفق أثداؤه. شعرت أن الشك يثقب كرة رأسي بسن الدبوس. ولم أفهم معنى عمرة «بسبوسة»، فاحتفظت من نفسي والله يابوي، لكنني قلت: «كسبت صلاة النبي! نحن مهارنا هل يأس الله!». وقال «غرولي» وهو يشعل سيجارة: «يقصد بسبوسة أن يقول لك أن الرجل أخ كبير لنا! يوجهنا ويعاوننا! ويساعدنا على المعايش!». قلت: «ربنا يساعدنا جميعا! من قدم خير بيديه التقاه». غير أن «هندي» تربع قائلا في عمز كقمر السنابير في المياه: «الله يكرمه! إنه يروق بالف ويبل ريقنا! ولكن بعد أن يكفونا من الشغل والتنظيم في المشاوير».

ضحك الصحاب وضحكت أنا الأحمر يابوي، فعاودتنا كريزة الضحك من جديد يابوي، صرنا نشال ونصبط كالمجانين السائبين والله يابوي، إلى أن سمعنا وقع أقدام، فكفكف دموع الضحك ورحنا نفرغ أصواته في صدورنا فتهتز بعنف شديد. فلما اقترب وقع الخطى، جلسنا محترمين مترممين كل في مكانه فوق

شلته كما التماثيل، وكانت الخطى كثيرة ومتواصلة، تنقطع برهة لتتصل من جديد فترايد وتتزايد. ثم انفتح الباب يابوي، ليدخل خادم يرتدي جلبابا أبيض كجليب الحانوتي ويتلفع بحزام أحمر ويلبس طربوشا على رأسه ويحمل طبلية مهولة الحجم لم أر مثلها في حياتي عند أوسع العائلات. فوسعنا لها ما أمكن فلما وضعها صرنا كالفراخ حولها لا تظهر سوى رقابنا بأكتافنا. تبع الخادم خادم آخر يحمل صينية نحاسية أوسع من دائرة الطبلية فوقها نقوش ورسوم بالألوان مطعمة بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والمرجان وعين القط، وضعها فوق الطبلية. تبعه سيل من الخدم والولدان يحملون أطباق وقوارب وسلطانيات وأكواب وأباريق وملاعق وشوكات مع سكاكين كثيرة لامعة بمقابض مطعمة بالعاج فعرفت أنها جميعا من الفضة وأن معلقة واحدة من هذه تساوي الشيء الفلاني، فطرف تحفة يابوي تحب الفرجة عليها وهي طول الأصبع. طست وإبريق من النحاس استقر عند العتبة. ثم توافدت الروائح يابوي، مشويات ومقليات وتخديعات ومحشيات. الولدان كالقوارير، في لمح البصر رصوا الصينية بوليمة تاهت عقولنا فيها يا حال. في أعقابهم وصل الحج «أحمد نور الدين السني»، فالتقى بجوار الباب برهة نزع فيها الأغطية عن بعض الأطباق هاتفا فينا «بسم الله يا أولاد». فإذا بخيرات الله كلها مرمية أمامنا يابوي، ومتاحة، ما عليك إلا أن تمد يدك وتشبع إلى عينك تحشر في معدتك، وأين هي البطن التي ستتسع لكل هذا النعيم؟ حمام وديوك وبط وكفتة وكباب وشرائح لحم محمرة، ومهرجانات من سلاطات الحمص والباذنجان والطحينة ناهيك عن الأرز والمكرونة بأنواعها «كُلْ يا ولد أنت وهو بغير كسوف فالدار داركم كما تعملون، هب للنبي، بركة على الأكل حتتك بتتك حشرنا البطون كالرتابين كالبلاليص، والحاج «السني» لا يني ينتقي ويقتطع ويرمي أمام ملاعقنا وأيدينا وأحيانا في فمنا، رغم ذلك لا ينقص الخير في الأطباق، فيالها من بركة كبيرة. ثم أخذ ضرب الملاعق في ترسانة الأكل يخفت، والملاعق تسلم واحدة وراء أخرى، إلى أن سمعنا قولة الحمد لله تطلع من جوفنا فتذكرناها فرمينا الملاعق ورددناها متراجعين إلى الخلف بظهورنا، وأيدينا مكتفة بجوفنا لامعة الأصابع بإدام الطعام الدسم. نهض الحاج قائلا «تفضلوا» فنهضنا جميعا ومضينا خلفه إلى خلاء السطح. فوجدنا حفنة من الولدان واقفين بالطست والإبريق، راحوا يصبون الماء على أيدينا ونحن نغسلها، نمسحها نجففها بالفوط، نتكرع بصوت عال لنقول الحمد لله..

في لمح البصر كانت الأطباق قد رفعت والصينية قد أجليت عن المكان، وتمددت الشلت على راحتها من جديد فتمددت سيقاننا لكن الباب انفتح من تلقاء نفسه، وزحفت ترابيزة زجاجية جميلة على مهل، يدفعها ولد حلو التقاطيع، بهرتنا وبهرنا، فنظرنا فيها فإذا عليها براريض الشاي والأكواب والسكريات جعلها الولد في وسطنا تماما وتركها وانصرف. ليدخل في أعقابه ولد آخر يحمل لفة مشمع مطوية، سرعان ما فرشها بجوار الباب وخرج. ليدخل ثانية بعد برهة حاملا طبلية صغيرة مخندقة، يضعها فوق

للشمع، يلحق به ولد ثالث في يده وجاق نحاسي كبير فيه فحم مشتعل مصهلل، وضعه فوق الطبلية وخرج، ليعود بجوزة عبارة عن جوزة هند كبيرة بها بعش وبوصه من أعواد الورد للجوزة من الداخل، وضعها مغموسة في قلب دلو كبير ملئ بقطع الثلج ثم دخل ولد آخر يحمل صينية صغيرة عليها أكوام من الموز والبرتقال والتفاح والعنب. وضعها في الطابق الثاني من الترابيزة الخشبية أم هجل، ووضع فوقها حزمة من الشوكات والسكاكين اعرابي منظرها بإخفاء ثلاث منها. لولا الرقابة الشديدة عليّ من زملائي، ذلك أننا جميعا كنا نراقب بعضنا البعض بكثير من الشك والريبة. وكل منا يريد أن يدفع الشك عن نفسه بأي شكل. تعلقت نظراتي بالفاكهة برهة طويلة أحاير نفسي بأي تفاحة أبدا تذوق النعيم. فلما انتبهت وجدت بجواري مباشرة دلوا آخر، بمجمرة الجوزة المرصوصة بالدخان للعسل.

ما كدت أمسك بالتفاحة حتى كانت بوصة الجوزة قد أكملت دورتها لعندي. وكان «الحاج السني» قد رمى أمام «بريش» بقطعة حشيش في حجم كف اليد قائلا «قطع». فصار «بريش» المفترى يقتطع إمصاءات كالبلابيم الصفراء الكبيرة يفرشها على الحجر يغطيه، يرص حوله النار كالحمص، إن كان فيك حيل فشعط وأرنا كيف تسفح هذا الحجر، إن فعلت صيحيف لك «رعبة»، كمصة الحمص فوق نار الحجر المشتعلة. إنه مفتر في الشرب كما أعرفه لكن اتضح لي الآن أن «الحاج السني» أكثر

افتراء. إنه ليس يشرب بحماسة شهوانية بابوي، بل إنه يغالط في الدور أيضا بابوي، ويزعم بشقاوة أن دورا فاته لم يوبخ فيه حجرا كما ينبغي، ويتصايف أن يكون لحظتها قد أسلم البوصة لجاره لتوه. مع ذلك يثير جدلا كبيرا وربما يتعارك ولا يهدأ إلا إن ولع حجرا زيادة، ولربما رغم أن الحجر كان مكتوما، أو محفوفا، أو مطفأ النيران، حتى يقول له الولد الساقي بسماحة نفس رائقة «حد غيره يا حاج»، فيربت على ظهر الولد في امتنان شديد وورقة زائفة قائلا وهو يتلقف البوصة باليد الأخرى «أيوه يا ابني الله يكرمك ويعمر بيتك! روح إلاهي يكفيك شر «مرض!». ويبعث الدخان من فمه ومنخاريه في تبعثر ولدة مكملا «روح إلاهي يلتمها في وشك دنيا وآخره!»

بعد حجارة لا حصر لها. وأصابع موز استلمت بلا عدد وبرتقالات وتفاحات، وعنبات، ووربت في البطون بغير وعي، وأكواب شاي اندلقت في الحلوق الصادية. بعد كل ذلك اعتدل «الحاج السني» مرتكنا بظهره للحائط ممدا ساقيه مصالبا عروقهما قائلا «يعني ما عرفتونيش بالرجل الطيب ده»، وأشار بكفه نحوي، فهتف «بريش» مشيرا بكفه نحوي «هذا هو حسن أبوضب؟ صاحب المقهى التي كنا نلعب عليها القمار أيام كانت لبسكتنا الحكومة عنده». صاح «الحاج السني» في غبطة صبيانية طويلة كأنه يعرفني معرفة الأخ لأخيه «يه. يه. إزيك يا ولد يابو علي! يا تلتميت ألف مرحبا! كنت فين يا ولد من زمان!»

حكيت له أمري من طقطق لسلامو عليكم، فاستمع لي كما القاضي يستمع للأبوكاتو في هدوء، ثم ابتسم قائلا «على كل حال أنت حظك من السما، أنت الآن بين إخوتك! غدا تصير الأشياء معدن والحال عال!». وفرغ من سيالته بضع ورقات من الأحمر القاني وقال «خذ! خل هذا المبلغ معك حتى تتيسر لك الأحوال!». تلكأت قليلا وانكمشت على نفسي كما العلق، صرت أقول «تشكر! تشكر يا حاج! ربنا ما يحرمناش!». فضغط في بشمة «خذ!». ولكزني الصحاب كلهم من كل ناحية «خذ يابو علي! اسمع كلام الحاج!». وقال الحاج «صرنا الآن إخوة! ألم نأكل من طبق واحد! لابد أن تصون العيش والملح!». قلت «طبعا! طبعا!» ومددت يدي فأخذت النقود، ودسستها في اللحظة، في جيب الصديري، غير مصدق أن الدنيا ترمي بنفسها في حجري، هكذا مرة واحدة يا حال. غير أن صوت «الحاج السمي» زحف متلويا كالثعبان يقرصني في أذني بكلمات تقول «أكلنا عيشا وملحا معا يا حسن! فهل تعرف عقاب الله لمن يخون العيش والملح؟». قلت «هو عقاب كبير يابو العم!». قال «عودني المولى الكريم أن يعجل بعقاب كل من يخون العيش والملح معي! فليس من أحد خان عيشي وملحي أو فكر أن يخون إلا وكان عقابه فوريا بفضل المولى العزيز الجبار عز وجل!».

لعب الفار في عبي يابوي، شيء ألهى في نفسي قال لي إن الرجل العكروت يهددك من وراء خلقة الباب، فماذا ياترى ينوي

أن يفعل بك، وكيف لي أن أخون عيشه وملحه؟ يعني ماذا. كيف تكون هذه الخيانة ياترى ومع من؟ ذهب الشتات بعقلي يابوي، فشعرت أني سأسقط من الجنة إلى النار مرة واحدة تحلف اليمين يابوي أن بطني كركبت وسمعت لها دويا كالرعد القاصف، وزعولة تشبه سيفون دورة المياه حينما يشدون سلكه فيهدر الماء في فتحة الكنيف، كما تهدر بطني الآن. رن في أذني صوت أمي «ملاحلاوة بخبر نار». فنظرت إلى «الحاج السمي» وقلت له «المسئ من جهتي يا حاج! فأنا ولد أصيل! أصون العيش والملح! أحفظ السر! لا أنجس الماعون الذي آكل فيه! ولا العتبة التي ألزمها! كما أني لا أعض اليد التي تطعمني!». وكنت أراقب وجه «الحاج السمي» وهو يستمع إلى هذا الكلام، فأجده مرتخي الملامح مبتسم الفم والنظرات، والسرور باد عليه من كلامي، ثم إنه قال «أنت على كل حال في مقام ابني! وأنا أحببتك وشعرت أنك أهل للثقة! أحب أن تعرض عليّ كل مشكلة تصادفك! لأساعدك بعون الله على حلها! وأوصيك بالصدق والصراحة معي قدر ما تستطيع! فبالصدق والصراحة تكسبني غير أنك بدونها تخسر نفسك كلها»..

ارتعبت مرة أخرى يابوي وتخضخض بالي وقلت لنفسي ما الذي يريده هذا الرجل منك يا ولد أبي خضر؟ هل يشغلك عنده في هذا الطابور؟ هل يرسلك في تنفيذ مهمات؟ انتظرت أن يبوح الرجل بشيء يريح بالي فلم يفعل يابوي، فكركبت بطني من جديد وصار

الطعام كحجر الرحى فوق صدري، فحاولت أن أتكلم حتى لا أنحرف، فسكت تاركا دماغي يستريح على عنقي، وليس يدور فيه غير صورة أمي، وأخي الصغير، وأختي «سعدية»، و«حرابه» و«هليّل» و«بهانة»، يعجنون كلهم في بعضهم كالعجينة، ويخرجون من بعضهم واحدا وراء الآخر. أفقت على الضحك من حولي و«هندي» يلكزني في جنبي صائحا: «ياجدع بطل شخير! الرجل يكلمك وأنت نازل في الشخير! فضحتنا يا جدع!». فرفعت وجهي كالأبلة محدقا فيهم، وهم يتقافزون في الهواء من شدة الضحك. عندئذ نهض «الحاج السني» واقفا يقول: «النوم وجب من بدري!». فقمنا جميعا ومضينا وراءه والولد «هندي» ملتصق بي يسندني ويسند نفسه من الضحك الخفي، الذي يرجه رجا. فسارت في خطو، وصعود فهبوط، وهبوط فصعود، ودخول وخروج، حتى وجدت أننا صرنا في قلب الشادر. فبدأت أتذكر الطريق الذي جئنا منه، وبدأ وجهي من جديد يصافح لفح الجحيم.

الخامسة ـ الباب المضمون

لما خرجنا من فتحة الشادر إلى الشارع العمومي الكبير لفحني الهواء فانسطلت فوق انسطال، وتذكرت العربة الأجرة التي كانت قد جاءت بنا من المحطة فلم أجدها. تخلف الهمس يا بوي أمي انخطف قلبي من صدري من أول ما مشيت في الشارع. جاءني هاتف يقول إنني خرجت لتوي من الجنة إلى جهنم خبط لزق. وجاءني هاتف آخر معه يقول إنني لم أكن مجرد دقيقة في قلب الجنة بنفسها كما وصفها الله في كتابه العزيز وأن ما كنت فيه هو حلم الفرخة الجائعة بسوق الغلال. سألوا الأعمى بعد: تحلم؟ قال: بقفة عيون. وأنا قد حلمت النية بالجنة حتى دخلتها لكني طردت منها بغير أسباب وصاحب الجنة لم يقل لي ما هي الشجرة المحرمة. وها أنا بالحال قد عدت أمشي شريدا في شوارع «مصر منيلة». سألت نفسي: أين تبيت ليلة بحالك يا ولد أبي ضب؟ أتذهب إلى صاحبك «سيمي» ماسح الصرم؟ أم تذهب إلى المعلم «شندويلي» وتتركه يغلق عليك المقهى؟ لكن المعلم «شندويلي» زمانه الآن في سابع نومه

يدي كانت في جيبي رغم أن الدنيا حر، وسألت نفسي لماذا وضعتها في جيبي؟ ثم أخرجتها فإذا هي لاتزال قابضة على الأوراق الحمراء، تحسستها فاقشعر بدني وتأكدت أن الجنة لم تضع من يدي بعد، وأنني يمكن أن أرجع إليها وقتما أشاء إذا أنا دهنت نفسي عسلا أمام هذا الرجل وتركته يدوقني بلسانه الأريب، إن كان هذا الرجل هو بواب الجنة فإني إن لم أكل بعقله حلاوة أكون مغفلا كبيرًا يا بوي، إنه لن يكون فزورة أعصر دماغي في فك عقدتها، سوف أعرف كل ما يرضيه لأفعله وكل ما يغضبه لأمنعه وأعرف مواضع الأكلان التي يستحلي الهرش فيها من جسده فأهرش له فيها بأظافر حنون رقيقة حتى يلهب من النشوة، ذلك لن يكلفني شيئا يا خال، فليس على الكلام جمرك يدفعه المتكلم ولا يولد الرجال خرسا من الأصل، وليس على أفعال الإنسان من رقيب سواه هو نفسه يفعل ما يشاء

دهمنا صوت «بربش» صائحا في خلاء الشارع العريض «وحدي. و. و.. ه»، هدرنا جميعا في صوت واحد يهزه الخوف والخشوع: «لا إله إلا الله» وضغط «بربش» على كتفي قائلا «حتبات فين يا بن علي؟» قلت: «والله ما أعرف يا خال» لطمني على كتفي «تعال معي» فقال «هندي»: «خليه لي فأنا أعزب وأقيم وحدي أما أنت فأمك وإخوتك ليس ينقصهم من يزاحمهم في الجحر الذي تسكنونه في حي السيدة زينب!» قال «بربش»: «حين نصل يكونون قد أخذوا كفايتهم من النوم فننام أنا وهو». قال

«هندي»: «دع الناس في حالهم» قال «بربش»: «وبالمرة سأكلم حسن في الأمر!» اشتدّ قلبي نحوه بحنان، وطار النوم من عيني، صرت ملهوفا على معرفة هذا الأمر واستحسنت فكرة الذهاب معه رغم أن نفسي تفضّل الذهاب مع «هندي» قال مشيرا لي: «سأكلمه أنا في كل شيء، أحسن منك. عر في داهية ومع السلامة!» وشوح للجميع وهو يضع يده على كتفي «مع السلامة يا أولاد! نتقابل في الميعاد بكرة على القهوة!» وسحبني ومضى بي نحو مجرى العيون، فدخلنا في إحدى العيون بين أكوام متراكمة من الدور ذات الطابق الواحد والطابقين، يستطيع المرء أن يسلم - وهو في الشارع - على من يقف في شباك الطابق الثاني، أما الجدران فمائلة وغائصة في الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالعطن والمجاري الضاربة (أبحرا وقنوات وبركا) تلتحق بعتبات البيوت. أكوام الدور يقسمها شريط مترو حلوان إلى ضفتين من الهديم والركام تنفتح فيها شبابيك وأبواب، من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم، فكلها متشابهة متضافرة يتساند بعضها على بعض ويعلو بعضها على البعض، ويختفي معظمها في أكوام الزبالة المالئة المكان ريحا نجسة خبيثة

مشينا كثيرا بجوار شريط المترو ودخلنا في حارة من الحواري الضيقة التي لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط وربما شخصين، لحظتها كان نور الصباح يفلق أكوام الزبالة ويختلط بألوانها وينتشر في الحواري رائحة الفول المدمس الطائب مع رائحة دخان

متحررون في هذه الكهوف. قلت لـ«هندي» مستغربا: «تسكن في هذه البلدة يا هندي؟». قال: «يا ريت!» انفرط قلبي، قلت: «يا ريت؟! تقول يا ريت!!». التفت نحوي مؤكدا: «طبعا يا جدع! من يسكن هنا يعتبر في قلب مصر ويستغني عن الانحشار في الاتوبيسات والقطارات يروح أي مشوار على رجليه! وكل الأسواق من حوله قريبة».

تصدع دماغي يا حال كان «هندي» خبطه بدبشه. والذي على ودني أنه قال: «الحلوات جاءت إلى هنا يا حسن! فلا تستهوني بهذه البيوت! لو كنت رجلا تعال اسكن هنا في أي عشة بدون أن تدفع ألفا واثنين وثلاثة! أنا أجرت ورشتي في العمارة الجانبية بخلو رجل قدره ألفين! وكانت كبيرة وعالية فقسمتها سطحين بالطول جعلت نصفها للورشة والآخر للمعيشة والبيات! ومن يوم أن سكنتها فتح الله عليّ بعد أن كنت أضيع النهار كله في شحطط من أتوبيس لآخر دون أن ألحق بشيء». ثم إنه توقف عند دار من طابقين صغيرة الحجم يابوي كامرأة سمراء بنت بلد بشمارات في صدرها، واجهتها مدهونة بالجير ومكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولها بابان رفيعان من الخشب، أحدهما بضلفتين مقفولتين وفوقهما ترقيل من الحديد بقفل كبير، والآخر بضلفة واحدة. وكلاهما مدهون بالزيت الأزرق. أشار «هندي» إلى هذه الدار وقال: «ما رأيك في هذه المحروسة؟» قلت: «آخر تمام!» أخرج مفتاحا طويلا من جيب بنطلونه فتح به الباب ذا الضلفة الواحدة ودفعه، فظهر في مواجهتنا سلم واقف مبني من الأسمنت. مد يده في صندوق الباب من الداخل وأضاء النور وقال: ادخل، فدخلت صاعدا الدرج، ودخل هو ورائي وأغلق الباب وراءه بترباس سميك متين، وصعد خلفي حتى لحق بي على البسطة، وأخرج مفتاحا آخر فتح به بابا خشبيا ودفعه، فإذا بنا في حجرة كبيرة مدهونة بالجير السماوي ومزدانة حوائطها بصور نساء عارية بالألوان وصور للراقصات والممثلات والمطربات وكل نجوم السينما.

في الحجرة سرير سفاري نظيف فوقه ملاءة مزهرات كالمناديل المحلاوي، بجواره دولاب طويل يضيقني من دواليب الموكاسيت وترابيزة مستديرة من الجريد، وثلاثة كراسي من الخيزران. على الحائط المواجه للسرير تسريحة كبيرة على شكل البيضة. على الأرض كليم مصنوع من بواقي قصاصات الخياطين مما يباع بثلاثين قرشا للواحد بالتقسيط المريح. فوقه وابور (بريموس) وبجانبه أكواب وحلة من الألومنيوم وطبقين من الصاج ومعلقتين ومغرفة، وعلى درج التسريحة راديو من البلاستيك الأخضر ماركة صوت العرب. أول شيء فعله «هندي» حين دخولنا أن فتحه فصار يوش إلى أن وفدت من بلاد بعيدة جدا موسيقى تشبه موسيقانا. فتركها ومضى يترقص في الغرفة على واحدة ونص وبدون مبرر، فصرت أصفق له وأضحك لكنه بعد برهة شهق وتوقف مستنكرا يقول: «بس! بس! أحسن الجيران في عز النوم».

ثم سحب كرسيا فجلس بجواري وأشعل سيجارة ورمى بالعلبة نحوي فأشعلت أنا الآخر واحدة.

انجعص «هندي» مادًا ساقيه على كرسي آخر، ونفث الدخان بلذة الحرمان الكبير، وقال: «مشف يا حسن يا خوي! أنت وافقت على أن تشتغل معنا! ونحن رحبنا بك لتأكل عيشا معنا! ثم صمت ليشد نفسا من السيجارة، فصمت أنا الآخر مثله وقلت: «طبعا يا هندي يا خوي! ربنا يوفقكم جزاء جميلكم في!» المهم أن يكون الحاج السني قد انبسط مني». شوح بالسيجارة بجوار رأسه، وظهر عليه الاستغراب وهو يقول: «والحاج السني ماله ومال شغلنا؟ أنت تشتغل معنا لا مع الحاج السني» قلت مندهلا: «كيف يا بوي! أنتم قلتم لي من البداية إنكم ستعرضونني على هذا الرجل في الأول قبل أن أشتغل أي شغل». شد «هندي» نفسا عميقا ضيق له ما بين حاجبيه في خبث واضح، وقال: «عرفناك به لأنه رجل طيب وناصح ويعرف الناس من وجوههم! ولو قال لنا إنك لست محل ثقة لما شغلناك معنا».

كلام معقول يا بوي أليس كذلك؟ هذا ما شعرت به على كل حال، فأحسست أن المفتاح يطبق في حناقي، صرت أطوح أصبعي يمينا وشمالا بحركة نفي واعتراض مع تأتأة متتالية. و«هندي» نظر في مندهشا يقول: «ما تقصد بهذا؟» قلت: «إن رباطكم بالحاج السني أمتن من هذا يابو العم! إنه ولد لاف ودائر كما تعرف يا هندي أفهمها وهي طايرة!» قال هندي مقبلا

يا جدع! وهل تقول فيها إن الحاج السني بكل صراحة يعاوننا على المعايش! إن احتجنا نقودا يسلفنا ونردها له بعد ميسرة! وإن توفر معنا شيء يصعب التخلص منه باعه لنا بواسطته أو اشتراه! المهم إنه يفرج عسرنا والسلام! هو كما قلت لك رجل طيب وجده كان قاضي قضاة أحد السلاطين! ومن هنا فإنه يفهم في المنازعات وفضها وفي أمور المحاكم وقعدات الصلح والمصالحات! إنه خبير في توقيع الغرامات وإرضاء كافة الخصوم على الوجه الذي يرضيهم جميعا! إنه يفصل بيننا في كل نزاع يقوم بيننا وبين الناس وبينها وبين بعضنا! باختصار هو يحمينا من أشياء كثيرة ويسعى للإفراج عنا إذا حكم علينا بالمبيت في الأقسام! ويضمننا عند الحاجة إلى الضمان».

تحلف اليمين يابوي أنني أغمضت عيني وفتحتها في دماغي فلم أر لهذا الكلام قدمين يمشي عليهما، إنه في الظاهر كلام زين، لكنه يذكرني بشرائح الخشب التي يلصقها النجار في بعضها بالغراء صانعا منها لوحا عريضا لا يظهر موضع اللحام فيه، لكنك لو ضغطت عليه ينكسر. هذا كلام ملتصق في بعضه بالغراء يا بوي، لكنني مضطر لتصديقه، وأنى فتأكد من أنهم جميعا يعملون عند الحاج «محمد نور الدين السني» من الباب للطاق. «خلاص يا هندي خلاص! هذا كلام مليح وإنني موافق على ما تقول!». قال «هندي» وهو يطفئ السيجارة في غطاء علبة ورنيش معدة لهذا الغرض: «ربنا يخبر لنا العيش جميعا! ثم لمام

حتى تقوى على العمل». تعجبت والله يا خال وتبرجل مخي وتلعبك، وظننت أنهم ينوون الذهاب بي إلى المورستان. شوحت قائلا «يا هندى ياحوى! أنت للآن لم تقل لي ما العمل الذي ساشتغله محكما». قفز عن السرير منبها مشوحا بيديه. مصفق من سماك صعيدى قفل! تظن أننا سوف نجلسك إلى مكتب بقفص قهوة وجريدة صباحية وساع تتآمر عليه طول النهار! يا بني آدم أنت الآن تعتبر في الشغل! من الآن مشتغل! وأجرك محسوب. قالو يا خبير بفلوس! قل غدا يصير بالمجان! لا تصير قليلا ترى نفسك في قلب الشغل دون أن تدرى!» قلت. «ها أنى صابر يا حوى». قال «قم نم لك ساعتين!». قلت «سأنام على الأرض ها هنا». شوح متسعدا «ثم والسلام في أي جورة تعجبك».

لقيت صرة خلقاتي بجوارى، فتعجبت والله يابوى كيف افتكرتها وجئت بها معي رغم أني كنت ناسيها. تسممت راضيا عن نفسى ورميت صرة الخلقات فوق الكليم وهبطت وراءها فجعلتها مخدة ركنت فوقها رأسي واسبريت اقرأ الفاتحة طلبا للنوم يجيئني من ظلام الاعتكار الذى غير مراجعى مرة واحدة وصدع رأسي. ظل النوم يحاورني وأحاوره ولو كنت احفظ القرآن لتلوته كله عليه، لكنني ظللت ساعات طويلة أتقلب على جمر النار، حتى فتحت عيني فرأيت «هندى» يحلق ذقنه أمام المرآة واقفا بالفانلة والسروال - سروال المدامة، فتكورت جالسا، فأشار لي

حياله في المرآة إلى كوعة في آخر الغرفة لم أكن تنبهت لها ساعة دخلنا. فقمت ماضيا إليها فإذا هي فتحة باب، يديها على الجنب باب مخلوع، تطل منه فتحة الكنيف. ثمة حوض من الأسمنت مبني في الحائط تحت صنبور. دخلت الكنيف، فصببت بطني من ولائم الأمس واستعدلت ثم قمت فغسلت وجهي بالماء من صنبور الحوض، فحيينا لاسمي الله وتفكرت في أنني متوكل على الله خطر لي أن أتوضأ. شيء إلهي في نفسي قال: توضأ يا ولد وصل ركعتين لله يوفقك في طريقك ويرجعك مجبور الخاطر.

أنهيت الوضوء وعدت إلى «هندى» فوجدته قد ارتدى كامل ثيابه النظيفة وحذاءه فظهر أفنديا ولا البكوات. سألته: «ألا يوجد عندك حصيرة صلاة؟». وضع كفه تحت أذنه صائحا في اهتمام شديد «ماذا قلت؟». كررت قولي «حصيرة صلاة». قال: «لم؟». قلت «لي». قال في استنكار بالغ «أتصلي؟». قلت «لا. ولكنني أريد الآن أن أصلي». قال بنغمة الشخر «الآن فحسب؟» قلت نعم! لعله تعالى يوفقنا!». انفجر «هندى» في الضحك والشخر حتى صار كالمجنون وصار يغني. «صلي وصام لأمر كان يطلبه! فما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما!». ثم سحبني من ذراعي كالقبوض علي قائلا «يا جدع لا تكن عبيطا! أتظن أن الله تدخل عليه هذه الألاعيب! أتظن أنك تضحك عليه وتأكل بعقله حلاوة. يا لك من بارع! يالك من ولد مفتح. امش يا جدع ولا تجعله يعاقبك بالعصية!». ودفعنى من فتحة الباب، صرت أكر على السلم. بعد دقيقة كنا في الشارع. خطرت عن باب الورشة فوجدت أرضه

تالفة. فتيقنت أن بابيها ثالثًا لم يفتح منذ شهور طويلة، وأنها مهرباً مكان يستتر به الولد نفسه أمام الخلق حين يقول إنه غسام صاحب ورشة.

وكانت الشوارع الضيقة الملتوية مضاءة بمصابيح الجاز المعلقة على أصداغ البيوت على النواصي والحواديت - حاذينا شريط المترو، خرجنا من العين، كسرنا الخطو ماشين بحذاء مجرى العيون، ثم كسرنا إلى شارع الجيارة، ومضينا إلى مقهى المعلم «سعفوت»، لنشرب لنا حجرين لزوم الاصطباحة. وقال «عندي» «الساعة الآن الثامنة بعد العشاء! مرعيا مع الصحبة في الماشرة». قلت: «ألا نشق ريقنا بلقمة صغيرة نشرب عليها؟» قال إن مطعم الفول والطعمية مجاور للمقهى

وصلنا إلى المقهى، فأوصى «عندي» صاحب المطعم بأن يرسل لنا صينية فول عليها طلبان، فما كدنا نستقر على الكراسي التي في الحارة حتى جاءت الصينية وفوقها طبقان من الفول وطبقان من الطعمية وأربعة أرغفة وطبق سلاطة خضار وطبق بيضة الطعمية. تآوينا كل ذلك في دقائق، وطلبنا الشاي، وكان «بسبوسة» أول القادمين بجلبابه المكوي، ما إن جلس حتى طلب الدخان فجيء به وبالجوزة والنار والولد الذي سيصقينا. صار «بسبوسة» يرص الحشيش من قطعة في راحة يده مخفية. وصرنا نشرب إلى أن جاء «فرولي» من بعيد يأكل في رغيف محشو بالكبدة ذات الرائحة النفاذة ويتبادل الشتائم القبيحة مع

كل من يصعقه في مشوار من رجال يعرفهم ويعرفونه، حتى بعض النساء كن يدخلن معه في قافية للتنكيت. ثم جلس بجوارنا بعض صبيان المقهى وأمهاتهم البغايا، وهم يحتملونه في التآمر ثم ما يلبثون أن يردوا له الصاع صاعين. بعد ذلك مباشرة جاء «بربش» وقد تغير شكله من بيك محترم إلى مجرد رجل يلبس قميصا وبنطلونا، بجيبه انتفخت القعدة، لفرقت حجارة المعسل ترك بالمخدرات حتى شبعت وموسقنا نسبيا. ونظر «بربش» في ساعة يده الضخمة المذهبة، وقال «الساعة الآن منتصف الليل!». فخيم على القعدة دخان القلق وسمعنا صوت مزمار عربية تشبه زمارة الخطر. فنهضوا كلهم ونهضت معهم، وقال «بربش». «لقد وصلنا». ودفع «بسبوسة» بحساب صاحب المقهى، ومضينا إلى الشارع العمومي في اتجاه عربة كميون كبيرة والملة تسد فتحة الحارة. نظرت فيها فرأيت على أبوابها وصدورها من كل ناحية كتابة ميزت فيها رقم العربة وحرفين هما: ق ع فلم أعرف ما معناهما يا بوي لكن «بربش» قال. اركبوا. فركبنا، هو و«بسبوسة» بجوار السائق وأنا و«عندي» في قلب الصندوق المستطيل..

انطلقت العربة يا بوي، جرجت واستوت على طريق الكورنيش، فملت على «عندي» وسألته إلى أين نذهب الآن يا عندي يا حوري؟ قال «متوكل على الله لنشتغل!». قلت «أي شغل يا جدع؟» شرح قائلا في فروغ بال: «ستعرف حالا»

■ ●

السادسة - ليلة قاف عين

حوّمت العربة على بر البحيرة، وصارت تضرب في طرق بعيدة حتى اقتربت من عواميد خرسانية تقف في العراء وحولها أكوام كبيرة من حديد التسليح والطوب الأحمر. دخلت العربة بحذاء الحديد وحشّت عليه ثم توقفت. فنزل «بريش» و«بسبوسة» والسائق، فنزلنا معهم. فجأة هجم كل من «بريش» و«بسبوسة» على خفير عجوز نائم على شكائر الأسمنت وفي حضنه نبوت، كتفاه بالحبال ولثماه بلاسته. ونزع «بريش» من حزامه مسدسا رماه لي قائلا «هذه مهمتك يا بلديها! قف أمام هذا الخفير، إذا أظهر أي حركة أو كلمة أو صيحة اقتله في الحال».

ارتعت يا خال، لكنني شددت يا حال. أمسكت المسدس بيدي فرحا به، وزأرت في الخفير أن يكتم أنفاسه، بينما انصرف كل من «بريش» و«بسبوسة» و«هندي» والسائق يرفعون أسياخ الحديد حزمة حزمة، ويعبئون صندوق العربة الكبيرة حتى امتلأ عن آخره بحوالي عشرة أطنان، وركبوا. فلففت حول العربة وشبطت في جدار الصندوق الخشبي فلحق بي «بريش» وشدني من ثوبي

قائلا ببساطة: «ستبقى أنت هنا! سوف نجيء مرة ثانية وثالثة ورابعة!» تطلسمت عيني يا بوي، وداست قدم عبيطة فوق قلبي، فجاءني إحساس بأنه سينقطع من عروقه فصحت من غيظ ومن وجع: «كيف يا بوي أبقى هنا؟ أهو الملعوب إذن؟» فلطشني بظاهر كفه في زمزمة وضيق هامسا: «هندي» سيبقى معك في حراسة الخفير لحد عودتنا. خفت القدم الثقيلة ثقلها على قلبي فاسترحت بعض الشيء إذ إنهم لن يضحوا بحبيبهم «هندي» من أجل ملعوب يلفقونه لي. عمي صعيدي يا بوي ولابد أن يتعبني قبل أن يفتح لي أبوابه ومحاريه. هو يفتح لي أبوابه حسب مزاجه الخاص يا بوي، وقسما بالله العلي العظيم يا بوي إنني ما حاولت فتحه مرة وانفتح، بل إنه ليحيرني ويتفنن في تطليع ديني يهزأني بين الخلق. وحينما يتجمع خلق كثيرون لفتحه، لا تنفع طفاشات ولا مفاتيح كأنه شغل بره يا بوي. لا يمكن فتحه بسهولة بحيل اللصوص لصوص البيوت، لكن المضروب ما يلبث حتى ينفتح وحده ذات لحظة فيبين لي الحق من الباطل، وذلك عندما أكون رائق البال، ولا أكون رائق البال إلا عندما أكون رائق المزاج بعد أن أشرب لي حجرين من حشيشة نظيفة طيبة الأصل.

شعرت أن عمي سيتقفل مع «بريش» وهو إذا انقفل يهدد بفضيحة قد تذهب كلنا في رجليها. فلحقت شجاعتي قبل أن تهرب مني وصالحت نفسي عليها ووليت ظهري للعربة عائدا إلى الخفير. فلما رأيت «هندي» مرابطا بجوار الخفير واثقا من نفسه

يمرح ويجئ حول الخفير واضعا يديه في جيبي بنطلونه ضاربا الدنيا صرمة كأنه يتنزه. اقتربت منه وسحبته إلى بعيد وهمست في أذنه «بتاع مين الحديد ده يابو العم؟». همس في أذني بهزة من كتفيه «مش عارف والله يا حسن؛ لكن الظاهر إنه قاف عين!»
قلت في غيظ «قاف عين يعني إيه يا بو العم؟ تتكلمون معي بالسيم والفوازير يتلقل مخي ويبرجس!» كتم الولد المكروت ضحكة وهمس في أذني «يا مني أدم قاف عين بتاع الحكومة؟ بدال ما يقولون قطاع عام اختصروا وسموها قاف عين!»

تلعبك مخي أكثر والله يا بوي، صار مثل الكنافة يستحيل تسليك خيوطه من بعضها. لكن عجلة مخي أسرعت تدور وتدور مفكرة وتقول «كيف يابو العم! عربة قاف عين تسرق متاع قاف عين!». الولد المكروت أخذ يضحك ضحكا مكتوما ويشخر بصوت عال، وفي النهاية شرح بيده نحو رأسه مرسلا لي نظرة فيها نفاد صبر وتهديد ووعيد «شف يا بلدينا؛ إذا كان مخك الصعيدي اليبس سينفتح على هذا النحو! فالأفضل أن تقفله بقفلة مسوجرة؛ إن شغلنا يحب الستر يا صاحبي ويحب تشغيل المخ! والصعيدي حين يفتح مخه يجيء لأهله بمصيبة ثقيلة؛ إذا كنت تريد أن تشتغل معنا يا صاحبي فالواجب أن تقفل مخك وحنكك هذا تخيطه بالدوبارة؛ ولسانك تقطع منه ثلاثة أرباعه؛ ما يجري علينا يجري عليك! وحقك تأخذه بالرضا والتسليم دون أن تفتح فمك وإلا ضعت! إسمع كلامي فأنا أحب مصلحتك وأعرف طيبتك وسلامة نيتك!

لكن الشغل معنا كالحمّام دخوله ليس كالخروج منه؛ إن بقيت معنا على الوضع الذي قلته لك الآن تخرج من الحمّام مستحما نظيفا لابسا ثيابك النظيفة منتعشا! وإن فتحت مخك الصعيدي التخين على هذه الطريقة الصعيدية التخينة ستطرد من الحمّام عريانا مسلوخا من جلدك تتمنى الموت في كل لحظة؛ وعلى كل حال يا صاحبي أنت مازلت على البر لم تدخل في الغويط فإن كنت غير واثق من أنك تفعل ما طلبته منك فإني يمكنني أن أعاونك على أن يذهب كل منا إلى حال سبيله دون أن يصيبك أذى! وتستطيع أن ترد الحاج السني فلوسه التي سلفها لك!»..

تلخبط عقلي يا خال، لم أعرف كيف أرد على الولد «هندي» وقد شعرت أن مزيكة الصدق في صوته. قلت له «تشكر يا هندي يا خوي؛ والله عداك العيب وسافر حتى الشلال! أنت الآن تورني وأنا ح أبقى معكم أو انصرف لحال سبيلي» ولحظتها كنت اجمع في دماغي الكلام الذي سأقول له به إنني سأختار الانصراف إلى حال سبيلي وليوفقكم الله ويوفقني كل في طريق... لكن لا أعرف يا بوي من الذي صحى صورة أختي «سعدية» لحظتئذ في دماغي فصار قلبي ينتفض راقصا من الطرب أم من الاضطراب لا أدري، لكن «سعدية» مشيت في دماغي لحظتها حاملة المدفع الرشاش ترديه به الحكومة قتيلة في لمح البصر ثم نطت كالفارس على ظهر حصان «حرامة» لتنطلق معه إلى الجبل طريدة تصبح مثلما كان شوكة في جنب الحكومة

دامية. ففي الحال صحت في الولد «هندي» وقد جمد قلبي «أنا معكم يا هندي يا حوي حتى نهاية العمر بإذن الله! ولن أفرط في صحبتكم أبداً!» فسحبني الولد تحت إبطه وطبطب على كتفي وقال «ربنا معاك ومعانا»، ثم حاصرنا الحمير من كل ناحية.

دقائق وبرقت في حلكة الليل أنوار مقبلة فسحبني الولد «هندي» برفق وتسللنا على أطراف أصابع أقدامنا كي لا يشعر الحمير بانصرافنا فيصيح. دارينا أنفسنا خلف العواميد منبطحين بين شكائر الأسمنت وستائر الأحجار، ويدي على الزناد مستعدة للضرب في الحال فلما اشتد النور فجأة، انطفأ فجأة. وكف هدير العربة، وجاءنا صوت بابها وهو يفتح ويغلق، وصوت «بربش» يتنحنح فنهضنا وجرينا إليهم. لأقف بجوار الحمير واضعا فوهة المسدس في ظهره وينصرف «هندي» للمشاركة في التحميل، حتى امتلأت العربة بتمامها، وكان لابد أن أبقى ثانية، وفي هذه المرة كنت أكثر شجاعة. وفي المرة الثالثة كنت أنهره رائحا غاديا كالتي الحمير الحقيقي. وفي المرة السادسة كنت أنا الذي يصبّر «هندي» ويهدئ أعصابه القلقة إذ أن الفجر كان على وشك أن يشد خيوط النهار وكانت أعصاب «هندي» تنفرط كلما ابيض وجه الصباح في هذه المرة يا حاج وسعت العربة آخر ما تبقى من أسياخ الحديد في قعر صندوقها، وفوقه رصات من شكائر الأسمنت تعلو فوق كابينة السائق بأمتار. وكان عليّ أنا و«هندي» أن نتمدد فوق رصات الأسمنت، فاهتدنا نترفق بالعربة من التسلق خوفا أن تميل

وتسقط في ناحية. وقف السائق ليقضي مثلما تفعل الناس بجوار الحمير المتمدد فوق بعض الشكائر الفارغة مكتفا ملثما، سرت عدوى البول فينا جميعا، فتجمعنا بجواره صفا واحدا واحدا نبول في ثقة واطمئنان، وقال «بربش» مشيرا برأسه إلى الحمير «الراجل ده ما صحيش ولا عمل أي حاجة؟!»، قلت متذكرا «تصور يابو العم أنه لم يفتح فمه!» قال «هندي» مؤمنًا على كلامي «ولم يتحرك من الخوف!» قال السائق وهو ينفض قضيبه لينثر منه آخر قطرات البول «رجل طيب ويستحق أن نعطيه حسنة وعلبة سجائر!» قال «بربش» في كرم ظاهر «بي ريت» ثم مد يده فتناول مسدسه مني فشعرت كأنني قد صرت في الريح عريانا، وتمنيت أن يكون معي واحد على طول الخط إذ موضة المطاوي بطلت هذه الأيام

انحنى «بربش» على الحمير ووخزه بماسورة المسدس في كتفه قائلا «قوم يا حاج!» فصار الحمير يهتز تحت وقع المسدس، فمد السائق يده وأمسك برسغ الحمير وتحسسه ثم أخذ يدمدم «يا خبر أسود! الراجل مات!»

انبرينا نتحسسه من كل ناحية، ونضع أيدينا على فمه وقلبه ونلطمه وندعك في قصبته حتى ينكشف إن كان يمثل الموت ولكن لا حياة لمن تنادي. راح السائق يفك عنه الحبال شيئا فشيئا وقد وقف عند كل عقدة لينظر ما إذا كان الحمير يخدعنا،

و«بريش» شاهرا مسدسه في وجه الجثة ليردعها به في الحال إذا ما تحركت. بكى العمال كلها انفكت ورمى بها السائق على سطح العربة والحصر جثته هامدة لا حراك فيها. فرعنا عنه الملاءة ومددناه وعرديناها عليه كما كان في وضع نومه قبل مجيئنا، ثم تسلق العربة. وفي أسرع من البرق كانت العربة تنطلق بنا في الطريق، وأنا و«مهدي» مسطوحان كل منا عائش في ملكوته إلى أن توقفت العربة، ونزلوا، فنزلنا، فوجئت بأننا أمام شادر الحاج «أحمد نور الدين السني»، وثمة رجال من ولد عمومتنا يكتفون بالخيش، قد هرعوا لتلقي هذه الحمولة، وكان عرق تحتيق الحمولات السابقة يغمر أجسادهم ويتناثر مع الندى على أسفلت الطريق.

العملية طلعت أحلى أنس يا بوي، وآخر فرفشة، مطاكة ما بعدها مطاكة. ولم يكن قبلها بطبيعة الحال. الولاد - ربك والحق - عاملوني بالحد والمصلحة لم يطمعوا في عرقي وشقاي. نادوا على أمام الحاج السني ليريني - مادمت أنك الخط - حسبة الموازين التي أجراها لهذه «البضاعة» التي اشتراها منا. فلما قال كلمة «البضاعة» التي قيل إنه سيشتريها منا لحساب جمعية خيرية تبني في سبيل الله مساجد ومعاهد نظرت في وجهه جاعلا من عيني منظارين يخرمان عينيه. لعلني أجد خلف هذه البسمة الشقية شيئًا ينبئ على الحقيقة الكامنة وراء إنسان عينيه هاتين. وعيناه يا بوي تقول بلورتين صغيرتين لا يمكن النفاذ منهما ولا يمكن سحقهما بل والله يا جمال كنت أحس أن بصري يتزلق على

وجنتين صلبتين ولست أشك يا بوي أنه قد شعر بتعبي من جراء ذلك فصرف عينيه متعمدا ووضعهما في الورقة التي أمامه، وخط بالقلم الكوبيا خطا تحت المجموع الكلي عن حمولات ست جاءت بها العربة، وتحتها مجموع وزن شكائر الأسمنت. ثم غرز القلم الكوبيا تحت طاقيته الشبيكة وطوى الورقة قائلا

- «شوفوا يا أولاد! أنا ما عندي مانع في التعامل معكم بسعر السوق السوداء! لكن دا يبقى كثيرا عليكم. يجوز أن أظلمكم! ويجوز أن تظلموني! السوق السوداء كما تعرفون مجنونة بطبيعتها! يجنونها قلة من التجار الجشعين! ويضار منها التجار الشرفاء! من أجل هذا يا أولادي لا أجد طريقة أتعامل بها معكم أنسب من طريقة الشراء بالعرق! يعني نتعاهد بقراءة الفاتحة أن تقولوا لي عن السعر الحقيقي الذي اشتريتم به بضاعتكم! وفي المقابل أعطيكم عشرة جنيهات عن كل طن جزاء تعبكم وعرقكم في تسويق البضاعة وجلبها! فماذا تقولون!».

تحلف اليمين يا بوي أني سابت ركبتي كالواقف أمام ثعبان ساقط عليه من السقف. لم أكن أعرف أن الولد «غرولي» عويط يا بوي لهذه الدرجة. وقهلوي كبير يا بوي، تقدم من «الحاج السني» وعلى هيئته سمة التاجر الشريف الشقيان الأمين على بتاع الناس وقال.

- «وكيلك ربنا يا حاج! نحن والله ولسطة خير بينك وبين صاحب البضاعة! نحن ناس غلابة على الله. لا نطلب أكثر من لقمة

العيش الشريفة بعرق الجبين! أما أنت وصاحب البضاعة فناس مقتدرين! يزيدكم الله من نعيمه! ولكن ارفقوا بحالنا ولا تتشطروا علينا! وصاحب البضاعة قد ائتمنا على بضاعته ولم يقيد علينا أى ورقة سوى ورقة وزنها فقط ليحاسبنا بها! هو رجل طيب ما يتخير عنك يا حاج! لذا نحن لا نقدر أن نفرط في مليم واحد من أمانته. أنت تقول إنك تعطينا عشرة جنيهات عن كل طن! وتعرف أننا خمسة رجال! وعربة لها مصاريف ضعف مصاريفنا وعرق أعز من عرقنا! فلو قسمنا هذا المبلغ علينا فماذا يصيب كل واحد منا؟ لو بعنا الترمس والفول الحراتي مجمع في ساعتين اثنتين أضعاف هذا المبيع! وأنت تعرف أننا نعطيك بضاعة شحيحة نادرة في السوق والطرنشة منها في حنك سبع وأنت أيضا تعرف أننا ضحينا بحياتنا من أجل لقمة لا من أجل سُفرة!».

«الحاج السني» تابعه بنفس البسمة الشلبة في العينين وعلى الشفتين لا تنقص ولا تزيد. وتابعتهما كلاهما وقد انفرط قلبي وانفرطت أعصابي ولم يعد في حيل والله يا بوي، لم يبق فيّ مخ ينفتح. ولم أعد أصدق شيئا مما يحدث أمامي. في نفس الوقت يا بوي لم أعرف أن أكذب شيئا مما يحدث أمامي. فهل نكون في مسرحية تمثيلية كل واحد فيها يمثل على مزاجه الدور الذي يعجبه؟ العجب العجاب يا خال أمي وقد شاركت «عزولي» وصحبه في سلب هذه الحمولات بعربة تاف عيني من محـ ـن قـلف عين، وشاركت في تكتيف الخفير وإرعابه حتى الموت. رأيت أمي

أصدقه كل التصديق وهو يحكي للحاج «السني» ما حكى. كان ما حكاه حقيقة واقعة. كأنني شاركته في فعل كل ما حكاه مع أن ما حكاه لم يحدث. شيء يخول العقل يا بوي. حاجة تهوس والله

لما رأى «بربش» لحظة الصمت قد طالت وأن خطبة «عزولي» ستفقد حرارتها. تدخل قائلا وهو يشوح بيديه ورأسه وكتفيه ورقبته

- «على كل حال شوية عليك وشوية علينا يا حاج. أنت مهما كان خيرك علينا! ومصلحتك أولى عندنا من مصلحة صاحب البضاعة! ولكن حل عليك قليلا وراع مصلحتنا والتعب الذي تعبناه يا حاج! لقد حملنا النار بأيدينا يا حاج! إنها أشد من حكم المخدرات ياحاج! وهي كلها خير وبركة يا حاج! وربنا يزيدها بركة يا حاج ويجعل سرقتها أحلى منها! ولكن نص أبنازك وما عندنا لا يضيع يا حاج!».

البسمة الشلبة ارتعشت على شفتي الحاج وترقرقت في زلطتي عينيه الصليبيتين، وشرع قائلا لـ «بربش»

- «خلاص يا بربش! عشان خاطرك جعلنا الفرق اثنى عشر جنيها في الطرناطة! يبقى لكل واحد منكم جنيهان بما فيكم العربة!».

«عزولي» رفع ذراعه الطليطة رامًا شفتيه وراح يهزها علامة «ما ينفعش»، فترحرح «بسبوسة»، وتحسس ثدييه من فتحة الجلباب مجففا عرقه وقال باسما بسمة أنثوية بخمارتين.

- «على كل حال يا حاج! خذ لك عظة من تمسكنا بالمبلغ الذي سنأخذه عرقنا لنا! فهذا التمسك دليل على أننا سنصدق معك في قول السعر الحقيقي الذي حملنا البضاعة على أساسه من مكانها!».

شوح له الحاج بسبحته في فروغ بال قائلا

- «على كل حال السعر معروف وليست هذه مشكلة! وعموما قلت إكراما لكم ولأنكم أولاد حتتي وجيراني؛ وقلبي دائما عليكم؛ فإنني لن أدفع أكثر من خمسة عشر جنيها للطن الواحد لو طق الحديد! وإذا لم يعجبكم السعر فأنتم أحرار».

كشر «غزولي» في وجهه تكشيرة أظهر فيها - عن عمد - قليلا من قلة الأصل، لكنه أذابها في كوب من السكر بالليمون حين قال:

- «إحنا أحرار يعني إيه؟! يعني نشيل البضاعة ونرجعها تاني؟! لكن يا حاج! ما أظن أنك تفعل هذا وبحق أبهاتك! عموما خذ البضاعة ووصل ثمنها يا حاج! طلاق بالثلاثة يا حاج لنتي أتكلم الجد!»..

هنا وقف «الحاج السني» وشرح القلم الكوبيا من تحت طاقيته وشرع يحسب في الحال قائلا

- «يبقى الحساب على ثمانية عشر ولا أحد منكم يفتح فمه بعد الآن!»..

ومضى يخط على الورق. فصمت «غزولي» وصمت الجميع، ومطوا بوزهم ولووا أعناقهم علامة على الرضا الاضطراري. ونظر الحاج من فوق الورقة قائلا

- «الأصل كذا طبعا!».

صاحوا جميعا:

- «حرام عليك يا حاج! إنه يباع رسميا بكذا! فما بالك بالسوق السوداء؟!»

أضاف الحاج مبلغ جنيهين قائلا

- «يعني كذا؟!»

فحدجه «غزولي» بنظرة جريئة حسدته عليها، ثم أضاف خمسة جنيهات قائلا

- «بل يعني كذا!»

رماه الحاج بنظرة حمراء وقال:

- «أنت سفاح! منك لله!».

وشرع يحسب بناقص جنيهين عما قال «غزولي» وهو واثق أن أحدا منا لن يعارضه. وبالفعل لم يعارضه أحد بمجرد رؤية الأوراق الحمراء القانية وهي تترادف على يدي «غزولي» واحدة وراء الأخرى، والدنيا كلها ترقص من حولي طربا على حفيفها

نابني من هذه القيمة شيء كبير يا خال، أتدري كم؟ أم أقول لك لا داعي لإفشاء الرزق؟.. اسمح لي يا خال، فاللقمة التي تتلتش لا تؤكل.

السابعة. ليلة النتاية المحرقة

القرية التي كانت تتماهى في عزبة «صفصف» منها عزبة ومنها مقهى. حين يهفنا المزاج لشرب حجرين من الحشيش مدخل المقهى بجوار المصبة، نرقع مائة أو مائتي حجر على مصطبة واحدة، إذ ترف حجارة «المعسل» عشرا عشرا، وتوضع الجوزة البرطمان في جردل الجوز، ليؤخذ عبرها ملتفة بمياه ساقعة تجلجل تحت أنفاسنا الهائمة، فإذا فرغ من ذلك نخرج إلى الرصيف لنكمل السهرة في قلب الحارة.

هي حارة عجيبة ليس فيها باب واحد، غير باب المقهى، كلها جدران متصلة، فيها بعض النوافذ الصغيرة. وهي ـ الحارة ـ مكسورة بعد المقهى بعدة أمتار نحو اليسار، مما يحيل للقادم أنها حارة سد، أما الذي يعرفها فإنه سينكسر مع الجدار ليستدير مع الحارة اللافة إلى حرطة «أبو السعود» وحدود الجيارة. لذا، فلا تمر إلا سيارات أبناء المنطقة المدربين على القيادة، ويتوقف مرور السيارة فيها بعد العشاء مباشرة، فيباح للرياش زحزحة الكراسي إلى منتصف الحارة والجلوس على الصفين طول الليل، خاصة في ضوء القمر

صاحب هذه المقهى ولد واعر يا بوي، أقوى شخص في الحارة، إذ هو بلطجي كبير، وخارج من عشر سنوات أشغال شاقة. ظل يرفع المطواة في وجه كل من يدوس له على طرف، حتى ترك في الجميع جروحا وقروحا، فتركوه في حاله، وتركته الحكومة يطغى ويتجبر، ويقتني عشرات الصبيان، يوقفهم على النواصي بأكياس الحشيش الفاخر يبيعونه بأعلى ثمن، عيني عينك، لكل عربة ملاكي تقف على ناصية الحارة. ولكل الذي يجلس على المقهى. أما هو فبعيد عن الإمساك بالنار، مهمته شغل الحكومة والتفاهم معها، بالهدايا أو بالمحاكم، أو بالتهديد، أو بالبلطجة، أو بالسلاح كله ماشي، كل حالة حسب وضعها، وهو المنتصر دائما، وربما لا يمكث صبيانه في الحجز أكثر من سواد الليل. هو الباقي في بلادنا والحكومة متغيرة والقرش باق والفلوس أيضا متغيرة. المهم أن «صفصف» يعيش في هذه البلدة ولا كسرى أبو شروان صاحب التاج والإيوان الذي يحكي عنه شاعر الربابة لكنه ربك والحق ولد ذوق مع الذوق، فواحش مع الفواحش؛ إن أعطيته ريقا حلوا أعطاك نهرا من العسل، وأنت لابد أن تعطيه الريق الحلو غصبا عنك لأنه يبدأ بائف بتحلية ريقك إن جئت مقهاه شاريا في الصباح؛ حيث ترى ولدا طويل القامة مربوع، نحيف الجسد صلبه أبيض البشرة لكنها ملوحة بالشمس؛ شعر الذقن كفرشاة سمراء خصلة شعر مهملة على جبهته الضيقة تختفي تحتها عينان ضيقتان معشيتان على الدوام؛ يرتدي قميصا وبنطلونا كالحين؛ وصوته غليظ خشن؛ يمر على الجالسين في

مقهاه واحدًا واحدًا، يوزع عليهم قطع الحشيش بالمجان، كل قطعة تساوي نصفه ربع قرش على الأقل يرصها الزبون خمسين حجرا أو أكثر، فإن طاب لك أن تشتري منه بعد ذلك أهلا وسهلا، وإن اكتفيت بذلك أهلا وسهلا أيضا، لكنك إن اشتريت فلا تفتح فمك بأي كلمة وإلا كان نهار الأبعد أسود من قرون الخروب ترى نفسك في الشارع مضطجعا تحت عجلات السيارات وأقدام المارة وحينئذ لن يبين لك أصحاب.

نحن وكل الناس نحب الجلوس في قهوة «صفصف»، كما نحب الشراء منه ونثق في حشيشه، فندفع في القرش اثني عشر جنيها في حين يباع عند غيره بثلاثة جنيهات فقط، لكن الفرق بين حشيشه الغالي والحشيش الرخيص فرق السما عن الأرض. إسأل مجربا ولا تسأل طبيبا خاليا من التجربة. و«صفصف» يعرف أنه محبوب الحشيش من الناس فيتدلل عليهم ولا ينزل عن السعر مليم واحدًا، ولا ينزل كذلك عن مستواه حتى لو توقف عن البيع بسبب شح الصنف الجيد. أما الشهرة فإنه يرفع سعر الطلب فيها ثلاثة أضعاف سعره في المقاهي الأخرى، وكذلك سعر حجارة الدخان، إن كان يعجبك فاجلس، وإلا فلترنا عرض أكتافه. بهذا تخلت المقاهي واقتصرت خدمتها على مجموعة منتقاة من الزبائن يدفعون بدون فصال ولا يعلو حاجب واحد منهم على حاجب المعلم «صفصف» ولا كلمة على كلمته.

قد يخيل إليك من رؤيته لأول مرة أنك لو ضربته كفا على وجهه سترميه في الأرض طريحا، لكن إياك وهذا الظن: فإن

أجمعين منك دفعوا ثمن هذا الظن غاليا مع أنهم كانوا أقوياء معتدين بأنفسهم؛ فإذا هم يلمون أشلاء نفوسهم من الأرض ويقعون في بلاهة غير مصدقين أن هذا الولد المفروت في جسمه كل هذه القوة الناسفة؛ وكلهم في آخر اللمة يسعون بأنفسهم بعيدا عن التلسين في حقه أو التعرض له بأي شيء.

على حسه يدور دولاب العمل في غير وجوده، إذ هو يختفي عن منطقة المقهى بعد صلاة العشاء؛ ويقول صبيانه إنه يقطع الليل كله في مشاوير في بلاد الشرقية والغربية والمنوفية يزور بيوتا على الطرق الصحراوية يلتقي بالمهربين يتفق معهم على البضاعة يعاينها؛ لا يعود إلا قرب الفجر يتطوح. إذ أن «صفصف» رغم أنه تاجر حشيش وأفيون وبرشام وهيروين وكوكايين وكل مسحوق وماكستون، فإنه خمورجي من الدرجة الأولى؛ وهذا شيء يلفق الرأس يا بوي! فكل تجار المخدرات الذين عرفتهم يعشقون الخمر عشقا، ويشربون مع ذلك الحشيش لتطرية والأفيون تروم مسك الدماغ وشد العصب، ولأن ألف امرأة وفتاة في هذا الحي وهذه البلدة تتمناه وتخطب وده إذ أنه ولد كسيب وشاطر؛ فإن له جمهور كثيرة يسعى إليها في سهراته بين الخمر والسجون والدخان وطول ما يلزم، صبيانه يحكون لنا هذه الحكاوي ونحن منطقعين آخر الليل؛ ويقولون في نهاية الكلام إنه متزوج من حورية [illegible]. كل أهل المنطقة يعرفون أن «صفصف» علاوة على الفدادين يملك عمارات كثيرة في مصر الجديدة والعمرانية وحلوان، لكنه حريص لأنهم لا يكتبها باسمه ولا يبيت فيها؛

بل إنه لم يغير سكنه القديم فى حجرة فى حارة من حارات هذه المنطقة لا يعرفها إلا صبيانه المقربون؛ وإذا داهمته الحكومة فى هذا المسكن - وهى كثيرا ما تداهمه - لا تجد فيه شيئا بطالاً. ولا أى شىء يزيد فى مظهره أو مخبره عن حالة رجل على باب الله صاحب قهوة بلدى.

ليالى كثيرة ونحن نتلاقى على هذا الرصيف فى هذه الحارة دون أن نفعل شيئا يا بوى. والهبرة الكبيرة التى هبرها كل واحد منا فى تلك الليلة السابقة ضاعت؛ أنا مثلا أرسلت هبرتى كلها إلى أمى فى البلد لعلها تتمكن من إعادة بناء دارنا. لم يبق معى إلا حفنة براير وشلنات لا تودى ولا تجيب. ولولا أن الولد «هندى» رضى أن أسكن معه فى غرفته لكنت الآن بلا مكان أبيت فيه. فى كل ليلة سنفتح قطعة حشيش كبيرة ونحرق حجارة معسل عند المعصى، ونشرب شايات وحاجات ساقعة ونصرف آخر الليل صارفين من لحم الحى، وقد خشيت أن أتكلم فى هذا الأمر حتى لا أثير غضبهم علىّ وتشاؤمهم منى، فقلت فى نفسى ما يجرى عليهم يجرى علىّ، ولم أكن أعرف أن الفلس قد أتعبهم أكثر منى يا بوى؛ إذ قال «هندى» وهو يفرق علينا ورق الكوتشينة فى هذه العشرة الحية التى نلعبها مرابعة

- «بعدين يا «جدعان» عايزين مشتغل بقى! خلاص فلسنا».

فهرشوا كلهم فى رؤوسهم؛ وظهر على وجوههم أن هذا الطابق هو آخر طابق فى هذه العشرة الكوتشينة سواء انتهت أو لم تنته.

وقال «بريش»: «فرش فى دماغك يا عرولى!» فقال «عرولى» وهو يعبث بأصابعه فى شواربه مفكرا: «الفرحة لم تنقص بعد فلى إخوان فى شبكة قاف عين يشتغلون الآن فى ترتيب عملية طيبة ستعم علينا بالخير إن شاء الله؛ وأنا كل يوم أتصل بهم أستعجلهم؛ وهم يقولون لى اصبر على الأرز حتى يستوى؛ فاستحسن كلامهم وأنصرف».

وهنا قال «بسبوسة» وهو يدلك فى ثدييه الكبيرين

- «ويظهر أنك تستحسن حالة فقرنا أيضا».

وقال «هندى» وهو يزيح الورق من أمامه فى سأم

- «نريد عملية تعدينا من الفقر».

ألهمنى الله قولا

- «ربنا يقول اسع يا عبد وأنا أسعى معك! لما يمنعنا من أن نقوم الآن لنسعى» ونحن ورزقنا.

بحلق «عرولى» فى عينى بنظرة تحسب داهية

- «هذا شغل الحرامية الجربانين!».

جاراه «بسبوسة» قائلا

- «جئنا لشغل النتانة! لم يبق إلا أن ننشل فى الأتوبيس!».

قلت

- «وما العجب يا بسبوسة؟ ربما تقع اليد على هبرة كبيرة»

شوح «بسبوسة» بحيرة معلم كبير

ـ الهبرة الكبيرة لا تركب الأتوبيس! فلا ينوب الشال غير اللعب في الصغير! اللعب في الصغير مقود إلى الحبس وخراب البيوت بلا ثمن! إن سرقت أسرق جملا يا بقف!»

نقر «بربش» بخاتمه على الترابيزة قائلا

ـ والله حسن كلامه معقول! ومحي يحدثني الآن بأن نقوم ونبحث عن الرزق ونحن ونصيبنا».

ثم وقف في الحال يا بوي، فوقفنا كلنا! وجمعنا من بعضنا أنصبتنا من مصاريف القهوة! وتولى «عزرولي» دفع الحساب والبقشيش، ومضينا نحو كسرة الحارة حتى خرجنا إلى الخلاء وسرنا خلف «بربش» إلى مساكن الفسطاط القديمة.

هواء الفسطاط نعنشنا! فانقلبنا ضاحكين بغير وعي، كنا في بحر القمر غرقى، والدور من حوالينا رابضة في سفح الطريق وفوقه يعلم الله وحده ما يدور فيها مع أنها تبدو غارقة في الصمت اللانهائي، وكان الهواء يشاغب ويلاعب ستائر كالحة خلف بعض الترسيبات والشبابيك! فيجعل الدور تبدو كأنها تتنفس وصدرها يعلو ويهبط، قلت في نفسي إنها تدعونا للتعجيل بالفعل الذي سنترسمه، فهذه هي اللحظة المناسبة وكنت أنوي التكلم في هذا معهم: لكن عيني وقعت على أكثر من حبل غسيل مزدان بالملابس المغسولة كحبال الباعة فصار قلبي يدق بشدة وتمنيت لو أنني وحدي الآن لقطعت كل حبل بالمطواة من الناحيتين

ولممته في حضني ثم انصرفت متعشيا! إلا أنني قلت لنفسي: يا ولد أنظف وأكبر على حبل الغسيل واللعب في الصغير كما ينصح «بربش».

انتبهت فإذا بنا جالسين على صخرة من الأسمنت في سفح الطريق أمامنا «الجيارة»، و«مصر عتيقة» على اليمين، والفسطاط القديمة على الشمال، فحملقت فيهم وقلت إن ثعبان الليل أخذ الآن في سحب ذيله الطويل، ولابد أن نقص ما سنفعل قبل أن يدخل الديل في جحره وينطبق عليه جدار النهار، قال «بربش»

ـ «يا أخي طوّل بالك! أنني أتذكر الآن دكان بقالة في الفسطاط متريش وملآن بالخيرات! وصاحبه ابن قحبه ذمته واسعة»

قال بسبوسة مسلك هو أم مسيحي

قال بربش

ـ «مسلم وموحد بالله! له ذقن طولها متر ومسبحة وطولها متران!»

قال «هندي»

ـ «أليس يزكي على ماله وبضاعته؟!»..

قال «بربش» بعد أن أرسل شخرة سريعة خاطفة أضاف إليها:

ـ «أحّه! أقول لك ذمته يجري فيها القطار!»..

قال «عزرولي»

- «ليس لنا شأن بذمته الآن! ليكن ما يكون! نحن لن نصاهره ولن يصاهرنا! نحن لسنا المحتسبين بحسابه! فالملكان ينتظرانه في قبره في الآخرة وهذا يكفيه! والذي يهمنا الآن هو حرمة النقود! هل يفرغها في جيوبه قبل إغلاق الدكان؟»..

قال «بربش»

- «راقبته كثيرا عند إغلاق الدكان محاولا أن أتتبعه فيما هو سائر إلى داره لأخلص معه، فما رأيته يأخذ معه نقودًا قط! لأنه يعتمد على أن باب دكانه يحميه درفيل من الحديد المضلع العريض وقفل مسوجر لا يمكن فشه بطفاشة!»..

رفعت ذراعي صائحا في وجه «بربش» قائلا

- «يا عم بربش يا حويّ! هل هذا الرجل صاحب الدكان يبيع بالشكك؟!»

قال «بربش» ضاغطا بأسنانه على لسانه المذكور في غيظ.

- «ابن ميتين كلب! لو مت أمامه على رغيف وقطعة جبن لا يرق قلبه عليك! إلا إذا هرشت له بالفكة، مع أنه يعطي السجائر شكك لأفندية خولات يعرفهم!».

قال «حمدي»

- «سوف لن يجد في قبره من يسقيه!».

صحت قائلا بصوت عال ولهجة حاسمة

- «بقى لابد أن نحرق قلبه، فإنه يستحق الخسران الوبيل! صنف الذي يمنع عنك اللقمة وهو موسر وأنت معذور اقطع رقبته، دس فوق رأسه فإنه ثعبان سام! والله لابد أن يكون بحثنا الآن نفكر في أمره، لتكون كسرته على يدنا بإذن الله، وتوفيق منه».

قال «بربش»- «لابد أنك تكون اتقرصت منه يوما! فليس من واحد عاش في هذه المنطقة إلا وتوسم فيه الخير فلجأ إليه في طلب شكك، وارتد في النهاية خائبا مكسور الخاطر».

قلت مشوحا بذراعي صائحا:

- «أظنك تقصد البقال الذي على ناصيتي حارتين وعنده التموين وبرميل الزيت وأجولة السكر واسمه الحاج لولي؟»

هز رأسه قائلا

- «هو بعينه، الوحيد بين دكاكين البيع والشراء كلها ليس عنده دفتر للشكك، حتى دفتر التموين لا يراه أحد. أهل حواري المنطقة كلهم لا يتوفر معهم ثمن التموين الذي يبلغ من ثلاثة جنيهات إلى عشرة، بعضهم يشتري جزءًا صغيرا منه ويوقع باستلام الكل! بعضهم لا يأخذ منه شيئا فيسقط حقه بمضي الشهر، والحاج «لولي» يبيعه لهم بعدها بالقطاعي بسعر السوق السوداء الحرة»..

أنهى «عرولي» برم سيجارة حشيش أشعلها ليستدعي بها من طار من دماغنا من سطل في هبوب الرياح، وقال

ـ «ما رأيكم أنني فعلا قارش ملحة هذا اللولي من زمان! وأود أن أغدره وأذيقه العذاب ألوانا! لقد ذكرتني يا بريش بحركة كنت نسيتها من سنين طويلة' كان هذا المجرم قد فعلها معي' حين طلبت علبة سجائر هليود وفتحتها وأشعلت منها سيجارة وكلي عشم في أنني لو قلت له أعطيك ثمنها غدا فسيقول لي لا عليك' لكنه أخذ مني العلبة مفتوحة وقال غدا تعال حاسبني على هذه السيجارة التي أشعلتها! فوالله العظيم لأحاسبه الليلة على حق! ابن ديك الكلب هذا يجب محاسبته. نريد الآن عتلة ومربة'»

قال «بريش»:

ـ «باب الدكان خشب بضلفتين لا تنفع في فتحه العتلة'»

قال «فرولي»

ـ «سأحشر العتلة فيما بين مفصلات الباب والجدار' في ضغطة واحدة بإذن الله أدفعها بصدري في العتلة' تنفصل المفصلات بحالها عن الجدار' فيتسع المجال أمام الضلفة المعلقة فيها حلقة الترباس! فينفصل الترباس وينفتح الباب على مصراعيه' ويمكن أن ندعه مقفولا كما هو ونتسلل من فتحة نوسعها بين صدع الباب والحائط' مكان البضاعة معروف! والسجائر والأشياء الثمينة كلها متجاورة'»

قال «هندي»

ـ «سرمنا عربة نصف نقل'»

قال فرولي

ـ «هذه عليك يا حدق! تسرقها من الموقف أو من الجراج الكبير للتطرف' ثم تسيبها بعد أن تتخلص من مهمتها! أو ترميها في أي مكان قريب'»

سحب «هندي» بقايا السيجارة المحشوة ليسلب بقايا نفس وهو يقول

ـ «بسيطة! ما أكثر العربات! لو طلبتموها الآن حالا أجيبكم بواحدة محترمة'»

قال «بريش»

ـ «حل ذلك للغد! فلابد لنا من عتلة! وهذه لا توجد الآن في مكان قريب'»

صمت قائلا

ـ «إذن فدعونا بقية هذه الليلة نطرفش ونهيص! كل واحد يروح لحال سبيله!»

وكان في نيتي أن أمور بشيمتي الصغيرة وحدي يا بوي،أن أجمع ثلاثة أو أربعة حبال من حبال الغسيل هذه التي يخفق من رفرفتها قلبي، وغدا يمكنني أن أبيع في سوق العصر بعض ثياب تستحق البيع ولو بثمن الدخان. لكن «فرولي» شوح قائلا

ـ «لا ياحدق! قم بنا الآن ندور حول الدكان نعرف نحلته من خرجته' ندرسه من قفاه! فلربما يلهمنا الله طريقة سهلة نفتحه!»

استحسنا جميعا هذه القولة وتحمسنا لها، فما نحرى إلا ونحن نتخبط في حواري السقط الضيقة الملتوية، التي صارت أشبه بسراديب من الظلمة تحت حيبة القمر، وصلنا إلى ذلك التقاطع الذي يتملك دكان «الحاج لولي» ناصيتيه، تحسسنا بأيدينا الباب والدرفيل والقفل والمدرع والمفصلات وكل شيء، إلى أن قال «غزوبي» بثقة:

- «بالعتلة وحدها ينفتح الباب!»

ثم مشينا ندخن ونتهامس بالإشارة وهزة الرأس حتى صرنا في شارع الخلاء الهجيد المطل على إسطبل عنتر. على يميننا صف واحد من الدور الواطئة، وعلى شمالنا الخلاء، كلها دور من طابق واحد أو طابقين، بالكثير ثلاثة، لكن الرجل منا لو مد ذراعه عن آخره يطول آخر الطابق الثالث. «بريش» و«عرولي» كانا سارحين ببعضهما في الكلام يبعدان مسافة طويلة، و«بسبوسة» و«عنتري» مشيا معا على مسافة طويلة منهما يتكلمان، وعلى مسافة طويلة منهما مشيت وحدي سارحا بنفسي، مشى يوجهني نحو حبيا الغسيل. وقلبي يزجل إحراج المطرقة. فلما اختفى الصحاب في حوارية بعيدة، خفق قلبي لشعوري بالوحدة الفاجعة، وكنت أحس أنني أريد أن أتخلص من ضرورة، فسرت أتمسح بالحوائط بحثا عن حائط رطب ووسخ أرسل عليه ضرورتي، فاجتذبني شباك قريب إلى الأرض مدهون باللون الأزرق دهانا جديدا، وضلفتاه منقسمتان من عرضهما إلى قسمين أحدهما سفلي وهو الأطول

ومغلق من الداخل، والثاني علوي وهو الأقصر ومفتوح على مصراعيه والضوء يعبره إلى الخلاء فيرسم على التراب شبكة من ظلال أعواد الحديد المتجاورة.

هي العادة الذميمة يا خال، أبدًا ما قدرت على الخلاص منها. إذ بي قد حاذيت الجدار وقربت رأسي من فتحة الشباك محاولا النظر في داخل الغرفة، وإذا أرى الهول يا بوي، وقعت عيني أول ما وقعت على سرير بعمدان نحاسية بدائر حريري مكرنش، وبلا ناموسية، ومنظر الملاءة فوقه نظيف غاية النظافة يرسل رائحة معطرة، والسرير كان عاليا، ونسمة هواء تراقص كورنيش دائره العلوي، فبدا لي يا خال كأنه يتأهب ليتلقى موقعة سخنة يشيب لهولها الولدان. فما دريت إلا بنفسي أحاول لصق نفسي في الحائط، وقد بدأت جيوش من النمل تنتشر في كل عروقي تريد أن تخرج كلها من ذلك الخرطوم المنتفض بين ساقي يا بوي، منظر السرير لخبط عقلي يا بوي، قلب كل كياني، ذكرني أنني لم أكن رأيت سريرا بهذه النظافة من سنين طويلة. فلما رأيته طار النوم من عيني واشتد عزمي. وقفت على مشطي قدمي ورفعت عنقي وجمعت الغرفة كلها في نظرة واحدة، رأيت دولابا مضلفتين في مواجهة السرير، بجواره كنبة عربي، يتمدد عليها رجل سكروت نابت اللحية والشارب أشقر الشعر، بحلقت فيه، فإذا هو مستغرق في النوم كالقتيل العدمان العافية، منطرح على ظهره فاتح فمه عن آخره فجأة زادت رائحة العطر في خياشيمي وأخذت تقترب أكثر وأكثر مع اقتراب خفيف بجوار باب الحجرة الذي يفتح على

دهاليز شاحبة الضوء، أبعدت رأسي عن الشباك برهة، وقلبي أحد ينتفض، عدت فسللت عيني من بين أعواد الحديد، فإذا بي أراها يا خال، اللهم عفوك ورضاك، يا أرض احفظي ما عليك: امرأة فاتنة، ترتدي قميصا من النايلون بحمالات رفيعة على الكتفين، كل جسمها بارز من خلال القميص الشفاف، طويلة فارعة عريضة الكتفين، يطرح شعرها الأسود على ظهرها شرائح فيصل على صفحتي قمة الظهر إلى هضبة عالية، تنحدر نحو ساقين مبرومتين تنتهيان بسمانة كالشهد وكعب كالريال الفضي كانت تمسك بيديها المدودتين بذراعين عاريتين كوبا من الشاي، فلما استدارت رأيت وجهها كأنه البدر في يوم التمام، بعينين واسعتين كحيلتين، رموشها مستطيلة، وبجبهة كالبللور تميل من فوقها جدائل الشعر الفني، أما خدودها فتفاح طايب. وأما صدرها الناهد ففحلا رمان وأما بطنها ففطيات طيات، وأما خصرها فنحيل كجذع النخلة تحف به سرة كالعجين الحمراء، ارتاد التصاقي بالحائط وقد تصلب مسماري يا بوي وأوشك أن يخرق الحائط لينفذ إليها، انحنت هي على الكنبة، فارتفعت قبة المؤخرة وبان لي كل شيء، فكدت أصيح يا وعدي، وكان قلبي قد فارقني وحط على هذه القبة وصار يتزلق فوق قمة الظهر واصلا إلى الرأس دافنا رأسي بين جدائل الشعر، وخرج صوتها يا خال تقول قطة تطلب الحلال مناغية ناووووه، غير أنها كانت تنادي صفصف! صفصف! الشاي أهه يا حبيبي.

لم يرض قلبي أن يصدق حكاية الشاي هذه شاي؟! شاي ماذا يا بوي؟ وهل ينادي المرء لشرب الشاي بكل هذه الرقة وهذا

الرجاء الأنثوي الحار؟ لا يا بوي، إنها تقول له بصريح العبارة قم وخذني في حضنك وكلني أكلا، حتى لا تترك مني فتفوتة واحدة، عادت فاعتدلت واقفة تحيل إليّ أن لحما صلبا يلبص على مسماري هي وضعت كوبة الشاي على ترابيزة صغيرة، والتفتت، فمدت ذراعها تحت دماغ النائم ورفعته، فصار وجهه يرتفع نحوي، لأراه بكل حلقته

وا، ه يا خال، واه. تزلزل كياني يا خال وكركبت بطني، وانعوج مسماري من الرعب، إذ إنني تأكدت أن الراقد على الكنبة جثة هامدة هو بذات نفسه المعلم «صفصف» صاحب القهوة الغررة، الذي يلقي الرعب في قلوب المدينة كلها. فأيقنت أنه عائد لتوه من رحلة الليل اليومية مهدود الحيل من كثرة ما تكلم واتفق وتحاسب وسكر ونصب واحتال على نساء وبغايا ورجال من الحكومة وصبيان الباعة؟..

هل تكتفي هذه المهرة المتعة يا «صفصف» وتنظر إلى غيرها؟ إنك إذن لدميه طفس، فارغ العين، أعرف أنك طول الليل تسكر وتعربد وتشرشم الكوكايين وتفعل في نفسك البدع لكي تضاجع امرأة ساقطة أو راقصة من شارع محمد علي، هاك الآن هذه المهرة يا مقعف لا تكسر بخاطرها، كن قادرا عليها وحدها تدخل الجنة يا بقف، وحق سيدي عبد الرحيم القناوي لو أن عندي هذه ما نظرت إلى غيرها وبقيت طول العمر خادما مخلصا لهذه القبة الثمينة القائمة بين الفخذين تطلب الامتلاء في الحلال إلى ما لا

نهاية. أما أنت يا «صفصف» يا صاحب القهوة المغرورة يا من تتشطر علينا جميعا وتسمعنا العذاب ألوانا وتظهر علينا فحولتك ورجولتك، فإنك الآن في وضع لا تحسد عليه. آه لو رآك واحد من الرياش وأنت كالخرقة البالية أمام هذه المهرة الوادعة، التي اخترقت سخونتها حائط الداروسيحتني.

رأس «صفصف» يتمرجح على ذراع المرأة متهدلا كالفرخ المذبوح. والمرأة الحورية تهرش في ذقنه بأصابعها قائلة في حنان لا مثيل له: يا جمال «صفصف»! الشاي أهه! اشرب الشاي!». ولكن «صفصف» من يا بوي؟ إن «صفصف» ليس هنا وليس له ثمة من وجود. والمرأة التعيسة تظل مسندة رأسه بذراعها لبرهة طويلة، تنظر فيها نحو السرير شاردة حزينة يتطاير الشرر من عينيها، لكنها لا تلبث حتى تعود فتهرش في ذقنه بأصابع كأصابع الورد البلدي قائلة بكثير من الرجاء وقليل من اليأس: «الشاي أهه يا صفصف! ، اشرب الشاي بقى أحسن ما يبرد خالص! اعدل نفسك بس!». ثم إنها عدلته جالسا. وأسندت رأسه على المسند واستدارت لتجيء بكوب الشاي بين أصابعها، فما كانت تتركه حتى تهاوى من جديد مستويا على الكنبة.

استدارت إليه المرأة، تركت كوب الشاي، أنهضت الراقد عنوة جالسا، ضاربة خديه بكفها في مداعبة خشنة حتى يفيق، صائحة بعصبية: «صفصف! ما تصحى بقى تشرب الشاي! إنت مش طلبت الشاي؟ ما تصحى بقى يا أخي!». وهو يهمهم مربشا

برمشيه قائلا: «أهو طيب!» ثم لا يلبث حتى يغلق عينيه ويكسر رقبته. الحورية المسكينة أسندته على صدرها جالسة بجواره، وناولت كوب الشاي وقربته منه. فإذا هو قد هوى واستوى ممددا على الكنبة. وإذا هي بكل غيظ وبكل قوتها، تشيع كوب الشاي إلى الحائط المواجه طرا.. ا.. ا خ.. فجاء الكوب إلى ستين حتة، وانحدر الشاي سائلا على الحائط، تتصاعد منه خيوط الدخان، ورمت نفسها فوق السرير كالذبيحة القطسي، فكاد السرير ينفرط من شدة الرجة، وإذا بي أصيح من شدة الغيظ دون أن أشعر بنفسي: «اتفوه عليك راجل مره!». وأما المرأة فقد دارت وجهها بيديها وانخرطت في البكاء والنحيب.

وصارت تشد في شعرها وتخربش وجهها بأظافرها في غيظ مهيب، وتنتحب. كل ذلك وصاحبنا يغط في النوم حتى هيج غيظي. ولو كان معي مسدس لأفرغت في صدره كل رصاصه انتقاما لهذه الولية الغلبانة المحرومة من نسيم الدنيا يا بوي.

ربك والحق صعبت الولية علي، وتمزق قلبي من أجلها فحقدت عليها وعلى الناس كلها، وعورت مسماري في الحائط حتى المنى. ولم أكن أدري أنني أحدث أولسي الولية قائلا: «الله يكون في عونك». فإذا هي تنتفض قاعدة على حيلها ناظرة نحوي ملقية عينيها في عيني تشهق ضاربة صدرها بكفها، فلما رأتني غير خلفك ورأسي كاد ينحشر بين أعواد الحديد، فرت عن السرير مقتربة نحوي والغضب يطلق الشرار من عينيها، أي شيء فعلته كان مصفقة شمعتها إلى وجهي، فلم أتحرك من مكاني، فمدت يديها

بضلفتي الشباك لتغلقه، فمسحتها بأصابعي هامسا في وجهها: «ما الداعي لكل هذا وليس يرانا الآن أحد سوى الله؟ وأنا شعرت نحوك بالحب وكل أملي أن أرويك أحمر روقان! تعالي وأن أطفئ نارك المشتعلة إن الله ساقني الآن إليك لأطفئ لهيبك بدلا من هذه الجثة الهامدة!»

كنت والله غير دار بنفسي، ولا كيف تفوهت بهذا الكلام، والذي كنت واثقا منه لحظتها أن خوفي من المعلم «صفصف» قد نزل إلى الصفر ولم يعد ذكر اسمه يرعبني، ومع أنه لو سمعني تلك اللحظة وأحس بوجودي، لقام ولحق بي وقطعني إربا، فإنني كنت واثقا من أن الحسرة التي هو مغرم بشرب كل أنواعها كالسلاطة في كأس واحد تكبس الآن على نافوخه كالجبل، ولن تحل عن صدره قبل ظهر اليوم التالي، وعموما فعلى سبيل الاحتياط فإن مطواتي قرن الغزال مبرومة في دكة سروالي، ولا بأس من أن يكون السلاحان مشهرين معا أحدهما لك والآخر لهذه الجثة إذا تحركت. هكذا قلت للحورية وهي تبحلق في عيني المتعجلتين - بيني وبينك كان لي عينان ساحرتان في شبابي - وكان من الواضح أنها بدأت تتسمر بعيني بعد كلامي، لكنها مدت ذراعيها فأمسكتا بضلفتي الشباك، فتلقفت يديها بيدي وقربتهما من فمي وصرت أنهال عليهما بالقبلات الساخنة حتى تراخت أعصاب المرأة وأشارت برأسها أن: لف من الباب. فانسحبت عن الشباك نحو الباب وقلبي في مداسي، أكاد ألعنه ليفضحني من الخوف. إذ

كنت على استعداد، لحظتها، لأن أطبق في زمارة رقبة الأسد نفسه إذا حاول منعي من دخول الجنة هذه التي دعتني الآن لولوجها بسماحة وهي على أحر من الجمر.

سمعت تكة خافتة خلف الباب انفتح بعدها ربع فتحة، فدفعت جسدي في ظلام الفتحة وأغلقت الباب من ورائي في رفق، وارتميت في حضن المرأة شابطا في خصرها بكل قوة. صرت أعضها في كل مكان في وجهها وأضغط عليها بكل عنفوان مجنون، إلى أن شبت النار في عروقي، فبادرت المرأة وكسرت ظهرها وسلت سرواري ورفعت ذيل قميصها، ودككت الحصن المنيع دكا حاميا، نزلت عرقا في عرق، فما يكاد سن الفأس يرفع قبضة من اللحم حتى ينسد مكانها، فأعود للطعن، ثم الطعن، ثم الطعن، والدم هربان مني يا حال، حتى سحسحت امرأة بين يدي وانهارت كعود القصب المصموص، فما تركتها حتى نزفت روحي فوق صدرها. ثم استرحت يا حال، ولم أصدق أنني فعلت شيئا من هذا، بل كان مجرد حلم لذيذ. لكنني حين توجهت للباب خرج صوتي من تحت أكوام التراب يهمس للمرأة قائلا: «مبسوطة يا حرمة؟». هزت رأسها بابتسامة قائلة: «أراك كل يوم هنا في ساعة كهذه؟». قلت: «يحصل لي البركة يا هانم». ووربت الباب فاندفعت خارجها أجرر ساقي وألم دماغي المبعثر النشوان، ولم يكن يدور برأسي أنني أبحث عن صحابي، لكني فوجئت بأني قد صرت قريبا من «قهوة صفصف» بابها بارز والنور ينبعث من تحته،

فعرفت أن بعض الزبائن ساهرين، فنقرت على الباب بأصابعي، فنظر الولد من خرم الباب وتعرّف عليّ فرفع الباب قليلا، فانسحبت داخلا، لأجد الصحاب كلهم جالسين يدخنون صامتين. «كنت فين يا بن العم؟». جلست بينهم قائلا: «أحوجتني الضرورة للفرفشة ورفع الثياب في ظلام الخلاء». فضحكوا، وطلبت شايا وعشرة حجارة على حسابي. وكان يخيل إليّ أن أحدًا من صبيان «صفصف»، وربما «صفصف» نفسه لن يستطيع فتح عينيه في وجهي بعد الآن.

الثامنة ـ ليلة البلول السكر

بني آدم منا ليس أخس منه في الدنيا والله يا بوي، وإلا فمن كان يتخيل أنني أكف عن الذهاب إلى غرزة «صفصف» حيث تنتظرني حورية سمحة شاربة من آبار العسل والسمن. في الأول قلت إنه الشيطان الرجيم والواجب عليّ أن أفقأ عينيه وأطرده من بساطي إذا كنت أنوي الاستقامة والمشي في الحياة بالحد والمصلحة، وحقيقة الأمر يا بوي أنني كنت خائفا من جنون المعلم «صفصف» الذي إن أمسكني متلبسا فمصيري موت تحريقا بالطوالة ويضيع دمي هدرًا. وكلما فكرت في ذلك الذي حدث مني ترتعب روحي وتنكمش في صدري ويرتجف بدني، ويجيئني اعتقاد بأن الذي فعل ذلك الفعل الجريء شخص سواي لا أعرف عنه شيئا، لكنني يا بوي لا أقدر على دفع هذا الفكر عني، حتى تخايلت من شدة الخوف والارتعاش الدائمين أن «صفصف» قد بات يعرف كل شيء، وأنه يدبر لي تدبيرا حكيما ينهي به حياتي وحياة حرمته الفاجرة، فصرت والله أهرب من «قهوة صفصف» ولو كان الود ودي ما عتبتها قط. صار الخوف والرعب يهيآن لي

تصاوير عجيبة كلما نظرت في وجهه ـ وجه صفصف ـ إذ يحيل إلى أنه قرفان مني لا يطيق رؤيتي، لهذا لم أكن أترك عيني تقع في عينيه أبدًا.

إلى أن سحبني الولد «هندي» من ذراعي وانزوى بي في ركن من الحارة وقال: «يظهر أن المعلم صفصف زعلان منك؟ زعل خفيف يعني». قلبي يا نوى وقع بين ساقي ضئيلا كعود من الحطب والله يا خال. بصقت في عبي من الرعدة، قلت: «خير يا رب، اللهم اجعله خيرا». ضحك الملعون «هندي» وهددني بحركة من يده وقال: «معلم صفصف كلمنا بالأمس عنك حينما دعيت تفعل مثلما تفعل الناس!». جئت بصورتي من بين ساقي مهيضا وقلت: «ماذا قال يا نوى؟». قال «هندي»: «يقول إنه منغش من نظرة في عينيك بدأت تظهر له وهي تشبه نظرة الإحتقار! كأنك من غير مؤاخذة لا تحترمه!». ثم ضحك «هندي» فضحكت أنا الأخر متنفس الهواء، لكنني سمعت صوتا بصدري يقول: آه يا حسن هذه هي العلة والنوى فماذا تفعل في عينيك؟! الأوفق لك ألا تجيء هذه القهوة وإن جئتها فلا تنظر في عيني «صفصف» أبدًا.

ليلتها كنا متواعدين على سرقة دكان «حاج لولي». وكانت العتلة المطلوبة موجودة تحت ثيابي تضايقني تمنعني من الجلوس والشرب براحتي، كنت اشتريتها اليوم من وكالة البلح كما نصحني «عزولي». وكان طولها ذراعا، فلما انصرف «صفصف» إلى حال سبيله في أول السهرة قلت وعرفت أنه هو الذي يضايقني وليس

العتلة الحديد المدهشة ركبتني في الحال فصرت أضحك بصوت عال، على القاصي والداني، لكي أمنع دماغي من الوقوف عند الذي سنفعله الليلة بعد ساعة زمن. إذ كلما هرب دماغي نحوها ركبني الرعب يا خال، وتحول عود الحديد من مكانه إلى مكان آخر في جسدي لا يطيق مسمارًا فأنه يطيق عتلة كهذه، صرت أتمنى أن نقوم ونعجل بالفعل حتى نخلص أو أتخلص أنا من عود الحديد اللاهب، لكن صوتا يشبه صوت أبي قال لي: اعقل يا ولد وحينك ثقيلا راسيا، إذ نزلت في بحر كهذا فلا ترمي بنفسك من الضيق في قلب الماء حتى لو كنت عالما بالسباحة، بل انتظر حتى يرسو بك القارب على شط، حتى ولو كان هذا القارب قطعة صغيرة من الخشب، لا تنزل إلا على بر. وفي الحال وجعتني نفس الرعدة التي كان يزغدها لي في جنبي كلما اضطررته للخروج عن صبره والإدلاء بنصيحة كبيرة كهذه، فاقشعر بدني، وانتفضت متوجعا، فضحك الأولاد كلهم من فرعتي هذه مع أنني غطيتها بـ «وحد الله»، قالوا ساخرين إنني ـ قد اتضح الآن ـ أركب الهواء، فلأكن ما يظنون وما يشتهون فليس على الكلام جمرك، وكل واحد يقول ما يعجبه، «عزولي» قال للحاج «السني» ما يعجبه، والحاج «السني» يفعل ما يعجبه و«صفصف» كذلك يفعل ما يعجبه وحتى حوريته المسنونة هي الأخرى تفعل ما يعجبها، فكيف لي يا نوى أن أحاسب أحدا على ما يقول أو يفعل؟! إذا كان أحد لا يحاسبني على ما أفعل؟ أنا وهؤلاء الولد نفعل ما نفعل من شدة العوز، ومن غير

حياة تقعل حورية صفصف المصونة، إذ ما أشد عوزها لشئ لا يستطيع المال أو الذهب أن يعطيه لها. أما الحاج «السني» فلماذا يفعل ما يفعل يا خال؟ هذا هو الوحيد الذي يعمل ما يفعل لأنه لم يجد من يحاسبه، لأن الذين في يدهم أمر الحساب لا يشغلون أنفسهم إلا بنا يا خال، نحن الغلابة الذين يحسبهم القانون بدلا من المجرمين الفتاة العدل في بلدنا يضرب تعظيم سلام للحاج «السني» وأمثاله أما نحن فيضربوننا بالجزم القديمة على دماغنا وبالشلوت في مؤخراتنا ويبصقون في وجوهنا. ألا قاتلهم الله. اللهم أعم أبصارهم عنا وأنزل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة حتى يجهر على رسمال ذلك الرجل الأريب الذي يحسب عليك سبحانك ويؤكلك الأوبطة بدقن وزبيبة صلاة كورقة الدمغة يستغفل بها الناس ويستلبهم.

نهض «عرولي» قائلا «يلا؟» نهضنا في الحال ونحن نقول. مع الظالم. حاسبنا القهوجي، وتسربنا خارجين واحدا وراء الآخر، حيث كانت العربة التي سرقها «هندي» من جراج بعيد من مدينة نصر، واقفة في حارة أخرى من حواري السيارة المظلمة. كانت تشبه عربة الشرطة المسماة بالبوكس فورد الزرقاء

يخرب بيتك يا هندي يا ابن الكلب كيف عثرت على عين المرام؟ قال. اركبوا. وجلس إلى عجلة القيادة وأدار المحرك في الحال فإذا صوته هادئ وناعم فاسترحنا لذلك وقلنا. كفاك هذا اليوم يا «هندي» ستقعد ناعم البال ونقوم نحن بكل شيء، ثم إن

العربة خرمت في الحواري المظلمة على مهل شديد، حودت من أضيق الحواري، بدربة وحكمة لا يتأتيان إلا من «هندي» شارب الحشيش الدربجو والأفيون الصافي، ولقد تمكن من ركن العربة أمام الدكان مباشرة، فسد الشارع وصنع دورة للقاعين

نط «عرولي» على الأرض فلم نسمع له صوتا، فقفزت وراءه. وهبط إلى الأرض قاعدا على قرافيصه، سرب سن العتلة ابيطط للعيب وحشره بين الجدار والضبع الخشبي للباب. وظل يحشر ويحطر ويطرر الخشب، إلى أن دخلت العتلة حتى ربعها، ثم عدل نفسه مثبتا مؤخرته في الأرض جاذب العتلة نحو صدره بكل ما فيه من قوة، وصوت الخشب يطقطق، والضبع يسفسف ترابا كالحوائط حتى نجح «عرولي» في فصل الضلع عن الجدار من هذه الناحية، فانتقل إلى الناحية الأخرى وفعل نفس الفعل وحقق نفس النجاح، فأعجبني هذا الولد يا برى ثم إنه صدّر العتلة بالطول فيما بين الجدار والضلع، فارتفع الباب كله بضبعه موسعا من الناحيتين حارة يُزرق منها رجل بكل سهولة، وكنت قد حلقت حقفي وصدري بالفانلة والسروال، وكان «بربش» هو الآخر لابسا طرية زرقاء

زرقة باطلا يا خال، وبعدها بسملت مستعيذا بالله من الظلمة لكنني كنت أعرف مكان زر النور، فرحت متحسسا جسد الظلام حتى أدركته فلمسته فانبعث الضياء ووضح كل شئ، فسحب «عرولي» العتلة تاركا الباب يهبط على صدغه صعد «بربش» في

الحال إلى سطح البنك فنزل أمام الخصالة فانتزع من جيب سحري في العفريتة مطواة أخذ يعكرش بها في درج الخصالة حتى فتحه ووقف يرقص وينظر متلصصا حتى جبلي، فقفزت إلى جواره ونظرت، فهالني منظر النقود يا بوي، بسرعة أخرجت منديلي المحلاوي، فردته على البنك، صرت أغترف الرزم المؤستكة وأرص على المنديل أكواما أكواما، حتى عقدت أطرافه بصعوبة شديدة، وجعلت أحشر الباقي في كل جيوبي، ثم إنني قفزت نحو الباب، فدفعته بيدي، وسربت المنديل إلى «عرولي» فخبأه، بسرعة شديدة. أشار لي «بربش» على جوال فارغ، أمسكته فتحته، صرنا نقذف فيه بكل علب السجائر والدخان والشاي والصابون الفاخر والسردين والسلمون والبولوبيف وكل ما على الرفوف من علب وصناديق أفرغناه في عدة أجولة، حتى خلت الرفوف تماما وظهرت الحائط كمنديل محلاوي لم يتوسخ إلا في خطوط هذه المربعات الغامقة، صرت أعقد الأجولة وأسربها من تحت الباب فيتلقفها «عرولي» ويرصها في صندوق العربة بدون صوت، استدرنا إلى صنف من العلب الكرتونية المبرشمة بورق لامع سميك، اخترقنا بعضها بسن المطواة فوجدناها تحوي قمر الدين والتين والزبيب. فصار «بربش» يقذف لي بالواحدة فأسربها بصدر من تحت عقب الباب لـ «عرولي» فيرمي بها لـ «هندي» الذي يرصها في أرض العربة، هكذا حتى أتينا على تلال كبيرة نقلت بكاملها إلى العربة، تعثرنا في جارة من الصفائح الكبيرة

مرتصة بجانب وفوق بعضها. كنت أعرف أنها سمن وجبن وزيتون. كانت أكثر من أربعين صفيحة حولناها كلها إلى العربة، ثم إننا استدرنا إلى صنف من الأجولة المفتوحة تمتلئ: سكر وعدس وأرز ومكرونة وفاصوليا وبازلاء، وأخرى تمتلئ بأصناف العطارة من فلفل وكمون وشيح وحناء. كل هذا صَعُب علينا أن نتركه، فصرنا نحزم الجوال ونعقده ونسربه، إلى أن فرغ الدكان إلا من براميل زيت كبيرة لا نستطيع حملها أو دحرجتها من الباب، بعد ذلك دفعت الباب وخرجت، ومن ورائي «بربش» الذي حرص على أن يطفئ النور. كانت العربة دائرة، فتمددت فوق البضاعة وانطلقت العربة تشق طريقها كالثعبان إلى أن خرجت من الحواري واتخذت الطريق الطوالي نحو شادر الحاج السني.

حاجة تهوس يا بوي. الحاج السني ثانية؟ الصعيد وقلما يقدر على تسويقه، فكيف يقدر على تسويق هذه التشكيلة العجيبة من البضائع؟ فلما رأيت من حولي أشباحا كثيرة لها قلت لنفسي. لا تستغرب يا ولد، وانبريت أرفع البضاعة وأرصها على الأرض، يشاركني «عرولي» و«هندي» و«بربش» كلهم ملهوجين، جيوبهم لائقة بجيوبي، وعيوننا كلنا لائذة بصرة المنديل البارزة في عب «عرولي». فلما فرغنا نظرنا في الحمولة فوجدناها سمينة يا بوي، فلمعت عيوننا لبعضها البعض، ونظر «عرولي» إلى «هندي» وقال: «أنت وبربش تتخلصان من العربة». ورسم لهم طريقة التخلص منها. «هندي» يركب العربة ويمضي يتدكا بها في

الطريق، حتى ينجح «بريش» في إيقاف عربة أجرة خالية من الركاب، فيركبها قائلا للسائق على طول يا أسطى، فيمضي السائق في نفس الطريق، ويظل سائق الأجرة ماضيا طالما عربة «هندي» ماضية، إلى أن يجد «هندي» حارة مناسبة في حي بعيد فيركن العربة فيها بكل عناية وينزل منها ويغلقها ثم يمضي لحال سبيله كأنه صاحبها سيعود ليركبها بعد قليل، في هذه الأثناء تكون العربة الأجرة قد وصلت بالقرب من هذه الحارة، ويطلب «بريش» من السائق أن ينتظر برهة حتى يتأكد من عنوان، ويستخرج من جيبه ورقة فيقرؤها وينزل فينظر في أرقام بعض البيوت ويترقب أي شخص فيسأله عن أي عنوان وهمي، حتى يكون «هندي» قد خرج من الحارة ماشيا على قدميه فيتقدم منه «بريش» ليسأله عن العنوان الوهمي فيخبره «هندي» أن العنوان فيه خطأ، ثم يتركه ويسأل سائق الأجرة إن كان يوصله لمصر عتيقة، فيقول له «بريش» أن طريقه العودة إلى مصر عتيقة، ويرجعان معا.

تحلف اليمين يا بوي أن هذا كله تم في ثلث ساعة زمن دخنا فيها سيجارتين، وكان «غرولي» صاحيا فلم يدعني أفلت من بين يديه برهة واحدة، وكنت صاحيا للمنديل في عنه فلم تفلت حركة يديه من عيني برهة واحدة وكنت لا أدعه يضع يده في جيبه قط إلا وراقبت حركتها، فلما وصل كل من «هندي» و«بريش» اقتربا منا قائلين في نفس واحد ما الحال؟ تذكرنا أننا أرسلنا خفير الشادر

يتادي الحاج السني من لحظة وصولنا فذهب ولم يعد، فقال «هندي» متفاخرا: «دعينا إلى روض الفرج وعدنا وذهب المرسال مسافة خطوتين فلم يعد!». فإذ بصوت الخفير يفزعنا من خلف ظهورنا: «ومن أدراك أني لم أعد يا بقف؟!». ما هذا يا بوي؟ نظرنا خلفنا بعد أن بصقنا في عبنا من الرعب، صحنا: «كيف هذا يا برالعم؟ دعيت تنادي الحاج فغبت في السر ولم ترد علينا؟!». وكان حضرته جالسا على باب خُصّه في الظلام يراقب ويرانا دون أن نراه، ثم إنه ما صدق أن كشف عن نفسه حتى أشعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها ببرود ساخر: «تظنون أنني طول هذا الوقت عند الحاج؟! إن عدوكم أهبل! إنني لا أعطي ظهري لواحد يدخل هنا ولو كانت زبيبة الصلاة في جبهته أطول من لحيته! هل يتصور عدوكم الأهبل أنني أتركم أنتم بالذات كل هذا الوقت وحدكم؟ وأنا أعرف من أنتم؟!».

ثم انفجر ضاحكا كقصف الرعود، ومسح على شواربه الطويلة آثار الضحك وقال: «لا تنتظروا الحاج قبل صلاة الفجر! لأنه وهو نائم يصلي بلاليكم في الطريق! وسوف يمهلكم بالطبع حتى يصلي في جامع عمرو ابن العاص ويعود!». وجدنا كلامه صحيحا فجلسنا فوق الصفائح والأجولة نتسلى بأكل الزبيب وقمر الدين والتين المجفف حتى صاح الصغير: «أما تبغوا شيئا مما تأكلون؟» فقال «غرولي» ملوحا بيده: «ما خدمتنا خدمة تستحق عليها شيئا». وقال «بريش» ليكسبه: «وأنت أما تستطيع أن تجيء لتأكل

«معنا؟». فانبرى «هندي» يسأل الخفير: «لديك رغفان؟». قال «هندي»: قلنا جميعا: «هاتها وتعال». وزحزح «هندي» بعض الصفائح وانتقى واحدة مفتوحة وقال: «هات معك طبقا». أتى الخفير من داخل الخص بطبق كبير من الألومنيوم وأربع رغفان كبيرة بعرض المطرحة مما تخبزه زوجته الصعيدية في فرن تقيمه لها خلف الشادر من ناحية المقابر، تخبزه لا لتأكله فحسب، بل لتبيعه للفواعلية الصعايدة والأفندية الذين يحششون في غرز بين المقابر.

فتح «هندي» صفيحة ودس يده فيها فأخرجها بحرطة جبن تزيد عن أقة، وضعها في الطبق، وفتح صفيحة أخرى فأخرج حفانا كبيرا من الزيتون الأسود، دلقه في الطبق فوق قطعة الجبن قائلا: باسم الله. كان منظر الجبن لامعا براقا وطعمه سائغا. فأكلنا حرطتين كبيرتين وحفنة زيتون وستة أرغفة، وكافأنا الخفير على أرغفته ببقية صفيحة الجبن المفتوحة فكاد يجن من الفرح والدهشة، لم يصدقنا إلا بعد أن ناولناها في حضنه وعاد.

أعوذ بالله من قولة أنا معجب بمنظر الفرحة إعجابي بالفرح نفسه. أي والله يا بوي، إن الفرح عندي هو منظر الفرحة على وجه أحد من الناس لا سيما إذا كنت أنا الذي تسبب فيها. فلما رأيت الفرحة بصفيحة الجبن كبيرة على وجه الخفير اللئيم وعرفت أنه سيبقى شهرا بطوله لا يشتري جبنا من الدكان فرحت لفرحته وجئت بالعلب الكرتونية المفتوحة وجسستها فوجدت ما

فيها قليلا. ففرطت كل ما كان فيها من زبيب وتين ومشمشية وقمر الدين، فملأ علبة واحدة لتمها، فأعطيتها للخفير قائلا له على سبيل التفكهة: «إملأ لنا سلطانية من بولها!». فاختصمها الخفير، وبقفزة واحدة صار في الخص، حيث سمعت عكرشة داخل الخص، أدركنا منها أنه يخفي هذه الغنيمة حتى يوزعها على أولاده بالعدل والقسطاس، وقال «عزوزي» في تريقة من تحتها صدق حقيقي: «طول عمرك لم تذق اليميش يا سطاوي! فادع للذي بلوا ريقك به!».

ظهر «سطاوي» الخفير ممسكا بحلة صغيرة، والبندقية معلقة في كتفه، وهو منحني القامة، يقول: «يا ميش يعني إيه يا بو العم؟!».

ضحكنا يا بوي، شخرنا رغما عنا. فانزعج «سطاوي» وسحب البندقية عليها صائحا: «الدار فيها حريم يا ولد الفرطوس! فاحتشم انت وهو!». ثم أرجع البندقية إلى كتفه، وعاد يسأل: «يا ميش إيه اللي كنت حتضحك عليه ده يا بو العم؟». فقال «هندي»: «يعني الزبيب والقمر الدين والتين والخير اللي انت رقعته دلوقت». رفع الخفير أنفه ومسح شاربيه وصاح في استكشاف: «ها..آ..ه.. يبقى كده يا بوي.. اسمه يا ميش طب عال.. أدي كلمة جديدة لتقلت بيها على الولية اللي فاكراني ما افهمش!». وصار يؤتي بحركات راقصة علامة على فرحه وانبساطه فلما ترقص شعرنا أن الحلة الفها في يده وهو يهزها ويبرمها في الهواء، وصوت خشخشة

ورقرقة يبعث منتهاه ثم اقترب، فظهر أن الحلة ملآنة بالزبيب
والقمر الدين لتمهله وهو يفرك فيها بملعقة كبيرة ثم يذوق شفطة
صغيرة ويتلمظ مرقصا شاربيه، وسلم الحلة والملعقة لي قائلا
«خذ نصيبك وكلك نظر». فامسكت بالحلة والملعقة وصرت أطوح
في فمي زبيبا وتينا، ورأيت الملعقة لا تسعفني في الشرب فرفعت
الحلة إلى فمي وشفطت نفسين مضبوطين ثم سلمت الحلة لـ
«غرولي»، ففعل مثلما فعلت، وسلمها لـ «هندي»، ففعل هو الآخر
ثم سلمها لـ «بربش» فأتى على ما فيها في شفطتين، وهنا صاح
الصغير في ذعر «ماشابي»، شوح له «ما تبقاش طماع!» فاختطف
الصغير الحلة بغيظ، وغاب في الحوش يكركش، فبان أنه يبل لنفسه
كمية أخرى، وفعلا يا بوي، ظهر ممسكا بالحلة يديرها ليذيب
سكرها وهو واقف على باب الحوش علامة أنه سيتفرد بالحلة
وحده، وصار يشفط ويمصمص قائلا في غبطة «قبل ما العيال
يمصوا وأروح بلاش». قال «بربش» للصغير وهو مستغرب من
فجعته «الحاج السني لم يؤكلك حاجات من هذه أبدا؟!» قال
الصغير وقد نضحت في صوته فرشة صدق: «عمره ما فعلها رغم
انني اشتريتها له من الدكان كما اشترى خشار السلاطة في
رمضان! أخرطها وأضعها مع البقول في المشربية لحين أذان
المغرب! فلا يفكر المنيوب في أن يرسل لنا ما تبقى منه! تعرف يا
بوالعم؟ مرة أحببت أن أقلده فاشتريت خشار سلاطة وخرطتها
وحضرتها لنفسي! وحين صلى هو المغرب في عمرو بن العاص

وجاء يجري! فلت من أمامي ونحن نفطر أمام الحوش فاندهش يا
بو العم من طبق السلاطة! وبعد أن مضى خطوة رجع ونظر في
طبق السلاطة وفي عينيه نار تكوي لي. من أين لك بهذا الطبق؟
لابد أنك سرقته أو سمسرته من الصاعة وأنت تشتريه. «يهم يا
بو العم حرمت من يومها أن أشتري له شيئا أو أخرط شيئا!
اكتفيت بالحمارة وحدها!!». علق «هندي» قائلا «هو بصراحة
رجل لا يستحق البر؛ ربما استحق التحريط!». قال «غرولي»
مشعلا سيجارة «لاويقنة وشواربه مثل الجرجير تبلى حلوة
تفتح النفس للأكل!». رمى الصغير بالحلة عن طول ذراعه في
الحوش وشوح بقرف «يا بوي هو رجل طعمه مزز يسد
النفس!». واقترب نحونا مهرولا «هاتو سيجارة». لا أعرف ماذا
أسرعت يدي فأخرجت له علبة سجائر وبنجز كبيرة أعطيتها له
قائلا «حلال عليك يا عم!». فاحتج «غرولي» صائحا ولكن بمزاح:
«وهذا ليس مال أبيك لتسخو منه!» وقال «بربش» مقلدا الصعايدة
«اللي يفتدر يفتدر من جيبه». فصاح الصغير وهو يدس العلبة في
جيب البنطلون المترهل كالسروال. «ربنا يجعل جيوب المؤمنين
عمارا». ثم تدلق حتى الحوش، فتقرفص على بابه وصار يدخن
في استمتاع.

الفجر قال الله أكبر، وسمعنا ترباس البوابة من الداخل يتك
بشدة، وصوت باب صغير في وسطها ينفتح ويدلف منه الحاج
السني كشبح أبيض في أبيض، تتدلى من يده مسبحة طويلة، وهو

يبسمل ويحوقل إلى أن حاذانا فلم تبد عليه الدهشة من وجود ناس غرباء في شادره وأمام بوابة داره، بل اكتفى بأن هز رأسه كله بحذاء أذنه قائلا «السلام عليكم»، ومضى غير عابئ بردنا عليه

دخل الصبح علينا من خلل مشمع السرادق عند كبسولات الحبال المربوطة، وظهرت من الباب عباءته الزرقاء الغامقة المبيضة قليلا، وظهرت من بعيد أصوات أقدام وهمهمة المصلين الخارجين من جامع عمرو بن العاص، سمعنا صوت الحاج السني في الخلاء يتكلم مع بعض الناس في أمور الدين والمواعظ وختام الصلاة وكيف تكون،فحسدته والله على طول باله، وخفت أن يجره الكلام فيأتي معه بأحد يرانا على هذا الوضع فتكون بداية الفضيحة لكنه أخيرا دخل يبسمل فلما اقترب منا قال «صباح الخير يا أولاد». ثم أخذ يجس العلب الكرتونية والصفائح والأجولة. بسرعة أمسك «غرولي» بالجوال الكبير ودلق ما فيه فوق الأرض، وفض علب السجائر كلها فكومتها على جنب قائلا «هذه لنا سنفرقها علينا»،وأزاح بقية محتويات الجوال نحو الحاج السني، الذي مال عليها وفحصها فحصا جيدا ثم عاد ففتح كل الأجولة، وفحص ما فيها، ثم سمى بالله الرحمن الرحيم وأخرج من سيالته دفترا مطويا بالطول، نزع من قلبه القلم الكوبيا، واتجه نحو الميزان المتربع قرب بوابة الدار، نتبعه مجرجرين الأجولة والصفائح والعلب ونضعها على طبلية الميزان، والحاج يزن ويدون في الدفتر، ويضع

أمام الأرقام أرقاما وعلامات، ويطرح ويجمع ويضرب ويقسم، وفي النهاية قال «هذه البيعة كلها في رقاب بعضها بثلاثمائة جنيه ولا مليم فوقها» وأنا ونصيبي فيها! فإنها بضاعة خامدة تمكث شهورا طويلة؛ يعني أن الثلاثمائة الجنيه في جيبي أحسن من بضاعتكم هذه في مكتبي؛ لكني وحق صلاتي لا أريد أن أكسفكم لكن قولوا لي من أين جئتم بها؟». فقال «غرولي» كلاما متناثرا محصله أن هذه البضاعة تخص جماعة من الصبوحية من أصدقائه وقد قصدوه من بينهم لحسابهم وهنا قال الحاج «طيب هم يسرقونها من السفن العابرة أو الواقفة؟». قال «غرولي» «لا وأنت الصادق هم يأخذونها على سبيل الهبات من أصحاب المراكب، فالمراكب المحملة بالتمر تعطي تمرا! والمحملة بالبصل تعطي بصلا! وكلها تعطي علب السجائر! وهم يجمعون هذه الهبات إلى أن تصبح كميات صالحة للبيع فيكلفون واحدًا مثلي ببيعها».

كانت في عيني الحاج السني نظرة بعيدة الغور تقول بالفم المليان إن كلام «غرولي» المسوى هذا رغم معقوليته لم يدخل دماغه ولم يأكل منه بمليم. ومع ذلك قال «على بركة الله على بركة الله». كذلك كانت عين «غرولي» تقول بالمقشر إنه يعرف أن الحاج «السني» لم يصدق من كلامه حرفا. ومع ذلك رد عليه قائلا «كله من فضل الله! كله من فضل الله». كدنا ننفجر من الضحك يا بوي، لأن «غرولي» لحظتها كان يتكلم بصوت وهيئة

الناس الأتقياء الذين لابد أن تصدقهم، حتى أن الحاج «السني» نظر إليه من تحت نظارة مذهولة متشككة، فسّرها العبد لله!». بأن الحاج كاد يصدق «غرولي» فحدثت له هذه الهزة إلا أن الحاج طوى نظارته وأخرج من سيالته رزمة النقود المطوية، فتحها بين أصابعه وصار يعد العشرات المجعدة حتى عد ثلاثين منها طواها وقدمها لـ «غرولي» وهو يتناول النقود «كام دول؟» فقال الحاج وهو يمضي خطوة ثم يتوقف «أما ما أبقى وجع الدماغ! هذا هو الجمل وهذا هو الجمال! لا تضيعوا النوم من عيني!». قال «بربش» وهو يشير إلينا بالنهوض للانصراف «خلاص! نعوضها في بيعة أخرى. ليلتك فل يا حاج!».

مضينا نترنح في الطريق مثل السكارى، وكانت علب السجائر مصرورة في خرقة قديمة استلفناها من «سطاوي» الصغير. قال «هندي» في حسم «نذهب إلى بيتي». لم نرد، لكننا خودنا تلقائيا نحو بيته. تلك الحجرة الكائنة في حارة من الحواري المزنوقة تحت بوابة من بوابات مجرى العيون. افترشنا الأرض يا خال، ونفض كل منا جيوبه يا خال. بربش وغرولي وأنا. فإذا أمامنا كومة من النقود كأنه البنك الأهلي، أحصيناها فوجدنا ثلاثة آلاف جنيه ومائتين، نحينا المائتين جانبا ووزعنا الباقي علينا بالعدل والقسطاس، وكذا فعلنا بالسجائر، وبقينا مسندين ظهورنا للحائط كملوك الأكاسرة، وقال «غرولي» وهو يطوي المائتي الجنيه الباقية: «هذه لابد أن نفطر بها اليوم فهيا بنا للإفطار». قلنا:

«وجب». وقمنا هرولنا وقد نفى النوم من دماغنا وتفتحت عيوننا بالفوقان، وكانت الشمس في انتظارنا حمراء ذهبية وشكلها غاضب ونحن غير قادرين على النظر فيه، فمشينا حتى باب اللوق، أفطرنا فولا وطعمية عند الدمياطي، ثم عدنا إلى قهوة «منصف» حيث طرقعنا حوالي مائتي حجر، وكانت الظهيرة قد حمت الكون فقال «غرولي» «ما رأيكم الآن في الغداء كبابا عند أبي شقرة؟». قلنا «مثل الناس الطيبين؟». قال «نعم». قلت «إلى هناك نسير حالا». كنا أول من دخل المحل يومها، فحالا جاءت السلاطات التي تلك بعينها، وأنت يا ولد حتتك بتتك، كل ما وقع كثير كباب وكفتة وحمدنا الله على ذلك، وكل ذلك لم يتكلف أكثر من خمسين جنيها عشنا بها بكوات وباشوات لمدة خمس ساعات.

قلت لـ «غرولي» «كفانا هذا ووزع بقية المبلغ علينا بالتساوي». فقال «بربش» «بمنتهى إننا ربما لابد أن نختفي من المنطقة لأنها شهرا على الأقل لا نظهر مجتمعين أبدا!». قال «بسبوسة» ملوحا بكفه الفخفخة «أنا مسافر إلى دمياط غدا لشراء جهاز عروسة!». قلنا جميعا «على يا بسبوسة؟!». قال باسما: «علي». صحنا فيه باحتجاج «أنت متزوج منذ مدة يا ولد! تتزوج ثانية؟!». قال ممتحنا على احتجاجنا: «ما عليك يا أسيادنا! العروس هي زوجتي بعينها! بنت الناس تزوجتها على حصيرة وخاب راجيها! فيكرمنا الله ونقل أصلنا معها؟ حتى ألا أجهز لها

عشها إلا من «ضبط» مثل بنات الناس الأكابر!». شوحنا قائلين:
«حلال عليك يا عم!». وقال «بربش» كأنه يكلم نفسه: «سأسافر غداً إلى الإسكندرية يومين أو ثلاثة». قال «عرولي» كأنه يرد عليه وحده: «وأنا سأدخل زوجتي مستشفى الدمرداش لتجرى عملية من أجل الخلفة عسى أن يكرمنا الله بولد أو حتى بنت تحفظ نسلنا». قلت: «معك الآن مبلغ يكفيك في العملية آخر فل!». قال «إنه من حسن حظ الولية الغلبانة! ربنا أكرمنا بهذه الشملة! ولولاها ما حلمت الولية بإجراء هذه العملية أبداً». ـ وكان صوته في منتهى الطيبة والله يا بوى، ثم إنه ودع المبلغ الباقي علينا وانصرف لا تسعه الدنيا من الفرح. فدعونا له بنجاح العملية، وانصرف «بسبوسة» هو الآخر فدعونا له بجهاز مستريح الثمن، ثم انصرف «بربش»، فدعونا له بسفر معتدل الجو وسر هادئ المزاج. بقيت أنا و«هندي» والقفيص. قال «هندي» إن النوم كابس عليه بشدة ولهذا سيذهب لينام. فقلت إنني ذاهب إلى مشوار بسيط وسوف ألحق به. ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل لأمي أكبر حوالة بريدية تتلقاها في حياتها. كنت أمشي منفوخ الصدر أطير طيراناً. فما أن وصلت مكتب البريد يا بوى حتى رأيت رجلي تلفان على بعضهما من دوار الجوع، تخلف اليمين أي عجزت عن صد القدم من الأرض إلى رصيف المكتب، بعيداً عنك وعن السامعين حصل لي ما يحصل للمشلول قبل أن يصيبه المذكور والعياذ بالله بدقيقة واحدة

رنّ في دماغي صوت ناشز حران يقول: «ـ س! وقعت في غضب الله يا حلو! وها هو ذا يرزؤك في جسدك عقاباً سريعاً على ما فعلت!». وسمعتني أرد على هذا الصوت بقولي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله! ستراً عليّ والله يا رب بي. رأفت اللحظة بحالي ولطفت بي وبأمي لتكون العملة الأخيرة في حياتي وبعدها يحق لي أن أطلب رضاك ومغفرتك باقي عمري!».

ستني وقتها لم يكن سن الشلل يا بوى، ولكن السهر والتعب والمطبخ والجوع وأقسام الشرطة وقلة النوم كل ذلك يعض مكينة الجسد ولو كانت جديدة بشمعها وورق بياعها كل شيء له حدود يا بوى، وكل مرونة لها حمولتها. ركنت رأسي على شباك مكتب البريد حتى همدت الدوخة واضمحلت وعادت مكنة الجسد للعمل من جديد. ويظهر أن رابشاً في معدتي أو في دماغي كان يسد منافذ الماكينة، ويعطل سيرها، وقد انزاح بعون الله وحده، النفس أمارة بالسوء يا بوى، فهذى التي تفسح صدره، لم يعجب الدوخة التي كنت فيها منذ برهة، فاستندت وأشعلت سيجارة في فمي الشمال أمزج ثانية، لكنها دوخة لذيذة، وسرعان ما تنبهت نفسي إلى بجوار رصيف المكتب، ولد يقيم نصبة شاي وقهوة، فملت عليه وركنت إليه مستظرفاً مكانه الفسيح تحت ظل شجرة مشوية، على كرسي من القش جلست واضعاً رجلاً على رجل وطلبت فنجان قهوة على الريحة، من رائحة القهوة والولد يدلقها من الكنكة في الفنجان بدأ الموفان؛ فما أتممت شربه حتى صرت

فى الروقان الشديد؛ واستمعت لصوت يشبه صوت أبي يدق في دماغي قائلا «حوالة ماتنا يا عبيط يا أهطل هذه التي جئت ترسلها لأمك في الغنايم في كوم سعيد؟ ألا تعرف يا حاشي يا صاحب المواتب أن مبلغا كهذا مع ولد شكله شكلك لابد أن يتحلق فيه الناس؛ فتصير هدفا للبحلقة حتى تتعرى من ثيابك فتنكشف عورتك؟ وكيف بأمك، هل تراها تقدر على استلام مبلغ كهذا من طواف البريد؟ سوف يتعين عليها أن تسافر لتقبض المبلغ، حقا إن الصعيدي إن تمس يجيء لأهله ببلوى، وأنت الآن تسعى لوضع يديك في الحديد!»

رددت عليه بسحائب من دخان السيجارة قائلا «ولكني لا أقدر أن أمضي بهذا المبلغ في هذه المدينة يا بو العم! إني أعرفها إنها مدينة كافرة فاجرة! والدليل على ذلك كثرة الجوامع في كل حارة وكثرة الحجاج وراء لافتات الدكاكين العامرة؛ لو ضبطوا المبلغ معي أساق أما للشنق بتهم ارتكبها مئات الحجاج ومئات الأفندية ممن بأيديهم مفاتيح الخزائن وأدراج الأوراق وأبواب المصالح».

رنّ الصوت من جديد في جدران دماغي، تحلف اليمين يا بوي تكون إنني تصدعت من رنته، التي صدمتني ضاحكة ساخرة «ومن قال لك أن تمضي هنا يا ابن اللبؤة؟ ما الذي يقعدك هنا بالنقود وبينك وبين النجاة بها سبع ساعات سفر لا غير في قطار الصعيد؟»

هنا يا خال، تنطعت ناهضا عن تنفسي الكسل؛ قلت «معك حق الله يا هناه» وحاسبت الولد على ثمن القهوة وناصلته في القرش الظالم، ليس بخلا والله يا خال، ولكن نكاية في ولد يشبه السابقين الأشباه الذين ظهرت سرقاتهم الكبيرة من عباوتهم في المصاريف الكبيرة في محلات اللهو واستصغار شأن النقود أمام الباعة وأهل الحرف. أما النقود الكبيرة فكانت مربوطة في حزام حول وسطي، وليس في جيبي سوى بضع ورقات بعشرات صاغ لزوم الصرف بالمحبشة والقنطرة إلى أن يأذن الله بوزل جديد، وحتى هذه الورقات مع بضع جنيهات وأنصاف جنيهات وأرباعها كانت مطمئنة مصرورة في منديل مربوط حول زندي تحت الثياب، وأبعد لنفسي حريا للتصرف، في بضع شلنات، وأنصاف فرنكات من الفضة الفضلة

رميت مصمص الربع؛ جرجرتني حتى أوصلتني حجرة «هندي» فصرخت به (ز جرس على الباب في الشارع، فطلع «هندي» حاملة من وراء شيش الشباك، «سأرمي لك المفتاح وتدخل» صحت به قائلا: «لا تدخل! فأنا سأطلق رجلي إلى البلد! وسأعود بمشيئة الله بعد يومين بالكثير (ثلاثة)» قال «تعود بالسلامة». ثم لوح بيده واختفى من الشباك؛ فاندفعت بين الحواري الملتوية كالفار في شق طويل متعرج؛ فما صدقت بأنني قد امتلكت الشارع العمومي حتى شحطت في سيارة توصلني إلى محطة الجيزة؛ لأركب منها إلى محطة «حدفة» على خط أسيوط، لأكون مع طلعة الشمس في كوم سعيد بالغنايم

ورقة الناسك: تسعة
الأولة.ع الأصل دور

الناس أجناس يا خال؛ ومن كانت أمه داعية له في ليلة القدر، يكرمه الله بصحاب من جنس أصله طيب

وبفضل دعاء الوالدين يا بوي عوضني الله خيرا في «عليّ» صاحبي، وبالأكثر بعد أن تزوج أبوه «يوسف النجار» بشليقني «هندية»، تحفف اليمين يا بوي أمي ما وجدت لي في البلدة أهلا سواء؛ فدارنا مهدودة من يوم ما حلت ببلدتنا غضبة حاتة الشين؛ ودور أعمامي قد باتت لا تستقبل إلا أولاد المدارس والمعهد والأزهر الذين هم أنداد وزملاء لأولادهم وهم من الأصل ـ أعمامي وولدانهم ـ لا يسألون عني ولا يتذكرون أمي من دمهم. أنا الأجر الهتلى الحية فلم أتعجب فلم أسأل، ولم أسأل فلم أتعجب. وأمي راكنة في دار «خراية» ضيفة معززة مكرمة.. فإلى من أذهب؟»..

ذهبت بالطبع إلى أمي، ففرحت بحضوري كما فرحت زوجة «خراية»، وأكدت لي أن أمي مستريحة في دارهم، وأنها لن تبارحها حتى لو بنينا دارنا من جديد. وآه! كيف الكلام دا يا بوي؟

قالت الولية: «مسكينة أمك يا حسن يا حوي! فمن يخدمها في داركم وهي لوحدها؟»، قلت ضاحكا: «فهل يا ترى نتركه الدار فيهما وستريح؟»، صاحت هي وأمي معا: «مال الله ولا قالك الدار مالها ولبقاء أمك هنا؟»، قلت: «هل أبيعها إذن؟»، قالت أمي بفرحة طاغية: «طبعا يا ولدي! إن أعطاك الله فبايعها اليوم قبل الغداء». قلت يائسا من النشوة: «حاضر يا أم! سوف أبيعها في الحال!». وقدموا لي لقمة سريعة طرية فأكلتها جيران حاضر، وشربت الشاي وقمت: «أين تروح يا ولد؟»، قالت أمي: «تبيت في غرفة الولاد معهم طالما أنت هنا»، وقالت زوجة خراية بلك أيضا قلق: «لا.. أنا سأبيت عند صاحبي عليّ حيث الوسع والراحة». قالت: «بأنك وراحتك». وقالت أمي كالمعتذرة لها: «إنهما صحاب بحق وحقيق». قالت: «أعرف يا حالة». ثم إنني نثرت على الولاد كلهم عددا كبيرا من البرايز والشلنات وأرباع الجنيهات بمنظر ذهلت منه الولية وبان في عينيها قليل من الحسد. أما أمي فارتاعت وكادت تلح من طولها وتقطع شفتيها من العض عليهما، وعيناها تغمزان لعيني تفهمني وتستجد بأن أكف عن هذا الجنون الذي أفعله. ولقد أصابها الذهول من حصر ما فرقته على الولاد، ولو علمت أنه الشرب من الجنيهات الخمسة لوقعت ميتة بما يسمونه السكتة القلبية في الحال. آمال يا بوي. إنها ولية شقيانة طول عمرها من يوم أن خلقها الله ترفع أحمال الطين وراء مليم تلم لقمتها، ولقد علّم فيها الفقر وعلمها كم للقرش الأبيض من نفع عظيم في اليوم الأسود. قلبي يرق لها والله دائما يا خال. سلمت

عليها وقرصت على يدها قرصة حعجبه أبيها قائلا فى حبور وابتسام: «ولا يهمك يا أم! فخير الله كثير»، وعرجت على زوجة حرابة فسلمت عليها واستكثرت لها الخير من الله وسضيت موليا نحو كوم سعيد.

فى منحنى البلدة واجهنى فانوس مشتعل، يلقى على الأرض ظل صورته العتيقة بأضلاعها الشبيهة بشكل الكأس. توقفته، وإذا هو بالفعل عم «صهيب» المتصوف، الذى يقضى نهاره عاكفا على العبادة فى خلوته وليلة متنقلا بين أضرحة الأولياء فى كل البلدان، يزورهم بأكياس من فاكهة القرآن الكريم ينثرها على أعتابهم ثم ينصرف. ها هو يا بليل نحوى بشكله الأزلى الذى لا يتغير: رأسه الصغيرة المتعصبة بمنديل رفيع أخضر كالح، فوق بقايا طربوش مغربى أسود احمراره، وقامته المدببة المنحنية قليلا إلى الأمام بفعل الكهولة والسجود والخشوع لله، يتسربل بخلق مرقع تفوح منه على الدوام رائحة المسك، يتأبط مخلاة من المشمع مجهولة المحتوى، يمسك الفانوس بيمناه، والعصا بيسراه، يجيل بصره الخامل فى الطريق، مغمغما بصلوات وتسبيحات غامضة.

تذكرت يا خال أن عم «صهيب» هذا هو جد صديقى «مليل» يعنى «يوسف النجار» أبيه، إذ إن عم «صهيب» كان فى الأصل نجارا للسواقى منذ زمن بعيد مجهول. مسيت عليه فغمغم بالرد واتخذت طريقى إلى داره حيث يقطن صديقى «مليل»، وفى دماغى خاطر يقول لى أن «مليل» مصيره سيكون كجده هذا بإذن الله. ثم ضحكت عاليا

الثانية ـ قلب الراعى

يا بو . و و و ى على تلك الفرحة التى لقيتنى بها صاحبى «مليل»، كانت والله تسبيه عقله فصار يهذى بكلام الشوق والحب والغربة والوحدة وصار من عناقه الحرين بى يحرم لخفتى ـ زوج أبيه ـ من فرصتها فى عناقى. وصرت من عناقى له أحرم نفسى من فرحة عناق أبيه لحظة من لحظات الجنة كانت والله يا خال. بعدها نحرت السكين فراخا وبطا وحماما، وامتلأ وسط الدار بدخان كبير له رائحة مسكرة، حتى إذا ما جاء المغرب توسطنا وسط الدار على مقربة من الكوانين المشتعلة، الساطة بظلل كثيرة، نفترش حصائر من السمار الملون، تسندنا المساند، وإذ تحلقنا الطبلية وفوقها صينية العشاء حافلة بما لذ وطاب مما حرمته فى طول الغياب، صرنا نشفط فى تتابع صوتى ونتصبب عرقا، ونضرب بالملاعق فى أكوام الفريك المكومة فى الأطباق نهدها نطوح بها فى الأفواه والجميع يمسحون الطيور المحمرة ويرمون شرائحها أمامى وفى يدى وفى فمى، وأنا لا أرد لأحد طلبا ولا أكسر له خاطرا، ومكنة الطحن شغالة على سنجة عشرة، وكلما ازدحم حلقى بوارد البلع سلكته بشفطات المرق الساخن فتنفذ التقلية فى دماغى تحمره، وفى عينى تفنجلها، وفى

عروق جسدي تريده النصف. ولم يكن ذلك التوفيق إلا لأن نفس أختي – وهو مندوب عن نفس أمي – كان يعطر هذا الطعام.

ثم إن «هلّيل» دعاني لغسل يدي ولدخول الحمام بمرة، فلم أكسفه بالطبع. وجدت في انتظاري ثيابا نظيفة من ثياب «هلّيل» في رائحتها نفس أختي كذلك، فلبستها على جسد نظيف. فشعرت والله كأن الروح قد ردت في من هذه اللحظة فحسب. وكان الخلاء الرحب في شوق إلينا، فطلعنا إليه نلتقيه ويلتقينا. عند هديم دارنا وقفنا، وشرعت أكلم «هلّيل» في موضوع بنائها، فقال: «على الأقل نقيم الجدران». فوجئت بملء صدري قائلا: «نبنيها على أحسن وضع. الخير كثير والحمد لله». نظر في عيني مستفهما عن آخر مدى لهذا الخير. قلت: «مستورة والحمد لله! كله من نعيمه يا هليّل يا خوي!». هز يده ليستزيد التأكيد: «تبني بناية؟ بناية؟». قلت بنفس التأكيد: «طبعا بناية بحالها! ودورين لو أحببت». قال بفرحة: «إذا على بركة الله! من غد متوكل على الله!».

لم تكذب خبرا. الولد «هليّل» ما أجدعه. مشوار بسيط لحد البناء في آخر البلد، مشوار أبسط لحد بائع الطوب، فركة كعب لحد دار واحد يكري لنا أنفارا تزيح الهديم وتفحت للحديد. بضع جنيهات نثرتها كعربون. فوالله ما أتى الصباح بنوره الوضاح إلا وفي دارنا أنفار تشتغل وطوب ينزل ومونة تصعد في القصاع. بناء بالأسمنت يا ولد. أربع أيام والله يا نوى صارت الدار بعدها واقفة على أساس متين ومستورة بسقف مسلح بالحديد والبتن

ثم بدأ شغل الخشب، فما مضى أسبوع إلا وكانت مفاتيح الأبواب والشبابيك في يدي. ولم يبق إلا الفرش الذي سأشتريه غدا من أسيوط. الناس في بلدنا كثير يا نوى وأجرة عرقهم أرخص شيء في الدنيا، الواحد تشتريه طول اليوم بأكله وشربه وكسوته لو مكث في خدمتك حولا كاملا ما طالبك بشيء آخر. الأشياء هي الأخرى كثيرة لا تجد من يشتريها. ولكن لأن من هي عندهم يستغنون عن بيعها فهي محجوبة حتى يظهر من يبر بالقرش.

على أسيوط سافرت أنا و«هليّل». فاشترينا عفشا من كنب وسرير ودولاب يصلح شوارا لعروس بنت العمدة. ولكنني نويت أن أجعل من دارنا دارا بحق وحقيق ذات مسرة يجتمع فيها القوم بكل احترام ومعزة. كنت ألمح في عيون «هليّل» كلاما كثيرا يود لو يفتح فيه ليعرف من أين جاءتني كل هذه الثروة في زمن قليل؟! فلم أصرح له أبدا، غير أنه لم يتركني. قال عقب نشد نفسين من الحشيش في غرزة في منعطف النيل: «اللهم يا بوعلي أن يكون ما صرفته على داركم فلوسا حلالا». فلوحت له بيدي قائلا: «دعك من مسألة الحلال والحرام هذه يا خوي! فوحق مخرج الصباح من الليل ومشرق الشمس إن البلدة كلها تعيش حراما في حرام. وسحتا في سحت! ونهبا في نهب وبلطجة في بلطجة وتهليبا في تهليب! صدقني يا خوي. جامعها حرامها يا خوي! صرت أعتقد أن الله لا يبارك إلا في الحرام ويحمي أهل الحرام ويرفع قدرهم في الدنيا. صحيح أن الله

سيعذبهم في الآخرة ولكن كيف أعيش أنا في الدنيا طاهرا من الخطيئة معدما من القوت في نفس الوقت؟! سأفوز بالآخرة؟! مت يا حمار حتى يجيئك العليق! عقلي الصعيدي لا يفهم كيف يحرمني الله في الحياة من متعة الدنيا ويمتع غيري بالجنة؟! إنك يا هليّل يا حوي لو شفت الحياة التي يعيشها ناس مصر المحروسة لوقعت من طولك ميتا! اسكت يا هليّل يا حوي فقد أصبحت والله أكره الكلام في شغلة الحرام والحلال هذه! أكره أيضا شغلة الثورة هذه أتمنى زوالها من الوجود! حتى أبو عبدالناصر نفسه بلديّنا نفسه صرت لا أحبه! صار قلبي يفزع كلما سمعت اسمه! دعنا يا هليّل نعيش لنا يومين قبلما تأكلنا الذئاب! إذا كنت تعيش بين اللصوص والحرامية فلابد أن تكون أحرف منهم حتى تعيش بينهم! عمرك رأيت جديا صغيرا يعاشر الذئاب ويعيش في سلام ؟! حلال ماذا وحرام ماذا يا هليّل يا حوي؟ لقد خربت الدنيا! أهل الثورة سرقوا أراضي الناس ورأسمالهم الذي لموه بعرق جبينهم ثم وزعوه على أهل لهم، وحرسوا عليه اللصوص والقتلين ومن جاء في ركبهم!».

الحق لله يا بوي لم يراجعني «هليّل» فيما قلته، ظل ينظر في وجهي ويشرب بعمق ويكتم نفس الدخان في حلقه ليسربه من أنفه ويحترنه في دماغه فبدا كأنه يحاول تسليك مخه ليفهم كلامي الكبير الذي قلته الآن، لكنه قال وهو يلقط بقايا الفص: «على كل حال كن مصبرا على نفسك في الغربة! ضع عينيك في

وسط رأسك». قلت «هذا ما أنا فيه بالفعل فلا تقلق». قال «كم صرفت حتى الآن؟». هززت يدي ورأسي مبتسما في سعادة وقلت «تصور يا هليّل أن كل ما فعلناه لم يتكلف أكثر من ثلاث مئات؟ بما في ذلك مصاريفها ومصاريفي من ساعة ما جئت!». قال «بركة! بركة!». قلت «كله من خيرك يا هليّل يا خوي لولا جملك وحمارك وصحاب أبيك ما فعلنا شيئا حتى الآن». قال «فضل من الله! فهل بقي معك شيء من القروش؟». قلت باسما: «كثير يا ولد! كان مع أمي الكثير مما أرسلته لها! وسآخذ منه معي عند عودتي لمصر». أراح الولد ليبدي علامة لانبساط وقال «وماذا ستفعل بها يا ولد؟!». قلت «سأضعها في دفتر التوفير». لكزني في جنبي قائلا «توفير ماذا يا عبيط! هاتها أشتري لك بها ماشية نربيها ونبيع ولدها ونأكل سمنها ولبنها!».

تحلف اليمين والله يا خال أنني من فرحتي نطرت نفسي واقفا وصرت أحضنه وأقبله لأنه ابتكر هذه الفكرة، قلت في فرحة «والله لأفعلن!». بالمصادفة كان الغد يوم سوق في «صدفا»، وهي بلدة سوقها كبير، فذهبنا إليه من الفجر واشترينا خمس رءوس صبية ورأسين وراءهما عجلين واشترينا حوالي عشر رءوس من الغنم وحمارا ينتفع به «هليّل» في خدمة هذه الرءوس واستخدمه عند وجودي في البلد.

قلت «يا هليّل يا خوي أنت عليك التربية والتسمين وأنا علي أن أقسم الربح معك بالنصف وتبقى البهيمة الأصلية ملكي أنا

وحدي!» قال: «ياجدع فضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا! وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائي!» لحظتها رن هذا الكلام في دماغي فقلت لنفسي: صحيح يا ولد يا... لا تستقر الآن في البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله قد أكرمك بدار أبيه وبهائم وأعمام تعيش من ورائها؟ إنه لا ينقصك الآن سوى البنت «حنة» فأين هي الآن يا ترى؟ لكن هذا الكلام حين أدرته في دماغي عصلج وانحبس ولم يدر بالضبوط فعرفت أنني غير مرحب بالبقاء في البلدة الآن على الأقل. فالخفراء والعمدة قد سيجعلونني سلوتهم وكلما وقع في البلدة حادث يجرونني إلى دوار العمدة ولابد أنهم يطقسون حول بنائي للدار بالبان، وحول رأسمالي من الماشية الذي لابد سيظهر، سيتول الجميع من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولا هناك؟»

اقتنعت أن ابتعادي عن وجوههم سيحسم أمري وسيتركوني في حالي. وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتني وفسحت معي، وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمي عينه عن الجميع «ويطرمخ» عليه والأمور ماشية بالتكال. ثم إنني انقصفت على الحشيش، كالشهوان تشرب في آخر زاده، وبعيني تطلب الحلاوة المحبسة. ضحك «مليل» قائلا: «أنت الآن لست على مضحك فما الأمر؟» ورقت في عينيه نظرة حسنة شفقة،

فتجاهلتها قائلا: «لاشيء! لا شيء». قال في خبث: «يعني ليس وراءك أي مشاوير الليلة؟». ضحكت رغما عني وترددت. هممت أن أقول لا، أن يبقى معي ويعطلني، إذ إنني ورائي مشوار بالفعل. نظرت في عيني «مليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع في مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «مليل» يعرف أنني الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه شاهدني وأنا أكلمها، وسمعها وهي تتواعد معي أثناء وقوفنا في السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوي امرأة فاتنة تلهي الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها في دماغه أثناء الصلاة. هي مشهورة في البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان في البلدة أجمل منها، ولكن الفقر وحده هو الذي أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها مثل شهدتين من كوز العسل يتمنى المرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب. وقد قصر الجلباب من كثرة ما تأكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أويه متآكل وهي مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كظل صفصافة على قضيب القطار. أما وجهها يا خال فمثل رغيف العيش العلامة الخارج لتوه من الفرن موردًا يبك الدم فيه، عينان واسعتان كعيني البقرة مكحولتان

وحدي!» قال «ياجدع مضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا!
وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا
لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائي!».
لعظتها رن هذا الكلام في دماغي فقلت لنفسي «صحيح يا ولد
لماذا لا تستقر الآن في البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله
قد أكرمك بدار أبيه وبهائم وأغنام تعيش من ورائها؟ إنه لا
ينقصك الآن سوى البنت «حنة» فأين هي الآن يا ترى؟» لكن هذا
الكلام حين أدرته في دماغي عصلج وأمعني ولم يدر بالمضبوط
فعرفت أنني غير مرحب بالبقاء في البلدة الآن على الأقل. فالخفراء
والعمدة هنا سيجلوسني سلوتهم وكلما وقع في البلدة حادث
يجروني إلى دوار العمدة، ولابد أنهم يطلقون حول بنائي للدار
بالبناء وحول رأسمالي من المواشي الذي لابد سيظهر، سيقول
الجميع من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولاهناك؟»

اقتنعت أن ابتعادي عن وجوههم سينسيهم أمري وسيتركونني
في حالي، وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتني وسحت
معي وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع ولما كان من
المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمي عينه
عن الجميع «ويطرمخ» عليه. والأمور ماشية بالتكال. ثم إنني
انقضضت على الحشيش كالشهوان يشرب في «جر راده»، ومعنى
تخنب العلاوة الطبيعية ضحك «هليل» قائلا «أنت الآن لست على
بعضك من الأمر؟» وبرقت في عينيه نظرة خبيثة شقية.

فتجاهلتها قائلا «لاشيء! لا شيء». قال في خبث «يعني ليس
يولدك أي مشاوير الليلة؟». ضحكت رغما عني وترددت، خفت إن
قلت لا، أن يبقى معي ويعطلني، إذ إنني ورائي مشوار بالفعل.
نظرت في عيني «هليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال
«ألم تشبع في مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت
أن «هليل» يعرف أنني الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه
شاهدني وأنا أكلمها، وسمعها وهي تتواعد معي أثناء وقوفي في
السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوي امرأة فاتنة تلهي الشيخ عن صلاته لو
مرت صورتها في دماغه أثناء الصلاة. هي مشهورة في البلدة
كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان في البلدة أجمل
منها، ولكن الفقر وحده هو الذي أبرز جمال «كاملة» للجميع،
فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها
مثل شهدتين من كوز العسل يشتهي المرء أن يقرمها بأسنانه حتى
يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فتظهر
لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب
من كثرة ما تآكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة
صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهي مهملة فشعرها دائما
مطروح على ظهرها فاحما كظل صفصافة على قصيب القصار أما
وجهها يا خال فمثل رغيف العيش العلامة الخارج لتوه من الفرن
مورّدًا يبك الدم فيه، عينان واسعتان كعيني البقرة مكحولتان

كحلا طبيعيا، لا ينظر فيهما مخلوق إلا ويتوه ويتأكد أنهما بحر يطلب الري من ماء الحياة بغير حدود..

هذا الجمال كله يا بوي متزوج من رجل خلف مسن، لا شخصية له ولا وقار، اسمه «سعداوي»، يعمل سقاء بالسوية، يحمل القربة على ظهره يملؤها من النيل يلف بها على البيوت يفرغها في الأزيار حتى تمتلئ، في مقابل حزمة قمح أو برسيم أو بضعة كيزان من الذرة أو حفنة قطن يأخذها عند الحصاد. أو لا يأخذ لا يهم. هو ضعيف مثل كلب جربان في حي غريب. أنت وغيرك يشخط فيه ويضربه بكف اليد على وجهه فلا يرد ولا يعمل شيئا أكثر من الجعجعة والبرطمة. وينتهي الأمر عند هذا الحد.

ولا أحد يعرف كيف تزوج هذا الجرو العجوز من هذه الحورية الطرية الشهية. لكنها عجائب الزمن وما أكثرها في بلادنا يا حاج. غير أن الجميع يثق ثقة كبيرة أن هذه المرأة المسكينة غير ضمانة من ناحية الجماع. وبعضهم يطمع فيها ويستغفر الله له ولولاياه، وبعضهم يأتيها في السر، وكل مار من أمام دارهم ـ إن كان من حي آخر ـ لابد أن يكون قاصدا لـ «كاملة»، أو من عندها. وهي تسكن مع زوجها «سعداوي» في دار في نهاية حارة ضيقة مستطيلة. ومن حسن الحظ أن الدار المجاورة لها مباشرة يسكن فيها رجل من عائلة طيبة اسمه «حربوشه»، كان يسرح في الليل لاصطياد رزقه وتلقيطه من غيطان الناس. وكنت كثيرا ما أضبطه

فأساعده ولا أتلق عليه أبدا. كنت أيضا أحب شرب الشاي معه في داره كلما عزمني لكي أتفرج ـ فقط ـ على هذه الحورية الضالة

إلى أن منّ الله علي بمقابلتها وحدها في السوق تشتري حاجات لناس طيبين تخدم عندهم. فأحدثتها على جنب وعرضت عليها الخدمات وقلت «أنا طالب القرب!». فقالت «يا مرحبا!، لكن أين؟». قالت «أنا لا أخرج من داري! ولا أعرف مكانا! فإن كنت تقدر على المجيء لي في الدار فتعال!». قلت «وزوجك؟!». قالت «سيكون نائما بجواري ولن يحس بشيء». قلت متشوقا «لكن أحس احدثه بالبوصية على نوره أخضد لك أنفاسه». فجلجلت ضحكتها ولكزتني في صدري. قلت «يعني متى أجيء الليلة؟». قالت «أي دل تقدر؟». قلت «صبحا». قالت «خلاص. تنط من الجدار تجدنا في حوش الدار نائمين على الحصيرة. فينام بجواري تحت الغطاء وأنا أمام نائما في الطرف اليمين والباب في ظهرك». قلت وأنا متحسب العواقب «والله لأجيئن ليلة فانتظريني بعد نصف الليل». فهزت رأسها موافقة ومضت، ومضيت، ولكني أيقنت أن ولدانا كثيرين من حارتها رأونا نتواعد، وواجهوني بنظرات مسمومة، بل وتحسسوا شواربهم متوعدين، علامة على أنني لن أنجح في الوصول إليها طالما شواربهم هذه قائمة في وجوههم. وعرفت أنهم سيرابطون لي طول الليل حتى يمنعوني، فصممت على أن أفعل مهما كان الأمر

قلت لـ «عليك»، وأنا أشفط آخر نفس في الحجر «الجوزة» ـ أي الأخير «يكفي هذا فقد صرت على سبجة عشرة»، وعدني في

جنبي وقال بلهجة ذات معنى: «لماذا لا تخزي الشيطان وتمضي معي إلى الدار فتنعم في أمان الله؟». قلت: «شف يا هلّيل يا خوي! لو لم يكن ولاد حارتنا رأوني وتحسسوا شواربهم كنت سمعت كلامك الآن وجئت معك من سكات! أما وقد برموا لي في شواربهم فرشني لابد لي الليلة أن أحييكم جميعا! أعرف أنهم الآن ينتظرونني على راس الحارة! وسأدعهم ينتظرونني هكذا حتى الصبح فيما أكون راكبا أنهي مهمتي بسلام!». قال «هلّيل» وهو ينظر في وجهي باستخفاف: «كيف يا بوي؟ ولد عترات أنت؟ أم لعلك ولد عفاريت». قلت: «سترى في الصبح». قال وهو يداري وجهه بكفيه من شدة الضحك: «مادمت قلت هذا لغالب ظني أنك لن تجيء بها البر يا حسن! تظن نفسك جوني الجبينة لكي تظفر بالعودة على كل لسان؟ إخزِ الشيطان يا حسن فالقوة تقصد حسنا آخر غيرك هو جوني الجبينة بتاع زمان!»

تقبلت منه والله يا بوي، وصرت موشكا على الغط في حقه، لولا وثوقي من حبه لي، ووجدت أن خير الكلام ما قل ودل على رأي ذلك الصحافي المشهور الذي لا أعرف اسمه، فنهضت واقفا وقلت لهلّيل: «سأنام في داري هذه الليلة وفي الصبح أجيء لأفطر معك». قال هلّيل: «مادمت في دارك الآن فسأنتظرك هنا فوق هذه الكنبة حتى تخلص من مهمتك المجنونة وتعود». قلت: «أهكذا رأيت؟». قال: «دعني أكون أول من يعلك بوش هذا الكنب لأجربه لك في النوم». قلت: «يزيده شرف! ولكن احذر أن تفعل فوقه شيئا على حس المهمة التي أنا ذاهب لأدائها الآن!». ضحك حتى استوى جالسا فوق الكنبة وقال: «وهل أنت متأكد أنك ستقوم بها حتى أبني عليها؟». أوشك العبيط يركبني ركوبا تاما، فلم أضحك معه، إنما رأيتني أقول له بضيق: «أنت إذن تشك في رجوليتي يا هلّيل». فشرح قائلا وهو يعود يتمدد على الكنبة: «روح! إذهب كان الله في عونك!».

وذهبت يا حال

ثالثا. خطبة الوداع

الحارة مستخبية وراء حرطة نخيل كبيرة، من يقف في قلب النخيل ويرسل البصر بالطول يستطيع رؤية الحارة على طولها، ويرى كل من يدخل ويخرج منها لو يولي ناحيتها، يرى الحارة بابًا بابًا. وكنت قادرًا على الوصول إلى الحارة من دارنا بفركة كعب، غير أني في هذه الحالة لابد أن أمر على الولاد الساهرين في انتظاري فيحصل الاحتكاك بيني وبينهم، فتخرج المسألة عن طريقة من بدايتها ثم إن هدفي شيء آخر غير العراك، ولهذا لففت لفة كبيرة من وراء البلدة حتى سقطت داخل النخيل مباشرة وجعلت أترقب الولاد من بعيد في جوف الظلام، النخيل كثير يا بوي، وكثيف، يطرح فوقي ظلاما على ظلام، لكنني بعون الله رقدت في مطرحي مداريا جسدي في جدع نخلة كأني مجرد انتفاخ في الجدع، وأرسلت بريق عيني إلى مساحة من الشارع العمومي المعادي للنخيل حيث تسقط منه الحارة إلى الداخل، فرأيت أربع ولدان شداد يتملكون نواصي النخيل، واثنين من اليمين وآخرين من الشمال، يتوقعون قدومي من جوف النخيل لأسقط مباشرة على الحارة

كان «مختار عريبي» الولد الصايع ساكن أول دار في هذه الحارة قد فرش جوالا على مدخل الحارة بالعرض ونام متغطيا بجوال آخر كاشفا دماغه، وحين وصلت كان الأربعة يتكلمون مع «مختار عريبي» كلاما لا أتبينه، لبعد المسافة بيني وبينهم، فكان الكلام يضيع كله في حفيف النخيل مكنت متقرفصا ألف السجائر وأشعلها من بعضها، مداريا شعلتها عند الجدب بكفي المضمومة مضى حوالي نصف الساعة، كف بعدها صوت «مختار عريبي»، وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم إلا بشخير النوم، إني أعرف أصواتهم جميعا، ومن أصواتهم أعرف أنهم الولد «صابر» والولد «ريدان» والولد «سماعين» والولد «شحتة»، وهم كلهم عيال نصية لكنهم أشداء، لو هاجوا في بلدة لأخضعوها.

مضى نصف ساعة أخر، كف بعدها صوت الولد «صابر» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم، فبقي الثلاثة يتكلمون ويضحكون ويتثاءبون، وبعد حوالي عشر دقائق كفوا عن الكلام تماما، فارتفع صوت نقيق الضفادع يقول يا أرض اشتدي ما فوقك قدي، أما قلبي فصار يدق بصوت أعلى من صوت النقيق، إذ فكرت في القيام، والاقتراب أكثر من الحارة. كنت مشمرا ذيل جلبابي، لكي لا يصدر عنه وشيش ينبههم إلى وجودي، ولم أكن أمشي، بل كنت أمد ساقي على وسعها، حتى تستقر قدمي على الأرض، فأنقل الساق الأخرى، وبعد برهة أمدها نفس المدة، حتى صرت على مرمى حجر من الحارة فتقرفصت، فارشا عيني على الأرض، حتى صارت أشباح الولاد متمددة في أماكنها المتباعدة وكانت

أنفاسهم قد راحت تنتظم، ويتصاعد شخير مجلجل، ووضح أنهم قد استغرقوا في النوم، ما عدا «شحتة»، الذي كان في آخر حدود النخيل، حيث نادى عليهم واحدا واحدا فلم يرد أحد، فتمدد وتقلب، معطيا وجهه للنخيل.

زحفت متقرفصة شيئا فشيئا، حتى صرت بين «زيدان» و«سماعين» الراقدين، لا يفصلني عن كل منهما سوى بضعة أذرع من اليمين ومن الشمال، بقيت هكذا برهة، ثم خشيت - أي والله يا خال - أن يسمعوا دقات قلبي من شدة علو صوتها، فنهضت واقفا، وعلى أطراف أصابعي قفزت، وهي القفزة، كنت أقدر على أن أدوس بقدمي فوق صدر «مختار عريبي» الراقد يسد الحارة بجسده، لكنني تخطيته. فما صرت في الحارة حلت فجأة من فكرة الحصار، فارتددت مذعورا، وخطوت من فوق جسد «مختار عريبي» ثانية، ومشيت في قلب الحارة لباب «كاملة»، أمسكت في صدغه هذا، وشبطت في طوب الجدار دافعا نفسي إلى أعلى، فتمكنت ساقي اليسرى من الاشتباك بطوب الجدار، حتى استويت بكلي فوقه، واعتدلت. ورميت بنفسي في حوش الدار على أطراف أصابع قدمي.

هدأت دقات قلبي لما رأيت أنني قد نجحت في الوصول، ولما لمحت الأجساد متمددة فوق الحصيرة ومغطاة بالبطانية قلت لنفسي: صبرت ونلت يا حسن. تذكرت قول «كاملة»، إنها تنام في الطرف الأيمن، هي إذن هذه التي تنام على مقربة مني. واه

يا بوي وله... خطوة واحدة وأصير في حضنها، لكن يجب أن أنتظر برهة، فربما يكون زوجها أو ابنه صاحيا، بقيت متقرفصا في مكاني يا بوي، كاتما أنفاسي، حتى تأكدت أنهم جميعا في أحلى نومة ويأكلون الأرز باللبن مع الملائكة، كل الأمور عال العال يا بوي، وآخر تمام، واه، واه من وساخة النحس يا بوي، الولية يا بوي لم تكن تعرف أن عمتها أخت زوجها ستتعارك مع زوجها في هذه الليلة بالذات، وستغضب وتجيء لتبيت عند أخيها «سعداوي السقا»، والولية - كاملة يعني - لم تقدر على أن تبعث لي مرسالا يبلغني بما حصل، فسلمت أمرها لله، ورقدت بجوار زوجها كالعادة، وجاءت عمتها هذه فرقدت بجوارها في الطرف الأيمن، وجئت أنا بسلامتي وتمددت بجوارها متسللا تحت البطانية، فلفحني ريح غريب ليس هو ريح «كاملة» ولا عطرها، قلت لنفسي لعله ريح النوم. ومددت ذراعي وجئت أحتضنها فإذا بالولية تنتفض مذعورة وتملأ الليل صراخا مجنونا، وإذا بالقيامة تقوم، صاحت الأصوات الغامضة في كل مكان، وانبعثت عشرات الكلاب الشرسة المربوطة خلف الأبواب، وملأت الدنيا زئيطا، وتيقظ كل الرجال في كل الحواري، وصارت الأصوات تتجمع أمام باب الدار والنبابيت تدق فوق الباب طالبة تسليمي لتقطيع جثتي، و«سعداوي السقا» من شدة هوسه وذهوله صار يشتم فيهم «يا ناس حرام عليكم! يا أنجاس يا كفرة! أنتم تتطاولون علي في داري! إني سأشكوكم للعمدة الليلة قبل الغد» أما أنا يا بوي فقد صرت كالفأر في المصيدة أبحث عن خرم إبرة أخرج

منه، والكلاب جوار الباب تفرح، تريد مرح نفسها بالقوة من سلاسلها للاستقصاص فوق رائحتي، إذ أنا متكور على نفسي في ركن قصي مظلم، إلى أن لاح الخلاص كشمس الصباح بعد برهة قصيرة، كأني سقطت خلالها في فوهة قبر وخرجت منه في الحال. ذلك أنني رأيت كومة من تراب هديم بجواري، فادركت في الحال أنني لو تسلقتها صرت بقفزة واحدة في دار صاحبي «خربوش»..

وآه يا بوي على فرحتي لحظتذاك، من كثرة اللذة بالراحة تلكأت في التنفيذ، حيث رقدت على بطني، وصرت أزحف كالثعبان فوق كثيب التراب، حتى صرت على سن الجدار، فاعتدلت، وقفزت ساقطا في قلب دار صاحبي «خربوش»، بجوار فراشه بالضبط، إذ هو يفرش وينام في الحوش بجوار هذا الجدار، تحسبا لفعل كهذا من أولاد الحرام الذين يسطون على «كاملة» في دارها. وقد تعود أن يربط السكين الكبيرة على رنده ملفوفة في جراب وأربطة بحيث يسهل نزعها عند اللزوم، وإعادتها إلى وضعها في لمح البصر.

انتفض «خربوش» قاعدا، ويده على رنده تنزع السكين فيما يصيح: «ليلتك أسود من شعر راسك يا بوديل نجس!» وهم بالانقضاض علي، لولا أن صحت فيه بسرعة لاهثة: «أنا حسن ولد أبو ضب يا عم خربوش!». أعاد السكين وتلقاني بالحضن: «يخرب بيتك يا حسن! كنت عند كاملة؟» قلت: «إن الله حليم ستار!» قال باسما: «طب اجلس! نم بجواري، لا تفتح فمك!»

تكرمشت بجواره مثل الكتكوت العريان تحت وابل من المطر فصار يهدئني ويكتم ضحكته قائلا في همس: «تستعمل سبحا ثم تكتك بالصغر الرجال!» حاولت العمد، والإيهام بأنني سأتهور بفعل مجنون تحلف اليمين أنه كان يعرف أفكاري، فضغط على كتفي قائلا بسخرية: «اعقل يا مجنون! وإلا دشدشت النبابيت راسك الناشف دا! هو لا يستحق الدشدشة أي نعم لكنه صالح لها من كثرة نشفانه هدا! ثاني مرة تبقى تسقيه شيئا من ماء العقل حتى يلين! والآن اسكت حتى نعرف ماذا يحصل في الحارة».

بقينا صامتين وقتا طويلا. وهيج الرجال يزداد حدة. ويتسع ثم يتلاشى قليلا ثم يعود أكثر حدة فيتسع كأن الكون كله يشارك فيه، واسمي يتردد من حين إلى حين، ولكن صوت المعلم كان ينزع وسط الضجيج قائلا: «يا جماعة لا تظلموا الجدع ولا تظلموا أحدا ما دام لم يخرج من الدار أحد». فيجاوبه صوت التكبر قائلا: «إن الفاجرة تخبئه بالداخل حتى الصباح خوفا من الفضيحة»، وتعلو نتفة بعيدة من نفس الصوت: «الفضيحة حدثت وانتهى الأمر»، تعلو نتفة أخرى: «تحتجز عشيقها خوفا عليه من القتل»، فيعلو الهياج من جديد وتنبري النبابيت تدق فوق الباب طالبة ذلك النجس الذي بالداخل، فيجاوبهم صوت «سعداوي» باللعن والصراخ والبكاء والتهديد بالعمدة.

ثم سمعنا باب داره ينفتح على مصراعيه، وصوت «سعداوي» يصرخ، لأول مرة في حياتي أراه يصرخ ويتصرر كالرجال، بل

أن صوته كان جهيرًا مليئًا بالرجولية والهيبة والوقار، فتعجبت والله يا حاج غاية التعجب كيف يخفي هذا الرجل هذا الكنز الذي في صوته؟ وهو الذي لو كشفه من أول لحظة لحظي بمكانة كبيرة في البلد. إنه صوت من قبيلة الباشوات والبكوات والعمد وملاك الدوائر لكنه ضل طريقه، فبدلا من أن يضرب الناس بالكرباج ويمص دمهم، صار سقاء يرودهم بالله صبح مساء. لقاء أجر مؤجل، والبلغة القديمة فوق رأسه، غير أن هذا كان من الأول يا «سعدواي»، وهيهات أن تستخدم صوتك وحده في صنع هيبتك. ثم إن اسمك «سعداوي» وليس هذا الصوت بالذي يليق على هذا الاسم، فأنت إذن مزاة مع احترامنا لصوتك المهيب هذا ولكلامك المتصل هذا: «أيها الناس الطيبة دونكم داري هذه فادخلوها وانتظروا فيها عن ذلك العشيق الذي تدعون وجوده! ها هو بابي مفتوح فادخلوا وافتكروا ونهشوا عرضي أكثر! قربوا أنيابكم من اللحم المسكين المستباح! يا كفرة يا من تدعون التقوة والشرف والدين [illegible] المرضى! قسمًا بالله ما أعطاكم عنه سوى المصرم [illegible] تعرسون. إنها الغيرة تأكل منحراتكم وأصدراتكم! ها أنتم [illegible] في عرضي تسطون على في قلب داري ولابد أن الله يصليكم بنار جهنم الحامية! فوضت فيكم أمري إلى الله! حسبي الله ونعم الوكيل!».

ثم سمعت صوت الباب وهو يغلق وصوت الكلاب يسلم الهواء، سكت الوجع شيئًا فشيئًا. وانسحب صوت العقل آسفا

يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستغفر عن سوء العواقب، ويبقى صوت الحكمة واضحا، يلعنها بلا حول ولا قوة إلا بالله، باكيا على فضح خلق الله، مبررا الصراخ بأن الولية كبس عليها كابوس من كثرة ما تكلم الناس في حقها ونهشوا في عرضها، لقد باتت تحلم بأشباح تهجم عليها في عز الليل. ثم إن الصوت نفسه قد راح ينسحب هو الآخر عجوز كانت تصلي الفجر أمام دارها بين النخيل، وصار في مقدورنا أن نعرف أن ما بقي من جمع الرجال قد صفصف على أبناء الحارة، وأن جمعهم قد اتجه زاحفا وهم يتكلمون، بما يشبه الاعتذار مرة، والتأكيد على وجودي مرات، حتى شحب صوتهم عند آخر دار في الحارة، ثم اختفى تماما مرة واحدة، فعرفنا أنهم دخلوا دار «مختار عريبي» ليكملوا الكلام.

عندئذ نهض «حربوش» ومضى بخفة نحو الباب، فأزاح الضبة بهدوء دون صوت، رغم أنها كبيرة وذات جرجرة، ثم وارب الباب قليلا ونظر في الحارة، فتأكد من خلوها، فاندفع خارجا كالفهد العجوز بلا حفيف، بعد أن رد الباب خلفه وعاد بعد برهة قصيرة، فدفع الباب، وتسلل داخلا، وقال إنه خطف رجله بعد دار «مختار عريبي» وتأكد أنهم جميعا هناك، وأن «مختار عريبي» أشعل الوابور يصنع شايا. وسحبني من يدي، فخرجنا وأغلقنا الباب، بخطوتين اثنين صرنا في الشارع العمومي، منه بقفزة واحدة صرنا في قلب الغيط، فضرب بخطى سريعة، حتى لاح لنا

الطريق الزراعي المحاذي للترعة فانسللنا من بين النخيل وامتطينا الطريق الزراعي، فانحرفنا مع المدخل الرئيسي للبلدة، فدخلنا فصرنا في حكم القادمين من خارجها، من الحقول مثلاً، أو من عند ماكينة المياه، التي كثيراً ما أخفرها أو يخفرها «حريبوش» حتى لقد ارتبط اسم كل منا بها.

أخذنا متلكئاً في السير، وندخن السجائر ونتكلم ونتبختر في سيرنا، حتى وصلنا إلى الحارة بعد لفة طويلة. يتقدمها صوره الشروق الفتاح «حريبوش» رغم صياعته وشقاوته من عائلة كبيرة. وله أن يتحرك على راحته، ويفعل ما يحلو له، فلن يجد من يدوس له على طرف حتى لو ضبطه بجريمة. وهكذا أتينا على الحارة نتبختر، فوجدناهم جميعاً قد خرجوا وتربعوا على مدخل الحارة، يتكلمون ويسعلون، وبعضهم يفلّي نفسه وثيابه من القمل والبراغيث، وكان من الواضح أن حزناً شديداً وعميقاً جداً يخيم عليهم، والدموع لاتزال تنحدر من مآقيهم، وكانت دار «سعداوي» مفتوحة، وعلى بابها يقف ناس كثار، ومن داخلها يجئ صوت بكاء ونواح، صاح أحدهم لما رآنا، وبدا من صوته أنه يعمل حساباً لـ «حريبوش» فحسب. «يا جماعة! يا جماعة! لقد ظلمنا حسن ولد أبو شب. وها هو ذا قادم من عند ماكينة المياه! ياما في السجون مظاليم».

فنظروا جميعاً نحونا مبهوتين، وبدا عليهم الأسف الشديد، بل قل الخزي يا حاج، مع ذلك كان في عيونهم بريق خبيث، يحوم حولي بالشكوك، ويتحسسني في كل موضع، والأعرف تريد أن

تفعر، وتسقط في عبي، لتشمم رائحة الخيانة تحت لباسي، وقال «حريبوش»، كأنه لا يعرف شيئاً مما حدث: «ده الأمر به رجال!». فحكوا له الأمر من طقطق لسلامو عليكم. حينئذ صاح «حريبوش» مصفقاً كفاً على كف: «لا حول ولا قوة إلا بالله! الرجل معي من الغروب عند الماكينة وجاء يوصلني لحرمت عنيه بالشاي. أنتم والله ظلمة ولابد أن تستغفروا وتتأسفوا لحسن! ها هو وجه ذلك؟ إنه ابن ناس طيبين وأعمامه شيوخ سجادة فحرام عليكم! كل منكم يحمي نفسه وكفاه ذلك فضلاً! بدلاً من التعدي على حرمة الناس!». فسكتوا جميعاً ولم يردوا، وعادت الدموع تنهمر من عيونهم، مع ارتفاع صوت الصراخ القادم من دار «سعداوي» السقاء زوج «كاملة». فشوح «حريبوش» نحو الدار قائلاً: «وبكي ما هنا؟». فلم يردوا. وبعد برهة نطق أحدهم من خلال بكائه: «البقية في حياتكم! سعداوي مات منذ ربع ساعة!».

مات؟! وشهقنا كأن سهم الله نزل عليه، ولم أدر إلا وأنا أنهمر في البكاء واستمر ماضياً نحو داري ومن خلفي «حريبوش» يهدئ من بكائي تارة ويلحني تارة أخرى، ولقد عزمت في هذه الصبحية الموحشة أن أمضي من البلدة قبل أن تصبح سيرتي على كل لسان تقابلني في كل مكان.

الرابعة. المساخيط إخوتي

وحق هذه الليلة ومساها أن الولد «بربش» كاد يقع من طوله لما أن فوجئ بي أهبط عليه كالقضاء المستعجل في قطار الصعيد مرتان يا «بربش» أصبطك في قطار الصعيد صدفة؟ ألم تقل إنك رايح إلى الإسكندرية لكي تتوه فيها من نفسك بعض الوقت؟ تكون الحكاية وردا وفلا إذا بان لي أنكم جميعا ستظهرون الآن في قطار الصعيد كصدفة من غير تدبير، وفاتكم أن الصدفة نفسها تخلى بكم وتتركم للمكشوف.

وصرت أضحك يا بوى وأعزم عليه بالسجائر المكي وأشتري شيئا من كل من يمر حاملا شيئا يؤكل أو يشرب، وغرضي أن أخفف عن «بربش» هول المفاجأة، إذ راح ينظر لي في بلاهة طوية بعض الشيء عززتها إلى كتلة حشيش يكون قد تجرعها ولم تشتغل بعد أو ربما كانت كاتمة عليه بعض الشيء، فأنا يا بوى أعرف هذه الكتمة ومقروص منها كثيرا، صرت أطلب شايا ساخنا لزوم التسبيح، وأراقبه وهو يأكل من السمحرة أكلا، فيما يرمقني بشيء من الفداوة، فتفكرت قائلا لنفسي لعل وراءه أمر يكربه هكذ، ولكن شيئا إلهيا ضرب في صدري قائلا إنه متعامٍ عليّ،

ظنا منه أنني كنت أتعقبه، فانبريت في الحال شاكرا لله على هذا الفتح، ورحت أحكي لبربش حكايتي مع السفر من منفلق لسلامو عليكم، حتى أنه ابتسم هذه المرة عن حق، وجرع كوب الشاي في لذة، وعزم علي بالسجائر المحشوة، وغمز لي بأن أخرج ذراعي بالسيجارة خارج شباك القطار، حتى تضيع رائحة الحشيش في الغيطان، التي تجري أمامنا وخلفنا. وقلت له «ماذا يكربك يا بربش؟ فمن واجبي أن أسأل عن أحوالك؛ وأنت قلت لنا إنك مسافر إلى الإسكندرية. فإن كانت لك الأمور أمور جدت على غير حساب فإن رقبتي سدادة كما تعرف! وإن لم تكن وثقت فيَّ بعد فيمكنك أن تعرف الآن رجولية أخيك الجالس أمامك؛ ماذا وإلا فأنت تتنكر لي وجهي بالعيبة. ومحسوبك ليس بالذي يتنكر في وجهه أحد يا بربش يا حوي. أنا لست تلقيحة بل إنني في المحطة القادمة سأنزل تاركا لك القطار كله مفسحا بتذكرة جديدة في قطار آخر»

عليها وضحك المكروت، تحلحل نيمين إنه أفاق من سكرة غاشية إلى صحوة رائقة. حصيني وطلب لي شايا. ودهس في جيبه فأخرج منه شيئا مثل «الشكلاتة»، قسم منه قطعة كبيرة غمزني بها، فما إن قربتها من أنفي حتى زكمتني كرمة الحشيش الزاعقة. فطوحت بها في فمي متلمظا، حتى ذابت في لمح البصر، وملأت فمي نكهة الحشيش بالشكلاطة اللاذعة، تطلع الأنف وسقف الحلق، وصرت ألحف في طلب الشاي وإشعال السجائر، وصار الهواء يلفح «قشاعية» رأسي بفرارة، كأنه يش ميه في

الصمام الذي لم أعرفه بعد، قال هي إلا مصطبة أو مصطبتان، حتى انخلعت دماغي عن رأسي، وطارت، وصرت لا أستطيع اللحاق بها. فصرت أضحك على الفاضي والمليان، وأشطح في استقبال بعض كلام يحكيه «بربش» عن مشواره المفاجئ للصعيد حيث بعث له «الحاج السمني» مرسالا في عز الليل «يقع في عرضه» أن يذهب إلى هذا المشوار يستقصي فيه أمانة من طرف أحد أعيان الصعيد الجواني لكي يعود بها للحاج السمني، أو مشوار فيه لقمة طرية والخائب من يرد رزقا جاءه لحد عنده.

وكاد دماغي يتعب من الرمح في الريح، فيرد إلي ويلتبس مكانه من رأسي، فأفيق لبرهة. فأسأل «بربش» ما عساها تكون هذه الأمانة يا ترى؟ فيقول إنها مجرد قرشين، شيء إلهي قال لي إن هذا البربش يكذب علي، ويسرح بي، يريد أن يأكل بعقلي حلاوة، لكنني نسيته ومضيت أضحك، وأحكي حكايات مضحكة، لكني لا أذكر شيئا مما دار غير الضحك، فلما فوجئت بالركاب كلهم وقوفا نهضت واقفا مثلهم، ورأيت المدينة تقذف بنفسها شيئا فشيئا، في أحضاننا، إلى أن صرنا في زحمها، بين رصيفين تصدمهما الصافرات من كل مكان، فصرنا ندفع بعضنا بعضا للوصول إلى باب القطار، وقد ارتفع الرشيط فجأة، وصرنا كما يوم القيامة بالضبط، ومع ذلك انتبهت، فإذا «بربش» يسحب عن الرف حقيبة كبيرة، بدت للأعمى، وهو يسحبها ثقيلة ثقلا ينوء بحمله حمار. قلت «هات يا بربش أحملها لك» فأهز ذراعه بها في تصميم أكيد قائلا «لا، لا، إنها خفيفة فحلّ عنك أنت»، وكانت

الحقيبة تأخذ كتفه وتنزل به إلى الأرض، فأقسمت يمينا أحاسب عليه في نار جهنم، أن هذه الحقيبة مملوءة بالسحاحيط والأحجار المنقوشة مما يسمونه بالأثريات، تلك التي تلدها بطن الأرض في الصعيد بلا حساب ياخال، مثلي ما شفت كما تعلم، لهذا تلكأت في النزول، تحككت ساقي بجسم الحقيبة، وتأثرت ملمس الحجر، ورائحة بطن الأرض كرائحة بطن الأم، يحملها الوليد ولو كان حجرا أصمّ.

الله وكيل يا بوي، لقد شعرت والله بحقد شديد على «الحاج السمني» وعلى «بربش» معا، وحقدت على نفسي كذلك والله يابوي، كرهتها، لشدة خيبتها، وتحركت الدماء في قلبي، وقلت لنفسي كيف يتاجر أبناء الرواسي في إخوتي وأنا واقف أتفرج؟ نعم، نعم، فإن هذه السحاحيط، وهذه الأحجار المنقوشة بالذهب، هي إخوتي، ولدتهم بطن أرض الصعيد، كما ولدتني، فكيف ينزعها أولاد المخاريق ويبيعونها بالذهب، وأبقى أنا خداما لهم على طول الزمان؟ هذه الأرض والله لم تعرف العدل طول حياتها. لا تعرف إلا النصب والاحتيال به عليها فقط، مدارسها تعلم العدل دروسا نسمعها ولا نرى منه شيئا في الحياة، محروقة أم كل من يتلمس ويتكلم عن العدل، والحق، والضمير والذمة، وكل هذا الكلام الفارغ، الذي نأكل به الأونطة، وغيرنا يأكل الشهد المصفى!

لم أكن أدرك لحظتئذ والله ياخال، أنني وضعت «الحاج السمني» في رأسي وقلت إنني لابد أن أجيء بدماغه في يوم قريب

الخامسة . البساط الأحمدي

ما إن خرجنا من محطة الجيزة حتى بان لي أن «برش» يريد أن ينسلت وحده؛ بن إنه وقف مادا يده قائلا «أشوفك بعافية». قلت بلهجة ذات معنى «رماله» وعاملت يدي يده. تجاهل غمزتي وقال «ربما أشوفك الليلة في القهوة» وربما لا حسب الظروف». هززت رأسي قائلا في عشم «رماله برضه» ربنا معاك ياولد». وتركته ومضيت.

وليت وجهي نحو دار «هندي» في حواري قم الخليج. فلما وصلت ضربت الجرس كثيرا، فلم يرد أحد؛ فأبقيت أصبعي فوق الزرار مدة كبيرة، وصوت الجرس يرعق ويجلجل في قلب الحجرة، ويسمعه الرنح والجائي. فعرفت أن «هندي» يشوف حاله في الشوارع. فوليت نحو «قهوة صفصف». وقد شعرت أنني حزين، ونفسي تحب الشاي والدخان، الله وكيل ياأبوي؛ عيني وبيتي كانت على «قهوة صفصف»؛ لكنني وجدت نفسي أمشي بحذاء شادر «الحاج السمني» دون أن أدري مع أنني والله ياأبوي ما فكرت في الذهاب إليه ولا خطر في بالي أن أمر من جواره؛ وحتى لم أكن أدري أنني أمر بجوار الشادر أصلا؛ لكنني لحظتها

وجدت نفسي واقفا في الخلاء الفسيح بعد انعلاتي من الحواري الضيقة الملتوية؛ والنور الساطع كان يغمر الخلاء ويدهنه بلون صفار البيض، ودماغي غير موجودة على كتفي يا بوي، تحلف اليمين أنني ما كنت أجد لها أثرا على كتفي، وإلا كنت تفحصت إلى أنني في رحاب جامع عمرو بن العاص، الذي أعرفه ويعرفني حق المعرفة. كان الظل لحظتها أنني نسيت دماغي تائها في السهو الشديد، في الحقول التي اخترقها القطار؛ وعجبت كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان بدون دماغي؛ وسألت نفسي بسرعة سريعة أين كنت قبل هذه اللحظة مباشرة؟ فما فكرت بجواب؛ وبقيت حائرا لوقت طويل كأنني طائرة «هالوكبتر» رمتني من السماء في هذا المكان وولت؛ حتى قباب جامع عمرو كانت مزمزمة على غير العادة، مطلية بالعوض تذكرني بأنني رأيت مثلها ذات يوم، غير أنني لا أذكر أين ومتى؛ فوجدت أمامي طريقا يمتد فيه النور إلى ما لا نهاية وبجوار طريق يتقاطع معه النور بعد بضعة أمتار حيث يحتمي بصيص الفوانيس في مصابيح من الظلمة مديبة، تشبه سنام الجمل، سرعان ما فطنت إلى أنها القرافة، وأن هذا الرصيف هو نفسه الذي يقع عليه شادر «الحاج السمني»، ذلك الشادر الذي مررت بجواره عدة مرات وفي كل مرة أتصور أن مأتما كان مقاما هاهنا وانفض؛ وتبعا لذلك فلابد أننا الآن في منتصف الليل إلا وصوت الأذان منطلق من فوق مئذنة جامع عمرو، فاستهديت أنني صحوت الموتى فعرفت عنه ولكن كأنه الحلم، ورأيت الحركة تدب مجسدة وتدس بهدوء في نحو

الجامع، وولدان يجرون بطاولات العيش. فلما حاذيت الشادر، ونظرت الدور المجاورة له، ووجدتها صاخبة وصوت الراديو والتليفزيون يعلوان فيها على كل الأصوات، تفطنت إلى أن الأذان هو أذان العشاء، وتفطنت إلى أن الذي يفعل لي كل هذه الأفاعيل هو قطعة «الشكلاطة» بالحشيش التي أعطاها لي «بربش»، فصرت أضحك وأتطوح كالسكران. وأنس أنا حاشه، وإذا بصوت ضحكات عالية تنطلق من وراء ظهري، فتفزعني فالتفت حولي مرعوبا وكركرة الضحك مستمرة، بربشت بعيني في الضاحكين، فوجدت أنهما «بربش» و«صفير»، وقال «بربش» وهو يخرج من ظلمة الشادر ليسندني «مالك يا مقتيل على عينك! رايح فين؟» قلت «منك لله يا بربش يا مفترى! أنت الذي فعلت بي كل هذه اللخبطة». قال «كنت تمشي ورائي؟» قلت «أبدا والله! إنما كنت أسأل عن عندي في داره فلم أجده! فقلت أذهب إلى القهوة أنتظره حتى تجيء! فلم أدر إلا وأنا ماشي من هنا غصبا عني! وها أنا كما تراني تلخبطة غرلي والسبب أنت».

والعكروت يضحك ويتمايل ويتطوح من شدة الضحك، والصفير هو الآخر يصفر في الأرض من الضحك، حتى تعبت من الوقفة ومن الضحك، فافترشت على الأرض، وأشعلت سيجارة، ثم تذكرت، فوزعت عليهم السجائر. وحلفت بالله أن الصفير يكون جدعا بحق وحقيق لو عمل كوب شاي بنوبه ثولب، الصفير ما صدق أن سمع الكلمة ونهض قائلا «دانا حتى عايز أشرب شاي! وأنت كمان يا بو علي حبرك علينا لسه فيه منه عندنا»، ودخل

يعمل الشاي وبقيت شاردًا في ملكوت الله وحدي، و«بربش» يضحك ويناكفني بحصى من الطوب يرميه بجواري حتى أفزع وأخاف، إلى أن جاء الصفير بالشاي فتمخمت على الكوب بيدي، وشفطت منه شفطات ساخنة وراء بعضها في لذة كبيرة. حتى شعرت بأن عيني صحت من النوم ومن المشلقة. فصرت أتكلم بوعي، وفي انبساط لا مثيل له، في أمور كثيرة نسيتها، لكن «بربش» والصفير كانا يصيحان بين وقت وآخر قائلين «يا سلام.. يا سلام على الحكم والكلام اللي زي العسل».

وفيما أنا مندمج في الكلام الذي هو مثل العسل، فادريت إلا وأنا واقف أواصل الكلام والكوب في يدي، وأنا أشرح وأمثل، وأفرج، وإذا بـ «بالحاج السني» مقبل من الجامع بين جمع من الأفندية المحترمين يتكلمون في حديث نبوي شريف يقول «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ونسبها»، ولا أدري لماذا أيضا وكان بعض الأفندية يشير بأصبعه في نفي وتصميم قائلا إنه حديث مدخول، والحاج السني يقسم إنه صحيح وأنه قرأه في البخاري ومسلم عن .. وصار يرص أسماء مثل قلاقيل الطوب كأنه الفقيه من نماعه، والأفندية يصلون عليهم قائلين رضى الله عنهم وعنهم أجمعين، مما يؤكد أنهم يعرفون هذه الأسماء، مع أنني لم أسمع بهم قط في دار عمي الفقيه الكبير، ولكن، ليس كل من يستحق الصلاة على النبي يقالها

صرنا جميعا وقوفا في استقبالهم صامتين، إلى أن يفرغوا من الكلام، فتقدمهم «الحاج السني» قائلا «تفضلوا»، فمشوا وراءه

في صمت، وإذا هو يتأملني برهة ويقول: «الولد حسن أبو علي! إيه اللي جابك دلوقت يا عكروت؟ جئت في وقتك والله، تعال! تعال!»، وسحبني من أذني قائلا: «تعال ورائي! فالليلة عورة»، واستدار قائلا: «مع السلامة أنت يا بريش وتعال قابلني هنا بعد باكر بعد صلاة العصر». فقال «بريش» بصوت غير منبسط: «حاضر يا حاج»، ثم أضاف: «أشوفك الليلة ياحسن؟». قلت: «ما أعرف». قال الحاج: «لا تنتظره الليلة». قلت لنفسي: «بشرة خير يا ولد! جاءك الفتح على الطبطاب»، ومشيت خلفهم مانعا دماغي من التفكير في الأمر الذي يطلبني من أجله الحاج حتى تكون المفاجأة طيبة.

قلب الإنسان دليله يا بوى، خاصة إذا كان إنسانا طيبا مثلي وعلى نياته. وقد دلني على أن هؤلاء الذين يمشون أمامي مع الحاج هم من علية القوم ذوي المهابة؛ إذ هم يتحركون في صيغة أمر ونهي، حتى ولو لم يفعلوا غير الابتسام وحني الرأس في تهذيب، وما هذا قلبي يرتعش فجأة، ويدق في صدري كالطبل البلدي، فهمت أن هذا الدق بالذات لا يدوي إلا لحظة مصادمة الخطر الحقيقي الذي أصير فجأة في قبضته. آه من هذا الدق يا بوى، أعرفه جيدا، يا بوى عمره ما خاب أبدا في أي إنذار وجهه لي بهذا الطبل الذي يعربني. إنه يشبه الصفير النحاسي والذي يجعل كالجاموسة علامة على مجيء الأمير والضباط والناس الأبهة. وأيقنت أن الملامح التي رأيتها على وجوههم في ضوء الشارع الشاحب، سبق أن رأيتها بنفسها مرة بل مرات في مكان بل

أماكن كثيرة لست أدريها الآن بالضبط يا بوى، لكني أدرى - وقلبي دليلي - أن هذه الأجسام المهيبة بنظراتها وملامحها وابتساماتها وانحناءة رؤوسها المهذبة مربوطة في قلبي بالخوف والرعب والصياح، ومربوطة في نفس الوقت من طرف مقابل بالله في سماه مستويا على عرشه يراني ويرى كل شيء ولابد أن يعذرني ويقف في صفي، وإلا فهل رأيت عمرك أبا يقف في صف أعداء ولده مهما كان عاقا؟ هكذا يا بوى كلما دقت طبول قلبي أرعدتني وفتحت مخي على عرش السماء، في الحال أتمنى رؤيته لتقبيل أعتابه.

توكلت على الله ومضيت فتخطيت البوابة الصغيرة التي تتوسط البوابة الكبيرة، وغاصت قدمي في السجاجيد من أول خطوة؛ حتى السلم عليه سجاجيد مصدفة. قطعنا نفس الرحلة السابقة صعودا وهبوطا ومرورا في ردهات وممرات حتى صرنا في غرفة البرج، حيث الشلت والبفتات والحصير الخشبية أسندة فتحها الحاج وقال: «تفضلوا»، ثم إنه أردف قائلا: «أحضر لكم جلاليب خفيفة؟ يستحسن طبعا». لعمروا جميعا في نفس واحد ألا يتعب نفسه، وشرعوا في خلع أحذيتهم والجلوس على الشلت المريحة، متأوهين من فرط التعب. حينئذ طرقت عيني وجوههم واحدا واحدا؛ ومن واحد إلى واحد تنتقل الرعشة من قلبي على مهم الطبول إلى ساقي. عصرت في وقفتي المتخشبة أرقص رقصة الفرخ؛ رقصة الدجاجة بعد ذبحها، بل إنني صرت فعلا يابوى، ولكن من فرحة ناسية في كتفي تقول: «يهب كلابات من الحديد يا

يوي؟» إذ، بها أصيحي الحاج السني وإذا به يريد أن يغمزني مجرد غمز. هكذا قال وهو ينتفض من الضحك كطفل عابث جرىء، والضيوف يضحكون لضحكه ولفزعتي. أفيك كل هذه القوة الجسدية الجبارة يا مديوب؟ لابد أن يقيم المرء حسابا لهذا. ثم إنه غمزني ثانية غمزة أخف قائلا: «حل بالك مع هؤلاء الرجال على قدر ما تستطيع! هم حبايبي وإذا لم ينبسطوا سأقطع رقبتك!». قلت - مع أنني لم أعرف بعد كيف سأبسطهم يا بوي، مرفيتي للبهوات: إن شاء الله يكونوا مبسوطين آخر انبساط!». فقال: «أريد أن أرى شهامة الصعايدة! هم بلدياتك على العموم!» ، ثم سحبني قائلا: «عن إذنكم»، فمضيت تحت إبطه كنعجة مسحوبة بأعواد خضراء.

عند آخر السطح من خلف البرج وحواليه بنايات منفصلة. لم أكن رأيتها في المرة الأولى، إذ هي في أسفل البرج، مشينا قليلا في مربع كبير مسقوف بألواح الزجاج الجملون كالهرم. نزلنا حوالي أربع درجات سلم. وكأننا نهبط داخل البرج نفسه لنعود بعد ذلك يمينا أو شمالا حسبما نهوى، حودنا يمينًا فيمينًا، فإذا بنا فيما يشبه المسبح، كل جدرانه بالزليزلي والقيشاني وفيها رفوف كثيرة كبيرة من الرخام، ودواليب بيضاء، وثلاجات ومواقد وأفران. وفيه من خيرات الله ما لذ وطاب، تحلف اليمين ولا معرض من معارض عمر أفندي وشركة بيع المصنوعات. أربعة رجال يلبسون الطراطير والجلاليب البيضاء، منهمكون في عرف

وشوي وقلي وتحمير وتوضيب وتصفيف، ورائحة الأكل تضرب في الصخرة تقلبها.

فتح «الحاج السني» باب أسفل رف رخامي، فكان الحائط انفتحت مضلفتين. حاجة تهوس يا بوي: وإذا الفتحة مليئة بعشرات الأحجام من الحلل. مد ذراعه ودعبس في الداخل وأعاده بكيس كبير من أكياس الفاكهة منظره كالبح وعينه يخطش الهباب، وتطل منه البوصة الطويلة ورقبة البحش، أعطاه لي. قلت لنفسي: «ليلتك فل يا ولد الحرام وأنت لا تستاهل لكل هذ النعيم من الله ولابد أن تصلي له مدد الأرز» زحف الحاج نحو باب آخر تحت رف آخر، فتحه ونظر في الفتحة. وشرح بالمسبحة في وجهي قائلا: «اترك هذا! اترك هذا!» فأعطيته له، فركنه، وسحب حقيبة من حقائب الخضروات من المشمع، فيها جوزة مد كبيرة كاملة، وحزمة من البوص الاحتياطي الذي هو عبارة عن أعواد من شجر الورد مجوفة من الداخل كالبوصة، وحجر بن أربعين حجرا من النوع الجيد المزلط، ووجاق نحاسي مشحون بالنقوش الأثرية، وبضع ماشات من معدن مصقول بأحجام مختلفة. حاجة تهوس يا بوي، مد ذراعه فانتزع الجوزة وقال: «طلع دول فوق وتعال!» قلت: «حاضر»، وفعلت، ونزلت، فأعطاني مشمعا مطويا أمرني بفرشه فوق، وأمرني بأن أسيخ الجوزة وأعمرها بيديه المثلجة واضبط إيقاعها جيدا، ففعلت. وفتح بابا من عشرات الأبواب في الحوائط، أخرج منه معسل من ج كاس كبيرة فيه عشرون باكو،

سلمها لي قائلا: اطلع. فطلعت، لأجد السفرجية قد مدوا طبلية طويلة وسلموا كل واحد فوطة نظيفة فردها على ركبتيه، وشرعوا يجلبون الأطباق محملة بالأطايب الساخنة. فتسللت عائدا إلى المطبخ، وقلت للواقف فيه: «عشيني يا خوي قبلما ندخل في شغل الغويط، وإلا حملوني من هنا على النقالة طوالي!». قال الطباخ: «معشيك يا بن عمي! اتفضل اقعد»، وسحب ضلفة من الحائط فإذا هي ترابيزة كاملة استوت واقفة على الأرض موصولة بالحائط، وسحب كرسيا مستديرا وقال: «اقعد» فقعدت، فصار يغرف ويضع أمامي حتى امتلأت الترابيزة بالأطباق، وحرت بين الأصناف لكنني أكلت منها كلها كفايتي، وتركتها فارغة توحد الله لا تبغي غسيلا. ونهضت، فقال الطباخ باسمًا: «لسه الحلو»، فعدت مصفقا بيدي في طرب: «ما أحلى منك» فوضع أمامي مجموعة أخرى من الأطباق فيها مهلبية بالفستق واللوز والجوز والبندق وفيها كل ما ذكره لي الطباخ من الأصناف التي لم أكن سمعت بها من قبل أبدا. حاجة تهوس يا بوي. أكلت من كل ذلك كفايتي وقد انفشخت نفسي، ونسيت أن معدتي لها وسع محدود. نهضت متلمظا فقال الطباخ باسما: «لسه الفواكه!» قلت جالسا: «لم يعد في بطني خرم إبرة!» قال: «معلهش يا بو العم!» وفي الحال رفع هذه الأطباق ووضع بدلا منها أطباقا كبيرة، عليها برتقال مشقق وتفاح وخوخ ورمان وتين وعنب، وحديقة كاملة بأصناف لا نراها عند الباعة في الأسواق. أكلت منها هي الأخرى كفايتي، حتى وصل الأكل إلى حلقي. وتذكرت أن عمي الفقيه قال

لنا مرة إن الجمل يختزن الطعام في جوفه لوقت جوع لا يتوفر فيه الطعام فيجيء به من بطنه ويمضغه ثانية فيعيش عليه فابتسمت على الآخر لما تذكرت هذا القول، وقلت: فلأكن جملا يخزن الطعام لوقت جوع قريب، وهو على كل حال مهضوم رغم معدتي وانتعش قلبه إلى زوال. عزمت على الطباخ بسيجارة فأبرز لي علبة أجنبية وقال: «ماباعيرش! خد أنت واحدة نظف بها صدرك». فأخذت يا بوي، وبالفعل أحسست بنفسها الرطب يبعد في خياشمي وصدري ناعما كالسوار الخواجات. ثم مضيت إلى فوق أجرر ساقي. وكان الرجال يقبلون عائدين بالأطباق ملآى فوق بعضها

الضيوف كانوا متقرفصين أمام الإبريق يغسلون أيديهم في الطشت النحاسي والولد يصب على أيديهم من برعوم الإبريق النحاسي المشغول بالنقوش الأثرية. اتخذت طريقي إلى الشمع فرشته في الركن، وفرشت عليه العدة، وملأت الوجاق بالفحم، جاءني ولد بقطع من الفحم المشتعل ووضعها في الوجاق وصرت أمروح عليها بذيل جلبابي حتى هملن الوجاق بالنار. اصطفت على المجارة فجلبت أنظفها وأصح فيها الحصى وأحشوها بالدخان المعسل وأرصها بجوار بعضها، وعيني لا تكف عن التأمل في الضيوف وتفحص كل ضيف، لكن واحدا منهم هو الذي كان ينسف أبراج دماغي كلها من أساسها. إذ أنني أراه كثيرا ولكني لا أتذكر متى وأين أراه، ولولا أنه يرتدي الجلباب البلدي والطاقية

ويمسك بالعصا الأبنوس ويقول له الحاج يا أسطى، لولا ذلك لقلت إنه أنور السادات بعينيه الحالق الناطق حتى في الصوت والكلام والنظرات. أخرج أحدهم من جيب صديريه علبة ذهبية كعلبة الشوق. فتحها ونفض منها قطعة حشيش مفلطحة صار يرمي منها تعامير في حجم الليم الأصفر يضعها على ظهر علبة سجائر مارلبورو. بعد برهة فوجئت بالحاج السني يرمي في حجري خلسة قطعة حشيش لا تقل عن أوقية، وأشار لي بغمزة أن أرمي منها برحمة. ففعلت. ثم بدأت صعمعة الشرب يا بوي؛ أدور عليهم بالجوزة وأسحب البهريز من وراء شربهم وفوق ذلك أخذ دوري في توليع حجر مثلهم. صهلل الجميع وتفككوا من ثيابهم، وخرجت أصواتهم المحتبسة منطلقة تتكلم بصوت عال، تروي النكت الإباحية والسياسية وينفجرون في الضحك.

حجر وراء حجر ودور في أثر دور، نجحت دماغي في معرفة كل هؤلاء القوم واحدًا واحدًا يا خال. تيقنت من شخصياتهم يا خال: فيما عدا ذلك الرجل الأسمر الوجه الذي يقلد أنور السادات ويتلمظ بشفتيه مثله وعند الحديث يداري مثله. أما بقية القوم يا بوي فإنهم كلهم ممن حققوا معي يوم أمسكوني أهرب الأسلحة. هذا الذي يجلس بجواري تخين القفص كبير الزهرة مدور الكرش قصير الرقبة تخينها ووجهه كالأورة المحمرة، بشفتين غليظتين وعينين براقتين تلمع فيهما الشتائم على الدوام حتى ليظهر كأنه يشتمك وإن كان صامتًا. هذا الرجل يا بوي هو أول

من تلقاني يوم أمسكوا بي. أما هذا الأسدي الجالس بجواره، المحبوك حتى وهو مشمر أكمامه موسع ربطة العنق فاكك زراير الصديري، بشبابه الطالع نحو الخمسين من عمره، وجهه الأبيض المحمر الشبيه بفردة حمام رعاليل، بضيق عينيه وصغر رأسه، والشعر الخفيف المبيض المتناثر حولها، وشفتيه الرهيفتين المزمومتين حتى وهو يتكلم، وحتى لتحار مستمعه في معرفة من أين يطلع هذا الكلام الواضح المرتب المنمق بعبارات مثل «حيث إنه» والأمر يتوقف» و «القانون لا يحمي المغفلين» بصوت قوي رنان، ويقصره الوقار الشديد حتى وهو يقول نكتة على الرئيس أبو عبدالناصر. هذا الرجل الملعون يا بوي هو الذي حقق معي تحت وابل من الكرابيج. حاجة تهوس يا بوي: سبحان الذي أجلسني بجواره الآن حجرًا لحجر، تخرج البوصة من فمه إلى فمي، بالعز الذي أنا فيه الآن. أما هذا الرجل الثالث، النحيف، الذي تميز عن الجميع بأن أخذ راحته على الآخر، فمد ساقًا وعوج الأخرى دون أن يقول دستوركم، بل وانعوج متمددًا على فخذه الأيمن منشغلا في العبث بمؤشر راديو صغير جدا في كفه، حتى إذا جاءته بوصة الجوزة مد بوزه الرفيع الشبيه بـ «عقدة وشيطة»، وصار يشفط الأنفاس بهدوء وروية حتى يأتي على الحجر ثم يضع كفه المستطيلة بأصابعها السرحة على فمه وأنفه تاركا الدخان يعود من جديد إلى فمه وأنفه فتدمع لدى ذلك عيناه، فيمسح على جبهته الضيقة ورأسه الشبيهة بأصص الزرع، غزيرة الشعر قصيرته، قصير السوالف، وحد تسليح الحلاق لامع

بوضوح شديد حول أنفه وعلى قفاه للخطوط بالمسطرة. هذا الرجل يا نوى آه منه! أعرفه ولا أعرفه. أرى صوره في البراويز المفرودة عند بائعي الطعمية وماسحي الأحذية والحلاقين، ويظهر والله أعلم أنني رأيت صورته ذات مرة بالبدلة العسكرية في برواز على الحائط في منزل لا أدري من، إنما أدري أنه منزل كبير. فهو إذن لابد أن يكون رجلا تحمي المركز يا جمال، والحاج السني هذا اللعوب لا يريد أن يبوح باسمه، ويكتفي أن يناديهم جميعا بـ «يا سعادة البيه»، ويا أفندم ويا سعادة الباشا. وحين يكون الكلام عن نفسه يقول: خدامكم الطباخ أحمد السني يقول لكم وعد إدتكم كذا وكذا.

دماغي لفت يا نوى، تخلف اليمين أن البرج الذي كنا نجلس فيه صار يطير في الهواء. الفجر قال الله أكبر ونحن نطفئ النار في الوجاق ونلم العدة والضيوف يلبسون أحذيتهم ويرددون ثيابهم ويشربون بعض المياه المثلجة قبل خروجهم للهواء. سبقهم الحاج السني نحو الباب ملتفتا نحوي آمرا بأن ألم العدة كلها وأكنس المكان جيدا وأطلب من الخادم أن يوصلني إلى باب الخروج حينما أنتهي من مهمتي، وأنني لأكون جدعا بصحيح لو غسلت أرضية الفرفة بالماء والجيشة. وكنت أظنه قد رأى النوم معششا في عيني، لكنني تأكدت أن النوم في عينيه هو سيمنعه من صلاة الفجر على الحصير الذي يهواه، لكنه مضى أمام الضيوف فهبطوا السلم، وابتعدت أصواتهم، ثم اختفت، ثم ظهرت من جديد، ثم ابتعدت، لتنتهي نهائيا

السادسة: الطريق الملكي

تسلقت الشباك ونظرت في الشارع، فرأيتهم جميعا يمشون نحو جامع عمرو، فنزلت، وجعلت أمشي هنا وهناك. رأيت الولد الخادم متكورا خلف البرج في الطراوة، مستغرقا في نوم عميق يأكل الأرز باللبن مع الملائكة. أسرعت بتنفيض الفرشة والأرض بمسحة لطامة، حتى نظفتها جيدا في دقائق معدودة، وجمعت العدة إلى المطبخ، فوضعتها في نفس الدولاب وخرجت، وبدلا من أن أستدير يمينا استدرت شمالا ومشيت قاصدا الباب الذي منه أصعد إلى البرج لأوقظ الولد كي يفتح لي باب الشارع لأخرج

فإذا بي قد صرت في ممر ضيق مضاء بلمبات سهاري صغيرة، ومفروش بالسجاد فوق أرض من الخشب، ترن فوقها الخطوات، حوائطه جميلة الشكل، مزدانة باللوحات الملونة، المبروزة، والأنتيكات وبين كل بضع خطوات تبرز من أحد الجدارين حنية مقعورة، تعود عندها يمينا، وأحيانا شمالا وفي كل حنية عدة طاقات فوقها زهريات ورد يتصوع منها الضوء الوردي الخافت عبر مصابيح على شكل أيقونات ومساخيط

السُّطُل يا بوي هيات لي أسى عاش في قصر من قصور الجنة لا يعترض طريقي أحد فلابد إلى أن يكون رصواسها الخفير مسطولا هو الآخر حتى نام يأكل أرزا باللبن مع الملائكة. صوت إلهي جمس يرن في صدري قائلا: ارجع يا ولد قبل أن تتوه ولا تعرف كيف تعود. وصوت آخر حاد لعله صوت أبي يزغد هذا الصوت الإلهي قائلا: امش ياولد ولا يهمك اضربها طبنجة فلن يحدث لك إلا ما هو مكتوب عليك. تفرج على هذه الأبهات التي لم ترها في حياتك من قبل. شف كيف الأغبياء اللصوص يعيشون يتمتعون بجنات النعيم فوالله يا بوالعم لا يحظى بهذه الجنان سوى فجرة اللصوص أما نحن فتعال قابلني يوم القيامة لو شفتها. إننا في فقرنا وعجزنا نسب الدين، نسرق، نقتل، ولن نحظى بالجنة في الآخرة مهما تبنا ـ وهل سنتوب؟

انتبهت إلى أنني مع مغادرتي لكل حنية يتحتم على أن أنزل درجة سلم صغيرة، فانتبهت على أثرها أن كل حنية في الممر هي عبارة عن عمود من الأسمنت المسلح المدهون بألوان الزينة. لاحظت كذلك يا بوي أن بعض الشبابيك في أحد الجدارين قد تحولت إلى نوافذ دائرية صغيرة كنوافذ السجن في أعلى الجدار، ثم إنها اختفت تماما بعد عدة سنتيمات هبطتها على امتداد ذلك الممر الدائري العجيب. إنه يتسع لشخصين اثنين بجوار بعضهما لا غير وبالكثير ثلاثة رفيعين مرموقين.

عن بعد قليل كانت ثمة حنية جديدة تقترب، فأخذت أستعد لنزول درجة السلم التابعة لها حتى لا أتعثر. في الأخرى محفور فيها طاقة مبطنة بالخشب من رفين منقوشين، على أحدهما زهرية ورد مصيئة وعلى الآخر مسخوط من الفضة اللامعة. ورد بالهواء يكثر فجأة، كالمطر يتدفق من السماء، وسمعت أزيزا يشبه الأنين ويشبه زيق صندوق الدحدير ويشبه كذلك الصريخ المكتوم. توقفت متجمدا من الرعب بإحال، باحثا عن مصدر هذا الهواء من أين جاء وهذه الأنات من أين طلعت. ثم إن الممر انفرش فجأة بالنور الرباني السماوي، فصرت أنظر في السقف فرأيت مزروزة فيه، عبارة عن فتحة مستديرة في سقف مقبب يتساقط منها الضوء والهواء. جعلت دماغي تحت الفتحة مباشرة وتربعت فوق الأرض ناظرا في عمق الفتحة فوجدتها غريبة مظلمة من الداخل، فنمت مسطوحا على الأرض ناظرا في الفتحة محاولا رؤية السماء فلم أقدر، لأن الفتحة كانت تحتوي فيمن، فكأنني أنظر في جوف مئذنة مبهمة بعدة أدوار مقببة، تنتهي في شاهق البصر بعمة تشبه عمة الجيلاتي فوق كأس البسكويت. قلت: لا إله إلا الله واعتدلت جالسا ثم واقفا، وقد أحسست بدوخة كبيرة لا أعرف من السطل أم من الخوف أم من التعب؟ فتسمرت في مكاني يا بوي، وأخذ الهواء يشتد فجأة، ويسكت فجأة؟ لكنه كلما اشتد أو سكت، ارتفعت معه الأصوات التي تشبه الصريخ والأنين؟ فصرت أبحلق في كل شيء في الممر؟ فخيل لي أن الحنية التي تبعد عني مقدار ثلاثة أمتار تهتز وتتحرك.

قلبي راح يرعق ـ أتصدق يحقق بشدة. عامود من المسلح يتحرك؟

لابد أنني مسطول بسطلة الجنون، فها هو ذا عامود الحنية يقف من جديد ثابتا في مكانه. ولكن، ها هو ذا يتحرك ثانية، بل إنه يقبل نحوي، يكاد ينخلع من الجدار. ينكسر، يقبل نحوي، يا ه يابوي. وقعت أنا في قمقم العفاريت بدون شك. شيء إلهي نطق في صدري قائلا: اجمد يا ولدي وكن رجلا. فصرت أتحرك نحو الحنية في شجاعة مرتعشة، وفي نيتي أن أمسك العامود بيدي؛ لكنني ما كدت أقترب من العامود خطوة واحدة حتى رأيته ينفصل عن الجدار ويقبل نحوي مندفعا هذه المرة كالرياح الثائرة الباغتة، يهبط في الحائط المقابل ثم يبقى مستكنا تماما. وبذلك انسد الممر تماما بعامود من الأسمنت المسلح ذي زخارف عليها ومساحيق ينبعث منها الضوء الملون. لحظتئذ ظهر لي بشكل قاطع كأن الممر لم يكن مفتوحا من قبل، وأنه مسدود بهذا العامود ذي الشفة العريضة من عهد بنائه. أي والله يا حاج قادر ربنا يحرسني لو كنت أكذب. اقتربت من العامود الذي صار في هذه اللحظة مرادف لعقلي. وضعت يدي عليه. فأحسست بنعومته ورقته. دفعته، فإذا هو ثابت ثبوت الجدار في الجدار، دفعته بقوة، فإذا هو يهتز قليلا. فدفعته بقوة أشد، فإذا به ينزاح ببطء ليرتد آخذا مكانه السابق؛ وإذا الممر ينفتح من جديد..

تلوت السلمة المعتادة عند كل حنية؛ وجعلت أنظر في أمر هذا العامود أتحسس طرف شفته التي التحمت بالحائط فكادت معالمها تختفي. أدخلت أطراف أظافر أصابعي بينها وبين الجدار وشددت

بقوة؛ فإذا بالعامود كله ينشد معي ببطء أول الأمر ثم بسرعة ينجذب إلى الناحية الأخرى فاتحا الممر من جديد. رأيت وراءه فراغ فتحة باب. فإذا هو عامود وباب في نفس الوقت، إذا التحم بالحائط لا يستطيع الغريب عن هذه الدار اكتشاف أنه باب. ونظرته من ظهره فإذا فيه «شنكل» سحري، في مكان غامض، يمكن فتحه بمد اليد من الطاقة تحت الزهرية مباشرة، حيث تدفع اليد رقعة صغيرة من الخشب دفعة تلقائية. لتنزاح، فيصطدم كف اليد بالشنكل، فيفتحه أو يغلقه..

رأيت هذا الباب السحري يفضي إلى سلم غاطس في الأرض؛ فصار قلبي يزعق من جديد في ضرباته. يهوي كأني ساقط في بئر هويط. مع ذلك شمرت ذيل جلبابي ونزلت. أمال يا أبا. الرب واحد والعمر واحد

السابعة : الإمبراطـــور

الفتحة من أساسها فتحة بئر، ومن حقي أن أخاف يا بوي، فالعمر ليس بعزقة بصرف النظر عن الجراءة. أما السلم الهابط فيه فمثل البريمة، يدور حول نفسه. حاجة تهوس يا بوي. ما هذه الدماغ الزائغة، التي حفرت هذا البئر الصخري في هذه الأرض وحفرت هذا السلم فيه، وجعلت له - شف العجب - - درابزينا من حديد ناعم، عبارة عن مثلثات كالأهرامات، واحد معدول، يجاوره آخر مقلوب مشدودة بين قضيبين، أحدهما ثابت في الدرج والآخر معلق السراج يتلوى ويتعرج هابطا في حوض البئر إلى عمق غويط جدا.

رجلي تخشبت على أول درجة، وقبضتي استماتت على حديد الدرابزين، وقلبي يرقص كأوزة ذبيحة. العجب يا حال أن صدري كان منتفخا كأنني فرعون بذات نفسه. يظهر والله أعلم أن درجات السلم معمولة بالعمية كي تجعل من راكبها هكذا قلت فما بالي أرتعش هكذا وكأنني مجبر على نزول القبر حيا؟ قلت لأنني لست بفرعون صعيدي أنا وأعرف مقابر الفراعين معرفة دياري، كما

أعرف أصالة المساخيط من ريحها معرفة الأخ لأخيه ولو بعد غياب مائة عام؛ وأعرف منها ما لو عرفته الحكومة لاحتلت الصعيد كله ولكن هيهات، ولرحلت عنه سكانه ووضعت بدلا منهم خفراء بنبابيت وأسلحة من هيئة الآثار. كذلك أعرف المقبرة من المغارة من السرداب من المتاهة من الشرخ الجبلي الواسع. ليس هذا فقط يا بوي؛ بل إنني لأعرف مقبرة الأمير من مقبرة العفير، مثلما أعرف جحر السحالي من جحر الثعابين لست في ذلك فارسا. خذ بالك من هذا: إنما هي خبرة توارثتها عن أهلي، وتأكدتها من سعيي على ظهرها: أقصد الأرض، بل أقصد في المقابر؛ فالأرض هي المقابر والمقابر هي الأرض؛ والواحد منا يا حال مذ يفتح عينيه يرى الأرض مباشرة، وتظل عينه قريبة منها مهما استطالت قامته! ولا وسيط، لا حائل بينه وبينها يده في أحشائها، كما أن أحشاءها في جوفه على الدوام. ولذا فالواحد منا يا حال - أقصد الجنوبيين - قد رزقه المولى الكريم عينا طاحنة، تحط على صمت الجبال، وفي سطوح الأرض ومحسوبك بالذات - بفضل هذه العين اللصية - عاش حياة الطيور وحياة الحشرات معا تحلف اليمين - لا كذب ولا مين - إنني أحمل في صدري وفي دماغي ذكريات الحشرات وذكريات الطيور معا، وأقدر على أن أفكر كأنني حشرة، وأفكر كأنني طير. لأن حياتي الفائتة كلها لم تكن غير يومين اثنين، يوم كحشرة، ويوم كطير...

إن كان علي للمقابر قياما نزلتها في أنصاف الليالي؛ لأخفي بداخلها مسروقاتي، بجوار هشيم من عظام الموتى؛ بل إنني أنام

شعوري بفظ الصوت وطلوع العانة ورمي الجمجمة في الحلم، شغلني الجنون. فاستدرجت امرأة عبيطة ضالة، وبيتها بجوار الهشيم، وشرعت أناكف من رجولتي. فما دريت إلا والليث يرغمني بكف متحشية في جيبي رغدة مؤلمة ويقول بصوت مسلوخ كصوت صرخة النار المكتومة: «يا أخي اختشي وخل عندك رباية، بقى راجل أنت؟» أما العبيطة الضالة فانفجرت ضاحكة بصوت هائج، وأما أنا فقد اندفعت خارجا أعوي، والشرر الأحمر يتطاير من عيني، بعد إذ اصطدمت جبهتي بسقف باب الفسقية. وما كان صراخي وعوائي خوفا من الميت الذي مثل، بل خوفا من «رتقطه» قاطع الطريق، الذي نعرف جميعا أنه يداوي جنبة تؤويه في دار لها تحت الأرض؛ ولم يكن يخطر لي في بال أنه يستوطن هذه الفسقية بالذات.

حضرتني هذه الواقعة وأنا في وقفتي على أول درج من سلم البئر. فصرت أضحك بشدة، آي والله يا نوي، وهتف بي هاتف بصر الشيطان، وارجع يا حسن فهذه المقبرة الفرعونية مقبرة ملوكية مثة في المائة، وهذا البئر ليس محفورا بل مبنيا بالصخر حول هذا السلم اللولبي، الذي لو تكسرت أصابع الأمريكان والألمان والبريطان وكل المتفرعنين علينا هذه الأيام، لا يخرج من يدهم سمة واحدة منه. المقابر الملوكية خطر يا حال، كلها خطر، هي الخطر بذات نفسه، هي مجرى لعطر الموت يا حال. رشه الفرعون قبل دفنه منه معار سقى أمد الدهر في مكانه. من يستنشقه يموت حتما. أهد القدامى كانوا في غاية الفصاحة،

يعرفون أن لصوصهم مهما عبدوهم لا يصدقونهم، ولا يخافون من أبيهم الله، الذي يقول فرعون إنه ابنه، ولسوف يتسللون لسرقة ما تحويه المقبرة من جواهر وأموال؛ ومن هنا يا حال، لجأ أهلنا الملوك إلى حيل جهنمية، منها تسميم الهواء. لا أقول هذا من دماغي يا نوي؛ ولكنه شيء جربناه. ودفنا موتانا في الكتم، ومع ذلك لم نتوقف عن نزول المقابر والإتيان بكنوزها. لكي يعتني بها صلالية كبار مثل الحاج السني وغيره من لصوص البر العظماء. لكن قولوا لي بالله عليكم كيف جاءت هذه المقبرة إلى دار السني؟ المؤكد أن دار الحاج السني هي التي بنيت حولها منذ زمن سلطاني بعيد.

حلو؛ حلو؛ مادامت هذه المقبرة في دار مقصوف الرقبة هذا، فلابد أن النزول إليها سهال على الدوام، وصاحبها ذي بقباب وساحات الأقدام. وليس من المعقول أن أعقاب السجائر هذه من عهد أيام الفراعنة، أم تراهم كانوا يعرفون السجائر أيضا؟ ربما يا نوي، محتمل، فقد عرفوا كل شيء في الدنيا والآخرة. والدليل على أن النزول هنا سهل هو وصولي إلى هنا في حد ذاته يا نوي، إذ يوجد طريق معلوم وباب مرسوم، ومن حسن حظي أنه كان مفتوحا مما يؤكد أن أحدا كان هاهنا منذ وقت قريب. ومن سذاجته نسي أن يغلق باب الممر المكتنة، أو أنه قد ترك الباب اعتمادا على أنه قريب من هنا وسيعود بعد برهة. أو لعله موجود الآن داخل المقبرة وسيطلع منها بعد قليل.

حاجة تهوس يا بوي؛ الرعشة مككت تيبس قدمي، ملامستا، وتحركت يمناي نحو الهبوط" فقلت: والله لأنزلن، في البئر شقاط فوق. ما دريت إلا وجسدي كريشة تهبط فوق الدرج مسحورة بالشغف. برهة طويلة مرت كسياحة في حلق الثور حامل الأرض على قرنه. وبدا بي فوق أرض مبلطة بالنقوش والرسوم والألوان الشفقية اللامعة، كأرض حمام في سراية مشغولة بالموزاييك. مضيت أنظر في هذه الأرض، فإذا بإمكاني المشي فوقها تحت سقف تتدلى منه لمبة كهربية من أيامنا، وإذا مساحة الأرض عريضة توازي مساحة البيت المقام فوقها. في الأركان لمبات أخرى مضاءة كالبلح الأبيض. رأيت في الركن البعيد بابا كأبواب الأضرحة. خطفت رجلي إليه، دفعته، فانفتح. فإذا بسلم آخر أمامي وفمه مفتوح، كفم تمساح جوفه مظلم، لا يلمع فيه سوى أطراف الدرج كالأنياب المخيفة. جاءني هاتف يقول إنني سأرمي بنفسي في جوف التمساح لو نزلت هذه المرة لكن الدماغ الناشف ناشف يابوي. صرت أتحسس الحيطان بيدي، فتلاقت بزر نور آخر لمسته فأضاء السلم كله فإذا هو قصير لا يزيد عن خمس درجات في مواجهتها باب. إه، العمر واحد والرب واحد. نزلت. مددت يدي متحسسا جدار الباب السفلي، فلمست زر نور فأضيئت الدنيا كلها أمامي.

صدق أو لا تصدق يا حاج. الدنيا كلها كانت أمامي. باحة من باحات الجنة. حيطانها حمراء وزرقاء، وعلى كل لون، رسوم

ونقوش لا مثيل لها. على الأرض قواعد رخامية، يقف ويقعد فوقها تماثيل عظيمة من الرخام والحجر الصوان. ومسلات صغيرة وكبيرة من الرخام عليها نقوش ورسوم. صادفني باب على اليمين، فتحته، عبثت يدي في الحائط بحثا عن الزر، فلما لمسته أضيئت الحجرة، فإذا بها تمتلئ بالصناديق المشغولة بالذهب والأحجار الكريمة. بعضها مغلق وبعضها مفتوح، والتماثيل الذهبية والفضية والبرونزية والنحاسية مرصوصة في كل مكان. ارتعشت يا بوي، استرعبت. صرت أحشو جيوبي بالتماثيل الذهبية، وأحشر في دكة السروال، حتى صنعت خصرا سمينا، ومؤخرة كبيرة. وقلت: والله ليكونن لي نصيب في هذه البلية مهما كان الأمر.

طلعت أجري على الباحة. دفعت بابا آخر، وأضأت النور، فإذا بي في حجرة مليئة بالقناني، والدواليب الزجاجية المقفلة، كلها ملآنة بالحلي وأدوات الزينة والخلاخيل والخواتم والأقراط والعصي والمشطات ومراوح اليد والبناشين حاجة تهوس يا بوي، صرت أكبش وأضع في عبي، بعد أن حزمت وسطي جيدا بدكة السروال، حتى انتفخ جسمي كله. طلعت أجري كالمجنون. دفعت باب الحجرة الثالثة. فانفتح. فإذ بها تمتلئ بأنواع من الكراسي والأسرة الذهبية، لها أرجل كالحيوانات المفترسة بعيون تبرق بالأحجار الكريمة والذهب. ارتفعت دقات قلبي كدبدبة الخيول على الأرض، وهتف بي هاتف يضحك، ينبهني أن الشخص الذي في

المفروض أن يعود زمانه الآن قد عاد، وقد يغلق الباب الفوقاني بالقفل، فأنحبس هنا إلى أن يجيء لي أصحابي

دورت على قلبي بين ضلوعي فلم أجده، حينما دلفت إلى الباحة الكبيرة، فإذا هي قد تغيرت؟ فالباحة التي دخلتها لحظة قدومي كانت حوضا من حيضان الجنة، على حيطانها كتاب النقوش الحاوي من كل نوع ولون، حتى لكأنك وسطها في سرايه جدرانها من الزهور. أين ذهبت التصاوير يا بوي؟ تظل الألف السنين عالقة بالحائط، الحائط نفسه مشكول بها، فما بالها قد اختفت لي مع البصر ساعة ما دخلت الغرفة وخرجت؟ كيف يا بوي؟ أنا مهما أسطل من شرب الحشيش لا أغيب عن الوعي أبدًا. فالسطل هي مزاج الساهرة وتبست بمج العمليات. هذه باحة أخرى غير التي دخلتها عند نزولي من السلم مباشرة؟

صار قلبي مثل الدلو يغوص في بئر قدمي. وصرت أشده بحبال تتقطع بها أنفاسي. وصار الرعب يشفط قدمي من كل دم، تحلف اليمين يا جمال أنني شعرت – حل مالك من كلمة شعرت هذه – أن جثتي كلها أيت إلى عرق من الخشب اليابس، ليس فيه قطرة ماء توحد ربها. استللت لعلها يظهرا ولكن جد علمي أن المشلول لا يقدر على التحرك ومد اليد والقدم والتنفس، وها أنذا قادر على هذا، وها هي ذي حبال الدعس التي أشد بها قلبي من بئر قدمي تقوى، وبكرتها تكر في سلامة. وتكتة الجسم شغالة أربعة وعشرين قيراطا لكنني – فيما يخيل إلي أيضا أشعر كأنني لو أردت رفع يدي ما قدرت، أو مد قدمي ما تمكنت.

الذي طرأ على دماغي لحظتها يا جمال أنني وقفت مسمرا، أصبع ذراعي بجوار جنبي، وقد نسيت تماما كل ما تحت جلبابي من كنوز مخبأة؟ بل والله وبالله نسيت الدنيا وما فيها. تقول يا جمال إنني شارب لتوي ألف حجر من الحشيش المعتبر مع سنة جليلة القدر من الأفيون الخام؟ حاجة تهوس يا بوي. وكنت أذكر فقط أنني جئت أنظر كيف دخلت هنا ومن أي باب، وأحاول استذكار الخطوات التي اتبعتها عند نزولي خطوة خطوة. فلا أزداد إلا تأكدا بأنني تهت، إذ – لابد – دخلت من باب سحري موجود وليس موجودا في نفس الوقت. ثم فوجئت بأنني – صدق أو لا تصدق يا بوي – قاعدا القرفصاء على الأرض مثل تمثال شيخ البلد الأكادة أنني ولست أذكر كيف ولا متى جلست القرفصاء، مع أنني منذ برهة كنت واقفا مسمرا أنقل البصر في الحيطان بحثا عن الباب الصحيح. الذي دخلت منه لكي أخرج منه في الحال. لكن، لم يكن ثمة من باب سوى الباب الذي خلف ظهري والذي من المفروض أنه يفتح على غرفة الأوسمة والنياشين والعصي والجعارين والمسابح الذهبية والخواتم والحلي على شكل صلبان وقباب وعقارب وحيات. هذا الباب الذي خلف ظهري – إذن – يجب أن يفتح على هذه الغرفة وعلى الباحة. التي يطل عليها مجموع أبواب الغرف المطلة عليها. أين بالله ذهبت بقية الأبواب إذن، ما اعتبرت أنني الآن في الباحة العمومية؟ وأين الحوائط المنقوشة بالألوان؟ وأين السلم؟

يا ربي، ما نهاية هذه القعدة المتقرفصة التي وجدتني فيها كأنني صرت تمثالا حجريا. هكذا قلت لنفسي فجأة وقد بدأت أسمع دقات قلبي بعد غياب طويل. وقالت نفسي: حتى أنهض لأرجع إلى هذا الباب خلف ظهري؟ لعلي أكتشف أن دماغي هو الذي في رأسي. إنني منذ دخلت وأنا قاعد الآن أتذكر نفسي واقفا فإنني أستطيع تبعا لذلك أن أقف ثانية. وأن أستدير خارجا من الباب أو داخلا منه إلى الغرفة التي كنت فيها، وأن هذا يجب أن يحدث الآن فورا. إذ أن خاطرا في دماغي أنبأني بأنني قد تهت فدخلت غرفة الدفن لابد، أو الغرفة الملاصقة لها، أو التي تفضي إليها بباب سري لست أراه وليس يكشف نفسه لي، إنما هو يستلبني إليه فحسب!

صدق أو لا تصدق يا خال أنني كنت لحظتها أشعر بغاية البهجة والراحة النفسية. لا يداخلني أي ذرة من خوف أو رعب، بل تشوقت لرؤية الجثث التي هي مدفونة ها هنا، بل صرت أشعر بالحنين لأن ألتحم بها وأمضي في عروقها وأتركها تمضي في عروقي؛ أي والله يا خال ما هو بمس ولا لحسة الخمار

واضعا كفي على ركبتي ظللت متقرفصا أنظر في فراغ القاعة، غير قادر وغير راغب في تحريك أي عضو من أعضائي. حاجة تهوس يابوي! دماغي - مع ذلك - لا يتوقف عن الشغل في ملكوت أفكار تغوص تحت الأرض وتتطلع متسللة من بين الفجوات، تتسلق الآبار. لا تريد أن تبارح هذا المكان أبدا. لا تريد طعاما ولا

شرابا ولا نوما ولا هواء ولا غطاء ولا شمسا ولا قمرا؛ فكل ذلك موجود الآن بوفرة بين هذه الجدران الأربعة تحت هذا السقف الجيري الأبيض، الذي اتضح لي الآن أنه مقبب كسقف الجبانة بعد أن كان مسطحا مستويا منذ برهة. ولكن أية برهة؟! إنني لم أعد أذكر متى جلست القرفصاء هكذا في هذا المكان؛ فمن فرط ما مر على دماغي من الأفكار والمرئيات ها هنا لابد أن أكون مكثت في قعدتي عشر سنوات على الأقل، ولابد أن أهل الكهف والرقيم الذين ناموا في كهفهم مائة سنة عندما كان نومهم من هذا القبيل الذي أنا فيه الآن نوما صاحيا وصحوا نائما. حاجة تهوس يا بوي!!

الخيال الذي رأيته يزحف أمام عيني جانبا من خلفي كان خيال حيوان غليظ الحجم، تبينت في شكله ثور بقرنين نافرين، ولحظة انتبهت إلى شكله كنت قد صرت في قعدتي القرفصاء تحت بطن هذا الثور الضخم، وهي تضغط بكلكلها فوق دماغي؛ لكنني كنت - مع ذلك - قادرا على تحريك رأسي. الدليل على ذلك يا خال أنني التفت مذعورا إلى اليمين وإلى اليسار. فلما رأيت ظل القرنين الأخيرين للثور تمران بجواري لدن شعرت أن.. أن.. إحليله قد تسمر كالمسمار في ناصية رأسي؛ أي والله يا خال، فحنيت رأسي إلى الأمام بفعل ضغط الإحليل الحديد عليه، فشعرت بذيل يلفحني، يلسعني، ثلاثة بالله العظيم يا خال أحلف اليمين أن قفاي كله أخذ يلتهب ويوجعني. هنالك شعرت بعتبة الرعب يا خال. فيما

فعدت إلى أنني أشعر بالرعب أيقنت بأنني فارقت حياة. وحينئذ جاءني الفرج يا نوى؛ نفضت نفسي قائما في الحال واقفا، وصرت أنكت جثتي نكتا وأهزها هزا. وحينئذ انتبهت إلى الأشياء التي أخذت تتساقط من بين خلفاتي: فأيقنت بأنني قد أفقت تماما، وعدت إلى الصواب. فرحت أجمع ما تساقط مني وأعيده إلى خفائه. وكان ثمة باب وحيد أمامي، انتبهت إلى أن شكله ليس كشكل الأبواب، إنما هو إلى الممر أقرب، مجرد فراغ بين حائطين محكومين بأرض وسقف. دلفت منه. واجهني حائط، كسر وجهتي، فوليت يسارا بين حائطين، في ممر طويل كالسرداب لكن أرضه مرصوفة بالزلط والحصباء، وسقفه كذلك، واللون البرتقالي يلعب في السقف والأرض والحائطين بكل درجاته.

بعد سير طويل في هذا الممر البرتقالي فطنت إلى أنه ضوء الشمس قد تسرّب قادما من نهاية هذا السرداب على مبعدة خطوات قليلة. هممت بالجري، ولكن جثتي كانت ثقيلة كالرصاص يا حال، تخلف اليمين أنني كنت أحتاج لمن يحملها عني. عافاني الله فرأيت الضوء البرتقالي يتسع شيئا فشيئا ويعمل بحرا كبيرا. سبحان الله يا نوى كلما أوشكت على نهاية الممر واقترب الضوء شعرت بالبرودة والارتجاف، وأخيرا فوجئت بأنني صرت في سور كبير دائري الشكل كمئذنة كبرج عال كبير، أرضه مسفلتة، وسقفه شمس وسحاب، وجدرانه الأسطوانية أطول من قامة ثلاثة رجال يقفون فوق بعضهم، ورابعهم هو الذي إن تساند فوقهم

يتمكن من حافة الجدار، ليروعه عمق الهاوية السحيقة خلف الجدار.

أخذت ألف في فراغ هذا السور يا نوى كالمعة الحلقة الدبقة. أكاد يصيبني لطف، والعياذ بالله من حائط السور الدائري يحتل قبسا بائنا من مراسيل الشمس والقمر والهواء والسماء والمطر. يا لك من فرعون ابن فراعين يا من سبت هذا هكذا. دورية الجدر فيها فجوات عديدة على شكل مربعات ومستطيلات ومثلثات، لا تتمكن العين من حصر عددها، صغيرة وكبيرة ومتجاورة ومتباعدة، وكلها فجوات فارغة يفح منها الظلام. إلى يساري كانت فجوة، على شكل فتحة باب لا تعبرها قامة الإنسان إلا منحنية.

قلت: لأعبرنها. صحي ماشف يا نوى؟ طب ماذا أفعل غير هذا يا نوى؟ حلها ثورة بثورة، حتى نصل إلى منفس رحمته. ما إن أحنيت قامتي ودلفت على عتبة من الحجر الأملس كحجر الجدار النحيل المروق بخطوط دقيقة، في المسافات الفاصلة بين حجر وحجر، انبسطت لسلم حلزوني من الحجر، يدعوني للصعود إليه، فبادرت ما دخلك شر درجة فدرجة. بسطة وراء بسطة، حودة إثر حودة، أمامه قامة عقب استقامة حاطفة، يعقبها رفع صدر تواتيه وفرة من الهواء. وكنت أرى على يميني وعلى يساري كثيرا من هذه الفتحات المختلفة الأشكال التي رأيتها في دورية الجدار قبل أن أدخل البرج. بعضها يجلب عواميد من الشمس، وبعضها يسرب كتلا من السحاب فحسب. بصصت من فتحة و جهتي، فوقعت بصحتي على أرض السور وقد غاصت في قرار مكين

صعدت مرة أخرى،فرأيت سماء مشمسة شاسعة تتكئ على أرض خضراء تتاخمها ـ على البعد ـ أبنية كثيفة، كما رأيت شريطا يلمع كرقبة ذهبي متطاولة ملتوية، سرعان ما فطنت إلى أنه نهر النيل العجيب يجثم فوق جماعة جامع عمرو بن العاص بجلالة قدره كفيلق من طائر أبي قردان يحط على شطه لبرهة وجيزة ولن يلبث حتى يحلق في الهواء حاجبة شمس يابوي.

وصلت صعود الدرج، وكم صادفني في الصعود من فتحات كبيرة تفضي إلى ممرات وأبهاء يجري الخيل فيها لفرط براحها، كيف يا بوي؟ من أين جاء كل هذا الوسع وكل هذا التأسيس؟ وقد حاصرني والله خاطر للدخول في كل فتحة على حدة؛ ولكن شيئا إلهيا كان يدفعني إلى تسلق الدرج في سمت السحاب، الذي بدا يظهر متكررا على الدرج الحجري. ثم ما لبثت السماء كلها حتى باتت شبكة حديدية مستطيلة فوق فتحة دائرية، تظللني طاولتها، وصار بإمكاني أن أتبين أنها مثبتة في السقف بمعاشق ومعشوق؛ عاشق ثابت في السقف ومعشوق فيها، يتثبت فيه العاشق.

صدّرت فيها رأسي يا خال، وكفي وكتفي، حتى نزعتها، وكانت ثقيلة جدا يا خال، وسبحان من يطلعها يا خال، لولا حدوث نوبان وتهتك وتشعث في حجر السقف. انطعت يا خال؛ إذ إن معاشيق كثيرة خرجت بمعشوقاتها عن ثبت السقف، مما أتاح لي أن أدفع جسدي كله فيها، لأقلبها على ظهرها، وأخرج إلى السقف يا خال واه واه واه يابوي، مما رأيت السقف كان ملتحقا بسقف الدار.

بل ها هي ذي الحجرة القمرة التي كنا نحشش فيها مع ضيوف الحاج وعدت فنظرت في فتحة البرج الذي صعدت من جوفه فمسني الخوف والرعب من العمق السحيق الذي خيل لي أنه يشدني إلى القاع.فما كان مني إلا أن غطيت الفتحة بكل قوتي حتى رجع الغطاء كما كان.

رجع لي قلبي يا خال، وسمعت وقع خطواته في صدري، لكني وقفت مطرحي، أفكر في كيفية الخروج من هذه الدار وحدي بدون أن أتعرض للتوهان مرة أخرى، درت حول الحجرة القمرة مرتين، ثلاثا، وبدني كان يرتجف. أسندت مرفقي على حافة جدار سور السطح المرسوم على شكل تاج ملكي. ورأيتها يا خال؛ نعم رأيتها، فرقص قلبي من الفرح. إنها المجاري التحتية الصاعدة حتى أعلى السطح ملتصقة بدورة مياه الحجرة القمرة غائرة في جدار السور حتى تملكت الماسورة وحضنتها في صدري، محوّطا عليها بذراعي، وتركت جثتي تهوي إلى الأرض بكل سهولة

استقرت قدمي على الأرض، فأخذت أمشي في هدوء وتؤدة خلف دار الحاج السني، متجها نحو عشش الجبارة. وكان بعض الأطفال قد رأوني وصاحوا متعجبين، لكنني سرعان ما اختبأت منهم في إحدى الحواري الضيقة، لأرى نفسي متجها نحو بوابة الحديد مغير إبطاه ومن عزمي الرحيل إلى البلد، لأتأوى هذه الثروة في أرض داري.

الثامنة: خطبة على قبر أبي

ما أحلاها يا خال حين تكون مواتية وجاثية على الكيف أقصد الظروف الحلوة. ظروف الإنسان الشقيان يتخبط في بحر من التعاسة ألا قاتل الله أيام النحوس يا خال. إنها حسيسة خبيثة هذه النحوس. لا تستضعف إلا طيبي القلوب الأبرار الأبرياء. ذوي النفوس الحسنة والصدور الطاهرة والأيدي العفيفة؛ تستكردهم يا خال. تضربهم على أقفيتهم بالصرمة القديمة. لعلمها أنهم بلا حرابيش يشيرونها في وجوه حاسديهم وعوالهم. ووالله إنها لنحوس وأي نحوس. تلك التي تتحكم في رقاب البشر الضعفاء؛ تخنقهم على مراجها يا خال من قبل أن يولدوا. طبعا يا بوي؛ وإلا فما معنى أن يكون رجلا شرموطا كالحاج السني يفعل كل موبقات من ورء لحية ممدودة ومسبحة مطرودة ومائدة ممدودة وحدائق مورودة وسيرة محمودة وفي باطنها ممدودة. أليس ذلك يدل على ظروف في الأصل مجدودة وخيراتها غير محدودة؟

رُدّني يا خال إن كنت تراني جمحت. قلمت والله براكب فرسا غير مرسي فما أنا الآن بجامع أنا خصوصا بعد أن رأيت ما

رأيت وفهمت ما فهمت وعرفت ما عرفت من أسرار في هذا البلد يشيب لهولها الولدان. حقا حقا هذه مصر أم العجائب يا خال ولن أمل من تكرارها. هذا والله ليس مثلا يقصد به التندر، ولا هو من قبيل الهتافات والعصبية. فلو قدر لك أن ترى ما رآه العبد لله وتشقى شقاءه وتعرف ما عرفه لأيقنت أنه قرينة صدق لا يجيئها الباطل من أي مكان فيها. والحاج السني أحد هذه العجائب يا خال. إذا قدر لك مرور هذه البلد لا تنسى أن تمر عليه وتتفرج؛ دعك من الأهرامات وأبي الهول وسقارة. بل دعك من البطلمي والقبطي والإسلامي والمملوكي وكل ما تلوكه ألسن المرشدين السياحيين؛ وانظر في عجيبة الحاج السني وحده. ففيه - أقصد فيه - كل الأزمنة والاستيكات؛ عافاه الله وأعطاه طول العمر حتى يتمكن من مص كل ما في العروق من دم، وما في الأرض من رحيق، وما في السماء من ماء، وما في الجو من هواء يقتل الفجر في كل يوم ويمشي في جنازته محني الرأس من فرط الخشوع والتقوى، وتباركه الشمس صباح كل يوم، تبرم في عوده وتصلبه كعود الخيزران.

شف يا خال؛ حدها من العبد الفقير إلى ربه تعالى محسن أبو علي، ولد أبي ضب. هناك مصران. يا ولد العم لا مصر واحدة. مصر الصعيد والوجه البحري، ومصر القاهرة وحدها، عليها اللعنة إلى يوم القيامة. شف يا خال؛ لست متعلما وإن كان أعمامي من الفقهاء النبهاء؛ إنما أستطيع أن أقول لك مالفم المليان أن مصر كنانة الله. التي ورد ذكرها في كتابه العزيز هي الصعيد

والوجه البحري" من مصر تلك الزمان، التي تعهد الله بحمايتها من كل شر وخراب ومن كل معتد أثيم" أما مصر القاهرة هذه، استعدت عليه بالله أن تجيئها شرطة تأخذها إلى غير رجعة بكل ما ومن فيها، وأن يجري الزمان بقيام عاصمة جديدة فيها عالم نظيف طاهر اليد.

مصر القاهرة هذه يا بوي هي التي ابتناها علية القوم من الفاتحين الأجلاء - شف الأكابر - فمن الفسطاط إلى العسكر إلى القطائع إلى القاهرة المعزية - الحسينية والجمالية - إلى قاهرة الإفرنج من تخوم الأزبكية حتى ميت عقبة هذه كلها كانت مجرد سكن للحاكم الجديد ولأسرته وعلية القوم وأتباعه وعائلات خدمه وحشمه. هذا ما تعلمته من أولاد الحلال القارئين، ومن وكيل النيابة الذي كان مسجونا معي، حتى بريش وهندي وعرولي وبيبوسه يعرفون هذا من غير قراءة في الكتب. وحيث يسكن الأمراء والحكام والمرفهون لابد أن يحط على مساكنهم ذباب كثير، حشرات من كل نوع تتغذى على حسابهم الكل عبيد ولا أخلاق لعبيد ومن لبسوا فاخر الثياب من خلع أسيادهم وأكلوا شهي الطعام من فضلاتهم ومهما تقلد العبد خطير المناصب أو جليلها يظل العبد الذي في داخله يسبح بحمد سيده، يوجه كل همته في تقوية سلطانه وتعلية جبروته وتثبيت طغيانه. حتى ألفوا مثلا سيئا يقول من أكل خبز اليهودي يضرب بسيفه إسمع كلامي يا بوي وصدقني أن اللص في مصر القاهرة هو السيد الحقيقي

مهما تفه شأنه وقل نفعه، والكل يسرق على قد حجمه ومركزه يا بوي، هو وشطارته، ولربما يقع في قبضة الحكومة في كل يوم، ويمثل أمام المحاكم كل أسبوع، وكل ذلك يصبح مجرد رياضة ونزهة يقوم بها، فهو واثق أن الدينار سيد الأخلاق. إنس ما بدا لك في هذه البلاد يا بوي، فأنت لن تستطيع رؤية الدينار وهو يغادر يد الفاعل داخلا في ذمة الحارس أنت يا بوي في هذه البلد لاتستطيع أن تحكم بالقانون" والله لو وضعت على رأس كل فرد قدمي شرطي مدجج بل وحتى لو وضعت فوق رأس كل شرطي قدمي شرطي آخر. إن الفساد ضارب في كل النفوس يا بوي، البذرة نفسها مسمومة من الأساس فكيف يتم إصلاحها يا بوي؟ إنهم قوم لاينفع معهم وعظ ولا إرشاد ولا ردع، لأن الوعظ والإرشاد والردع عندهم في حاجة إلى وعظ وإرشاد وردع فكيف يتم ذلك يا بوي؟ كيف يا بوي حفظك الله؟ تحلف اليمين يا خال أنهم قوم يشجعون اللص ويفخمونه ويكرمونه من كل النافذ حتى يتمكن منهم أنفسهم ويمص دمهم بصنعة لطافة أو بمشورة العافية" ويا حلاوة اللص في نظرهم لو كان ظريفا" إنه والله ليوشك أن يكون نبيا بينهم.

أنا لم أقرأ الكتب يا بوي؛ ولكنني عن خبرة وتجربة مريرة أقول لك إن بلد الألف مئذنة هذه تحوي من دود الأزقة والحارات الوضيعة والعشش العتيقة ما لا يمكن أن تسمع به في مكان آخر واه يا بوي واه، تحلف اليمين أنها معرض للدعارة والإفك والزور والبهتان رغم مظهرها الوديع ولحيتها الطويلة الساجبة

ورغم رائحة بخورها وحلاوة نسوانها وطراوة رجالها هؤلاء الذين يعيشون يا بوى ويطالبون بكل شئ فيحصلون عليه بالطيبة أو بالعصبية . ألم أقل لك إن الدينار سيد الأخلاق وأنه مفتاح سحك الذي يجب أن ينفتح لأى تفاهم حول أى شئ عن أى شئ ستدفع كم؟ والكل بأريحية وعن طيب خاطر. لأن الجميع يشفطون وينهبون ويبيعون كل شئ يخطر على بالك" وما دام قد أصبح لـنـتـم أسعار فـقل على الدنيا يا رحمن يا رحيم. الأكادة أنهم يفعلون كل ذلك يا بوى، في سهولة تامة يا بوى؛ وتمضى مع ذلك الحياة هادرة كأن شيئا لم يكن. الذى تعرف ديته اقتله" هكذا يقول المثل عندهم يا بوى!!

أفتعرف يا بوى من هو الذي يقتل كل يوم وكم عدد القتلى ؟ بالطبع لاتعرف يا بوى. أما أنا فأعرف" وجوابي أنك تستطيع أن تعرف بسهولة كم يزداد عدد القتلى كلما رأيت شخصا يضحى بمال أو بالكرامة في سبيل مغنم شخصي" ولاتنسَ أن تضيف نفسك في عداد القتلى يوم تضبط نفسك متلبسا بفعل كهذا مما تضطر لفعله كل يوم كي تبقى ـ فقط ـ على قيد الحياة يا بوى"

أفتنتظر مني يا بوى أن أعيش بين هؤلاء القوم دون أن أكون مثلهم؟ كيف يا بوى؟ أتلقيني بين الثعابين السامة وتطلب مني أن أكلمهم فمن أذيتي لها والأذية ليست متولعة إلا منها؟ كيف يا بوى؟ ألست أنت يا بوى القائل دائما في كل وقت إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب؟ وأن هذا مثل وارد في الكتب مثل الآيات القرآنية؟ هاأنا أعمل بنصيحتك وأتأكد أن البركة في هذا المثل. وعما

قريب أغدو أنبل واحد في البشر. هاأنذا يا بوى أتطبع بشخصية الحاج وأتخلق بأخلاقه، وأحوى بعض صفاته، حتى أكملت معه وجهها ويبقى الوجه الآخر. أما وجه الحرفنة في السرقة والنهب والتهليب والتهريب فإن لم أفقه كله. فإني مؤنس في نفسي القدرة على أشبع منه منذ أن كشفت أساليب الحاج السمى وغيره. أما الوجه الآخر، وجه اللحية والمسبحة، والرفول في ثياب سمعة جيدة تجتذب علية القوم والحكام وتوسع من العلاقات وتقوى من النفوذ. أما هذا الوجه فأنا بسبيل تأسيسه وبحث سبل الوصول إليه بكل هدوء واطمئنان بال. كل ما هنالك ـ وادع لي يا بوى ـ أن يقيني الله عقوبة السجن إلى الأبد. فالسجن ليس للص الكبير في بلادنا يا بوى" إنه عقوبة اللص الصغير فحسب. كلما تفهت مسروقاته عظمت عقوبته. لهذا أعدك يا بوى أنني لن أكون هذا اللص أبدًا" إنما سأكون ذلك الكبير الذي يعلو بنفوذه فلا تطاوله هامة القانون، ولاتعرف طريقه عربات العسكر

التاسعة: حساب على تخوم الجحيم

ذلك ما حدث لي في جوار قبر أبي، وهذا كل ما دار في خاطري من حوار أمام شاهده. كيف يا بوي مررت على هذا القبر وأنا ملغم بالممنوعات وليس من الصواب أن يراني أحد أو يحتك بي أحد. فكيف جئت إلى هذا القبر لأقرأ على روحه الفاتحة؟ أنا الذي جئت من تلقاء ذاتي أم أنه ناداني فجئت مرتجزا؟ أذ بينما أدخل البلدة كانت الشمس خارجة ورقبتها دامية على أطراف سكاكين السحب البيضاء المرتدة الزاحفة نحوها كالغول يوشك أن يبتلع بقية الرأس الصغير ليغيب كلنا في جوفه المظلم. مع المغارب تيقظت الليالي الفائتة التي تركتها على هذا الطريق بين هذه الحقول والجبل بشقيه. خيل لي والله يا بوي أن أبي طالع من الخص الذي يحفر فيه مكينة المياه يستعجل قدومي في قلق. شعرت والله بالحنين إليه، الدم يحن يا حال. قلت: لقد ظلمتني إذن ولاكوس مثلا وابن حرام إن لم ألبه هاتفا أحضاني، في تغريبة قصيرة عرتها إلى سفح الجبل فصرت أمام المقبرة. وشعرت وثبه أنني كنت في حاجة إليه يحصرني في هذه العملة الكبيرة

التي حملتها وحملتها في مرة في سبع من سباع الكهف والنوم والحرصية وله بين كبار الحكام أرهاط من الأصدقاء والخلان والعشاق والمسامرين، وهو البادل في كل حال هدايا من الأنتيكات والأثريات وفلوسا رخيصة يدبج بها تحف وضمائر لا حصر لها.

وبعد أن جالت كل هذه الخواطر برأسي ولعبت في بطني فتذكرت أنني لم أقرأ الفاتحة بعد، فقرأتها على عجل ثم تأبطني الليل حتى وصلت إلى دارنا والناس كلهم مشغولون في صلاة العشاء فلم يحفل بقدومي أحد. فلما فتحت الباب ودخلت واعتقته من ورائي بسر هادئ أيقنت أن روح أبي قد حضرت وباركتني فهالني الله إكراما لخاطرها، إذ هي بعد لحظة صعودها إلى بارئها - كما يقول عمي الفقيه دائما في كل مأتم - صارت من جديد نفسا بريئة طاهرة في رحاب الرحمة الواسعة الفعال العسى يمضي حسنا إلى النهاية، هكذا يبدو الجواب من عنوانه. على ضوء عود الكبريت رأيت لبة الجار ضرة عشرة متربعة فوق رفها الخشبي يغطيها التراب ولكن الجار فيها واضح حتى منتصفها. الحمد لله، خلعت حلقاتي كلها، نفضت جسدي من كل ما حبأته فيه من تحف ثمينة وكتور نفيسة، غطيتها بحلة كاكاتها فوقها. ثم جئت بكريك ومنقرة صغيرة، وجعلت أحفر في الأرض بصبر وقوة حتى لا أصدر صوتا ينبه إلى وجودي، إلى أن وفقني الله فاصطنعت مترا صغيرا محددا مربعا في حجم صندوق جدتي. ياما أنت كريم يا رب. هذه شكارة أسمدت باقية من أيام

البناء؛ عجنتها بالمونة؛ وليست البئر من جميع الجهات تلبيسًا جيدًا كأنني صنعت له حوائط بالبتن. تركته حتى يجف، ثم اختلقت لوحًا كبيرًا من الخشب سويته على قد حلقه. صار مؤكدًا أنني في الصباح سأبدي شروقي من هذا البئر المربع الكبير وأغطيه بلوح الخشب هذا وأردم فوقه مسويًا به الأرض وفي الأخير وضعت السرير فوقه في هذا الركن ليختفي البئر عن الأنظار تمامًا وينجو من تحسس الأقدام الفضولية. صار بإمكاني أن أرتمي فوق السرير متحميا على الله ألا يحس بوجودي أحد حتى تتم العملية في أمان الله.

مسيت على المصباح. فلمّ خيمة ضوئه وابتلعها، تاركًا بصيصًا يدل عليه. ما دريت إلا وعمي الفقيه الكبير المتوفى قاعد على تخوم الحائط المجاور للمصباح بكامل هيبته. ارتعشت يا خال؛ يدي تكاد تمتد لتصافحه. غير أنه لم يكن ينظر لي أو يشعر بوجودي. بل كان كعادته مستغرقًا في حديث العشاء الذي يعظ به الناس كل يوم في دارنا عقب صلاة العشاء. كان يقول عن يوم القيامة كلامًا عجيبًا يا بوي. ما سمعته منه إلا وشملتني رعشة الخوف من يوم الحساب في الآخرة. إنه يوم فظيع يا خال والعياذ بالله، وسبحان المنجي من عذابه الأليم. يوم تكون كل الأجساد التي على ظهر الأرض قد فنيت وباتت ترابًا في تراب ولم يبق من الجسد إلا فسفوسة كالسمسمة كامنة في أسفل العمود الفقري للبني آدم فوق الدبر مباشرة واسمها عصعصة الذراع. حينئذ ـ خل بالك يا

بوي وفتّح مخك ـ تبدأ هذه الفسفوسة تنبت في جوف الأرض ولكن إلى الداخل، حيث ينمو عودها في بطن الأرض لقدر ما ينمو؛ وإذ ينادي المنادي لحظة المثول أمام الخالق في ذلك المشهد العظيم تنقلب كل هذه العيدان النابتة الطائرة في الهواء ذاهبة في سمت السماء. هذا إذا كانت في الأصل لمخلوقات من ذوي الأصول الطيبة والأعمال الحسنة ممن هم بلا ذنوب يا بوي. فأما المذنبون في الدنيا فتلك على محنتهم وما يجري لهم يا بوي: تظل العيدان المذنبة تحاول نزع نفسها من باطن الأرض الملتهبة دون جدوى، فتبقى هكذا يسفعها الريح واللهب إلى أجل غير معلوم.

خفت يا بوي؛ وسحقني الخوف في جوف الفراش فلم تقو على احتوائي، بل ضاعفت خوفي. دسست رأسي في ثنية المخدة، واللبث بنفسي غفوة في قلب الظلمة المدلهمة، لا أبغي رؤية شيء ولا التفكير في شيء. صرت أقرأ الفاتحة مرة بعد مرة، وسورة يس، وآية الكرسي، حتى انقطع سياق الآيات فجأة وكف طنينه في سماعي؛ وقد انجابت الظلمة فجأة، فظهرت السماوات، وظهر الضوء والدنيا أمامي ساح ممتد، لا بناء لا زرع، لا ماء لا شجر لا طير لا بشر لا حشرة، لا شيء سوى الضوء والفراغ والرمال والرعب الهائل العظيم. أنا ـ آنئذ ـ مربوط من مؤخرتي في مرتفع من الأرض، كأن مسمارًا مقلاووظ قد ثبت في مؤخرتي أسفل الذيل وهي جوف الأرض ومربوط من الطرفين بصامولة حديدية قابضة. بكل ما فيّ من جهد وقوة جعلت أعافر وأعافر، أحاول

مرغ نفسي من الأرض بدون جدوى، وروحي متعثرة متحشرجة في حلقي، لاهي تعود إلى صدري ولاهي تطلع نهائيا وتريحني، حتى الصراخ يرتفع داخل جمجمتي ولا أقوى على إطلاقه. ومن حوالي ومن كل ناحية أرى عشرات المئات من الأجساد كالأعواد تنخلع بسرعة هائلة عن الأرض، متطير في الهواء نشوانة فرحانة في سمت النداء. وقد ظهر لي كأن الأرض كلها لم يعد فيها سنت مخدب سواي يا خال، فصارت نفسي تتمزق. وصرت أحاول وأحاول حتى كففت عن المحاولة درءًا للوجع العظيم الذي يعرقني من المغافرة. كنت أرفرف في صيحات استغاثة ذليلة رحمتك يا رب عفوك ورضاك يا رب. حتى استجاب سبحانه لدعائي؛ إذ ما كدت أشرع في المغافرة من جديد حتى وجدتني منزعا من الأرض غير أنني لم أطر بل صرت أمشي على الرمال وحيدا، حيث لا شئ حوالي أو أمامي. كنت متيقنا بيني وبين نفسي أن لا مفر من الحساب، وأنه لم يبدأ بعد، وأنني ذاهب إليه. وكنت أتعشم أن الله سبحانه لابد أن يدخر لي رحمة، إكراما لخاطر أعمامي الفقهاء مثلا، أو تقديرا لظروفي يا بوي. فجأة وقع بصري على بنايتين متجاورتين على طراز يشبه المساجد لكنه ليس بمسجد، البناء جديد ولامع ومهيب إحدى البنايتين تمتد إلى الأمام بضعة أمتار عن الأخرى؛ ولهما بابان يفتحان في اتجاه واحد جعلتهما قبلتي يا خال؛ فلما اقتربت منهما تبينت أن البناية المتقدمة لها باب عتيد كأبواب السجون الحديدية العتيقة المقرحة بلون الصدأ والرطوبة شكله والعماد ماثله صحيف مرعب أمامه

يقف ناسا كثيرين لاحصر لهم يقفون في سحنة قحطة أمام البناية في حالة انتظار. أما المبنى الثانية فقد ظهر لي أن شكله فخيم، وليس لها باب يغلق؛ وجمال الورد الخضراء تتدلى بورودها على الحائط ظهر أنه سور عظيم يا خال. ولم يكن أمام هذه البناية ثمة من أحد، فتقدمت من بابها، وهممت بالدخول فإذا بجسد غليظ ضخم يظهر ماثلا من وراء الجدار، فيعترضني بعينين ما كرتين قائلا: رايح فين؟ قلت مرتجفا: تسمح لي أدخل؟ فأشار بيده نحو البناية الأخرى قائلا: شوف اسمك هناك. فأحسست أنقص نفسي في الأرض يا خال. أصرخ صراخا لله ما يغيثني، أصوات كأنسان كالحيوانات يا خال. وكلما اتجهت نحو طابور الحشر ارتددت مصعوقا مرعا ألطم وجهي وركبتي بكفي، والدموع والعرق يملآن جسدي كله من هواني يا خال؛ فصرت أجرى مبتعدا وأنا متيقن من أنه لامفر من الحساب، بعني بالعربي لهم حقوق عندي لابد أن يأخذوها. وبيني هناك مكان أهرب إليه لكن البنايتين اختفتا وعادت الدنيا سدح مدح كما كانت. رمل وسماء ودخان قاتم، إلا ويظهر أمامي نهر عريض فيه قارب كبير. جريت نحو القارب أصبح مشوحا بكل عزمي. النوتي كان رجلا طيبا حرف بوز القارب نحو الشاطئ واقترب مني؛ فإذا فوق القارب جمع كبير من الناس لكنهم منكمشون في بعضهم من شدة الريح. والنوتي رفيع مخصوص يوحوح قائلا وهو يمد لي سقالة اتشعبط عليها: تعال دعيد يابو العم. ورغم أنني لم أمس الماء فقد شعرت بحلقاتي غرقانة في المياه ثقيلة على كتفي. فلما ركبت

واعتدل القارب وصار في وسط النهر يضربه الموج والريح من كل مكان؛ كنت واثقًا أننا ربما نكون ذاهبين بهذا القارب إلى المنطقة التي يتم فيها حسابنا وتسويتنا على الجنبين؛ إذ لابد أن يكون كل ما هاهنا يعمل لحساب الحساب، فنحن الآن فيما لاح لي في منطقة الحساب وأينما توجهت تتلقفك أيد تجرك إلى الحساب

اللهم اجعله خيرًا، لم أدر أنني كنت لا أزال في قلب سريري إلا حين وقفت منتفضًا فوق تراب المقبرة، وكان الضحى لحظتها يركب الغيطان. لقد أفزعني منظر المقبرة يا بوي؛ تخيلتها قبري الذي انفتح لأطلع منه إلى الحساب؛ فنكت جسدي في الحال ونزلت؛ دفنت القنينة كما رممت لها؛ وضعت فوقها لوح الخشب؛ ردمت لوح الخشب بالتراب سويته بالأرض. بعدها غسلت وجهي وسويت الطاق على كتفي، وطلعت أسأل عن صديقي «عليّ» وعلى إخوتي البنات وعلى أمي

على أن قلبي ـ تحلف اليمين يا بوي ـ كان يتلوى بين جنبي ويزعق في صدري من شدة الألم. ذلك أنني صرت بجوار غاية النخيل في طريقي إلى «عليّ» ولدار «عليّ» طريق آخر من وسط البلد عبر حوار ودروب ضيقة وخلال بيوت خربت من أيام الحريق ولم يقو أصحابها على إعادة بنائها لضيق ذات اليد، غير أنني لا أدري لماذا نفرت من هذه الطريق نفرة شديدة ووليت نحو الغيطان ملتفًا حول البلدة. لعلني كنت مشتاقًا للمرور حول البلدة ورؤية الناس، ولكن يبدو أنني كنت أضمر الفوت على دار «كاملة» بمجرد اقترابي من غاية النخيل تذكرتها، فانقبض قلبي

وشعرت بالرجفة، وأسرعت خطواتي حتى لا أطاوع قلبي لجنوني في الذهاب إليها مع خطواتي خفت أن أنساق، وأنسى أنني كنت السبب في موت زوجها ياحال. كرهت أن أراها أرملة، وكرهت أن تراني هي، فندمت على الفوت من هذا المكان

ولكن هيهات، لقد رمى بها الله في طريقي غصبًا عني؛ بعد أن كنت قد جاوزت النخيل كله وصرت على مقربة من دار «عليّ» محي الصعيدي لم يكن يعرف أن «كاملة» موضوعة في طريقي وليس في مكنتي أن أزيحها

كانت قادمة من بعيد حاملة زلعة المياه فوق رأسها، وفي ذيل جلبابها يتعلق طفلان صغيران تحلف اليمين ياحال أنني عرفتها من خيالها يزحف على الأرض متميزًا عن خيال النخيل. كظل نخلة لدنة ممشوقة القد على صدرها عرجون بلح يتهدل يبغي الوصول إلى فم الآكلين. سمعت قلبي يرتعش وأوصالي كلها ترتجف. تحلف اليمين ياحال أنني ليلة اقتحمتها في عقر دارها ما كنت خائفًا هكذا.

واه ياحال، كيف بالله كانت هذه الغزالة الوديعة العالية مظلها على الأرض تنام في حضن سنده محني القامة طول عمره، قد رطبته مياه القربة حتى بات ـ يقولون ـ يحيض كالنساء؟ حظ أعمى يعيكًا هنك. ولكن، لولا أن هذين الطفلين يشبهان أبيهما السقاء ما ظننت أنه اعتلاها مرة واحدة؛ إذ يقول جسدها ذلك ياحال، ويقول بكل طلة من عينيها أنها لاتزال عذراء لم يخترقها

أحد وإن كانت قد حملت وولدت مرتين. حقدت والله على أبيها ذلك المعدم التخين الملح. كيف رضي أن يزوج ابنته هذه من السقاء المضعضع، الذي لا وراءه ولا قدامه؟ أكان يرمي ابنته رميا؟ أكان كافرا بنعمة الله هكذا فيتركها ليدوس فوقها الكافرون الشرهون وإن كنت منهم؟ وه ياحال؛ لقد مات عائلها وتشردت بسببي، دون أن أدوقها ولو بقبلة، بصمة واحدة، كل صياع البلد ركبوها في أمان الله وأكلوا من العرجون حتى شبعوا فلم يشعر بهم أحد ولا غلت عليهم ظرف سحيف طاريء. أما أنا فلا. إني أعرف حظي المهبب بنبوي: ما أكاد أصل إلى قطوف الجنة حتى يطلق الله علي كلبا يفزعني أو ينهشني. فأرتد محروما أطلب السلامة. فمثما الكل يركبون وأنا أحرن وأتحمل الوزر، فلابد أن يكون للمولى الكريم حكمة في ذلك ياحال. وكيف يكرمني ولو بلمسة من هذا الطعام الجيد. ستتاح وأنا دائم العناق معه ولا أفعل حتى الآن شيئا يرضيه؟ إن الله ليس غافلا ياحال. وهو سبحانه أراد أن يكيد لي ليلة زرت «كاملة». وسوف يكيد لي على الدوام كلما أردت لرتشاف العسل قلبي يحدثني الآن ياحال أن أعانده كما يعاندني، أن أفعل مثلما فعل جدي البعيد آدم عليه اللعنة، أن آكل من هذه الشجرة المحرمة؛ وإلا ركبني الجنون ومشى عقلي إلى غير رجعة ـ طيب يارب، أنت سبحانك حرمتني منها وفشمتها لأصبع خلق الله وبعضهم أعرف أنه حنثي

يه.. يه.. يه.. الآن فقط فهمت قصدك يارب. صدقني إني فاهمك وفاهم ألاعيبك معي بالخصوص في هذه الشغلة. إنـ

سبحانك تلف علي لكي تجمعني عليها في الحلال، على سنة الله ورسوله. أليس هذا ما تقصده بذمتك يارب؟ شف يارب، لف عليّ كما يحلو لك، ولكنني أعرف أن هذه من تدبيره لي. تطمعني مادمت صعيديا يمني مخي مقفول، تمشي وراء أولاد القحباء من أهل مصر القاهرة الذين يشيعون عنا سخيف النكت والإشاعات. طب والله والله والله. يميني أحاسب عليه في نار جهنم أنك دبرت لي هذه الشغلة في ضربة معلم مضبوطة لا تخر منها المياه. جعلتني أقابلها في سوق بلدة (صدفة). وحطيت في بعضنا من غير أن يسعى أحدنا إلى الآخر. وجعلتني أدخل عليها بجرأة فأكلمها فتراعيني بكل بساطة مع أنني أسمع أنها تدوخ الرجال قبل أن تؤامن لهم وتواعدهم. وقد وضعت في قلبي الشجاعة والمرجلة حتى قويتني على نط جدار دارها والنزول إليها لأصير قاب قوسين أو أدنى من حضنها، لتفاجئني بالفضيحة الكبرى وتوشك أن تقتلني. لكنك برحمتك هرأتني فحسب، وتجيئني لحكمة تريدني أن أعيها، وها أنذا الآن قد وعيتها ولن أنساها. ثم إنك سبحانك نفخت في جسد السقاء فعاش رجلا لمدة عشر دقائق في حياته كلها ومات بعدها. أنت سبحانك تريد أن تميته في الأصل، لأدخل أنا وأحل محله نهائيا من أجل هذه الولية الغلبانة المحرومة من نعمة الدنيا سنين طويلة مع السقاء. جعلتني سببا لموته، حملتني الوزر، ووضعت محبة الولية في قلبي. فوالله والله والله لأتزوجنها، حتى بمعجنك يارب. نعم سأتزوجها، هل أحد شريكي؟ هذا ما نويته وعزمت عليه ولن يثنيني عنه مخلوق. لقد فهمتك

يارب حق الفهم، وسوف أؤدي لك هذه الخدمة؛ فأنت وحدك الذي سيقدرها حق قدرها. هذا جميل أتعشم أن تذكره لي كلما رأيتني واقعا في ضيقة. أنا يارب سأتزوج هذه الولية الغلبانة لأمنعها من فعل الحرام، سأرويها أنا؛ دع هذه المهمة لي فأنا المهر الذي سيفرقها حتى لا تمص لأحد غيري؛ سأنتشلها من الشارع وهذان الطفلان سأكون لهم أبا فمن أجل الورد يسقى العليق.

مسحت على وجهي بيدي كأنني أوقع ببصمتي على هذا العقد الذي أبرمته لتوي مع الله وشعرت في الحال أنه سوف يسامحني على كل ما ارتكبته في حقه من لبط. تهيأت للوقوف في طريق «كاملة» ومفاتحتها في هذا الموضوع من غير لف ولا دوران، لكنني حين رفعت كفي عن وجهي لم أجدها يابوي، كأن الأرض انشقت وابتلعتها تبخرت. صرت كالطفل الذي تاه من أمه؛ ودخل في روعي أنني لن أراها ثانية. فبقيت في مكاني ألف وأدور وأرسل البصر أكاد أجهش باكيا. خطوت مسرعا حيث كانت من دقيقة؛ أطلقت عيوني بين صفوف النخيل، فرأيتها تدخل دار المعلم «جرجس غطاس»؛ فعرفت أنها تعمل في شغلة زوجها؛ وتكرفصت بين جذوع النخيل انتظرها. جعلت ألف سيجارة مخلوطة بالحشيش وجعل قلبي يستريح لما انتويته، وحين سرى دخان الحشيش في مخي تيقنت أن الله قد أكرمني بالسريقة الأخيرة ونجاني من خطرها إكراما لهذه الولية والمؤكد أنه سيجنبه جر رجلي إلى البلدة لكي أكفّر عن ذنوبي وأفعل ما سأفعل

إلا وهي قادمة. والبلاص ممدد فوق رأسها، وكان واضحًا أنها قد تخلصت من طفليها حتى تسرع في جلب مزيد من المياه، ولابد أن الطفلين انشغلا بالحلوى الكثيرة في دار المقدس «جرجس غطاس»، إذ إنه صاحب دكان بقالة كبير في بلدة «سمسطا»، وله دكان آخر في قلب السوق على مقربة منّي. توقفت كالدمولة، فبهتت وقالت «زريبك ياكاملة»، فظهر عليها الفرح رغم الحزن الكبير في عينيها وكانت النضارة في وجهها تؤكد للأعمى أنها باتت تأكل الوجبات الثلاث كل يوم، وثمة شيء لا أقدر على وصفه كان في وجهها وهيكلها يوحي لي أنها قد نظفت من شغلة اللبط التي كانت ماشية فيها، وجاءني يقين بأنها التحقت نهائيا بخدمة المقدس «جرجس غطاس» وأنه اشترط عليها حسن السمعة وأنها رحبت بذلك لعلها تجد عريسا يعوضها ما فات وتتوب عن ذنبها. هزت يدي بحرارة وهي تقول «أريك ياحسن وإزي مصر؟» ثم غالبت الدموع في عينيها بابتسامة أجارك الله من لسع نورها. وقالت «من يوم المرحوم ما حدّش شافك». قلت وصوتي يرتعش وليس في استطاعتي له: «أنا جئت اليوم من أجلك وحدك!» بدا كأنها توقعت مني شيئا يغضب الله حيث قالت «كفاك ما حدث أنا الآن واحدة أخرى غير التي كنت تعرفها إسأل عني لو أحببت! وحل عني الله لا يسيئك؛ أنا باشتغل عند ناس طيبين لا يبخلون على بخيرهم؛ فإن كنت تخشى الله فلا تسبب لي فضيحة جديدة أنا ما صدقت أن البلدة نسيت ما حصل». قلت وقد أوشكت على العياط «حتى ولو كنت أطلبك على سنة الله ورسوله؟»، شهقت

الولية ياخال ارتاع وجهها، فارتد الملاص للوراء وفاتت كأن محنة من سمعتها «إيه أنت صاح لنفسك؟»، قلت بكل حرارة «وحق من جمعنا على غير ميعاد أنني نويت أن أتزوجك على سنة الله ورسوله؛ عندي هنا دار مبنية بالطين كدار العمدة؛ واقدر أن آخذك معي إلى مصر وأستأجر لك داراً».

وا... يا خال؛ ما كل هذه الدموع التي انهمرت على وجه الولية؟ لقد وقفت مذهولة لا تنطق واستعجلتها الرد قائلا «قلت إيه يا بنت الناس؟ أنا أحبك وأريد أن أصلح غلطتي معك؛ وسوف أحبك وأسعدك؛ وشرط سأنفذ كلامي في الحال».

شوحت الولية بيديها في يأس قائلة «هل يوافق أهلك» وأمك، قلت مشوحا «أنا أرعق صرمي من دماغي؛ ليس لأحد كلمة علي؛ وإذا وافقت أنت فإنني من الليلة سأصحب الرجال إلى أبيك لأخطبك منه».

فما نطقت بهذا إلا وانفجرت هي تبكي من كل عين حمام. فتذكرت سبب ألمها يا نوى. نعم، فإن «كاملة» لم يعد لها أب؛ فقد مات أبوها وهي طفلة فربتها جدتها لأمها؛ ولما كان «مسعداوي» السقاء يمت بصلة قربى لجدتها لأمها؛ فإنه تقدم للزواج منها فوافقت جدتها وبعد زفافها على السقاء بشهور قليلة توفيت جدتها. تذكرت هذا فبكيت أنا الآخر أي والله يا خال بكيت أشد منها وقلت لها «أنا إذن أحضك من نفسك». قالت وهي غير واثقة «إن كنت تريد تتزوجني حقا فإنك تقدر أن تخلصني من

القدس جرجس؛ إنه الآن ولي أمري؛ قلت بكل حماسة «وماله؛ أنا أجيء بالرجال وأفعل» قالت وهي تنصرف «أفوتك بعافية» ومضت

بقيت في مكاني، وحتى لا يراني أحد أمشي وراءها، تلرمصت حتى تختفي هي، لففت سيجارة أخرى محشوة بالحشيش، ما كدت أشعلها وأستمتع من أنفاسها حتى صعدت الشمس تمشي على قدمي، قادمة وسط النخيل حاملة على رأسها حزمة حطب، ارتعت ياخال فانتفضت واقفا، وبلا حياء وضعت نفسي في طريقها، محاولا معرفة هذا القمر الذي لم أعرفه من قبل في بلدتنا!

شهقنا معا، بل صرخنا في نفس واحد «أهو أنت؟» «كيف هذا يا نوى؟ من يصدق هذا؟ «حنة» بنفسها؟ بعد كل هذه السنين وكل هذا العذاب في انتظارها، أفاجأ بها هكذا أمامي بكل هذه البساطة؟ لقد كنت مستعدًا أن أسافر إليها في الهند والسند لو قالوا لي إنها هناك. قلت «كيف حالك ياحنة؟»، قالت «بخير؛ الحمد لله» قلت «أين أراضيك؟»، قالت «أشتغل في دار مقدس ميخائيل إبراهيم» قلت «متزوجة أم لا؟»، قالت «مازلت أنتظر ابن الحلال، ربنا يسوقه»، قلت في الحال دون أن أدري «لقد ساقه بالفعل ياحنة» تلفتت حواليها ضاحكة في خجل، قائلة «أين هو؟». قلت مشيرا بيدي إلى صدري «ها هو واقف أمامك؛ هو أنا». قالت غير مصدقة «أنت؟»، قلت «ومن غيري؟ والله لن يقرب منك أحد

سواي!». قالت باسمة كأنها غير مصدقة «ربنا يعمل ما فيه المصيب!». قلت «والعمة؟!» قالت متنهدة «أولاده اقتروا عليّ لمّن المقدس ميخائيل! أخدم سوانه وداره! ويحوش لي الماهية كل شهر! ويطعمني ويكسوني!» قلت «هل أعطيك منه؟». قالت «لا أحد غيره!». قلت «إذن! كلميه في الأمر!». فهزت رأسها موافقة، ثم مضت وبعد خطوات أدارت رأسها نحوي ونظرت، فابتسمنا، وقلت لها: «لا تنسي ما قلته لك يا حمامة!» فرت رأسها تحت حزمة الحطب، ومضت تتلعبط كالبلطية فتكرفست من جديد أدخن السيجارة وقد تاب مخي في الفراغ بين النخيل! وصرت لا أعرف ماذا أفعل لكنني نهضت متوجها إلى دار صديقي «خليل» وكنت أجر دماغي كأنه مربوط بسلاسل في قدمي، غير أني حين تملكت الطريق، لم أدر إلا وأنا متوجه إلى محطة «صدفة» لأركب القطار عائدًا إلى مصر القاهرة

عجبة الحظ عشرة

الأولة ـ بركة دعاء الوالدين

ربما سهل، وتم كل شيء على التمام كما رسمت به يا بوي! وعدت إلى هذه الملعونة ـ الصد مصر ـ الصد مصر القاهرة ـ من جديد، لا من شاف ولا من درى. عيني كانت قوية يا بوي! ويعلم الله إن كان ذلك من وحي مرآي البنت «حمامة» بعد طول سهر والنياح، وللمرأة السيالة «كاملة» بعد طول غم واشتياق. أم أن الأمر راجع إلى قوة عيني من الأصل؟ الله أعلم، لكنني كنت في حالة فرح واغتباط لا مثيل لهما في حياتي؟ فغدا أو بعد غد أنام على سرير ذي جناحين، على يميني «حمامة»، وعلى يساري «كاملة» ولقد حلفت برأس أبي لأجمعن بينهما في سرير واحد. نعم يا خال، إذ لا مفر أمامي غير هذا الحل إنهاء لوجع الدماغ! وإلا فدبرني يا خال؛ لو كنت مكاني على رأي ما يجئ في الراديو، تقول إنني يجب أن أكبر مخي فأجعل لكل واحدة يوما معلوما أو جمعة معروفة، حتى يتجددني الزمن ولا أقع تحت طائلة المن! فبدلا من أن يكون لي بيت واحد يكون بي بيتان ، أزور هنا وأعرج على ذاك عودا على بدء؟ وأحيط كل واحدة بحميلة الخ

أنت - لابد - تقول لي في نفسك هنا. هنا - لو صدقتني - صغير مع يا نوى عدم المؤاخذة، والناس إلى ذلك يقولون من يتزوج اثنتين فهو إما قادر وإما فاجر. ومن يتزوج ثلاثة أو أكثر فهو قادر وفاجر معا، والأمر أبدا ليس هكذا يا نوى، في نظري على الأقل يا نوى، الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ غير أنه القشم وتحته المخ بجلاميد ينفتح بيتين لتعلق لأنفسنا جبهتين تتنازعان تنهشاننا حتى النخاع وفي النهاية تتعاركان حول عظامنا النخرة، كل واحدة تتوهم أن وراء العظام النخرة سرا دسته الأخرى، تظل بينهن يا نوى توزع نفسك بالعدل والقسطاس ولن تعجب مع ذلك هذه أو تلك. ستبقى الواحدة منهما طول عمرها تعتقد أنك تعطي الأخرى زيادة عنها من الخفاء الذي لا تراه هي، وستبقى تبعا لذلك تضمر لك مؤامرة سرية غامضة تنوي بموجبها الاستيلاء على أكبر من بقاياك. مجنون أنا يا نوى كي أفعل هذا؟ إن امرأة كانت عظيم الشأن ما نقول في ذلك شيئا، لكنه يحتاج لعلمية فائقة الحد في معاملته؛ إنه كالقط يألف الدفء يركن إليه يطلب المزيد وفوق ذلك يفرض حصارا على ركنه عشه؛ ومن لقط عابر يقتحم عشه؛ أنظر إليه يا خال وهو ينتفض وينقض عليه مخالبها، دعوا ما تعرف أو فروسية ماتعرف، لكنه ربما مزق لحمه إربا ورماه من النافذة.

العمر الفقير ليس معلما ولادياولو. إنما أنا شقيان، ومع ذلك شرقان، روحي من الحرمان متشققة طافحة بالرغبة. وليس في

يمكنني أن أفتح دارين من البدء، وفي نفس الوقت أقيم في مصر القاهرة. كيف يا نوى؟ لسوف تنتقلان معي إلى مكان راقٍ، وتبقى الدار في البلدة نزورها كلما هفا هواه لذكريات النقى. أي أمن مجنب على دار واحدة في مصر. حجر حجر فيكي بالسرير الواحد جبران خاطر هو الآخر لأغرق أنا في لجة كيفما اتفق؛ لكي سباقا بينهما في عدل مزاجي وتكييفي على الجنبين. ومن تستأثر من منهما تكون حرارتها حافزا لإبداع الأخرى، أو كاسرا لعينيها. تلكما الاثنان لن تربح سوى حصحصة الحق الصراح

أحلام يا نوى. ولكنها وقود تغذيت به، طرت على جناحيه حتى أنسى من فرط السعادة سيرة عملتي الهيبة. فاتجهت إلى سرادق الحاج السني مباشرة. كنت ناسيا كل شيء كأنه لم يقع، وكانت شهقتي المفاجئة بعمق النسيان حين انقض على مانوحي بكل الحادث مفاجأة. زلزلني التذكر المفاجئ فكنت أولى الأخيار، لولا أن عين الخفير كانت قد وقعت في قلب عيني مباشرة، فيما هو جالس بجوار الباب من الداخل يرقب الطريق بعيني الصقر الواقف لابد على شاربيه

شيء إلهي قوّى عزمي في الحال، وألقيت بنفسي في حالة السرور التي كنت فيها. ووسعت من بسمتي كبرقية تحية أرسلها للخفير الذي سبق وكنت جدعا معه؛ ثم عبرت عن اشتياقي فجعلت آخذ بسمتي نحوه. فلمحت على وجهه شيئا من الترحيب استشعرت على البعد صدقه. ما أنا إلا ولد زي ابني أيضا يا نوى

كما تعرف ـ فخطوت نحوه بلهفة أشد مما لو شحله ظلي حتى صب واقفا «أهلا! أهلا حبيبك يا بو العم!» وكانت الحرارة في قبضة يده. فقلت له بهدوء شديد «في الدنيا» ثم عزمت عليه بسيجارة فأخذها وسرع فأشعل لكلينا «اقعد يابو العم. هكذا قال» فجلست في الحال يا بوي مثل كلاحة ودون أن أتردد، لكنني شعرت بحقيقة قوية في فؤادي إثر خاطر مفاجئ: مال الحمير يدبر لي كمينا أحبس فيه حتى يجيء سيده فيقبض عليّ بكل سهولة تحلف اليمين يا خال أنني لاحظت الرجل فشعرت أنه قد تورط من استجابتي الفورية للقعود، فصار يتلفت حواليه مرتبكا، فلما لاحظ أنني لاحظت ربكته خشي من ثبوت تورطه. فاستدار نحو محله صائحا «اعملي شاي يا مرة! بس بسرعة واخلصي من اللي في إيدك» ثم استدار نحوي «شرفت يا بو العم». «قال: قال كيف حال الحاج» قال «بخير»، وأضاف «جاي منين ورايح فين؟» قلت «كنت في مشوار بسيط ورايح إلى بلدياتي المعلم شندويلي» فأضاف «في مصر عتيقة؟». قلت «نعم»، ثم هممت بالنهوض خوف الت والعجن فيما قد لا تحمد عقباه، فإذا هو يقبض على ذراعي بقوة فيعيدني إلى قعدتي فوق صفيحة مقلوبة فوقها جوال مطوي، الرعب دوى في مفاصلي يابوي، فشككت في حقان الحمير «والله ما تمشي قبل ما تشرب الشاي» ثم عزز حلفانه صائحا «الشاي. ياولية» فجاء صوت الولية واهنا من الداخل «هو على النار». ويظهر ياخال أنه فهم من لهجتها هذه شيئا فدلى أذنيه في الأرض وما كاد يراني أنهض ثانية حتى

نهض هو الآخر قائلا «طب مع السلامة. يظهر إن الولية ملحومة جوه!». فقلت باسما «كان الله في عونها!»، وعزمت عليه بسيجارة أخرى؛ فتلقفها بين أصبعيه قائلا «كتر خيرك يابو العم!».

الدماء جرت في عروقي ياخال، وصرت أكاد أتنطط في مشيتي من السعادة والفرقان. صرت أضرب الخطوات كيف اتفق أو هكذا خيل إليّ، لكنني وجدتني بعد قليل أمضي داخلا مقهى المعلم «شندويلي». وكانت الأيام التي لا أذكر لها عدًّا قد مرت دون أن أرى المعلم «شندويلي». وكنت أرسي بالعمل مشتاقا إليه والله يابوي؛ وصرت أؤنب نفسي على عدم السؤال عنه في الزمن الفائت. المعلم «شندويلي» كان أكثر اشتياقا مني حول عمره جدع يابوي. ما أن لمحني من بعيد وهو خلف النصبة مائلا لم يتغير ولم يتبدل، حتى خرج من النصبة فاشخا حنكه المحروب فاردا ذراعيه المحروقين صائحا «وشك ولا القمر يابو العم! فينك وفين أراضيك!». لحظتها كنت في حضنه أقبّله في قفاه ذات اليمين وذات اليسار؛ فلما افلت قلت «واحشني قوي قوي يابو العم! والله ما تعرف معزتك عندي!». جلست على أقرب كرسي مجاور للنصبة؛ أما هو فتركني وجلس بين النصبة، فصب واحد شاي على مياه بيضاء، وجاء فجلس بجواري متجاهلا نداء جرسونه، قال وهو يقلب لي الشاي «غيبة طويلة قوي يابو العم! إيش أحوالك!» قلت «بخير والحمد لله! الأشيب معدن!». ثم أخرجت علبة سجائري البلمونت العشرين ـ التي اشتريتها خصيصا من

اجل هذه الزيارة، وقدمتها له فأخذ واحتفظ وأشعلها من بقايا سيجارة كانت بين أصبعيه. قال وهو يشد النفس في اشتياق وحرقة «تأخذ لك سحبة أفيون؟» هتفت «أحب النبي!» من خلف أذنه جاءت أطراف أصابعه بورقة سلوفان صغيرة مطوية، فكها ونزع بظفر إبهامه حمصة بنية اللون، قربها من فمي فتلقفتها بطرف لساني وقد تغير مزاجي في الحال فصار أعلى مما كان درجات كثيرة. قال المعلم «شندويلي» وهو يلقي في فمه بلحمة جديدة من «الأفيون» ويتلمظ في تلذذ مرير «متشتغل فين دلوقت يابو العم؟». قلت «على باب الله؛ لكنها مستورة والحمد لله؛ ماسورة نلقاه». قال «فاين تسكن يابو العم؟» قلت «مع صاحب لي! ولد عترة! يسكن في شقة صغيرة محندقة في كيمان مجرى العيون! هو يتركني أبيت معه بدون مقابل!» قال في جدية كبيرة بلهجة من لا يعجبه الحال المائل «كيف يابو خاله! دا كلام؟! إذا كانت مستورة معك كما تقول بعين قوية فلم لا تدور لنفسك على مطرح! الجدعنة ليست في الشغل ولا في المكسب يابو العم! الجدعنة أن يكون لك مطرح تبيت فيه! لا يتحكم فيه أحد غيرك! من ليس له مطرح في هذه المدينة يلقى الهوان! لا تغرنك كثرة المآذن ولا براح المساجد ولا فخامة القباب فليس تحتها من شيء سوى الرميم المسحوق! ينتهك عرض الشريف وهو نائم حتى ولو كانت على رأسه ريشة الذهب! شف لنفسك مطرحًا يابو العم! اطرد نفسك قبل أن يطردك الغير سدالة! إن كنت سوى الشغل هنا فالمطرح أهم من الشغل بكثير!»

ثم قام فاتجه إلى النصبة، فأعد كمية من المشاريب المطلوبة؛ رصها على الصواني، ضغط على زر الجرس مناديا للجرسون؛ كل ذلك في ثوان قليلة. ثم عاد مقدما لي سيجارة مواصلا كلامه «معك كام يابو العم؟! تقدر تدفع كم؟ أنا سوف أعاونك على حل هذه المشكلة؛ أحب أن أفعل الخير دائمًا مع بلدياتي بنوع خاص كما تعرف؛ إنهم عزوة لي في غربتي في هذه المدينة لولاهم ما فلحت بين أولاد القحباء من دون الأرقة ممن هم من سلالة الذين استعمروها على الدوام». الحقيقة أنت هكذا بالفعل يامعلم شندويلي، أشهد لك بذلك وأحتم بالعشرة وأنت لست محتاجا للقول. هكذا قلت في نفسي وأحسست بحال كأن الدنيا تنفتح أمامي على وسعها صحيح قول المثل. العبد في التفكير والرب في التدبير؛ والمعلم «شندويلي» عنده فيه شيء لله يابوي وإلا لم يكن يخطر ببالي أن أسأله عن مسكن رغم علمي أنه من النوع الذي يمكن أن تسأله عن أي شيء فيقضيه لك في بساطة مذهلة وإذا بي كنت قادمًا لأحد نصيبي الذي جهزته لي المقادير وقادتني إليه بدون أن أدري. قلت «والله يامعلم شندويلي ياخوي أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتني!» شرح لي كأنه يختصر الأمر قائلا «معك ألف جنيه؟» لو معك ألف جنيه فقط يابو العم تصبح من غد واحدًا من البكوات!». قلت دهشا بعد أن فات أوان الدهشة من هول المبلغ المطلوب «كيف يامعلم شندويلي؟!» قال «تسكن في شقة على النيل مباشرة في الدور الرابع! أربع غرف كبيرة وصالة يجري فيها الحصان ولها بلكونات من ثلاث واجهات تطل كلها على النيل

وكل بلكونة تتسع لقعدة عائلية كبيرة، عمر يابو العم، آخر عز، لو يملكها لص من لصوص المدينة يبيعها بالشيء الفلاني، وإيجارها ستة جنيهات فقط».

ــمحي دار يابوى كالرسبلك. فلست إلى المعلم «شندويلي» يقول ذلك من باب الخيال؛ على أساس أن المبلغ المطلوب لا يقدر على دفعه سوى لص عظيم وراسخ القدم أو واحد من العائدين من بلاد المال ـ لكنني ـ من باب الخيال كذلك ـ قلت له «وأين هذه الشقة يابوى؟». قال ببساطة «عندى أنا، في عمارتي، ألم تعرف يابو العم أنني هويت بناء العمارات في الزمن الأخير، وقد أصابني الكار بحسن الحظ فاشتريت عمارة على النيل، أشهر وأعلى عمارة على النيل، لو قابلتني قبل اليوم بفترة لكنت سعدت، كنت أشطب في عمارتين على قد حالهما في بولاق الدكرور وأرض اللواء أجرتهما لبلدياتي بملاليم، كل ما هنالك أنهم شطبوها على نفقتهم، أصبحهم كلهم من العائدين العاودين، وعلى العموم فأنا قد أحببت اللعبة، أشترى الأرض في كل مكان وأسقفها، طول عمرى فىَّ هذه الخصلة، وحينما أرى العمار قد بدأ يتحوط أرضى أسرع في بنائها، الأرض كانت بالتقسيط المريح وأما البناء فبالمجان لم أدفع فيه مليما من جيبي، العمارة تسكن بجميع شققها قبل أن أحط فيها طوبة واحدة، من يكتب عقدًا يدفع خلوا أكبر من ثمنها لو بيعت له، البركة في العائدين يابو العم، وأنا رجل متاع زمنا لا أحب الحلوات، إنني أخصم ثمن تكاليف البناء والأرض فقط،

والباقي يسكن به، كل العمارات سهل ربنا بها وأنا واقف خلف هذه الصنعة، فالمقاولون كثار، والأنفار أكثر، كل بلدياتي أنفار، والمونة متوفرة طالما القرش صالب حيله، القرش هو الرئيس الأعلى في هذه المدينة، نعود إلى هذه العمارة التي لو كانت أمك داعية لك في ليلة القدر لسكنت فيها، لقد اشتريتها من أجل شقة أحببت أن أسكنها، تلك هي التي سأسمحها لك هدية، تكن الرياح دائما تأتي بما لا يشتهي السفن يابو العم، الدور الذي فيه هذه الشقة، والذي تحته تسكنهما طائفة من المومسات والقوادين والمشتغلين في شارع الهرم مع أن أشكالهم آخر بكوية وآخر أناقة، غير أنهم جميعا من البلطجية واللصوص. إنني أقول لك الصراحة يابو العم، اشتغلوا لي في الأزرق وفي أمور البلطجة، خفت أن يفسدوا لي أخلاق العيال، وخلفتي كلها بنات ما عدا ديك واحد صغير أعطاه لي الله مؤخرًا! المهم يابو العم أنني أرحت نفسي واستأجرت شقة في مصر الجديدة بين جيران على مستوى كبير، دفعت فيها مبلغا جامدًا، وأما هذه الشقة فقد خلفت لأجيئك لجيرانها الحوش هؤلاء بولد يكسر أنفهم، وأنا مرادي أن تشكم لي هؤلاء الجيران وتذلهم أشد الذل؛ أنا أستطيع أن أبيع هذه الشقة بآلاف، لكنني لن آخذ منك سوى الألف الواحد إكراما للعشرة القديمة وأملا في أن تريني هؤلاء الوحوش مكسورة نفوسهم».

قلت وأنا في غاية النشوة «عرفت تختار ياسم شندويلي، ثلاثة بالله العظيم لأريتك مؤخراتهم عارية وأجعلك تبصق فيها

على كيفك! لسوف أجعلهم يرحلون في عز الليل تاركين الشقق في سبيل النجاة بحياتهم؛ اتكل على الله يامعلم شندويلي! هذه الشقة لن يسكنها سواي! اكتب عقد الآن وأنا أسدد لك المبلغ على ثلاث مرات بالكثير أربعة؛ وإن شئت السرعة فإننا نكتب الآن جوابا لصاحبي عليّ في البلدة وشريكي في سبوبة تجر دخلا ويمكن أن يرسل لنا أي مبلغ نطلبه».

شوح صائحا: «أكتب ما تشاء؛ ولكن هاك مفتاح الشقة! اذهب ونم فيها وأقم كيف تشاء؛ وحين يجيئك المبلغ هاته وتعال نكتب العقد والذي منه! وعلى فكرة: في الشقة عفش استغنينا عنه؛ تستطيع أن تشتريه وتضيف ثمنه للمبلغ؛ هو يساوي ألفا ولكني أبيعه لك بثلاثمائة لا غير! أنت ياما خدمتني!».

كدت والله أقبل يده وهي تقترب مني بالمفتاح لكني اكتفيت باختطافه قائلا: «سأبقى طول عمري خادمك يامعلم شندويلي». ربت على كتفي بيده؛ وجعل يصف لي مكان العمارة وموقع الشقة منها. وجعلت أدعو له بالستر. وشعوري يقول إن ما حدث الآن هو بركة دعاء الوالدين، وشعور آخر يقول بل هو بركة البنت حنة التي سننقذها من الوحلة، وبركة الولية كاملة التي سنقيها شر الترمل بين الوحوش الكاسرة. فأرحت نفسي وقلت هي بركة الجميع. ومضيت أجري إلى العمارة أقول: يا أرض اتهدي ما عليك قدي.

والثانية: العتبة العالية

هنا هو الجنون بعينه يابوي. أنا حسن ولد أبي ضب الذي كان غاية ما يتمناه عشة يسكنها في حارة، أو بالكثير شقة في بيت هرم، أسكن فجأة في هذا القصر المنيف؟ أنا أدخل هذه العمارة يابوي كل يوم؟ ربما ارتاب سكانها في أمري، ربما منعني البواب، وإن البوليس نفسه ـ لو استعان به البواب ـ لن يصدق أنني يمكن أن أسكن في عمارة كهذه وأنا الكحيان الشقيان.

ما هذه الأبهة ياحال؟ بلكونات على الكورنيش؟ حلم أم علم هذا؟ وما هذا البراح يابوي؟ وهل هذه حيطان شقة أم حيطان مسجد أم حيطان من الجنة؛ كلها منقوشة بالرسوم الملونة بالشجر والزخرف؛ وفي الحمام «دش» يابوي. أخيرا سأستحم يابوي، سأفتح هذا الدش هكذا، لتندفع قذائف المطر الغزير هكذا فلأجرب. خلعت ملابسي ووقفت تحت الدش، وتركت النشوة البالغة تنصب على رأسي من «الدش». ثم ما هذا ياحال؟ لابد أنه ما يسمونه «البانيو» إنه حوض ينام فيه المستحم. فلأجربه. ملأته بالماء ونمت فيه. كان في الحمام بقايا صابون بريحة، وبقايا فوط قديمة، وبعض شباشب مهترئة النعل.

لبست ثيابي وخرجت على غاية من الفوقان. نظرت في الغرفة المجاورة. هذا مطبخ له صندرة يتصاعد منها بقايا روائح ثوم وبصل وأصناف عطارة. معقول فعلاً ياحاج. هذا مطبخ يليق بـ «كاملة». وهذا حمام يليق بـ «حنة». وهذه دار تليق بهما معاً يرعاك الله يامعلم شندويلي. ولكن، المعروف أن يكون اللعوب مرسوماً على قد المهمة. أضايق له السكان وأتشاتم معهم وفي النهاية يقول لي مع السلامة. قلبي راح يقول لي أن المعلم شندويلي لن يفعل، وأنني يجب أن أعتبر الشقة شقتي. وأنا الآخر سأورطه. سأذهب لأقيم فرحي في البلد وأجيء بالعروسين قبل أن يرجع في كلامه. ويعوض الله ساعتئذ له أصابعي العشرة كالشموع حتى يرضى. سأقتل نفسي في خدمته مقابل أن يترك لي هذه الشقة. والله لن أتركها إلا على جثتي ياابوي.

تجولت في الصالة الرحبة. جلست على كل كرسي ولخشيرة لتيقنت أن عمرة بسيطة عند النجار، وأخرى عند المنجد تصبح هذه الصالة بعدها كصالة البكوات الذين كنت أبيع لهم السمك في المعادي. ثم دخلت على حجرة مجاورة، فإذا فيها سرير قديم، لا ينقصه سوى دهان وتنجيد فرش. بجواره دولاب مقشر وبعض ضلفه مخلوعة ومركونة بجواره، تتصاعد منه روائح العطور العتيقة والصابون والنفتالين. وهذه مرآة ذات كومودينو على اليمين وآخر على الشمال، ولها كرسي تجلس عليه المرأة للتزيين. كسينا صلاة النبي، بشرة خير ياابوي؛ ضمنا شوار العروسين.

كل هذه الأثاثات يمكن علاجها وتجديدها بكل سهولة. دخلت الغرفة الثانية فوجدت بها ترابيزة وسط دائرية؛ حولها بعض الكراسي الجلدي. الترابيزة سليمة أما الكراسي فكلها عاهات، بعضها منفجر البطن وبعضها مهيض الساق وبعضها مقعد وبعضها هشيم؛ هي الأخرى يمكن علاجها بتراب الفلوس. عافاك الله يامعلم شندويلي. لو تطلب الأمر قتل واحد من خصومك لفعلت. دخلت الحجرة الثالثة، فإذا هي خالية تماماً، إلا من بعض أوراق جرائد قديمة وهلاهيل لمسح الأرضية. دخلت الحجرة الرابعة، فإذا بها بعض الكراكيب والروبابيكيا. لكن: حلو. وإذا بالشبابيك المطلة على البلكونات تناديني؛ فهمت أنظر من كل شباك نظرة، وأطل في كل بلكونة طلة، وأتلكأ كلما رأيت جيراناً في الشبابيك والبلكونات المقابلة ينظرون إليّ. فحينئذ أنتفخ كأني أشعر بأنني البيك الجديد الذي سكن هذه الشقة.

رحت وجئت عشرات المرات ياحاج، فتحت أبواب الغرف وأغلقتها عشرات المرات. عقلي يكاد يشت. في المطبخ وجدت رفوفاً رخامية مثبتة في الحوائط، وسبرتاية نحاسية قديمة. ووجدت تحت الرف وابور جاز محترم. قلت: طبعاً لقد تقدم المعلم شندويلي وأصبح يشتغل بالبوتاجاز.

خفت أن يصيبني الجنون في الشقة وحدي ياحاج: فخرجت. وبكل لذة أغلقت بابها بالمفتاح، وصرت أتنحنح وأتلكأ في مشيتي على السلم وأثير ضجيجاً هائلاً أتحدى به أي كلب من سكان

الذين تسول له نفسه الاعتراض. لكن أحدا لم يعرني التفاتا. صادفني على السلم كثير من الخلق صاعدين وهابطين؛ فإذا هم أشد مني ضجيجاً وصخبا وجلبة. رميت بنفسي في الشارع. وأول خاطر داعب أعطافي هو أن أخفي أمر هذه الدار عن كل من أعرفهم من الخلق بلا استثناء. ثم طغى على ذلك الخاطر خاطر أقوى؛ هو أنني لابد لي من الشروع فوراً بالبحث عن المبلغ المطلوب للمعلم شندويلي؛ بل لابد أن يتوفر بين يدي ثلاثة آلاف جنيه على الأقل حتى أستطيع دخول هذه العمارة بعين قوية. وكان الشوق للولد «هندي» قد برح بي، فاتخذت طريقي إلى داره في كيمان مجرى العيون. وكان الليل ناحلا على البلدة كأحلى ما يكون، ونور القمر يصنف نور الكهرباء ويسحقها حتى في الحواري الضيقة. سبحان الله يابوي؛ عمري ما أحببت هذه الحواري في الليل، فما بالي أحبها اليوم؟ مالي أحب البلدة كلها وتنتابني الخشية عليها كأنني قد صرت من بين المسئولين عنها!

وصلت إلى دار «هندي»؛ مددت أصبعي لألمس زر الجرس فإذا بالباب ينفتح قبل أن ألمس الزر؛ وإذا بـ «هندي» لابس خلقاته النظيفة كأفندي معتبر من علية القوم؛ مصفف شعره على سنجة عشرة، ورائحة العطر تفوح منه؛ عرفت في الحال أنه ذاهب للشغل لا للفسحة ذلك أن «هندي» ولد مكار يابوي، حصيف وناصح؛ وهو صاحب النصيحة المشهورة التي زودني بها ذات يوم ولم أستفد منها بعد ولكنني فخور بمعرفتها. وسبب النصيحة

أن «هندي» أنسطل ذات يوم وشعشع فلما أبديت إعجابي يومها بشعره قال «عرولي» بنظرة من عينيه إن هندي به فسحة في تسريح الشعر تعتبر من اختراعه؛ وطلبت من هندي أن يشرحها لي فاستثقل هندي يومها وقال في جدية: «أعلمك وآكل من بيتنا! اعلم أن تنظيف الشعر وتسريحه وتلميعه كله فوائد! ولكنني لست أعتني به من أجل هذه الفوائد؛ مع أنه ينضر الوجه؛ ويروق المزاج! ويمنع الحشرات؛ ويجذب الفتيات؛ إنما أنا أعتني بشعري في مشاوير الشغل؛ إذ أنني بتسريح شعري أخطف الكاميرا من عين المخبرين والمباحث؛ فإنهم يعرفون المتشرد المشبوه من شكل شعره؛ وضابط المباحث ينظر أول ما ينظر في رأس المتهم ليرى حال شعره؛ ربما يراه منعكشا أكرت فيتجاوز عنه لأن شعره منعكش نظيف أو أكرت مصفف. أما الشعر الذي يتراكم عليه التراب والوسخ حتى يتجلد منظره كلحية المجذوب الفاقد العقل فإن ضابط المباحث يلقطه! يعرف أنه لا ينام في مكان به ماء فهو إذن أفاق! وليفتشه الضابط ليتحرى عنه؛ لن يخسر شيئا. لكنه قد يكسب قضية لم تكن على البال! ومعظم اكتشاف المجرمين الأذكياء وقع بهذه الطريقة؛ أما أنت يا صعيدي يا فندي فإن كنت تريد أن تصرف عنك عين الشرطة فنظف لبدتك هذه على الدوام أو البس عمامة بشال أبيض تجعله نظيفا دائما حتى لو غسلته كل يوم!»

دفعني «هندي» بصدره وهو يقفز إلى الشارع ثم تلقاني في حضنه وسلم علي وقبلني وقبلته، وسألني عن غيبتي فقلت إنني ذهبت لزيارة عم لي يرقد مريضا في مستشفى أسيوط وإنني

مكثت بجواره حتى طاب قليلا ولم أعرف إن كان قد صدق كلامي أم لا، حيث إنه لم يعلق، وإنما قال لي «ورائك شيء الليلة؟»، قلت «لا»، فأشار بيده أمامه أن اتبعني، صاحبته ومضينا عبر الحواري والدروب.وكنت ألاحظ أنه يختال كالولد الشلبي، فأتعجب من كلاحة اللص في مصر القاهرة. لقد كنت ياحال أعتقد أن الإنسان في مصر القاهرة يستمد فخاره وكبرياءه وشرفه من لصوصيته، فكلما كان ولدا حريفا في السرقة واللعب بالقانون وتحصيل دمم الموظفين الصغار وشراء دمم الكبار كلما انتفخ في مشيته وأصبح له المقام الرفيع في البلاد. قلت لنفسي: وأنا مالي ياعم، ثم تبسمت، ثم تذكرت نفختي أنا الآخر ومشيتي بروح الغوى من روح المحارب المنتصر، فضحكت بعمق حتى تمايلت على قدمي؛ فدفعني بكتفه قائلا «اصطبحت مبكرا»، قلت «لم أذق حجرا واحدا بعد»، قال «فلماذا فشتك عائمة؟»، قلت «من الصوم»، قال «صحك حجرين؟»، قلت «جيب السبع ما يخلوا» قال «سأسقيك حشيشة كتكت التي هي أعلى من حشيشة صفصف؛ يهوى أن يبيع القرش منها بأربعين جنيها» عبرت منه عبرة كبيرة؛ كله بثمنه؛ نقلت له أقتين في حقيبة حضار من بلبيس إلى مصر القديمة؛ أخذت حقي طبعا؛ جئت من بلبيس راكبا الأتوبيس وسط الناس وشنطة الحضار فيها برتقال وأوطة وجرجير وطماطم؛ ستذوقها الآن».

وكنا قد صرنا أمام قهوة «صفصف» والشلة كلها متجمعة «غرولي» و«بربش» و «سبوسة» و «صفصف» هو الآخر جالس

بينهم. سلام عليكم، عليكم السلام، مينك ياولد العم؟ ووصلت بوصة الجوزة إلى يدي فأعفيت نفسي من الرد ومصيت أشعل الحجر، فالكلام ملحوق عليه أما الحجر فيحترق. بعد حجرين آخرين نهض صفصف يجرر ساقيه متأوها، وصوت طقطقة ساقيه يتكسر خلف خطواته. لاحظت أن صفصف لم يكن على ما يرام، فمزاجه غير معتدل، مع أن الحشيش عال العال. قلت هذا بصوت خفيض، فهمس بربش قائلا إن البودرة التي يشمها صفصف قد تأخرت عليه، وإنه قد أرسل في استعجال طلبها مراسيل كثيرة. فقال سبوسة وهو يتحسس ثدييه الكبيرين «ماله حق يتحكك؛ لو قال لي من البارحة لأنقذته الليلة بعشرة جرامات بالأمس وقع تحت يدي ولد نيجيري معه بطرمان كامل يود بيعه بسرعة جريت معه شدتين خفيفتين فتبينت أنه كوكايين أصلي وارد بلده؛ تركت الولد النيجيري جالسا في مقهى المالية وحطيت رجلي لعند الحاج علي إبراهيم فأريته العينة وبعث له وقيمت ثم عبث للنيجيري فزعمت أن التجار كلهم لا يطلبون غير الهوريين والكودايين أما الكوكايين فليس له سعر عندنا؛ قل إنني ساومته على خمسمائة جنيه فرق سعر؛ وكنت أنوي أن أرسم عليه لعبة الحكومة لأخذ منه البطرمان كله بلا شيء لكنه ولد ملقط وابن جنية؛ اللهم أمي فرت بنصيب الأسد؛ وعلى كل حال سأعمل الآن واجبا مع صفصف؛ إنه أخونا مهما كان معي حقي الناشف الذي اختلسته من البطرمان قبل تسليمه مضافا إليه ما أحدثه من صاحبنا حلاوة المشوار».

ووضع يده على جيبه، وهم بأن يشير بالأخرى مناديا صفصف، لكن يد غرولي كانت أسرع منه إذ أمسكت بيد بسبوسة لتمنعه وهو يقول بصوت أجش «دعك منه؛ نحن أولى بشم هذه الصفقة! دماغنا محتاج لها؟ تروح تشتغل وحدك من ورائنا ولا ينوبنا من الفصل لحسة؟!». فانتبه بربش وقال مشوحا في وجه بسبوسة بعدوانية آمرة «هات ما معك كله دون أن تفتح فمك!». وأيده هندي قائلا «دعكم من الشم والبودرة! إنما نريد حقنا فيما قبضته من فلوس؛ نحن تعاهدنا أن نمضي في الطريق سوية!». هنا قال بسبوسة وهو يلوح بكفيه نحو صدره «أنا غلطان! أنا غلطان! كنت أمزح! لم يحدث شيء مما قلته لكم!». غير أن غرولي كان أسرع وأشرس مما ظننت إذ هجم على بسبوسة فجأة، ودس يده في جيبه كيفما اتفق وبسبوسة يتلعبط بين يديه مصوصوا؛ إلى أن تمكنت يد غرولي من الجيب الذي فيه البودرة فامتثل بسبوسة «سأخرجها!» وبالفعل أخرجها، فإذا هي ورقة كراسة ملفوفة فتحها؛ فإذا فيها ورقة مفضضة من ورق علب السجائر، تحوي حفنة صغيرة من مسحوق الكوكايين. طواها بربش في قبضته ونهض قائلا «تعالوا ورائي!». قمنا وراءه مشى حتى دخل على صفصف فرآه انتشى ركنا قصيا وسلم عينيه للفراغ كالغارق في بحر الهموم حتى الذهول. جلس بربش إلى جواره، فجئنا بالكراسي القش وتحلقناهما. وأخرج بربش علبة سجائر البلمونت العريضة، ونثر على سطحها أسطر الكوكايين متجاورة كرزاريق الأرض، وضعها على الترابيزة وأتى ببريزة ورقية جديدة، برمها جيدا، قدم كل ذلك نحو صفصف،

الذي لم الذهول في عينيه حتى شله تماما عن الحركة فلم تمض في الكمية ومدت على وجهه ملامح الطفولة الفرحانة فصاح باستهوال «ياابن ديك الكا ل ب!» وخشي بسبوسة أن ينسب فضله لغيره فصاح «فضلة خيرك يامعلم إنت لو شوفت لي البارحة كان بقي مزاجك فل! لكن كل شيء نصيب!».

تناول صفصف البريزة المبرومة ووضعها في منخره الأيمن وشفط سطرا كاملا في جذبة واحدة لم يترك منه شعرة؛ ثم نقل البريزة المبرومة إلى منخره الآخر وجذب سطرا آخر، فدمعت عيناه ونظر في عيني بسبوسة كأنه يجهد النظر فيه «تعرف طريق حاجة يابسبوسة؟». قال فاتشا حنكه عن أسنان لونها بيضاء معطوبة «بظروفها والله، ما كان قصدي وما كنت أبغي؛ لكن لقمة العيش المقسومة لك ترمي نفسها عليك حتى ولو كانت مع ولد نيجيري يرطن بكلام غير مفهوم». عند ذلك نظر إليه صفصف نظرة فيها الكثير من العتاب القاسي وحوّل عينيه إلى العلبة في يده؛ ثم جذب سطرين آخرين فدمعت عيناه أكثر واحمرت خدوده تقول تفاح يابوي! ووالله عادت إليه إنسانيته فجأة وظهر يابوي كأنه أخيرا بدأ يجلس معنا، وقال لبسبوسة «حاجة كهذه ولعت تحت يدك فاتها وتعال؛ الأقربون أولى بالمعروف؛ أتراك بعتها للحاج على إبراهيم! طبعا؛ قاعد هو للساقطة واللاقطة؛ على كل حال حصل خير! ثاني مرة لا تفعلها!». وصاح مناديا «هات نحاس يابني! نحاس فص بتاع المعلم!». ووزع علينا نصبة الأمبوب كل واحد قطعة كبيرة؛ ورمى مربع أوقية حشيش أمام بربش وقال له «برص!»

مقضيا بشرب بابوى كانا نشرب فى آخر رأينا" وصورة صفصف وهو متهالك على الكنبة تحت قدمي زوجته كقار الجبل لا تفارق دماغي" فيدخلني يقين بأن صفصف المسكين ليلتئذ لم يكن شامتا، ولهذا كان معكوك العصب ككومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع لساني الذى يستحق القطع تسلق على هذا الخاطر الخبيث وصاح في بهجة «لو كنت مخروجا بعد كل هذا الانبساط لذهبت إلى الدار من فوري!». ثم انتظرت برهة وأكملت «.. لكن أمام كالقتيل!» فإذا بصفصف أول الضاحكين" وإذا به يعلق قائلا «صدقت ياصعيدي" إن الانبساط يكون أحلى من كل شيء في الدنيا». فرأيتني أنصت جيدا إلى قوله هذا بإمعان حيث قد عقلني من جوانى كما يعقل عارف العود أوتاره" فإذا بي أصبح في ألم. «أنا لن أصير كئيبا لهذا المعمور أبدا! حد الله بيني وبينه هو والأفيون" إلا في لحظات أنس كهذه كل حين وحين!». لكن صفصف أنى بأصبعه حركة بذيئة في الهواء قائلا: «كلي ياحيلة" بكره نشوف!» فأقسمت بالله العظيم بيني وبين نفسي ألا يصبح حالي كحاله أبدا. وبقيت شاردا طوال بقية السهرة حتى نسيت أننا سنطلع الليلة في مشوار ندعو الله أن نعود منه مجبوري الخاطر. فلما تذكرت ذلك فجأة ميلت على عمدى وسألته: متى نتوكل على الله؟ فقال هامسا: «بمجرد ما يجيء الدليل"» ثم غمزني أن أسكت فسكت.

وكانت ساعة الراديو تدق منتصف الليل حين دخل علينا شاب في حوالي الثلاثين من عمره، نحيل القوام مستطيل الوجه أسمر محروق، قاسي الملامح رغم أن عينيه فيهما الكثير من تودد

العسل «مساء الخير يارجالة" هكذا قال بعد أن وقف «أهلا أهلا وردية هكذا قال بربش، ثم أضاف مشيرا إلى كرسي على مقربة «إقعد ياوردية!» فجلس متبسم صفصف قائلا «لا ح ميكانيكي!» فقال الشاب بسرعة «أخوك سباك" اسمي فيصل وشهرتي وردية! أصل الشهرة أن أى صواميل قديمة لا تصطلح معي أفكها بعون الله من أول مرة" تحت أمرك في أي وقت يامعلم». فقال صفصف وهو يرمقه من تحت إلى تحت بنظرة نفاذة شكاكة «ربنا يكرمك ياأسطى" ربنا يكرمك!». غير أن لهجته كانت كأنها تقول «ابعد عني ربنا يكفيني شرك!». وقال له بربش كأنه يعتذر عن معرفته لهذا الشاب «عندنا عمرة في مواسير البيت" قلت ما ينفع لها غير وردية" لكن لماذا تأخرت هكذا ياوردية؟!» قال الشاب «كل تأخيرة وفيها خيرة" فالشغل الدقي يلزمه الهدوء" والآن يمكن أن نقطع المياه على راحتنا والناس نيام!» قال بربش «ماشي كلامك!» ثم راح ينظر في طاقم الحجارة مختبرا عددها ثم صاح في طلب حشمة جديدة تحوى طاقما من عشرين حجرا لزوم تحية الأسطى وردية حينئذ نهض صفصف قائلا «ليلتكم فل!» ومضى نحو العصبية صائحا فيمن يقف خلفها «أن في البيت الفوقاني ماولد!» ثم اختفى وبعد لحظات سمعت وابور عربته المرسيدس يزأر قبل انطلاقها به. دقائق أخرى مضت أجهز خلالها على طاقم الحجارة الجديد أمطر بربش في وردية وقال: «جاهز؟» فقال الشاب «جاهز!» نهض بربش قائلا «يلا! قلنا جميعا «على الظالم!» ومضينا خلفه نضرب في حواري مصر عتيقة

والثالثة: صباحية مباركة

زردية إذن هو الدليل الذي كنا ننتظره. والصفقة كما حكاها لنا ثانية ونحن في الطريق إليها: عبارة عن ڤيلا قائمة وحدها وسط المزارع والمحصورات في مدخل حي المعادي. صاحب هذه الڤيلا دكتور لكنه دكتور في الجامعة وليس ممن يداوون الناس. يعرفه زردية منذ سنوات طويلة، وقام بشغل السباكة في هذه الڤيلا مرات عديدة؛ حتى عرف كل شبر فيها، وكل مداخلها ومخارجها؛ وفي آخر مرة اشتغل فيها في الڤيلا كان يعرف أن لديه النية في اقتحامها ذات يوم؛ فقام بإفساد نافذة المطبخ، وإفساد قفل باب المطبخ؛ أي أنه حين يتمكن من تسلق المواسير، سيدفع باب النافذة بدماغه، فينفتح بسهولة فيدخل هو يجلس أولا على حافة النافذة حتى يأخذ وضعه المستريح وبعدها يسقط في قلب المطبخ؛ ومنه إلى الصالة ومن الصالة إلى قاعة النوم؛ حيث يعرف أن الدكتور يضع كل مدخراته في دولاب الملابس، وقد رآها بعينيه كثيرا، فلوس بالبواكي مرصوصة كما خزينة البنك؛ ومجوهرات خاصة بزوجته الموجانة المسافرة على الدوام. فإذا انتهى من جمع الفلوس والمجوهرات والملابس الفرو الثمينة استدار على

أجهزة التسجيل والتليفزيون وبعض السجاجيد الصغيرة التي يقال إن المتر منها يزيد ثمنه عن الألف جنيه؛ وعنده منها الكثير؛ ناهيك عن العارلب يابوي - والتماثيل والتحف والأنتيكات الموضوعة على الترابيزة والدواليب.

الدكتور - كما يقول زردية - مسافر منذ ثلاثة أيام؛ راقبه زردية حتى تأكد من ركوبه الطائرة ومنذ ليلتين وهو يمر على الڤيلا فيجدها مطفأة تماما ولا تكاد تبين بين الأشجار والحشائش. وعندما اقتربنا منها أوصانا زردية بأن نجعل بالنا جيدا؛ وعيّن لنا أدوارنا على النحو التالي: هو سيدخل، ويفتح الباب من الداخل لندخل نحن وراءه، فإن لم يستطع فتح الباب فسيربط الأشياء الثقيلة بحبل ويدليها من أي شباك واسع لأحدنا نحن، بحيث يكون برمش وغرولي في كعبه مباشرة؛ أما هندي وسوسة فيتوليان تستيف الأشياء ولفها وربطها. وأما العبد لله فمهمته الوقوف على الشارع العمومي في مكان خفي لمراقبة الطريق وإعطاء إشارة التنبيه.

رضينا بهذا التقسيم يابوي، وتوكلنا على الله. غطسنا في عتمة الظلام المتكاثف حول الڤيلا بفعل الأشجار والأعشاب التي تلفها، وشمر زردية عن ذراعيه وبنطلونه، وبصق في كفيه مسميا بسم الله الرحمن الرحيم؛ وقبض بيديه على الماسورة، وتخلص من حذائه مسلما إياه لغرولي منبها عليه أن يضعه في جيبه، حتى لا

تسطرهم العجلة إلى سيارات قريبة منه تقود إليهم. وضع قدمه على الماسورة ودفع نفسه بدربة فائقة يابوي كأنه القطة، صار يرتفع ويرتفع حتى صار مواجها لنافذة المطبخ، مد يديه ممسكًا بإطار الشباك ليتمكن من دفعه برأسه. لكن الفضاء انشق فجأة عن صرخة مهولة ياحاج. كان حيوانا بريا قويا يجأر. ثم إذا برعد الصرخة يتبعه هزة أرضية خطيرة. وكان جسد رودية قد اندفع وارتمى بعيدا في مكان خفي.

ركب الرعب بحال، فصرنا نجري هنا وهناك كالحيارى في المصيدة، حتى اصطدمنا في الظلام بجثة رودية ملقاة على الأرض بلا حراك. صرنا نتحسسها ونجس نبضها، لم إذا بها قد فارقت الحياة يابوي. و تضح لنا أن الدكتور الخبيث قد كهرب شبابيك المطبخ وجميع الأبواب والنوافذ القريبة من الأرض.

وقعنا في المحظور يابوي؛ لكننا لم نُضيعْ وقتنا. حملنا جثة رودية وصرنا نجري بها حتى غادرنا الفيلّا، وصرنا على شاطيء مياه أثر النبي فوضعنا الجثة وجلسنا في سطاح النهر نفكر في الطلوع من هذه الورطة المهببة. كنا صامتين كالموتى لكن الرعشة في أوصالنا تربطنا ببعضنا. أشعلنا السجائر التي راحت تشعص بين أصابعنا. قال بسبوسة: «حنعمل إيه في الليلة السوده دي؟» قال بربش وهو ينظر في مياه النهر: «والله ما أنا عارف!» قال عروبي: «نرميه في النيل ونخلص!» فقال هندي: «لا. ليس أن نضعف شأنه معنا الليلة. وبعض الرماش كذلك، فمن مسئولين

عنه!» وهنا قال بربش في حسم: «إذن فلنرجعه إلى مطرح ما وقع بالضبط، في الصبح يعثرون عليه مرميا! ستحقق الشرطة في أمره! وستعرف أنه كان يحاول سرقة الفيلا وأن الكهرباء صعقته!». قلنا جميعا: «والله فكرة!» وحملناه من جديد، وأخذ نجري به، حتى وصلنا إلى حيث كان قد وقع، فمددناه في مكانه وعدنا نجري؛ حتى إذا ما وصلنا إلى شاطيء النيل صرنا نمشي في تؤدة. ووالله لا ندري كيف خط عيب كل هذا الضحك الذي راح يفرقنا طول الطريق كأننا نتفرج على مسخرة. وأغلب الظن يا حاج أننا كنا نتخيل أننا نضحك، حتى لا نفلح من طولنا، وحتى لا يتشكك في أمرنا أحد.

الفجر كان بعيدا عنا بحوالي ساعتين، ولقد صعب علينا أن نضيع الليلة هدرًا يابوي. ألا نجيء حتى بمصاريف الشاي والمعسل الذي طفحناه اليوم؟ هكذا كان يبدو علينا جميعا ونحن ندخل مصر عتيقة من جديد. ولهذا رحنا نشمم كل خطوة لعلنا نعثر على بقايا خير منسي في الشارع. رحنا ننظر في كل شباك مفتوح على الشارع، مجرد نظرة ثم نمضي.

اقتربنا من شباك في حارة ضيقة، بينه وبين الأرض نصف متر. وكان مقسوما إلى نصفين بالطول: النصف الأسفل مغلق، أما الأعلى فمفتوح على مصراعيه التصقت بالحائط وشببت على أطراف أصابعي، ونظرت في الحجرة، وقع بصري على سرير حديد بعمدان، وبجواره دولاب قديم محدد. مفتوح على مصراعيه

هو والسرير مدهونان بالبوية حديثا ومنظر الملاءة والعرش يؤكد أننا أمام عريس جديد. هو على وجه التحديد ذلك الرجل الذي ينام وفي حضنه عروسه. الاثنان عاريان تماما ومستغرقان في نوم عميق. يد الرجل فوق بطن المرأة، وذراعها فوق رقبته.

جاء الصحاب فنظروا. غصرنا ضحكنا ضحكا مكتوما، دون أن يدري بنا أحد، لدقائق طويلة. قلت «أكل العيش مر فلأجرب». ودفعت الباب المجاور بشاكوش مررنا به فانفتح فدلفت داخلا إلى دهليز مستطيل مظلم. على اليمين كان باب الحجرة المطلة على الشارع. وكان مواربا دفعته ودخلت، والرجال من خلفي. بقيت واقفا لبرهة عويصة وتنحنحت، فلم يتحرك أحد. فتفرغت جالسا أمام الدولاب. وبجواري تفرفص غرولي. وفي الدهليز وقف هندي، وعلى باب الشارع وقف بربش. وفي أعماق الحارة جعل بسبوسة يروح ويجيء. على ضوء اللمبة نمرة خمسة المعلقة على الحائط مددت يدي في قعر الدولاب، سحبت محفظة كبيرة، سلمتها لغرولي، فدسها في جيبه. ثم سحبت راديو بلاستيك أخضر اللون ماركة صوت العرب، وسحبت علبة صغيرة فيها فرع وقرط وأسورة من الذهب، سلمت كل ذلك لغرولي فدسه في جيبه. ثم جعلت أسحب الملابس قطعة قطعة وأسلم لغرولي، فيسلمها بدوره لهندي، فهندي يسلمها لبربش. وكان على الأرض نصف زجاجة خمر رديئة، صعب على أن أتركها فأخذتها في يدي وأنا خارج، وصرت طول الطريق أعب منها.

قال هندي «اطلعوا بنا على بيتي» قلنا «وجب». وصحبنا بالفعل إلى بيته والفجر يقول الله أكبر...!

* * *

فتحنا المحفظة فإذا فيها ثمانية جنيهات وبضع بريزات وشلنات. وقال بسبوسة إن الذهب يلزمه وإنه سوف يحاسبنا على ثمنه بالمليم. وأما الملابس فقد وزعناها وطلع الراديو من نصيب هندي. ما كاد النهار يطلع حتى استفتحنا الصائغ بعرقه المجرى في مقابل أن يقدر لنا سعر الذهب. فقدره بثلاثمائة جنيه، دفعها بسبوسة محتجزا نصيبه منها. وعندما شرعنا في الانصراف استبقاني بربش قائلا «أعوزك في موضوع»، فاستأذنت من الصحاب ومشيت معه نحو شوارع فم الخليج.

استقطف مقهى جرد عليه، جلسنا، طلبنا الشاي بالحليب. وعندما قاربنا الانتهاء من شرب الشاي مال بربش نحوي قائلا «الطلب الذي أريدك فيه بسيط، ستأخذ عليه يوميتك جنيها كاملا يعني أكثر من ماهية الوزير في اليوم. لكن أهم ليس الأجرة على كل حال، المهم جدعنتك في عمل ما سأطلبه منك على أحسن ما يمكن، أتعرف الرجل الذي يؤجر عربات اليد في هذه الناحية؟». قلت «أعرفه طبعا». قال «قم الآن واستأجر منه عربة ليوم واحد! وهاك ثلاثة جنيهات تشتري بها شروة بصل أو شروة أي شيء من السوق، تضعها في العربة! وتسرح بها في الحارة التي سرقنا منها ليلة البارحة! وكن بائعا بحق وحقيق!»

الدهشة لعبكت وجهي كله، قلت «كيف يابو العم؟ ماذا يفيدني لو فعلت هذا؟»، قال «ندخل بالعربة حتى البيت الذي سرقناه، تقف عنده منادي على بضاعتك، عندئذ ستستمع إلى الناس وهم يتكلمون عن السرقة، ستعرف بذلك الأخبار، وتجيء بها لي». لمعت الفكرة في دماغي في الحال فقلت معجبًا «يابن الحسنة، ولكن ما فائدة كل ذلك يابو العم؟». قال برعش «من الذي أخرج المحفظة من الدولاب؟». قلت «أنا». قال «فحصتها قبل أن تسلمها لعزولي؟». قلت «لا». قال «رأيته وهو يضعها في جيبه؟». قلت «لا». قال «راقبته وهو يضعها في جيبه؟». قلت «لم أجعل بالي». قال «أليس يحتمل أن عزولي خسر الفلوس من المحفظة؟». قلت فزعا «أيفعل ذلك؟». قال «ربما، إنه صنف لا يؤتمن». قلت «أي صنف هو يابرعش؟». قال مستدركا «لا، لا، أقصد صنف الحرامية، كلنا يعني». ربت والحق أحسست أنه غير صادق يابوي، فلعب الفأر في عبي من جهتهم معا، هو وعزولي، بل جاءني هاتف يقول لي «احترس ياواد من الاثنين» وقلت لبرعش «ولكنني يابو العم منذ اشتغلت معكم والأمور تجري بالبركة والصداقة، ولو دخلت الشكوك بيننا يابو العم ستتغير الصدور، فدعها لله». وكان برعش يفتح ورقة سلوفان حمراء صغيرة ويمص أطرافها متلمظا، أزاح بظفر إبهامه سمسمة أفيون قربها من فمي قائلا «ياصعيدي ياقحف، من قال لك إن الأمانة والصداقة والخديعة معروفة بين الحرامية وبعضهم! إذا كانت هذه الأمور غير ماشية بين الناس العاديين فكيف تكون ماشية بين الحرامية؟ تفهم. قرءوا القرآن

وأحاديث الرسول وترصوا بمكارم الأخلاق؟ هذه أمور لا يعرفونها! ونحن لسنا إلا حرامية، يمكن جدك شيخ وعمك قطب! ولأكن أنا متعلما في المدارس، ليكن غيري ابن ناس أتقياء! لكن مادمنا صرنا حرامية فنحن إذن حرامية وكفى، ليس هناك حرامي طيب وحرامي شرير، حرامي ابن حلال وحرامي ابن حرام. الحرامي حرامي، لا يشفع له أهل ولا طيبة قلب. أنت مثلا سرقتك السكين ولهذا تستعجب الآن من كلامي. أنت تسرق وفي ذهنك الله والرسول وشيخ عمك الفقيه، ولاتزال تتصور نفسك مميزًا عن فئة الحرامية، تفعل أفعالهم وتتبرأ منهم، ويكفك لست وحدك هكذا! فأهل هذه البلدة جميعهم من كبيرهم لصغيرهم يسرقون بشكل أو بآخر كلهم يتبرأون من الحرامية في سبيل أن يكونوا من كبار الحرامية، فالحرامي البسيط ياصعيدي ياقحف هو نحن، أنت وأنا وعزولي وهمدي وبسبوسة، حرامي من يعرف أنه حرامي! ويسرق من وراء ستار حتى وإن كف عن الغير! أما الحرامي المركب فأجارك الله منه لا يعرف أنه حرامي. لكن يعرف فقط كيف يتبرأ من الحرامية، كيف يرسم صورة الرجل الشريف: كيف يطل على الناس فجعه كلما عاد من مكة تاجرا مذهبا، وكلما كثر عدد الشرفاء الذين هم من هذا النوع كلما كان ذلك دليلا على أن عدد الحرامية في البر يتزايد والسرقات على ودنه! كل واحد في هذه البلدة حرامي على طريقته الخاصة، وكل واحد يخدع الآخر ليسرقه على راحته، ولكن ميزة الحرامية البسطاء أمثالنا في الوضوح، لست أقصد وضوح كل منا في نظر الباقين، إنما

أقصد بالوضوح أننا جميعًا نعرف أننا حرامية ونتعامل مع بعضنا على هذا الأساس، والمشكلة أن الواحد منا ينسى أحيانًا كثيرة أنه حرامي، ويتعامل مع الناس على أنه رجل شريف! حتى زملاؤه الحرامية يعاملونه هكذا أيضًا! ولأنهم ينسون مثله، فإن الأمور تمضي فلا أحد يحاسب أحدًا، والإنسان يجب أن يتعلم ويتنور بالتجربة ليجيء يوم يصبح فيه لصًا مركبًا يحترمه الناس ويسلمونه ذقونهم! وعلى كل حال يا صعيدي أنت لو قمت بالعملية التي رسمتها لك فإنك ستتعلم وستعرف أشياء تنفعك عند اللزوم! ستعرف إلى أين اتجهت أصابع الاتهام فتتعلم حكمة بالغة ستعرف المساحة التي ستتحرك فيها المباحث والحكومة لتعرف كيف تتقيها! وعمومًا أنت حر انس ما قلته لك كأنك لم تسمعه!».

ثم إنه أشعل سيجارة ووقف مصفقًا للجرسون، الذي جاء مهرولًا نحو ورقة ربع الجنيه المطلقة بين أصبعي بربش، ثم أخذها وصار يعبث في الفكة في جيب المريلة لكي يرد لبربش – مثل البيك الكبير – أشاح بذراعه نحوه علامة أن خلّ الباقي ثم سلم علي ومشى. فاستدرت أنا عائدًا في اتجاه فم الخليج، وليس في نيتي العودة إلى بيت عمدي أو إلى بيتي. قلت: فلأذهب للمعلم شندويلي في المقهى لأعطيه ما تجمع معي من فلوس قبل أن تمتد عليها يدي أو يد الزمان. وهكذا شرعت أقف لأنتظر مسافة مناسبة بين سيارتين حتى أعبرها إلى الرصيف الآخر في اتجاه مصر عتيقة. لكن الخاطر شلكني. فوّت على فرصًا كثيرة للعبور، وبقيت

مسمرًا في مكاني وقتًا طويلًا وصوت الهاتف يهتف بي: والله إنها لفكرة! لماذا لا أجرب هذه الشغلة التي أشار لها بربش؟ إنها والله شيء طريف مثير للخيال.

وفجأة رأيتني أستدير عائدًا نحو ذلك الرجل الذي يؤجر عربات اليد فأجرت عربة دفعت له رهنها. وذهبت فاشتريت شروة بصل كما أشار بربش. كومتها فوق العربة، وعبرت بها من فم الخليج إلى مصر عتيقة، وجعلت أمشي مناديًا بصوت خافت. ولا أستجيب للبيع إلا قليلًا حتى لا ينفد البصل قبل وصولي إلى الحارة المقصودة. فلما وصلت إليها بدأت أنتبه إلى أن الجو راكد وعلى غير ما يرام. وقفت بجوار مقهى على ناصية الحارة حينما لفت نظري أن الجالسين عليها ليسوا في حالهم كالعادة بل إنهم متجمعون حول بعضهم يتكلمون في حماسة وحمية وحدة. فيما يبدو عليهم الاهتمام الشديد. وقلت لنفسي: بس. لابد أنهم يتكلمون في حادث السرقة. فإذا بالناس كلهم على المقهى مندمجين في قول العجب. يقولون إن المشير عبد الحكيم أبو عامر قد مات»؟ مات؟» المشير أبو عامر ..؟ كيف يا ترى رجل في كل هذه الأبهة والعز ويموت؟!

تركت العربة ومضيت، واندفعت أسأل الجالسين كأن المشير من عائلة أهلي. كيف يا أبو العم؟»..

رد أحدهم متمصمصًا من مناخيره «نعم» قلت «كلام جد يا أبو العم؟ كيف ما أبو العم؟» فلم يرد علي أحد. جلست. فطلبت شايًا

من الولد الجرسون وسألته ثانية فلم يرد، فلحقته وعرضت عليه بسيجارة فاحتد وقال: «المشير هو الذي انتحر! ابتلع حبوبا مخدرة بقصد الانتحار فمات!» هتف على لساني صوت قوي: «الأمر فيه إنّه». وعدت إلى العربة فجعلت أدفعها داخل الحارة مناديا على البصل بصوت عال.

قرب دار العريس المسروق تلكأت ثم توقفت مواصلا النداء «كيف التفاح يا بصل». خرجت من الدار المجاورة امرأة سوداء الوجه ضخمة كالجمل، صارت ترجف محتوى بيلها قائلة: «بكام البصل يا عم؟» مع أنني في عمر أحفادها. قلت: «بثلاثة تعريفة». قالت: «الاثنان بخمسة تعريفة ينفع؟» قلت: «ينفع». فمضت تقلب في البصل وتنتقي طالبة كفة الميزان. قلت: «لا يهمك» ربي عند أي بائع وتعالي! أنا راضي بذمتك. بعد برهة جاءت امرأة بملاية لف وسألت عن السعر: فلما وجدته أقل من السوق توقفت وراحت تنتقي. ثم جاءت امرأة ثالثة من دار العريس نفسها ووقفت تنتقي وجاءت رفقتها بجوار المرأة السوداء فتكلمتا معا بصوت كالهمس لكنه مسموع: عن المصيبة التي حلت فجر اليوم بدار ابن أختها «ربنهم»، حيث سرقه اللصوص فقششوه، وشلوا المحفظة وفيها ثمانمائة جنيه كان قد لمها في الصباحية وكان ينوي أن يدفعها لتاجر الموبيليا.. هكذا كتب العريس في محضر الشرطة التي جاءت وعاينت منذ قليل!

عجب ما رأيت يا حال أنني صدقت أن المحفظة كان فيها ثمانمائة جنيه الله وكيل يا بوي. أنا الذي تلقفت المحفظة وكانت خفيفة جدا

يا بوي، صدقت أن فيها هذا المبلغ الكبير، ولو كان غرولي أمامي في تلك اللحظة لطبقت في زمارة رقبته وأكلتها. مع يقيني أن الفرصة لم تسمح لغرولي أبدا في أن يستخرج المبلغ من المحفظة خلسة قبل أن يدسها في جيبه، إنه بني آدم يا بوي: طماع، شكاك. وحين رأيت الشك معشّشا بتلابيبي أيقنت بصحة كلام بريش وأمنت بأنني صرت حراميا رسميا. أشك حتى في نفسي وكاد هذا الخاطر يعميني عن سماع بقية كلام المرأة وهو مهم يا بوي: إذ راحت تقول إن العريس تعرف على الحرامي وأبلغ عنه إنه ولد صايع زميل للعريس في شغله تبع مقاول بيتاء

وحينما شعرت أن البصل قد انتهى وأنني عرفت ما يهمني معرفته، دفعت العربة عائدا بها لكي أسترد الرهن فورا. وما كدت أصل إلى آخر الحارة من الناحية الأخرى حتى رأيت فلاحا غلبانا يحمل على كتفيه قفصا صغيرا من العنب ويمشي مناديا في طلب الأكيلة. كان منظر العنب مشرقا يا حال، حتى أسال لعابي؛ فتوسمت أنني أستطيع أن أقنع هذا الرجل الغلبان بقرش زيادة ليعطيني أحلى عنقود في القفص، ولسوف أتسلى بقرقرته مع رغيفين وقطعة جبن أبيض. وهكذا اقتربت من الفلاح الغلبان «أرني عنبك يا عم». فحط القفص عن كتفيه وانتقى عنقودا عظيما لا يقل وزنه عن كيلو ونصف. قلت: «بكم الكيلو؟» قال: «بالبركة». قلت: «كيف يا بوي؟» قال باسما: «هات الشين». قدرت في نظري أن العنقود يساوي سبعة قروش؛ فدفعت إليه بالشلن قائلا: «معك ورق لف؟» قال بخشونة خفيفة: «طبعا يا صعيدي يا قحف! أنا المعلم

وتفوتني قهوة كهذه؟». ثم انتزع من تحت إبطه قرصًا من الورق لف فيه المفقود بحرص وعناية، وأعطاه لي قائلاً: «اتكل على الله!».

لحظتها كنت من الذهول أحاول انتقاء الكلمات المناسبة لكي أرد بها على هذا الفلاح القليل الأدب الذي يقول لي – من الباب للطاق – ياصعيدي ياقحف. وكان الشر يطلع من عيني حتى أنني بدلاً من أن أمسك لفة العسب كورت قبضتي وشعنتها نحو وجه الفلاح بحنق شديد. لكن يده كانت أسرع مني. ياموي ابن مدينة مدرب على الحماق، أمسك رسغ يدي فلواه بقوة حتى كسرني على ظهري، فصرت أصرخ وهو يهرس قائلاً في ابتسام مشفق ودود: «ما تعرف من أنا ياصعيدي ياقحف؟». عرفته في الحال من بسمته يابوي، من عوجة شفتيه، فهتفت: «مرمش؟ ياابن ديك الكلب! غلبتني ياابن المدينة»، وتركته ومضيت أدمع العربة بيد، وأرحرح من وجع في الأخرى.

الرابعة: المفاجأة

قال المعلم شحويلي وهو يطوي الجنيهات في قبضته بإهمال شديد لا يليق بالعرق الذي سفحته في لمها قرشًا قرشًا: «باقي عليك خمسمائة جنيه يابو العم! وحل بالك يابو العم – ابتسم لاثمًا حنكه على الآخر – لن أكتب لك عقدًا إلا بعد أن تربض يومين في السكان أولاد الفحياء! يمضي عليك حول وحول وأنا أمهلك في الدفع وأضحك على كفوف الراحة وحتى الآن لم أسمع حكاية واحدة! أخشى أن تكون قد استحليت المرعى مع المومسات المجاورات لك في نفس الدور! إنهن يطلقن أنحس شيء. أنت لا تحتمل مني ضربة رمش! بعده شهر صريعًا يابو العم! أنا نفسي كدت أقع! هل أكتب عليك يابو العم؟! المكان الذي عشت فيه أولادي من أجل البحث عن مطرح جديد لنا! إنما كان سببه خوفهم من أن أقع صريعًا تحت شباشب القحباوات اللائي يشاركننا في سكني العلالي! ولو وقعت تكون قد طبت! يصبح عليه العوض ومنه العوض في مالي وصحتي وعيالي! ربنا والحمد لله نجاني يابو العم! حتى الإيجار يجيء به البواب لحد عندي غير أنني أتركه على سبيل الصدقة حتى لا أتلوث به وفي مقابل أن يجعل

البواب فإنه مني في عينيّ ولا تجيء في صفهن على طول الخط،
إن كنت قد وقعت في حبائلهن يا أبو العم وهذا ما أنتظر فسامحني إن
قلت لك دع لي شقتي وخذ نقودك، أنت لست غبيا يا أبو العم ولابد
أنك قد لحست من طبق الحلواء لحسة أنستك أهلك، إلا أنني أنا، أنا
المقروص بالحسنة من قبل أن يخلصني الله من الوصول إلى
لحس القدم بدلا من لثم الشفاه والخدود وعض النهود، وما
أوعرها وأيسرها على السلم أو على السرير لا فرق لا مشكلة
فكلاهما ميسور والمسافة بين السلم والسرير بمقدار طرفة عين،
قشطة مهلبية بالعسل الأبيض فالعسل الأسود في ملعونة والله
الله خلصت منها وبقي أن أخلع جذورها من أملاكي مهما كلفني
ذلك من صبر، ثم إن لي معهن ثأرا لابد من تصفيته، لقد أ
دوختني وبنتي بالردح مرة وبالتلسين مرات، وبسوء سلوكهن
على طول الخط فلك أن تتصور حالي وشعوري حين أرى منهن
فاجرا من زبائنهن قادما لهن يتخطر على السلم كطاووس علق
ولا يكفيه ذلك تقويرا لدمي بل يصطدم بابنتي على السلم
فيعاكسها ويتجرأ عليها بالقول والفعل، صحيح أنه لحس تراب
الأرض ونقلته الإسعاف جثة مرحية من الضرب الذي أكله، لكن
ما حدث حدث ولا أستطيع أو يستطيع غيري مسح الجرح من
نفس ابنتي. إياك تظن أنني أسحرك للأخذ بثأر من ناس لم أقدر
عليهم! إنما أنا يا ابن الحلال أتكلم لمصلحتك، نعم بالطبع ستتزوج
وستنقل زوجتك إلى هذه الشقة فأين السفهاء الأئمة، كيف وهؤلاء
جيرانك؟ إنك لابد أن تشكمهم يا سيدي قبل أن يذوقوا لحمك! فلو

ذاقوه فإنهم كلاب مسعورة ستنهش فيك وفي عرضك حتى
تمرمش عظامك، ها أنا قد نبهتك يا أبو العم ونصحك على جنبك».

قال هذا وشوح بذراعه في فروغ بال، ثم أشعل سيجارة كأنه
يضع حملا ثقيلا تحت كلامه. فجعلت أتأمل كلامه يا أبوي. فوجدت
أنه عين العقل، ووالله لقد أفلح المعلم شندويلي في أن يشعل النار
فيّ بهذه العبارة الأخيرة يا أبوي. وتصورت زوجتي الفلستين
وهما تنيلتان تحت شباشب المومسات، وقلت في عقل بالي: هذه
الشقة شقتك ياولد لا يهنا لك بال حتى تتمها وإن ضاع عمرك
فيها. فشلطت آخر شفطة في كوب الشاي ونهضت قائلا
«يساويها ربنا يا معلم شندويلي». ومضيت أضرب في الشوارع
على غير هدى، إلى أن قادتني قدماي - دون أن أدري - إلى قهوة
صفصف. كنا في ساعة أم كلثوم يا أبوي، ساعة شمس الأصيل
تحت خوص النخيل يا سين. وكان الجو رماديا في لون النيل
للمضمر المتمدد وراني على بعد أمتار معدودة، وثمة أشجار
الزيتون متراصة على الجانبين من كل الشوارع يلمع حبالها في
صفحة الأسفلت، الذي انحرفت عنه قليلا بين السرايات والعمائر
الفخيمة، لأدخل بعدها مباشرة، في الحواري ذات البيوت
المتراكمة فوق بعضها كالهديم، عبرت الهديم إلى قهوة صفصف،
التي احتلت حارة سد مستطيلة عريضة تربض على جانبيها
أشجار الزيتون العارية فروعها بأوراق الثمرة الحمراء كمناديل
بأوبة معروضة للبيع فوق الشجر تلعلع بالأحمر والوردي

والبرتقالي على أديم أخضر. الكراسي القش تحت الشجر مرتصة، بعضها كراسي خيزران، تفصل بينها الطقاطيق النحاسية اللامعة، والأرض مرشوشة بالماء حتى الغرق. ما أحلاه من منظر يابوي! منظر يشرح القلب والله ياخال.

غير أن الجو كان ساكنًا سكونًا مريبًا، على غير العادة في مثل هذا الوقت، فساعة شمس الأصيل هذه في قهوة صفصف بالسهرة كلها في مقام أخرى، فليس في الدنيا مكان ساحر كهذا في هذه اللحظة يابوي، صدقني أن هناك أماكن تشفي العليل وهذه الحارة من هذه الأماكن. والدليل على ذلك أن الخلق يجيئون من آخر الدنيا للقعود فيها ساعات بالشيء الفلاني. فما بالها اليوم ساكنة. ساكنة كأن ميتًا مدفونًا لتوه فيها؟! أتكون الحكومة فاتت عليها وعممت اللازم حتى تركتها جثة هامدة؟! ولكن منظر الكراسي والأرض المرشوشة بعناية لا يدل على أن الحكومة مرت من هنا. قلت ياصبر يطلوس فلأجلس لأعرفه بالمجان.

جلست يابوي، ووضعت ساقًا على ساق، وصفقت فجاءني الولد كمبير الصنايعي في أدب مصطنع، ووقف أمامي في هيئة إنصات، فجعلت أنظر فيه لعله يفهم طلبي كالعادة فطلبي معروف دون أن أتكلم لكن الولد بقي منصتًا صامتًا، فصحت فيه قائلا: «ماتجيب يابو العم» فتساءل متجاهلا دهشتي: «أجيب إيه؟» قلت في استنكار: «هات حاجة ساقعة وهات دخان!» فقال في كلاجة: «حاجة ساقعة آه! دخان لا!» قلت: «في الأمر شيء؟»

قال: «الحجر ملوش» ثم تركني ومضى. وبعد برهة قصيرة أفقت على صوت الفتاحة يطرقع رافعا غطاء زجاجة الاسباتس الحمراء المغبشة بالثلج. وضعها على الطقطوقة جواري وانصرف.

حمدت الله أن جيوبي نظيفة من الحشيش، فمكثت جالسا أرتشف الاسباتس على مهل، والهواء يتساقط فوقي من غرابيل الشجر، وليس في دماغي سوى شحنة الهواجس الذين سيقبضون على مبشتي. فجأة لمحت عربة البوكس مورد الزرقاء تعبر الشارع العمومي في بطء وتمهل، ثم غابت عن ناظري، فانشغلت في إشعال سيجارة. ولما رفعت رأسي رأيت ثلاثة أفندية شبان متجهمي الوجوه يقبلون نحو المقهى في خطوات ذات وقع حاد، وكان غرولي يمشي وراءهم هو وشخص آخر لم أكن رأيته من قبل، فما كان مني إلا أن وقفت صائحا في فرح وابتهاج: «غرولي! ياه!» لكن غرولي تجاهلني يابوي، ومضى وراء الأفندية إلى داخل المقهى، فصحت ثانية محيطًا بذراعي أكاد أجذبه: «إنت ياغرولي الكلب! ماسمعتش ولاّ إيه؟!» فإذا بغرولي يرتد نحوي كالحدأة والشرر يتطاير من عينيه الخبيثتين اللئيمتين، وبكل قوته يلسعني بزلطة يده على وجهي شاخطا: «اقعد مطرحك».

فجلست مطرحي والذهول يكاد يعميني عن كل شيء ياخال. رأيت كبير الأفندية يتقدم داخل المقهى، مفتشًا في أركانها، ويعبث بالأواني وبالكراسي، ويتلصص خلف النصبة، فأيقنت أنها الحكومة يابوي، وأنها لابد قابضة، ولكن ما بال غرولي يتبرأ مني

هكذا؟! إن أصابع يده صارت ترن على صدغي. إلا وأفندي منهم جعل يقبل نحوي مكشرا عن أنيابه، وعرولي يقف وراءه

«بتشتغل إيه ياولد؟» هكذا سألني الأفندي. فوقفت متلجلجا بحال، وحرت في النطق باسم شغلتي؛ وصرت من فرط الرعب والرعشة أنظر في عرولي؛ الذي رأيته ـ وياللعجب ـ يقف معتدلا منفوخ الصدر كأنه بني آدم محق وحقيقي، كأنه هنا الأفندي الذي يسألني الآن ويرعبني، ثم بدا به ـ لا تتعجب ياحال ـ يقف بيني وبين الأفندي قائلا في استعطاف «هذا ولد غلبان ياسعادة البيه؛ على الله! نفر من بتوع الفاعل»، قال الأفندي ـ واعجب هنا ياحال غاية العجب «فتشه ياعروني»، فانبرى عرولي يتحسس جيوبي وتحت إبطي، ويرفع اللبدة عن دماغي، وأخيرا قال «ما معه شيء ياسعادة البيه»، وكان الأفندي الذي وضح أنه كبيرهم قد جاء ووقف جوارنا، فقال فهمس حوله «مين صاحب القهوة دي؟»، فقال الولد الصعيدي كالماكينة الدائرة «مسافر ياسعادة البيه!»، ونظر إلى عرولي؛ فقال عرولي للأفندي «أصله اليومين دول بيسافر كتير يدور على شغل في الدول العربية؛ الحالة يظهر تعبانة معاه شوية» فهز الأفندي رأسه ورام عدة مرات ثم استدار ومضى فمضوا جميعا خلفه وبقي الظلم في عيني يابوي، وأصابع يد عرولي ترن فوق صدغي بألم شديد، وصوت واثق من نفسه يرن في دماغي فوق رنين الوجع قائلا إن عرولي منصب مصمصة جديدة محكمة الصنع، وإنه لابد أن يكون ولدا واعرا جدا يابوي،

حتى أنه يستطيع أن يؤلف بوليسا يهاجم به الناس والأماكن هكذا في صفقة كبيرة إيش إذن بجواره مجرد ولد يضرب على وجهه بالقلم. هنا صعبت علي نفسي يابوي؛ فانهمرت الدموع من عيني كاللهب الكاوي، حتى اغتسلت عيني ونظرت الحارة قد خلت من جميع البشر، والريح تعبث بورقة جرنان زمرة فترمي بها هنا وهناك وتعلقها في الفراغ. وثمة كلب مقعي على الأرض يتابعها في انبهار ويتثاءب في ملل.

جاء الولد كمبر الصنايعي وجلس بجواري واضعا فنجان قهوة على الطقطوقة؛ ثم نزع من فوق حلمة أذنه تحت شعره ورقة سلوفان فيها قطعة أفيون في حجم زرار البالطو. اقتطع ربعها وقدمها لي باسما: «روق روق؛ ولا يهمك»، تناولت قطعة الأفيون وقد أحببت الولد ياحال. ولم يكن يخطر ببالي أن الولد كمبر فيه كل هذه الجدعنة رغم أنني منذ رأيته لم أهضم منظره. صحيح ياحال. الواحد لا يأخذ الناس بمناظرهم طوحت بالقطعة في فمي ومصمصت ضروسي قائلا «تشكر ياكمبر» قال «اشرب هذه القهوة على حسابي» قلت: «ما كل هذا الكرم ياكمبر؟» قال: «كله من خيرك»؛ فجعلت أرشف القهوة وأمصمص الأفيونة متمنيا أن تذاب بسرعة. وقال كمبر «ما تاخد على خاطرك من عرولي! إنه لحوك». قلت «عمره ما فعلها؛ لا أعرف ماذا عاملني هذه المعاملة؟ وعلى كل حال؛ حسابه معي طويل» ابتسم الولد كمبر قائلا «خذ الأمر ببساطة؛ عرولي ضربك ونجاك؛ فلولا هو لكان الضابط قد أخذك. للمخبري عنك ولا تنس أنك غلطان ـ وضحك ـ أنت عدم

المؤاخذة صعيدي مديا كنت ستودي بالرجل في داهية! هل عميت ياحسن؟ ألست تراه داخلا في صحبة الحكومة تتلمه؟ إنه في حالة عمل ومراسم نفسه أمام رؤسائه وحضرتك تقول له ياغرولي الكلب؟ لو كنت منفتحا لتجاهلته كأنك لا تعرفه؛ إنك اليوم ستجعلهم يشكون في صدق عمله».

الأرض مادت بي ياحال تحلف اليمين إني رحت أثبت نفسي في الكرسي خوف الوقوع ودماغي كلها في دوامة كالكرة تضربها قدم لتتلقفها أخرى غرولي هو الذي نجاني؟ التحري؟ عمله؟؟ رؤساؤه؟ ما كل هذا يابوي؟ لابد أنني من غير هذه البلدة من غير هؤلاء القوم ياحال أيعقل أن أصاحب رجلا واشتغل معه سنوات طويلة، ويتضح لي في برهة سريعة أني لست أعرفه حق المعرفة بل لست أعرفه أصلا

قلت للولد كمبر «ما كل هذا الذي قلته ياكمبر؟ إنك تقول العجب! أتقول الجد أم لعلك تهزل! ما دخل غرولي بالحكومة ودخل الحكومة؟!» وكدت أتسرع فأضيف قائلا إنه حرامي رسمي ومعروف للدنيا كلها جربوها حقيرا بلا مبدأ. لكن الحمد لله يابوي أني لم أقلها؛ لأن الولد كمبر كان أسرع مني قائلا في استنكار «ما خوفي إلا أن تكون لا تعرف صاحبك؛ أنت عبيط ياحسن أم أنك تستعبطني؟ ألست تعرف شغلة غرولي الحقيقية ياحسن؟ غرولي شغلته مخبر سري في الحكومة؛ تبع مكتب مكافحة المخدرات؟!»

خط قلبي، قافزا على لساني صائحا «معقول ما قلت ياكمبر؟!» «ياجدع لا تقل هذا». ثم خشيت أن يستعبطني الولد ياحال؛ فتصنعت أنني أعرف هذا وأنني أخفيه حرصا على سمعة الرجل وعمله وأخذت أغالي في نفي الخبر، والإيحاء للولد بأن غرولي دماغه ملطفة حتتين ومخه نظيف يستطيع أن ينفض كل هذا، غير أن الولد كمبر زغدني في جنبي بلطف وود، وأفهمني كل شيء، قائلا إن غرولي ينفعهم كثيرا، فلولاه لأغلقت المقهى من زمن مضى؛ وذلك لأن غرولي يعرف مواعيد الحملات التي سيقوم بها مكتب مكافحة المخدرات بالساعة والدقيقة واليوم؛ فيلف على كل أحبابه من تجار المخدرات وأصحاب الغرز، فيبلغهم بمواعيد الحملة حتى يستعدوا لها فتجيء الحملة في النهاية تأخذ ما تأخذه الريح من البلاط. والمكتب لابد أن يطلع غرولي على مواعيد حملاته، لأنه لا حملة بدون غرولي، إنه هو الذي يعرف الحواري والأوكار والمخابيء، وهو الذي يجمع التحريات عن المجرمين والهاربين من الأحكام؛ وهو الذي يقود الضباط إلى المواقع؛ ولو كان المجرم الهارب واقفا بلحمه أمام الضابط وقال غرولي إنه ليس هو أطلق الضابط سراحه في الحال. «اصح ياحسن ياخوي! والمهم» غرولي هو الآخر يغطي نفسه جيدا؛ يجمع مرتبات تصل إلى آلاف كل شهر؛ والمعلم وغيره يساعدونه على تغطية موقفه؛ يجلبون له بعض القضايا في حضور الضابط؛ يسمعونه بعض الرياش يدا بيد رملان دعت عليهم أمهاتهم فقابلهم سوء بختهم!»

تحت اليمين يا خال أنني لن أعد قادرا على الرغم بأنني ما
كنت أعرف أي شيء من هذا على أن الضربة القاتلة عاجلتني بعد
برهة وجيزة بحال، حين استطرد الولد كمبر قائلا في ثقة هذه
المرة «أظنك لا تعرف أن بسبوسة هو الأخر مخبر سري! انتفضت
واقفا في الحال بانفعال كمن وقف على سلك كهربي، وأحدث
أصيح «بسبوسة هو الأخر مخبر سري؟» كيف يا نوى؟!» دفعني
الولد كمبر برفق فجلست» فصار يبحث في جيبه عن سجائر
فأسرعت بمد علبتي نحوه فنزع واحدة بللها بشفتيه. ونزع عنها
الشريحة بسهولة، ثم نزع ورقة بافرة من دفتر في جيبه» ونزع
قطعة حشيش من خلف حلمة أذنه، فركبها على السيجارة وبرمها
بسرعة ثم أشعلها وجذب منها عدة أنفاس متلاحقة، وقدمها لي
قائلا وهو يكتم الدخان في صدره «بسبوسة مخبر سري تبع
بوليس الآداب وهذه الشغلة تخفيه» لو اقتصر عليها وحدها
يأكل الشهد يلبس الحرير في حرير» وهو ما الفحل هكذا! هناك
عمائر بكاملها وسرايات في مناطق نظاف نحن من المشي فيها»
لبسبوسة مرتبات ثابتة فيها» العمارة أحيانا تكون كلها شقق
دعارة من أولها لآخرها» فكلها مؤجرة مفروشة» وإيجار المفروش
هو الاسم الرسمي للدعارة» نعم! وهناك سرايات أصحابها كانوا
بشوات ذات يوم وباتوا يتاجرون في اللحم واللبن! الحكومة لا
تعرف عنهم جميعا أي شيء إلا عن طريق بسبوسة» وهو كثيرا
ما يصعد في هذه الشقق بعض رؤسائه ولكن في زيارات ودية
يقوم بها بقصد المعلوم والبلبع عبر حملة» وكان يجيء بعدها

فيحكي لنا وللمعلم صفصف! بسبوسة هذا كان زمانه الآن
مليونيرا كبيرا لولا مسماره» هو الذي يفرحه ويعذبه في الدنيا! لا
يشبع ولا يكتفي! يقول إن السبب ليس في أنه ثور طلوقة وإنما
لكثرة الجميلات الساقطات اللاتي يقعن تحت يديه مقهورات! منهن
من تكون امرأة رجل كبير ذي مركز كبير أو بنت ناس طيبين
ولكنها ضبطت متلبسة! ومادام قد صار لها ملف في الآداب فإن
مسمارا يرتفعه بسبوسة فيها خير لها من المبيت كل يوم في قسم
الشرطة» الواحدة منهن تنام في حضن زوجها متعششة ولكنها في
حضن بسبوسة كالزنبرك! هكذا يقول لنا» يا ما جاء هاهنا عقب
خروجه من عند إحداهن سكرانا طينة» فيكشف عنه ويريه لنا
متسلخا» وفي لحظات يختبئ في زلر مظلم في الحارة ويفعل
العادة السرية ويعود قائلا إنه ظل يرقع طول الليل دون أن ينزل
منه شيء وقد انزل الآن فاستراح! إنه ملعون في الدارين بسبوسة
هذا لكنه جدع! أجدع واحد في شلتكم كلها! خصوصا لمن يقصده
في خير! من يصاحبه - يقول - لأنه يفعل معهن ما لا يفعله
أزواجهن تحرجا أو غشومية! بعضهن علمن له عند حدوث الشيء
لنهن قبل الآن لم يكن يعرفن شيئا» عن هذا الشيء رغم أنهن
متزوجات ومنجبات من سنين طويلة» كذلك يفعل معهن حركات
البدعنة» إنه محظوظ ابن كلب هذا البسبوسة! أتحض شنب في البلد
وأحلى شاب فيها لو نظر لواحدة منهن تنقلع عينه قبل أن يطول
منها نظرة لما هو معروف عنهن من العفة والهيبة وكثرة المال! أما
عند بسبوسة المعفن هذا فإنها تخلع اللباس في الحال وهي تقول

سبحان الله والحمد لله» وعلى فكرة! كل سكان الكورنيش عفيفات شرفاء حتى يرين بسبوسة، تنهار الواحدة منهن في الحال وتتكسر عينها! أما عمارة الكورنيش في مصر عتيقة، أكبر عمارة هناك فمن بسبوسة يشتعل عليها أحر شعل! فيها خمس مومسات مقيمات لكل منهن ثلاث أو أربع صديقات! كل واحدة منهن تجيء بزبائنها الخصوصيين، وهم رجال من أصحاب الرتب العالية والرأسمال الكبير، والجميع يقيمون السهرات الحمراء، ولعب القمار شغال طول الليل، الواحد منهم يشتري البنت ويلاعبك عليها شف الفجور والعهر! شف المزاج العجيب الغريب! دين أم هذا المزاج الفهيم! إن غلبته أنت في اللعب تقوم في الحال أو عندما يطيب لك فتختلي بالبنت في الحجرة المجاورة حتى الصباح! يقول إن عينا مرخيا يكسب باستمرار في هذه اللعبة فيحتجز أحلى البنات على اسمه طول الليل والمغلوبون يتحرقون شوقا من حوله ويتحسرون فلا يرحمهم! أما إن غلبته أنت فإنه يدفع لك تكاليف أي بنت تختارها! إذ إنهن جميعا أمامك بقمصان النوم شاربات منتشيات بين يدي اللعب فيجعلنك تذهب لتجيء بكل ما في بيتك من مال تدفعه لهن! شف العهر بتاع البلد ياسي حسن! وتقول لي نكسة؟! إنها بلد يلزمها الحرق يابوعلي!».

وكف عن الكلام كأن الحشيش المتكلم في دماغه قد نفد فجأة كما تنفد البطارية. مقلي شاردا يحدق في الفراغ وقتا طويلا ينفث سيجارة عادية في صمت كفيلسوف مشهور وموجات صوته

لاتزال موجودة في المكان. أما أنا لا تسأل عني يا حسن! تحلف اليمين أن يا عليقة عسلتي وعمري إن الأرض كروية يابوي، صدق من قالها. وبحر الأفكار واحد والخلق جميعهم يسبحون فيه. والواحد منا مهما شرق أو غرب فهو ماض تحت نفس الأمواج المتلاطمة، وها هو الولد كمبر يكلمني فيما كان يشغلني من أمر دون أن أسأله أو أعرض عليه الأمر فيا له من أمر يابوي!

فجأة نطق الولد كمبر من جديد. فلم أدر إن كان قد استأنف بعد توقف أم أنه لم يتوقف أصلا، لكنني أفقت على صوته يتجسد في أذني بحدة وحقد شديدين: «المشهر أصله ضرب مخ الجميع بمرض الفنانات؟ وآخر المتعة جاه ينتحر لي في تلك البلدة وانتحر! الله يكرمه عنده دم وانتحر، أما الأخس فقد مال أمه وجاه يمتلز ويتشمى، بلد مسمومة ياجدع! الثورة تأكل عظمها وباشوات زمان كنشوا بفلوسهم، والضباط صاروا باشوات أوسخ من الباشوات! وإسرائيل لابدة لنا في حقول الذرة العالية، وحقول الذرة هذه في أمريكا إن كنت لا تفهم! وخذ بالك إنني عجوز أكبر من شكلي!».

ثم عاد إلى صمته، وقام بعد برهة فاتجه إلى الحصيرة وراح يقلب ويحكرش تحت خشب أرضيتها وجاء بربع قرش ملفوف في ورقة سلوفان حمراء، وجلس منزويا يلف سيجارة.

* * *

أولاد القحباء — إذن — يعيشون في حماية بسبوسة. لقد تضحت الأمور تماما بالخال، وباتت غير محتاجة لأي تفكير فما

الذي ترابي سأفعله مع بسبوسة ياخال؟» هل يعقل أن بسبوسة يبيعهم ويشتريني؟ هل يبيع مصدر رزقه في سبيلي؟ لا أظن ذلك أبدا ياخال. وبعد، تكون المسألة قد تعقدت. ولن أفلح في محاربة أولئك المرابين طالما أن مندوب الحكومة يحميهم. إن الموظف الصغير في بلادي هو الحاكم الأصلي كما علمني وبيبهي أفندي، وكل الرؤساء الكبار لا يعرفون شيئا غير أنهم رؤساء وكبار والسلام؛ خاصة هؤلاء الذين جاءوا مع الثورة وعقلهم المريسة فحسب. على كل حال ياخال، هكذا قلت لنفسي يابو قلعم ـ فإن الولد كمبر يقول إن بسبوسة جدع، خصوصا لمن يلعبه في حين، وأظن ياخال أن مقصدي من تأديب المرابين حين الأمر يلزمه تفكير عميق يابوي. لماذا الآن فقط صرت أتأكد من أنني بالنسبة لهؤلاء والولدان لقمة في بحر قراره عميق.

ورأيتني أقول لولد كمبر «حدثني حدك ياكمبر أن يظل ما دار بيننا اليوم من كلام كأنه طوبة وقعت في بئر مظلم!» فرعدني كمبر بسيجارة ملفوفة وغمزني بعينيه « كم من السنين تعطيني عمرا ياحسن؟» قلت «شيء وعشرون على الأكثر» فابتسم وأخرج ولاعة البوتاجاز البلاستيك وارد غزة، والتي من المفروض أن يرمي بها فور نفاد البوتاجاز منها لولا أن المصريين اخترعوا لها طريقة لإعادة ملئها بالبوتاجاز. جعل يقرب شعلتها المستطيلة مني؛ فاشتعلت السيجارة وجذبت نفسا عميقا، نفثته بأنفاس متلاحقة وهو يبتهج في حرج «الرحمة». فناولته السيجارة

فبإبهامه نفض عنها الزهرة المحترقة وكانت أعماقها متصبة قليلا على جودة نوع الحشيش الذي بدا كأنه العامود المسلح وسط الهشيم المحترق. أبقى السيجارة بين إصبعيه حتى تلتقط أنفاسها، ثم قال «شيء وعشرون تقول؟» ربنا يجبر بخاطرك!» وجذب نفسا عميقا كتمه في صدره عينيه بالأحمر المرمد، حين يقول وبقايا الدخان في حلقه تبعثر حبال صوته وتعضه «في رمضان القادم بأكمل الأربعين من العمر!» وجذب نفسا أعمق من سابقه يابوي، نفسا يليق بسن الأربعين وسط عزوة فيها الخير غير مقطوع ولا ممنوع. قلت «ما شاء الله. ما شاء الله! لا يبين عليك والله ياعكروت!». سلمني السيجارة قائلا بصوت متكتم «عندي عرائس مزوجات! ولي ابن مجند في الجيش الآن! وآخر مات بالنكسة! جاءته نكسة قلبية في سيناء فمات ولم أر جثمانه حتى الآن ولم أعرف إن كان قد دفن في مقابر الشهداء، حقا أم أكلته الغربان والذئاب في سبيله! أنا الآخر كنت سأصاب بالنكسة وأنا منه؛ لكنني رأيت أمه على وشك الوقوع صريعة مشنوقة بالطرحة السوداء والكفن الأسود! فقلت ما يصح أن تسقط معا؛ فاجتمعت وقوعي حتى أقوى على سند أمه المسكينة! إنها أهم مني بكثير ياجدع! لو ماتت الوصي لنا بقبيلة من الأولاد لا نجد من يمسح خراءها؛ لو مت أنا فالله يرزقهم عني! أما هي فإن الله ـ عدم المؤاخذة ـ لم يرزق أما ثانية لبني آدم أبدا! عمرها ما حصلت ياجدع! عمرك شفت شخصا ماتت أمه وعوضه الله بأم غيرها على الحقيقة؟» إن قلت إنك شفت تبقى كذاب: حتى أم لأم نفسها

رغم كثرة حنانها لا تكون هي الأم نفسها أبدا! إسألني أنا فقد اكتويت ياجدع!»

وتناول السيجارة مني ونظر في عقبها محددا عمق النفس الذي عليه أن يجذبه. فلما رآه لا يستأهل، رمى بالعقب في بالوعة الماء تحت المصطبة؛ ومضى يبرم سيجارة أخرى وقد ندت عينه بالدمع؛ وترطب «إنني لابن قحبه، صحيح!»؛ وضحك بصوت عال في مرح حقيقي «الذي مات مات» في كحة، المشير نفسه مات! والبطل واللوطي كلاهما يموت في النهاية ويتساويان في القبر والكفن ومصر كلها ماتت من ضرب فيها وكان شيئا لم يحصل، الراديو يذيع شنبه في المصيدة عشية النكسة بعريبا بها في موت عبالنا، شبيه من! كلنا في المصيدة وتجيء تسوق التريقة علينا، معك حق طبعا، البلد فرحانه والكباريهات سهرانة والشقق المفروشة عمرانة، والقرر نارها والعة والحشيش للركب، ما يشرب الحسرة إلا نحن يابني فقدنا عيالنا، لكن لا يابني للنكد، معلهش ياحسين! أنا تصيبني حالة النكد هذه كلما رأيت أحدا من الحكومة.» ثم بلل الورقة البافرة ولصقها حول الدخان وكوربورها وسوى عقبها ثم أشعلها وتركها موهوجة ملطمة بأنفاسه المتلاحقة؛ أخيرا سلمها لي قائلا «قصدي من الكلام كله أنني في غير حاجة لمصاحبتك! أنا ولد يعجبك، أصادق الصغار والكبار معا يتخدعون في شكلي يتصورونني من سنهم! فآخذ نفسي كبيرا عليهم، والكبار يتصورونني صغير السن فأجد نفسي مساويا لرءوسهم! هل رأيت المعلم صفصف يهنتي في أي يوم أو

يقل أدبه علي كما يفعل مع الصنايعيه؟» هكذا أنا مع كل الناس! أحترمهم فأكبعهم فيحترمونني ويطلعوني على أسرارهم! وأنا ـ على فكرة ـ أستطيع أن أميز السر الحقيقي من السر المصطنع! أعلمك وأكل من ملوما، السر الذي يقال لك ليس بسر حتى ولو وصفه قائله لك بأنه سر، إنما السر هو الذي لم يكن صاحبه يود لك أن تراه أنت أو غيرك! تشرب شاي؟» قلت «مع أهلاك ياولد!» محود على المصطبة وصب كوبين من الشاي الثقيل ذي الرائحة النفاذة؛ فأخذنا نشرب في صمت عميق بحال: كأننا تعبنا من الكلام، ارتكن هو بمرفقيه على رخامة المصطبة شاردا. وكورت أنا على الكرسي، وقد شعرت أن السيجارة الأخيرة لطشتني في مقتل ياحال، فصار دماغي يتبخر في الهواء ومد صمتنا انبعث صوت تكتكة صار يقوى مع الريح المقتحمة من فتحتي متواجهتي، وكانت صورة جمال عبد الناصر المعلقة في برواز مذهب على الحائط قد صارت نهبا للريح مشبوكة في فتلة دوبارة دائبة؛ فأخذت تصفر هذا النفرزان العنيف، فقلت في عقل بالي، لعله ديور زن على حراب عشه فالشعر بدني حينئذ ثم انفرد مرة واحدة في رعدة شديدة قلت على أثرها: حي على الفلاح! واستسلمت لصمت عميق سخيف.

الخامسة ـ طلوع الشعرة من العجين

كنت أوقن أن كل شيء مصيره ينكشف، مطالما أنت زمار وأنا طبال فلابد أن الليل يجمعنا. إلا أن معي الصعيدي الناشف أمرني أن أختفي عن هؤلاء الأولاد، وأبعد عن الشر وأغني له. ولقد مَنّ الله علي برجل طيب كان يعرفني من قهوة المعلم. هو من بلدة الصف اسمها «الودي». وكان معروفا للجميع؛ اسمه الحاج وهدان؛ شغلته في الأصل تاجر خضار وفاكهة، يوسق المراكب من بلدته ويجيء ليحتلها في مصر عتبة بدلا من روض الفرج، الذي تكثر في سوقه المعلمين ويضيع مكسب البضاعة بينهم. غير أنني عمري ما رأيته في حالة شغل أبدا؛ فدائما هو قاعد على المقهى يشرب الشاي مع الشيشة، ويستقبل الوفود الذي لا ينقطع هطولها طول النهار. كلهم أشكالهم غريبة يابوي؛ ومثله يرتدون الجلباب الكبير والعمامة الصعيدية والعباءة الجوخ على أكتافهم؛ وكلهم عيونهم لائذة، لا تكف عن التلفت في حذر وحيطة وخفة. رآني ذات عصرية رقيقة السمات أجلس على رصيف المقهى وحدي. فمُيل نحوي وناداني بإشارة من يده؛ مقربت كرسي منه مائلا بأذني نحوه وضع كفه الكبيرة فوق كتفي مائلا في ود

جميل: «متشتغل فين يابو العم؟». قلت: «صراحة لا أشتغل هذه الأيام!». قال: «ما شغلتك الأصلية؟». قلت ـ ولا أدري لم؟: «بياع متجول!». لوح بالخواتم الذهبية في يديه وقال: «أظنك تقرب للمعلم شعريلي!». قلت: «طبعا. وأسكن عنده». صاح رغم عنه «حلو!» ثم عزم علي بسيجارة بلمونت؛ فقبلتها: «كتر خيرك». فقال وهو يشعل لي بولاعة بوتاجاز ثمينة: «عندي طلب بسيط! لو نفذته لك عشرة جنيهات». قلت: «رقبتي سدادة!». قال: «سأعطيك شيئا توصله إلى مكان قريب». ففهمت في الحال، وقلت بحرفنة: «عشرة جنيهات على الآلة تقصد؟». فتبسم في حذر وخبث، ثم قال: «على النقلة كلها». قلت: «يفتح الله. إذا كان على الآلة الواحدة أهلا وسهلا». فشخ ضحكه وقال دون مواربة: «شف يابو العم؛ ست جنيهات فقط على الآلة؛ موافق؟!». قلت: «موافق». قال: «قم معي». فقمت معه؛ فإذا هو يركب المرسيدس الراكنة بجوار المقهى، ويفتح الباب لأقعد بجانبه. ثم إذا بالسيارة تنطلق بنا كالعروس المجلوة ما صدقت أن تملكت الطريق السريع حتى فتحت جناحيها وطارت، فصرنا في بلدته بعد دقائق. في الطريق احترمني، وزودني بكثير من النصائح الثمينة. نبهني إلى ركوب القطار بعين قوية حتى لا أثير الشبهة حول نفسي. فإذا هو يا خال يكتشف أنني من أصيع خلق الله، أصيع منه ومن الضباط والمخبرين والكمسارية.

* * *

كانت أيامه فلأ أبوى أنقل كل يوم نقله وربما خمس أقات بعشرين كيس مبططا، أشترى لها جمعه من ورق الأسمنت وأعطى البضاعة مهلاهيل قديمة وفي القطار أسندها على رف وأقف بعيد عنه بمقدار طول العربة، يكون بيني وبينها باب. وأصب عيني عليه جلسة كلما وقف القطار على محطة حتى إذا جاءت محطة السيدة زينب تلقفت الجمعة بسرعه وقفزت هابطا لأذوب في سيل النازلين مسبب إلى الحوارى الجانبية في لمح البصر كفص ملح داب الرجل المقصود دائما في انتظاري على ناصية أو مقهى أو في دكان صغير سبقالة للعطارة الحياطة لأي شيء. قبض الحرق يتم قبل الحمل، يدفعه لمول على داير مليم لكي يكف شيطان الهرب الوسواس، ولكن متلقي البضاعة يتشكك لحظة وصولها بسلام وإن توترت أعصابه وتغير منظره، فيتمرس ما فيه نصيب. وأحيانا فرت باللين أشرب قهوة مافوت، وأشرب فوق القهوة ما يقول الحيل من حشيشة المعلم المضروسة وأقفل راجعا إلى الدار بزمة من فلوس وحشيش وأفيون ومرشام

الحالة تسجهت وبانت أحر نظاكة، وأصبحت أرمى ماكوام الفلوس عشرات عشرات فوق بعضها في أي مكان بجوار السرير، وصرت أدفع للمعلم شندويلي فوق الإيجار إيجارات وفوق القسط أقساط حتى فمص الحساب عن دفاتر ذاكرتي فصار شيئا كبيرا كبير، فيصيبني الدوار حين أشرع في حسبه في جمعه فوق ذلك صرت أبحث لهليل مالعر لاب تلو الحوالات، ولامي كذلك، والفلوس

مع ذلك لا تنفد ولا تختفي أكوامها من فوق ذلك المسمى بالكومدينو المجاور لرأسي ولم يكن الشمس يستغرق مني سوى أربع أو خمس ساعات، وبقيه المهار مفتوحة والليل كله تحت الركاب ولقد تعلمت أكل الكباب والكفتة مثل الأكابر، والجمبرى والكابوريا مثل أولاد الناس كما تعلمت النوم في القيالة للسهر طول الليل في بارات وسط البلد وحي العتبة وعزور الدرب الأحمر والسيدة زينب

وكنت جالسا على مقهى الكلوب المصرى مرتديا الجلباب الكشمير والمركوب الأصفر وأتلفع بلاسة حريرية سمينة اللون، أضع رجلا على رجل. وأمامي فنجان القهوة كالناس الأكابر لا ينقصني سوى الجرنال والعصا أم عوجته والنشة حين جلس بجواري رجل يرتدي جلباب فوقه بالطو قديم كالح، وله شوارب مندلية عرفت في الحال أنه مخبر سري في الشرطة، فرجف قلبي صرت أتفرس في وجهه على أعرف سر هذا العشم الكبير الذي جعله يجلس بجواري أنا بالذات من غير سلام أو كلام كان هو الآخر يتفرس في عيني ويفارحني فاعطف معه، مع ذلك قلت له باسما: «أهلا وسهلا!» قال. «حسن ولد أبو خسب؟» . قلت متحسبا «حدامك ومحسوبك، تشرب إيه؟»، وصفقت في الحال مناديا الجرسون، الذي جاء يهرول فقلت له «هات قهوة هب» قلتها كما يقولها الحاج وهدان بالضبط لأنه هو الآخر يقولها كما البكوات الكبار وهنا ضحك الرجل فضحكت أنا الآخر، وأسرعت

فقت «أهلا وسهلا يابو العم؟ عدم المؤاخذة؟ العتب على النظر»، وقربت علبة سجاير البلمونت منه! انتزع منها واحدة بحركة سريعة، وعينه تبصبص للعلبة ولحركة يدي أيضا اتجهت وحين أشعلت له السيجارة بالكبريت كان الجرسون يضع أمامه فنجان القهوة فانتظر هو حتى أعطانا الجرسون قفاه ومضى، ثم جذب من السيجارة نفسا بلع من ورائه حيث شديد في عينيه ونفث الدخان نحوي قائلا «عدم المؤاخذة يابو علي، عندي لك نصيحة». قلت في نفسي «يافتاح ياعليم» وأردف هو «هما كلمتان كفاك هدا». دبت الرعشة في ساقي «ما قصدك يابو العم؟ ومن تكون حضرتك؟». أخرج من جيب صديريه كارنيها قديما كالحا قربه نحوي في حركة مدربة وهو يقول «سيد الشفتوري! مخبر سري». فاشحت عن الكارنيه وعنه، فأعاد الكارنيه إلى جيبه وهو يقول في لهجة انتصار «أنت تشتغل مع الحاج وهدان بتاع مركز الصف! وأنا عارف كل حاجة، شركتك تأكل عيشا وليس بقلاوة! واليوم رأيتك فرأيت أن أقدم لك واجبا لوجه الله. الجو هذه الأيام مقلوب! ومصيرك الوقوع في الفخ».

نشف ريقي ياحاج: عصرت أبلل شفتي بلساني كي أقدر على الكلام. قلت «أنت تشكر على كل حال يامعلم سيد يارجل ياأمير، ولكن أنا مالي أي دعوة بالشغل! ربما تكون رأيتني معه أو عنده، والحقيقة أني أعرفه من مقهى المعلم شنبولي، أما أنا فتاجر فاكهة سمسار، ولست أعرف للحاج وهدان شغلة غير هذه أيضا،

فإن كنت تقصد أنه مخالف القانون في البيع والتسعيرة فأنا لا ذنب لي». وكانت عينه الشبيهة بعين الثعبان قد انغرست في عيني وصارت تشرخ فيهما بمبارد من حديد مشتعل، فما كدت أنهي كلامي حتى شمط أحمر شفطة من الفنجان ثم وقف حاطا يديه في ركبتيه علامة اليأس مني، ومضى فعاد يبتعد حتى اختفى.

بيني وبينك لعب الفأر في عبي، وكنت أتمنى لو أنني غمزته في جيبه بجنيه أخضر، إذن لا نحني لي شكرا وتركني في حالي مثلما يفعل زملاؤه الذين أراهم يسلمون على الحاج وهدان كالخدم الأذلاء. لكنني خفت أن أفعل مثله حتى لا أثبت التهمة على نفسي. انقبض قلبي وحط عليّ نكد ثقيل، فحاسبت القهوجي ومضيت إلى الدار وقد خيل لي أن الحياة بدأت تقلب لي وجهها من جديد، وأنني يجب أن أتوقع أيام نحوس جديدة لست أقدر على دفعها إلا بالابتعاد عن خط الصف كله، ولكن كيف يابوي؟ فلا عد للولاد ثانية لنشتغل في التشبيح نبلا كيفما نهوى. هكذا قالت نفسي لنفسي. وفي السرير تمدد الشيطان بجواري يقنعني أن «سيد الشفتوري» يسعى لورقة الجنيه وأن أمره بسيط ويمكن أن أتحدث بشأنه مع الحاج وهدان ليصرفه عني. وهكذا استطعت أن أغمض عيني قرب الفجر.

في الصباح طلست وجهي بحفنة ماء ونزلت من فوري متوجها إلى بلدة «الودي» لمقابلة الحاج وهدان. وجدته يجلس في

حوش داره بين مجموعة من أولاد عمه وصحابه. داره منفصلة عن البلدة، تختفي وسط جنينة كبيرة وارفة الأشجار. ولما نبحني الكلاب طلع من يهشهم ويسكتهم. ولحظة دخولي كان الحاج وهدان يفرجهم على بضاعة جديدة: يحاول فتح صفيحة كبيرة كصفائح السمن. فيما يجمع السبك والشاكوش في فك شمعها رفع غطاءها الكبير، فاندفعت رائحة الحشيش زاعقة مكتسحة مبهجة. ومد يده فاغترف بكفه حفنة صغيرة من بودرة صفراء عرضها على الأعين المشرئبة، ثم أطبق كفه عليها فانعجنت. وفك منها قبضته. فإذا هي كرة من الصلصال كالبيضة. سحب سيجارة من علبة أمامه، غمسها في الصفيحة ثم أخرجها وأشعلها وجذب منها نفسا عميقا مررها علينا. ثم تابعها بواحدة ثانية فثالثة، فرابعة، فخامسة. فإذا نحن جميعا قد احمرت عيوننا واحلوت الدنيا في نظرنا، وصرنا نضحك على الفاضية والمليانة.

صفق الحاج وهدان فجاءت أمه الحاجة «امهة» لتأخذ الصفيحة في دخلتها جاءت عيني في عينيها مباشرة. فإذا هي تمصر اسها قائلة في تحذير بلهجة خطيرة وهي تشير إليّ «الولد ده ما يشيل بضاعة اليوم». وحملت الصفيحة ومضت كفتاة صغيرة. كل النظرات راحت تنصب علي في تشكك ناعم، فحصرت أحلف ستمائة يمين أنني طبيعي ما انسطلت بعد، كما أنني لست بالذي ينقلب من سيجارة واحدة حتى لو كانت محشوة بالبارود. ونظر لي الحاج وهدان نظرة تحذير أخيرة وقال: «إنت حر على كل حال،

بس خلي على حسك». فضربت صدري بقبضتي قائلا «أنا تمام يامعلم، ما يهمك شيء». فأشاح عني كأنه استشف عدم قدرتي اليوم بالعمل وقال مستدركا: «على كل حال يكفيك اليوم أقة واحدة. إن ضاعت فأمرها سهل». قلت في شيء من الانكسار «الله يخليك يامعلم». وبعد أن تغديت فطيرا مشلتتا مغمسا بالعسل النحل والجبن القديم وشربت شايا، ودعني الحاج وهدان بعصابة العيون، وكنت بالفعل أشعر أن الدنيا ليست هي الدنيا. إذ كل شيء قد زهره في عيني فجأة واكتسى لونا جميلا وصارت كل ملامح الناس باعثة على خواطر الضحك. تحلف اليمين بأنني كأنني مخلوق لتوي. غير أن رأسي يتثاقل علي ويخادعني، يكاد يوقعني، حتى لقد صارت أمنيتي الوحيدة في الحياة أن أرقد على ظهري وانسلخ عن الوجود وأعيش وحدي هذه اللذة الكبيرة. إلا أن الأفيونة بنت الكلب سرها باتع يابوي. ما كدت أضعها في فمي مشعطة شاي ثقيل حتى أحدثت مفعولها في الحال، وصار بإمكاني أن أنهض في طلب البضاعة والاتكال على الله.

ويظهر والله أعلم أن الحاج وهدان قد لمح الزغل في عيني على نقص روقي اليوم بتخفيض المشال إلى أقة واحدة. فإذا به بعد أن سلمني الأقة يخرج من سيالته أربعة أكياس يضيفها لي قائلا «هاك لقة أخرى، خل بالك من نفسك». فحشرت الأكياس في دكة اللباس وكسرت عليها الحزام وتصبيت وأنا أقوى. يسابل الستر أكن الصوف تصدر من قدمي ونعت طائرة السرير إلى دمعى

فذكرني بسيد الشفتوري وما حصل منه على مقهى الكلوب المصري. استحييت بالحاج جانبا وهمست له بما حصل بالأمس. فوجئت بأنه لم يطرف له جفن، بل أطبق على سبابة ذراعي قائلا في بساطة «لا يهمك منه. إنه كلب لا هنا ولا هناك! لو كلمك ثانية استغني عن علبة سجائر تسد بها حلقه! وعلى كل حال أنت محمي هنا! في حدود مركز الصف! إذا لا قدر الله قلت الحكومة عقلها وهاجمتك فإنك ستخرج من باب قسم الشرطة بعد ساعة واحدة! وتخرج البضاعة من الباب الآخر بعد ساعتين! أما خارج حدود المركز فاجعل عينيك في وسط رأسك إذ أنت مسئول عن نفسك!» فقلت «متشكر ياحاج!»، واتكلت على الله ثابت الخطوة.

قرب محطة حلوان سمعت صوتا مألوفا يناديني. تلفت مذعورا أبحث عنه! فإذا هو عم زعتر بائع الشباشب الزنوبة والأحذية المصنوعة من البلاستيك. كان سارحا في شوارع حلوان يبيع ويتسوق معا. وكان يحمل على ظهره جوالا ملآنا بالشباشب والأحذية. أهلا عم زعتر. ومشينا معا حتى المحطة. فقلت له «عنك! دعني أشيل بدلا منك!» أنزل الجوال قائلا «لا! بس ممكن تخلي بالك منه لحد ما اشتري طلب من الأجزاخانة!» قلت «أشتري لك أنا» قال «لا! أريد أن أفك فلوسا كبيرة!» ثم مضى.

وقفت بجوار الجوال ألتفت حوالي، والخاطر الوافد يكبر في دماغي ياخال. قلت فلأجرب. فانحنيت على الجوال، ونزعت الأكياس وسربتها إلى الجوال في قلب الأحذية. عم زعتر نظره

ضعيف، ويمكن أن أستغفله عند النزول. ساعدته في حمل الجوال على ظهره، وتركته يمضي قائلا إني سأشتري سجائر وألحقه، فقال إنه سيقطع لي تذكرة. جعلت أتلكأ حول أكشاك السجائر على باب المحطة مصطنعا أني مشغول بشيء سأشتريه. وحقيقة الأمر أني كنت شاعرا بالحرية بعد أن تخلصت من السجن في جوال عم زعتر. أيقظني صفير القطار من سرحتي فيممت نحو دكان اشتريت منه بضع قطع من الصابون صررتها في منديل محلاوي ووليت إلى باب المحطة. ويالهول ما رأيت ياخال. سيد الشفتوري المخبر السري واقف على باب الرصيف وحوله رهط من أهل مهنته. وثلاثة أفندية محترمون سمحو الوجوه. قلت بس! رحت في داهية! وصرت ألملم ركبي تحت الجلباب. من حسن الحظ أن أعطيتهم قفاي بسرعة قبل أن يروني، وصرت أتحكك في طابور التذاكر ممسكا بورقة الشلن حتى وصلت إلى عم زعتر قرب الشباك! ملت عليه وهمست في أذنه بسرعة أن لا يكلمني ولا يعرفني الآن لأن المباحث واقفة بباب الرصيف تنتظرني. عم زعتر سلمني التذكرة ومضى بعيدا! فظللت واقفا لبرهة حتى رأيته قد عبر البوابة. ودخل إلى الرصيف. ثم انضممت إلى آخر الطابور. ما كدت أصل إلى الحاجز الحديدي حتى تهلل وجه الضابط وانفرجت أساريره وصاح قائلا «أهلا. أهلا! أهلا! إزيك ياحسن معاك حاجة ياحسن؟ طلع اللي معاك طلع». فوجمت. قلت «ما معي أي شيء ياسعادة البيه! لا أفهم أي شيء تقصده». فنظر الضابط إلى سيد الشفتوري، فانبرى يفتشني تفتيشا قاسيا

ومهينا للكرامة بحال. ومن الآخر شوح للضابط في مرارة وخيبة أمل قائلا «ما معه شيء يا سعادة البيه» فأشاح الضابط وشوح علامة أن يفضه مني فيتركني. وفعلا تركني بحال، فمضيت أجرجر ساقي نحو القطار المتحرك، ورميت بنفسي على سلم أول عربة، متشبثا بحديدة الباب، صعدت، جعلت أمضي من عربة إلى أخرى بحثا عن عم رعتر، الذي وجدته في العربة الثالثة واقفا بجوار الباب مسندا الجوال فيما بين ساقيه وصدع الباب لم يرني بالطبع، فجاورته إلى آخر العربة عند بابها الآخر. بعد برهة قصيرة رأيتهم مقبلين يا خال، سيد وحكومته، فقلت: لابد أنهم يتتبعونني ويصرون على الإمساك بي متلبسا. فسابت ركبي، وجعلت أدفن نفسي في ركن الباب وظهر الكرسي ولكن عيني تتلصص عليهم.

المصيبة يا خال أنهم ركبوا وسط الزحام وبقوا واقفين في أماكنهم حول عم رعتر. فجاءني صوت يشبه صوت أبي يقول: انزل في المحطة القادمة! انزل في المحطة القادمة! انزل في المحطة القادمة.. ومحطات كثيرة جاءت ومضت وأنا لا أفيق من شرودي إلا والقطار يهرس لحظة استئنافه السير. وحقيقة الأمر يا نوى أن البضاعة التي دفنتها في جوال عم رعتر صعبانة علي ولابد لي من استردادها بأي شكل. وعندما جاءت محطة الملك الصالح كنت في فتحة الباب واقفا في اطمئنان في آخر عربة، وهكذا قفزت على آخر الرصيف مداريا نفسي في زحام السائرين. وجعلت أتسقط عم رعتر فلما راق الزحام رأيته واقفا على الرصيف، وسيد

الشفتورى يساعده على حمل جواله، فعند صارت أبواب القطار تغلق ببطء والعربات ترحف فوق الرصيف. أعطيتها ظهري، ووليت نحو السلم، ثم أخذت أهرول شيئا فشيئا حتى لحقت بعم رعتر، فقلت له: عنك! وحملت الجوال ومضيت بجواره مفكرا في طريقة أسترد بها بضاعتي دون أن يلحظ هو أنني كنت أضع به السجن في جواله. إنه لحسن الحظ يعرف أنني شريب للحشيش، قابلني عشرات المرات في غرز مصر عتيقة والفسطاط وأثر النبي؛ فهو الآخر حشاش بريمو ولو فتشته في أي لحظة فلابد أن تجد معه حشيشا لشربه. ومن أعلى نوع أنا نفسي كثيرا ما أرضى بشرب حشيش كالجبة تمشيا مع الظروف والأحوال. أما هو فإن لم يتوفر له الزيت أو الهبو ذو الثمن المرتفع فإنه يبطل الشرب حتى تتيسر الأحوال، لكنه دائما أبدا يشيل في لفائف عمامته الصراوية أكثر من قطعة جيدة من باب الله فركها إلى أن يهديها لصاحب نصيبها.

وجدتني أقول له «معك حجران يا عم رعتر؟» قال بشهامة «معي لكن لن يعجبك». قلت في منتهى السعادة: «أنا أبغي قطعة أعلى حشيش بريمو؛ عمرك ما شربته»، وكان قد توقف وراح ينظر لي في اندهاش رافعا حاجبيه، فأردفت: «إذهب فاشتر لنا ورقتين معسل قص! وسوف أعشيك لحما وفراخا مشوية؛ فأنا تفاءلت بك اليوم». تردد عم رعتر قليلا «ولكن يدي استريح عليها بعد مشوار اليوم»، دفعته بيدي قائلا بإغراء: «استرح عندي لو شئت». الرجل لم يكذب خبرا. تركني وانطلق يهرول نحو دكان

على الرصيف المقابل. أما أنا فانزويت بجوار سور حديقة المستشفى وأنزلت الجوال وانتزعت منه بضاعتي فحشرتها في ثيابي كما كانت. ووقفت أنتظر عم زعتر. وفيما كان مقبلا من بعيد يتطوح مع الريح ممسكا بباكو الدخان المعسل، تذكرت أن ورائي موعدا ضروريا مع زعتر آخر هو زعتر أبو كرش تاجر الحشيش في حي فاطمة النبوية. وقلت: ما من المشوار من بد؛ فالبضاعة لابد أن تبيت في بيت صاحبها.

الله وكيل يابوي، وهو صحي على الدوام؛ إلا وعربة الأجرة قادمة تقف أمامي لتنزل منها راكبة عجوز، فهتفت بالسائق قائلا «النبوية يااسطى؟» قال في تأفف «اركب!» وكان عم زعتر قد اقترب، فصحت به وأنا أفتح الباب «اركب ياعم زعتر». ثم قذفت بالجوال. قال زعتر في دهشة كبيرة «على فين ياجدع؟» قلت «اركب بس!» ودفعته برفق فركب كالأهبل في الرمة.

نزلنا على باب العمارة بالضبط، فأنزلت الجوال وحاسبت السائق واندفعت أهرول في العمارة نحو ضريح النبوية، حيث كان التاجر الكبير ـ وهو بعد في ريعان الشباب ـ ينتظرني أمام عمارتيه الكبيرتين المجاورتين للضريح مباشرة.

ما إن رآني حتى تهلل وجهه الأحمر المستدير المورد، وفرد صدره منتفخا تحت القميص الأبيض المستورد المنسق على جسمه، سلم علي في حذر، وعيناه تمسحان المكان من كل ناحية، ثم إنه تقدمني داخل الجاراج في مدروم يحجم العمارتين، حيث

توجد حجرة مخفية في الداخل، فتحها وأشار لي أن أفرغ البضاعة، فأفرغتها على كرسي، ولما اطمأن إلى عددها أمسك بعض الأكياس وفتقها وغرز أسنانه في الحشيش ثم انتزع بضعة قطعة ودلس بمشط قدمه على بلاطة تحت مكتب زيدبال في ركن الحجرة، فإذا ببلاطة يضمهم أربع بلاطات ترتفع عن الأرض ليظهر من تحتها فراغ مظلم عميق، دلق الأكياس فيها وترك البلاطة تهوى إلى وضعها من جديد وأزاح المكتب فوقها. وحين استدار ووجهه لي انزعج وكاد يفتح كرشي بسكين، لكنه ابتسم ابتسامة وخبط جبهته بكفه في مرح وتقدمني حتى باب الجراج المطل على الشارع صفق بيديه، فجاءه البواب يجري أمره أن يجيء بالكراسي ويشعل النار ويغير ماء الجوزة ففعل البواب كل ذلك فيما لا يزيد عن خمس دقائق، كل ذلك وعم زعتر واقف ينتظر على باب ضريح النبوية، وجاءه زعتر أبو كرش وهمس في أذني قائلا «الراجل اللي هناك ده مين معاك؟» قلت «نعم! إنه صديقي وقد صحبني وجوده! وهو لا يعرف أي شيء عن أي شيء»، فهز رأسه وبعث البواب يناديه فيما جاء قال له زعتر أبو كرش إنني ملدياته وقادم له برسالة من البلد ولابد أن يكرمني

جلس البواب أمامنا على الأرض يرص الحجارة. وزعتر أبو كرش يرقعها بالحشيش الربمو، هات ولد نظيف الظهر، فناداه زعتر وأمره أن يسوي لنا ثلاثة كيلو كباب ضاني. كانت عصرية لا تنسى ياحال، جديرة بأن تكون احتفالا بآخر نقلة أحملها في حياتي

السادسة ـ الفخ الجهنمي

شهور طويلة يابوي أمضيتها بدون عمل. لكن الغني والحمد لله ملآنة بالخير، مما تبقى معي من مال يكفيني لشهور أخرى مقبلة. وهليل موجود في الصعيد لو أرسلت إليه لن يتأخر في الرد. غير أنني صممت على أن أترك هليل في حاله كأن ليس لي عنده شيء. تركتها على جناب الله يفعل بي ما شاء.

كنت قد صرت رجلا محترما يتقمش بالقماش الشمي ككبير المعلمين. لبدتي تحولت إلى عمامة شال حريري حول طاقية رقيقة عالية الثمن. ومن سيدنا الحسين اشتريت عصا بعوجاية عليها القيمة. بات شكلي يليق بدخول هذه العمارة وصعود سلمها مع سكانها من البكوات [illegible] وأهل الرتب والنياشين.

صدقني يا حال أن السكن المريح وما يتوفر فيه من وسائل الراحة كفيل بتغيير الإنسان إلى الزين. ما أحلى الاستحمام تحت الدش راقدا في الحوض الرخامي تسبح في رغاوي الصابون الزكي الرائحة، وأن تقوم فترتدي الكشمير والجوخ واللاسات الحرير والحذاء لاستك. وتنزل رائقا متكلا على الله. لابد أن

يفتحها الله في وجهك يا حال. لقد أعطاني ـ سبحانه ـ مرآة في الدولاب أنظر فيها فأرى شخصا آخر يكاد ينافس هليل في النظافة والوجاهة، ولقد حلفت برأس أبي لأبقين على هذه الهيئة ما حييت. ولم أخلعها أبدا مهما كانت الظروف والأحوال. إن خلع الأبهة صعب يا حال على من ارتداها ولو بالصدفة، في سبيل استمرارها سأشقى ولتتهد الدنيا بعد ذلك مثلما يعيش كل المعلمين سأعيش بهذه الهيئة والله لن يكسفني.

وذات ليلة كنت نازلا على السلم مرتديا أبهتي على سنجة عشرة، فإذا برقبة بسبوسة تظهر من أسفل الدرج في حنية السلم. ثم اتسعت رقبته بقفاه. ثم ما لبث أن وجهني بكامله صاعدا، مرتديا جلبابا من السكروتة السمني يهفهف حول جسده المرعد، الذي بدا مجلوا كأنه صنفره بالصنفرة، والعطر يتضوع معه، حتى لقد حسدته وبت النية في السؤال عن اسم هذا العطر وطراته. اللعوب لم يعرفني من أول نظرة. لكن الشك المروع أوقفه على البسطة في مواجهتي، يحيطني بنظراته من فوق لتحت ومن كل ناحية يكاد يفترسني. لولا أنني لكزته في كتفه صائحا: [illegible] [illegible] مقوسا ظهره كالأنثى اللعوب، ثم رمى [illegible] بصوته [illegible] وأنت فين يا [illegible] حوتا مدكوكا باللحم العضلي، [illegible] عنكم [illegible] [illegible] أنت مقبوض عليك!

انسعت وراءه بدافع خفي دون مقاومة. لكنه توقف ناظرا في عيني بإمعان كأنه يتعرف على شخص جديد لم يره من قبل فكرته ثاب ليعيق، فإذا هو يرسم على وجهه تعبير من لا مفر أمامه من الاعتراف بشخصيتي الجديدة. ويقول: «صبرك ياعم! شقة سقع!!» قلت والبسمة ترتعش على شفتي، من التشاؤم أم من الراحة لأنه عرف لا أدري: «وإيش عرفك يابو فحم؟» فتراجع بعنقه وفي عينيه نظرة خبيثة ماكرة ورام: «أي. ي ي!» ورنت في أذني أصداء عبارة «عليّ أنا الكلام ده؟!» ثم إنه سحبني من جديد قائلا: «تعال فرجني» انسعت وراءه قائلا لنفسي: لعلها فرصة للكلام في الموضوع وسبقته لأفتح الباب.

بسم الله الرحمن الرحيم. هكذا بسمل وهو يدلف داخلا، مشمرا ذراعيه كأنه سيذبح خروفا. تقدم نحو الكراسي التي تم تنجيدها وفرشها ودفعها تقول أنا طالعة بشوركي من عند البياع صاح بلهجة مفضوحة ذات مغزى خبيث: «ما شاء الله! ما شاء الله!» ثم جلس وفي عينيه بريق يكاد ينطق قائلا: «عاوزين حقنا! حلاوة هذه الصيدة السقع!» لكنه لم يقل هذا، بل قال «يابن الكا ا ا لب!» ثم أردف قائلا كأنه يعرف كل شيء عن الموضوع: «دفعت فيهم كم؟» قلت: «بالبركة! صاحبها أصله قريبي!» وقد تساءل معي. ظهر عليه أنه غير مصدق يابوي، قال: «المعلم شندويلي بيبيع أمه لقاء قرش تعريفه! فبكم باعها لك؟» قلت: «والصلاة على النبي! هو يبيع أمه أي نعم! لكنه لا يبيعني! أنا

واثق» هز رأسه وبدنه في حيرة: «لا تفكر على. ما قصدت سوى مصلحتك! صدقني! لا تحتر في البيعات والكلام الصعيدي الفاضي بتاعكم! المعلم الشندويلي هنا شخص آخر»

أحسست أنه يتكلم بثقة شديدة، لكنني مع ذلك بقيت مفتوحا يابوي إنه ولد عفريت يابوي، ومثلي لا يروح ولا يجيء معه. قلت بلهجة عائمة: «مجور! مجور!» ظهر بحال كأنه انشغل في موضوع عميق، وظهر عليه الهم والكدر مال نحوي فسقت منه نظرة إشفاق أحسست بصدقها بحال. لبرهة خاطفة يابوي برقت عين بسبوسة وطلع منها ملاك الطاهر مجسدا على ملامح وجهه، ثم قال كأنه يستثمر ابنه في هدوء وروية، وبصوت خافت كمن يخشى أن تسمعه أذن الجيران: «كتب لك عقدا؟» ترددت برهة قصيرة ووجدتني أقول: «الكذب خيبة! بصراحة لم يكتب عقدا» شوح بيديه كالمستاء مولولا: «فأخذ منه إيصالا بالإيجار كل شهر؟» قلت: «ماحصل» فإذا به يسحب شخرة رنانة فاجرة ارتعش صوتها والله يابوي. ثم جعل يأتي بحركة لتبيسه في الهواء القاتم لأعلى قائلا: «في حقد محمد دي! تعمل نفسك مفتحا ويرمحيا وأنت أعلى من القلب» ثم إنه أشعل سيجارة ورمى بعلبته نحوي واعتدل نافثا الدخان في مدة دقيقة وقال:

- «شف يابيقف! هذه العمارة لها قصة. ربها في الأصل موضوعة تحت الحراسة! صاحبها رجل سيء الحظ بعدك سمعت به وباعوه الحاج إيبال زلطة! أشهر ورش ومحلات الأحذية في

العتبة الخضراء ووسط البلد ومصر الجديدة وفروع الأقاليم مثل بنها! عمك إسماعيل رابطة كان متعمشقا في الفن وأهله، فاشترى قطعة أرض في الفراسة وبنى فوقها دار سينما تعرض أفلام الدرجة الأولى، وعشق راقصة فاتنة كالقمر كالرغيف الطازج الصابح، وابتنى هذه العمارة التي نحن فيها الآن على النيل مصر عتيقة ليعطي الراقصة شقة فيها بالمجان، تكون حرة وميرة خاصة به!! يكفيك الله شر النحس إذا احتال على رجل سعيد الحظ من الأساس، أوسخ نحس في الدنيا هو الذي يجيء لرجل سعيد الحظ من يومه، صاحبنا هجر أولاده القدامى وأقام نهائيا في شقة الراقصة!! أولاده ثاروا ضده لكنهم كتموا في نفوسهم، الراقصة فرحت به لكنها - به - ضاقت، إذ هي تريد أن تعيش على حريتها، من سوء حظه وربما حظها أيضا عشقها ضابط كبير، وقد يفتعل السفر له ولها ليلتقي بها منفردين في أماكن بعيدة من الكرة الأرضية في غابات أفريقيا وجبال سويسرا ولبنان، وفي النهاية جن وأقدم في شقتها!! في ليلة جاء صاحبنا ومد المفتاح في ثقب الباب فطلع له من جوف الظلام أشباح عتية كتفته وكممته وألبسته قميص الأكتاف!! سيق إلى مستشفى المجانين لا من شاف ولا من درى!! اندهل أولاده وما أفاقوا من بعدها حتى اليوم ومعظم الظن أنهم لن يفيقوا!! فكلما هدأت الدوخة جاءتهم صدمة أخرى من حيث لا يتوقعون تفقدهم عقلهم، فوجئ الساكنون - وبالعجب - أن المستشفى مدخر لهم أوراقا بإمضاءاتهم تحار بالشكوى من جنون أبيهم!! ملف كبير من الأوراق تحكي قصته

وقصتهم معا من طقطق لسلامو عليكم كل ورقة أنكح من أختها! هب، فوجئوا أن أموال أبيهم موضوعة كلها تحت الحراسة! وقد تعين هذا الضابط نفسه حارسا عليها، الحاج رابطة رحمه الله مات في المستشفى، وحل محله - في نفس الحجرة في المستشفى ابنه الأكبر الذي كان زينة الرجال، ومنذ سنين طويلة وهو مقيم فيها لا أمل في شفائه، وأما الابن الثاني فقد شم رائحة الاعتقال في البلاد فصفى كل علاقاته واتكل على الله هاربا إلى بلاد بره وكان للرجل ابن ثالث غاية في الصلاح فلفقوا عليه صنف الإخوان المسلمين فسجنوه وعذبوه حتى مات، وقال طبيب السجن إنه كان مريضا بالقلب!!..

ولم يبق من ذرية الرجل سوى بنتين متزوجتين من تاجرين كبيرين كانا من صبيان أبيهما في الورشة، لا تفتح فمك هكذا كالعبيط فمسلسل الذهول لم ينته بعد، لقد أبرزت الراقصة عقد زواج شرعي مسجل وعليه شهود موثوق منهم ثم أبرزت عقدا آخر عليه شهود.

كذلك يمضي على أن الحاج إسماعيل رابطة قد منحها هذه العمارة في تاريخ معاصر لعقد الزواج وظل محاميها يرمح شمالا ويمينا حتى فك العمارة وحدها من الحراسة وجاء لها السمسار بالمعلم شندويلي الذي لم يستغرق من عيونها الساحرة سوى نظرتين ومن جسمها اللهلوب سوى هزتين وحكتين عفويتين! فسدب كالوطل واشترى العمارة بمبلغ كبير دفعه على داير مليم وكان

الضابط قد غضبت عليه الثورة وطردته من حمايتها وحرمته من نعيمها فأخذ الراقصة وسافر إلى بلاد بره" وبعدها بشهور طويلة عثروا عليه مقتولا في شقة في بيروت مذبوحا ذبح النعاج ومحفور جثته مليون جنيه إسترليني" وأما الراقصة فقد اختفت من الوجود تماما، وقيل إنها بيعت كجارية لمليونير سعودي له علاقات واسعة النطاق بجهات دولية عليا وكلها علاقات مشبوهة.. لحد هنا زين؟"

«يرجع مرجوعنا للمعلم شندويلي؛ لقد ذهب يسجل عقد بيع العمارة في الشهر العقاري ففوجئ بأن العمارة لم ترفع عنها الحراسة تماما، كل ما هنالك أن المحكمة صرحت للمدعية بتحصيل إيجارات شقق العمارة كمصدر ترتزق منه، من تاريخ رفع الدعوى إلى أن يبت في مسألة رفع الحراسة كلية عن أملاك المرحوم؛ الراقصة إياها - ربنا يعطيها الصحة - باعت شقتها للماشطة التي كانت تشتغل عندها، وهي الأخرى راقصة قديمة ولكن في شارع الهرم، وهي الأخرى - أيضا - رفيقة ضابط آخر لكنه أصغر بكثير جدا - في كل شيء - من سابقه، ليس فيه نساء إنما يحب الوظاويظ الصغيرة يلهو بها حتى يستريح لدقائق ويصبح آخر فن، وهي تعرف هذا وتملأ الشقة معهن، وعلى حسه تقيم في الشقة أوزعانة، لا أنت ولا أنا ولا أجدعها جدعان هنا يقدر على فتح فمه بكلمة، إن الخوف كل الخوف دائما يأتي من صغار الضباط، عمك المعلم شندويلي بسلامته أراد أن

يأخذ حقه حلقا! فكر أن يبويه - على الأقل - من اللقمة بحسه؛ بصراحة طمع في هذه الأرتيست الساكنة قصاده على أن الشقة مفتوحة على البحري لكل من هب ودب وربما كان يستطيع أن يلهط الشقة كلها باعتباره صاحب العمارة لكنه أخطأ في الدخلة الخشنة الغلسة؛ جاءها من باب التهديد؛ قال جراءة؛ اتضرب علقة ساخنة لحس فيها تراب هذا السلم درجة درجة وكان سيضرب في كل يوم علقة مثلها لو لم يأخذها من قصيره ويرحل تارك العمارة بمن فيها، لكنه قبل أن يرحل بعث بتهديدات في السر خائبة، من قبيل أنه سيضرب بيتهم جميعا وسيقصف عمر كل من اعتدى عليه، وها هو ذا يريد أن يورطك في هذه الورطة يا صعيدي يا قحف" اسمع كلامي يا صاحبي لو كنت جئت إلى هذه الشقة قاصدا كذا أو كذا فإن نقيك على شونة، ولن تخسر إلا نفسك! ويكون المعلم شندويلي قد نهب مالك وحياتك ما بك دفعت أموالك التي شقيت بها في النار، وما بك خسرت الجلد والسقط وطلعت من العملية كلها ملطوطي" صدقني لولا العيش والملح الذي بيننا ما صرحت لك بشيء من هذا الكلام!»

الدنيا لفت بي يا بوي، تحلف اليمين بأني لو رأيت المعلم شندويلي لحظتها لمزقت لحمه ورميته للكلاب. المعلم شندويلي يفعل بي هكذا؟ كيف يا بوي؟ إنني أشعر الآن بصدق سبوسة. فليس من المعقول أن المعلم شندويلي يتنازل لي عن شقة كهذه بهذه السهولة

خدعني أبي يابوي، صور لي الحكاية على أنها مجرد مضايقة بضعة نسوان وضربهم علقة أو علقتين أما أن تكون المسألة كما أوضح لي سيبوسة فإنني لا أستطيع الدخول في حرب مع الدولة يابوي

ويظهر أن سيبوسة رأى الغضب مضرما في وجهي وعروقي، فجعل يهدئ من روعي قائلا

- «اهدأ ياصاحبي. فالأمر محتاج لبعض الحكمة، فأولا احذر أن يعرف المعلم شدويلي أنك عرفت أي شيء مما قلته لك الآن، كن عبيط كما أنت وعلى نياتك».

قلت في غضب «وماذا يفيد الهدوء؟». قال في بسمة ساخرة «ألم يعطك المعلم شدويلي أي ورقة؟». قلت «لا». قال «إذن فهذه هي مهمتنا: علينا أن نأخذ منه ولو إيصال بإيجار آخر شهر». قلت «إنه لن يكتب لي أي ورقة، بكل صراحة ياسيبوسة، إلا إذا عملت له شغبا في العمارة وعاركت ناسا وعورتهم». لمعت في عينيه براكين مخيفة، سرعان ما انفجرت في ضحكة عالية لا أعرف إن كانت سخرية أم عطفا على محسوبك. ثم قال «ألم أقل لك؟! عيب ياجدع أنا سيبوسة والأجر على الله». ثم رمى لي سيجارة وأشعل لنفسه واحدة «سأساعدك وآكل من بيتك، حتى لا تستدل مني بعد الآن، وعلى كل حال الذي عندك أحسن من الذي عند شدويلي! على الأقل أنت يمكن أن يقصدك أو يقصد شقتك في طلب مظلمة».

ثم انتظر برهة معلقا عينيه في عيني كأنه ينتظر موافقتي على هذه الإشارة الأخيرة، لكنه أردف

- «سوف أذهب من ورائك إلى المعلم شدويلي وأخبره أنك عملت مصيبة سوداء في الشقة وأنك عورت وبطحت وذهبت إلى قسم الشرطة مقبوضا عليك. وبعدها بأيام تذهب أنت إليه مبهدلا مضروبا وتكلمه في أمر الورقة».

قلت «والله رجل ياسيبوسة، ولكن هل الورقة التي تقول عليها تكفي؟».

قال ضاحكا «ستثبت أنه أجر لك الشقة، وأنت بحكم وضع اليد تظل مالكا للشقة لحين البت فيها، وسواء آلت ملكيتها لشدويلي أو عادت لوريثها المقيم الآن في بلاد بره فلن أحدا لن يستطيع طردك منها، وعلى فكرة، جيرانك هؤلاء هم الأبقى لك ولما تعيش معهم وتعاشرهم ستحبهم ويحبوك. مصيرك تعرف».

ثم غمزني بسيجارة غمزة فهمت منها أنها محشوة بالحشيش وأردف ضاحكا في مرح كبير «لكن قل لي! أكنت تتصور أنك فعلا تستطيع الانتقام له ممن يسميهن بالمومس؟».

ضحكت رغما عني، تحلف اليمين يابوي أنني سمعت في ضحكتي صوت ضآلتي، وقلت «أنا ضحكت عليه فيما حتى آخذ الشقة». فقال برنة لم أسترح لها: «مالك من رجل طيب!». ثم جذب نفسا عميقا من السيجارة، واختفى بريق عينيه لبرهة سوية

في سحب من ضباب الدخان الأزرق المنبعث من منخريه، وقال «تدفع كم لو أنا خصصت لك هذه الشقة تخليصا نهائيا؟ لو جئت لك بعقد إيجار وإيصال بآخر شهر، ولنصرف النظر عن المبلغ الذي دفعته له من قبل، ويكون العقد من أول وجديد من تاريخ كتابته؟».

فتحت فمي مذهولا «تقدر يابسبوسة؟». قال بكل بساطة «هذه مصلحتي، تدفع كم قلت لي؟ أنا شخصيا من مصلحتي أن تكون أنت بالذات ساكن هذه الشقة». فكرت لبرهة طويلة فلم أهتد إلى تقدير المبلغ الذي يدفع. فقلت له «برقبتي لك يابسبوسة، تريد كم؟». قال «يكفيني خمسمائة فقط، في مقابلها أسلمك عقد إيجار قانوني سليم لا تخر منه المياه، وإيصال بآخر شهر». قلت في الحال «والله ما أنزل عن كلامك يابسبوسة، حلال عليك». قال وهو يناولني سيجارة أخرى محشوة ثم يشعلها لي «عليك إذن أن تختفي من هذه الناحية لمدة عشرين يوما على الأقل، تعود بعدها مبهدلا فتجدني قد جعلت لك الأمور السهلة». قلت وأنا أعيد له السيجارة «من غد أغلق شقتي وأختفي شهرا شهرين لو أحببت». سحب السيجارة وهو ينهض قائلا «اتفقنا. والآن سأخلص منك رغم عني، فورائي سهرة عند صحاب لي هنا، سوف أعرفك عليهم في وقت قريب». ولكزني في كتفي واتجه إلى الباب. فاتجهت وراءه وخرجنا. نزلت أنا واستدار هو نحو الشقة المقابلة لشقتي، والتي لم أكن حتى الآن قد احتككت بأحد من زوارها

السابعة: مغامرة عرب الحصار

لما فكرت طويلا يابوي، تراءى لي أن مكانا وحيدا هو الذي يمكن أن يحجبني عن الأنظار وفي نفس الوقت يمكن أن أرزق منه. ذلك هو منطقة عرب الحصار. وقلت لنفسي إن الحاج رضوان فيه البركة، وأنا خدمته بكل أمانة. ولم يحصل من جهتي أي شيء يجلب الشك فيّ. قل إني أخذت بعضي واتكلت على الله على بلدة الودي ومنها إلى نجع صغير قائم في قلب الصحراء.

مجموعة من الدور تجمعها دار واحدة على مساحة كبيرة تساوي عشرة أفدنة أو أكثر يابوي. دار يلف حولها المرء راكبا جوادًا. لها باب واحد كبير ببوابة حديدية مثبتة في حجرة كبيرة مرممة فيها مصاطب وكنب مثل مسجد. ولقد يظل امرؤ جالس في هذه الحجرة زمنا طويلا وهو يظن أن هذه هي الدار، لكنه حين يألفها سيتبين له باب جانبي في نهاية الجدار. إن دخله وجد نفسه في حجرة أخرى لها باب مختفٍ على هيئة ممر بين جدارين متظاهرين يبدو من بعيد كأنه انكسار في الجدار. لو مشى في هذا الممر فبعد مشي طويل يبدأ الرهق يعتريه خوف من ضيق القبر الذي ينتظرنا في النهاية. ولو أن أحدا واجهك مقبلا في هذا الممر

فلابد أن يستدير أحدكما عائدا ليواصل الآخر سيره. ولربما حاولت الاستدارة فيمنعك عرض أكتافك. طوّل بالك وامض. فإنك في النهاية آيب إلى مساء من الضوء. وسرعان ما يقبل عليك فناء شاسع جدا كأنه الجرن وهو كذلك. تطل عليه قرانيات وشرفات بأعمدة: غرف وقاعات تشبه القصور الزاهرة التي يقولون عليها في الكتب. يسكنها ولد الحاج وهدان وولد إخوته وأخواته. ولن ضحكتك لابد أن يطلق ياحاج إذا تذكرت وأنت بين هذه القصور أن منظرها من الخارج نجع مبني بالطين المخلوط بالتبن، إذ إن خلف هذه القصور والسرايات غرف مبنية بالطين المخلوط بالتبن، يسكنها الفقراء والحراس وعيالهم ودوابهم. وهم لابد أن يكونوا عبيدا لهذه العائلة منذ أزمنة بعيدة حتى يأمن لهم القوم مع أنهم مع ذلك لا يأمنون أحدا مهما أظهروا الثقة فيه. ولولا أن الحاج وهدان عرفني وعرف حدودي جيدا ما تركني أجيء إلى النجع أبدا. ولاكتفى بمقابلتي في دواره في البلدة وهو الآخر دوار معزول مأمون الجوانب. من يرى الدوار يظن أن الحياة قائمة فاهما ليل نهار، في حين أن العائلة تعيش حياتها في النجع ومصاريها كلها في النجع، أما الدوار فلاستقبال الضيوف والرباش والحكومة فحسب.

كان الله قد أكرمني فلحقت بالحاج وهدان في الدوار في البلدة. أهلا يابو علي. أهلا بالحاج.. فينك ياولد. حكيت له ما كان قد حدث لي في محطة حلوان. فضحك حتى احمر وجهه مثل القوطاية. ومسح شواربه الكبيرة قائلا «لا والله تصرفت زين!

براوه عليك!». ثم ميّل رأسه نحو باب جانبي وصاح «الغدا ياولد بسرعة!». وعدل رأسه نحوي قائلا «أنا في الخدمة على كل حال!» قلت «نشكر ياحاج أنا الذي في الخدمة» ومن أجل ذلك جئت!» فشوح بكفه الثمينة المليئة بالشعر وقال «نتغدى ويحلها الحلال!»

استدارت الطبلية الكبيرة أمامنا واستقرت فوقها الصينية النحاسية العريضة. عليها طبق من الصيني على هيئة قارب كبير مملوء لنصفه بالأرز المعمر بالضأن، تراشحته مهرجان صاحب فاصح، وطبق آخر أكبر منه عليه الديك الرومي المكتف تحف به أفراخ الحمام المقلية في السمن. ناهيك عن سلطانية الشوربة المفعمة بالتقلية، وأطباق السلاطة الخضراء ترتص فوقها أصناف الليمون البنزهير المعثر

كُل يابو العم. هكذا أوحى لي الحاج وهدان وهو يشمر كميه وينقض على اللحوم تفسيخا ورميا في اتجاه ملعقتي، التي راحت تنتهك جمال الأرز وهضاب اللحم، حتى تسمرت في مطرحي من التخمة. ثم رفع ذلك وجيء بالبرتقال والسح الصيامي والجوافة البلدي، وكله من جناين الحاج التي تحف بالدوار إلى ما لا نهاية ثم. ثم جيء ببراد الشاي الثقيل صارت معجنة يابوي. بعد ذلك بضّا السجائر الملكي، ونظر الحاج وهدان في ساعة جيبه الذهبية ذات الكتينة المربوطة في عروة الصديري ثم نهض واقفا وأقام الصلاة فعرفت أنه يصلي العصر، وأنه يستبطئه ويستخير الله ويستفتي قلبه فيما إذا كان وراء قدومي المفاجيء من أسرار خفية

يدعو الله أن يكشف له أو ينير بصيرته في الخلاص منها. صلى على مهل شديد وفي تؤدة كأنه يقرأ القرآن كله في ركعتين اثنتين وبعد التسليم أمضى وقتا طويلا في تسبيح وتهجد. أخيرا صاح منادياً «ياولد!»، ومسح على وجهه بكفيه كأن كلمة ياولد كانت من كلمات الختم.

دخل عبد حبشي لونه كالفحم المحروق وليس له ملامح على الإطلاق سوى عينين ككرتين من الضوء تدوران في كل اتجاه بسرعة مدهشة. وقف أمام سيده خاشعا. أخرج الحاج وهدان سبحته ونظر فيها مرة أخرى وقال للعبد مشيرا نحوي بيده «خذ هذا الرجل وديه المجنح». ونظر نحوي رامقا كأنه يستحثني فقمت واقفا في الحال دون أن أسأل عما سأفعله أو سيفعل بي في المجنح. سلمت على الحاج وهدان وشكرته ثم تبعت العبد كظل له. مضى بي في دهليز طويل حتى وصلنا إلى الزريبة الكبيرة، فوجدنا على بابها عبدا آخر في حوالي الخمسين من عمره لكن لوجهه ملامح وتجاعيد. قال له العبد الشاب «هيك الرجل يروح المجنح! عشان سيدك».

وجه العبد الكبير سمح بابوي، وباسم العينين، والطيبة تتدفق منهما وتسيل على جنبيه غير أنها طيبة شقية رائعة الشقاوة. نظر في وجهي قائلا «تعرف تركب الخيل؟» قلت: «نص! نص!». مع أنني لم أكن من ركاب الخيل بالمرة. قال بنفس الطيبة الشقية «تتعلم غصبا عنك! حتى لو لم تكن ركبت ستركب! على كل حال سأعطيك مهرا هادئ الطبع! هاك هو!»، وأشار داخل الزريبة إلى

مهر مهيب أبلق جميل الشكل، يقف بين عشرات من الجياد العربية الأصيلة منظرها مرعب بحال. أول ما وقع بصري عليها رأيت الحروب الصليبية في فيلم صلاح الدين الذي رأيته مرة في سينما الكواكب بصحبة حمدي وبربش، وخيل لي أن الفرسان الذين احتلوها قد هجعوا الآن في مكان ما، يستريحون بعدما ضمنوا الأمان. ولما عدلت وقفتي رأيت صف الجياد المربوطة أمام المذاود يمتد على مشارف البصر، ليبدأ صف طويل من الحمير والأبقار والجاموس في مقابلها حظيرة موارية عرفت من منظرها ومن رائحتها أنها مراح للأغنام التي ترعى قطعانها الآن في الحقول.

قال العبد المسن الذي عرفت أن اسمه سعدون: «ادخل وخذ المهر! واحذر أن يرفسك وإلا كنت أبخل منه! تعلم من الآن أن تفعل بنفسك ما تريده وما يطلب منك! كل إنسان هنا على ركبة جمعه يعني أنت مسئول عن نفسك! وعلى كل حال تعال ورائي وانظر كيف أفك الجواد من مربطه وكيف أسوسه حتى يستكن ويدخل في طوعي». وكنا قد صرنا بجوار أبلق. فجعل يفك الجواد بصنعة وحرفنة، ويطبطب على ظهره كما يفعل المحب العاشق لمحبوبه. ثم إنه سحبه ومضى. فجعلت أفعل مثلما فعل، وأغدق على البغل من الحنان ما كنت في حاجة إليه من غيري. ولم أكن أعرف أن البغل غير الجواد لا تفت في عضده مثل هذه العواطف الكاذبة الجيشان. إلا أنه مضى ورائي في طواعية مدهشة.

تبعت العبد وجواده حتى خرجنا من الباب الخلفي للدوار، فإذا بنا على الطريق المتاخم للصحراء. وحينئذ توقف العبد برهة ثم

قفز معتليًا ظهر الجواد، وكان لابد أن أفعل مثله. على ما رأيت يا خال أني فعلت مثله بالضبط كأني من ركاب الخيل الأصلاء؟!

كان جواد العبد يمضي متبخترًا في سيره، وكنت بالفعل أمشي خلفه. ولم يكن في الكون كله سوى الرمال على الجانبين، والشمس في السماء، ووقع الحوافر. وقد طال بنا المسير يا خال حتى احمر وجه الشمس واحترق واسود الأفق شيئًا فشيئًا، صرنا نحن والرمال بقايا رعب تحت صخرة هائلة من الفحم لا نهاية مستديرة لونها. وعند طلوع الفجر لاح النجع من البعيد كوشم على ظاهر الأفق. ثم صار يتسع ويتسع حتى صرنا قطرة صغيرة في بحره. كنا نطل على جدران صماء، لا شبابيك فيها ولا أبواب لكنا حين توقفنا عند جدار معين تبين لي فراغ غير مرئي على البعد، بين جدارين متجاورين يبدوان على البعد متلاصقين. خضنا في الفراغ بين الجدارين وسرنا مسافة أمتار، لنجد بابًا خشبيًا كبيرًا مغلقًا. ما اقترب وقع حوافر الجواد منه حتى وورب من تلقاء نفسه وأطل منه وجه عبد كالبطيخة الممس، وقال «خيرًا ياسعدون؟» فقال العبد «خذ هذا الرجل ضمه إلى الجمال». وأشار لي مشوحًا كأنه يدفعني للدخول. فلما فتح الباب تمامًا ترجلت ساحبًا البغل إلى الداخل، ومن ورائي العبد بجواده.

فناء الدار واسع تطل عليه بعض الغرف، وحيطان السرايات ملونة تبدو من خلفها متخفية تحت فروع الأشجار وأحمال القش والحطب. جاء صاحب الدار فاقتاد البغل والجواد إلى زريبة

صغيرة. قال العبد سعدون «صبح نهما طعامًا يامهران». قال صاحب الدار «خير ربنا كثير». وأغلق عليهما باب الزريبة واختفى قليلًا من الوقت، فيما جلسنا على مصطبة في الفناء. عاد مهران فجلس معنا مرحبًا، وسرعان ما تصاعد الدخان من فرن الدار. بعدها بقليل امتدت الطبلية أمامي وعليها الفطير الدرة ساخن ونايح والقشدة الساخنة تطشطش فوق حدوده الوردية. ما كل هذا العز يابوي؟ كُل يابو العم واغمس الفطير المدهون بالقشدة الساخنة بقشدة صايحة وعسل نحل وجبن قريش. وبعد شرب الشاي نهض سعدون واقفًا فطلب الجواد والبغل، سحبهما وخرج. فامتطى الجواد واحتفظ بمقود البغل في يسراه وأمسك مقود الجواد بيمناه ومضى ساحبًا البغل خلفه. فلما اختفى منظره في البعد مال مهران نحوي قائلًا «جئت في وقتك! اتبعني».

فتبعته فمضى مسافة كبيرة حول النجع، ثم دخل في فراغ آخر كالذي دخلنا منه قبلًا. دخلت وراءه يا خال، فإذا بنا في مواجهة باب كبير مفتوح عن آخره، وقد وقف أمامه وبداخله عشرات من الرجال الأشداء الصلاب، على رءوسهم العمامة الجيراوية المعكشة خفيفة اللم. إن هي إلا برهة قصيرة صار الرجال بعدها يخرجون راكبين الجمال. غاب مهران في الداخل قليلًا، وعاد ساحبًا جملًا، عالجه حتى برك على الأرض. قال: اركب. ركبت وأنهضت الجمل فنهض، ومهران يتأملني جيدًا ليرى ماذا سيحدث لي حين ينهض الجمل رافعًا خلفيته. فما اطمأن إلى أني ركيب جمال طبطب على الجمل قائلًا بالسلامة. فتبعت الرجال

صرنا كقفول صالة في قلب الصحراء. لا فرق بين لوننا جميعا ولون الصحراء المترامية بغير حدود يابوى ما أوسع ملك الله حقا يا حاج. يتقدمنا دليلان محترمان يركبان بغلين فارهين وما على الجمال إلا أن تتسرب خلفهما خطوة بخطوة وإلا غاصت أقدامها في الرمال. كانت الشمس كالبيضة المقلوسة يسيل صفارها من قرص عسلي متجمد في جانب من السماء. أخذ الصفار يبيض ويبيض والقرص يصير في لون الرغيف الطالع من الفرن. يواجهنا تارة ويجانبنا تارة أخرى ويقف فوق رءوسنا تارة ثالثة ثم يسقط خلف ظهورنا. والعرق يتصبب منا غزيرا على أكتاف الجمال. إلى أن لاح لنا في الأفق البعيد كتل من الظل الرمادي كصخور ثابتة في قلب الأرض. حينما نقترب منها، فإذا هي جمال باركة وحولها رجال باركون وواقفون وممددون. كان بينهم من يغني يابوى، أي والله، يضرب بالموال الصحرايبي الغرايبي معه. فأينما تواجد الصعيدي، وجب الغناء. وحيثما غنى تجمهر الحزن والفرح معا.

إلى جوارهم توقف ركبنا. بركت جمالنا فنزلنا وجلسنا مع الجالسين. وأنا كالأهبل في الزفة لا علم لي بما سيجري بعد ذلك. هي سيجارة واحدة سحبتها يابوى، وظلت عيناي تعمل العمى في خلاء بعيد. لا وأرى يقترب من السماء ويقترب ثم يزداد اقترابا، ومع اقترابه رأيت الجمع ينهضون واقفين وحدثت بينهم حركة استعداد وتأهب. نظرت في السماء فإذا بطائرة

«هليكوبتر» زرقاء كسمكة موسى ذات بطن ضخمة هائلة وزعانف مشرعة وذيل دقيق، أخذت تهبط شيئا فشيئا حتى استقرت على الأرض، أي والله يابوى فدور ربما يحرسني لو كنت أكذب. فلما استقرت على الأرض الرملية الصلبة التي بان لي أنها معدة لها من زمن مضى، انفتح بابها ونزل منها أفندي هضيم الوجه غليظ الشفتين متهدل الشعر على الجبين العريض الشاهق البياض، مع حواجب ثقيلة وعينين سوداوين في وجه مستطيل يبدو مع ذلك جميلا. كان يبدو كالأجانب الخواجات لكن الصياغة الكبيرة تطل من عينيه وشفتيه. مالبث أن صاح بلهجة شامية فيها بلهجة مصرية كبيرة يابوى: «سلام عليكم يا جدعان!» فردوا جميعا كلهم في الصلاة وراء الإمام: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته!»

برهة ونزل من الطائرة أفندي آخر أصغر منه لكنه أجمل بكثير ويبدو أنه ابن ناس. نظر في جمعنا نظرة متفحصة فيها كثير من الود وقليل من الشك والخوف والتشاؤم. وقف برهة فأشار له الأفندي الهضيم الوجه برأسه، فعاد الشاب إلى داخل الطائرة ثم ظهر حاملا جوالا. وضعه على العتبة وغاب في الداخل. قرأ عليه الأفندي الهضيم الوجه كلاما ثم صاح: «المعلم دياب مذكور!» وكرر الاسم بصوت أعلى. فانشق الزحام عن رجل جاء يهرول صائحا «أيوه». فلما صار أمام الطائرة تسلم الجوال، وسلم للأفندي مظروفا منتفخا بالأموال فتحه الأفندي وعد أوراقه

بسرعة ثم دسه في عبه، ووضع يده على جوال آخر وصاح مناديا «المعلم هادي الحمادي»

توالت نداءاته بين كل جوالين أو جوالين وربما ثلاثة. وهو يسلم ويقبض، والرجال تحمل على الجمال وتربط إلى أن جاء دور الحج وهدان، فتقدم الاثنان اللذان كانا على الجوادين، وتسعنا - لدهشتي - أربعين جوالا ! ولقد عجبت والله ياحال كيف اتسعت هذه الطائرة لكل هذه الجوالات، كما عجبت بغير حدود من الطائرة نفسها يابوي من أين جاءت ومن هو صاحبها ولحساب من تعمل؟ ومن أي جنس أو ملة؟ غير أني - تحلف اليمين ياحال - لم أعرف حتى الآن. وقد زعم آخر أنها لبنانية. وثالث أنها تبع الاستخراف. ورابع أنها قادمة من السماء نفسها شخصيا فضحكنا في عبنا ومضينا إلى النجع حيث سلمنا الجمال بحمولاتها لراكبي الجوادين ودخلنا دار مهران. ولم نعرف أين ذهب راكبا الجوادين بالجمال المحملة بعشرات الجوالات بصنوف من الماركات الغريبة مثل ماركة أمت عمري وماركة هند ليلتي، وماركة الشير وماركة الأطلال، وأشياء يطير لها المخ يابوي. نحلف اليمين يابوي أن قد أصابني خبل، فلقد لمحت وجهي راكبي الجوادين فراعني أنهما نسخة طبق الأصل من وجه رجل رأيته كثيرا في قعدات الحاج السمي، كأنهما هو، ولو لم يكونا اثنين لأقسمت بنفسي في حصته متأكدا أنه هو. ولما كنت متأكدا أن الإنسان لا يمكن أن ينشطر بنفسه نسختين فإني قد تحولت في

الأمر مل في صحة عقلي، وأبقيت بثقلي على كتفي المثل القائل يخلق من الشبه أربعين. مع ثقتي التامة في أن شبها من الأربعين شبه لا يمكن أن يكون مطابقا إلى هذا الحد يابوي

قل إني طرحت على الأمر كله. فأبي رحمه الله كان دائم القول لنفسه وللناس اطرمخ تعش. قول لم أفهم معناه على الحقيقة إلا بعد أن أعيشني الحين يابوي، وأباستني التجارب، حتى تأكد لي أن لسان المرء هو قائده. فإذا لم يجد في الأعماق حلوا يمنزله للسامعين فليبقه معلقا في سقف حلقه. فد، أخرس شيء له ولك، وإلا فلسانك سوف يغترف من جوفك مصائب يرمي بها فوق رأسك أينما بعثت فاحفر لسانك ياحال، إنه حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك

وهذا ما فعلته يابوي قضيت في النجع بدلا من الشهر شهورا لا أذكر عددها، بل قل دهورا فيها الفرس كانت تجري بين يدي كريق العسل لا تخلص أصابعي من آثاره بسهولة. حتى أني والله ياحال كنت أدخرها في بلانيص من الفخار مما يعد لتخزين السمن، مدهون جوفها بمسحوق الجبس مكانه لمورايكو الذي يقولون عليه في المدينة. رلعة لخمسات الجنيهات وأخرى للعشرات وثالثة للخمسينات ورابعة للمئات، هكذا رأيتهم جميعا يفعلون في النجع. والواحد منهم يفعل هذا أمامك وأمام الآخرين.

كنت نازلا في حي صغير. كان معنا للدجاج والأرانب في حبية مخفية في مؤخرة النجع المطلة على الصحراء التي بلا نهاية. آثار

حراء الدجاج و لأرنب لاتزال باقية على طراجتها كأن سكانه السابقين سيعودون بعد قليل لمشاركتي المبيت فيه. أخشى ما كنت أخشاه أن يلبد ثعبان من ثعابين الصحراء في جنة هذه الوشعة الشهية. فرشت مسحوق الشيح في كل فتحة فيه وبطنته بحر نظافه. ولكني لاحظت أن الجدار الذي تستند عليه هذه العشة الكبيرة جدار من الأسمنت المسلح. فهمت بأنني ألتصق بقصر من القصور مباشرة. لاحظت كذلك بأنني وجود باب مثبت موجود في الحائط لا يسمح للداخل، وآخر مثله في الحائط الأيمن. معنى الكلام أنني محاط بجدار من الأسمنت وبابين لا يتناسب منظرهما مع عشة الدجاج والأرانب، إنما هي إلى أبواب حجرات القصور أقرب. إذ هي من خشب زان متقن الصنع حابك ومغلق من الداخل. الذي جاء في بالي أنهما يفضيان إلى مخازن لأعلاف الأبقار وسمنها وأجبانها، بيد أن رائحة كل ذلك كانت تتصاعد من تخوم هذين البابين بشكل خارق ومتواصل، مما يؤكد أن ثمة أبواب أخرى في الداخل يدخلون منها لترويد الحريم.

في مبتدأ مروري في هذا النزل رمى لي مهران بحصيرة قديمة وبطانية بصوف قديمة ومخدة محشوة بقش الكراسي أظنها شلتة مقعد سيارة قديمة. استقصيت فوق ذلك قلة ماء وربما أملؤه من صهاريج المياه التي تجيء بها السيارات إلى المنجم كل يوم إضافة إلى القرب والبلاليص التي تحملها البغال والحمير كل لحظة من أماكن مجهولة. وأغلب الظن أن هذه السيارات والمناطيس وهذه القرب تقوم بغرض آخر غير المياه لأن العاملين عليها يرعدون من

العش، عرفت هذا من منظر قربة يحملها أحدهم والمفروض أنها أفرغت من المياه وكان واضحا مع ذلك أنها ثقيلة والرجل يعوج تحت ثقلها.

كنت مغفلاً حين حددت لنفسي مهلة شهر بالحال. كان يجب أن أعمل حساب هذه الورطة التي برزتها بقدمي، وبات الخروج منها كخلع الضرس. فلو أردت الرحيل عن هنا فلابد أن أقابل الحاج رهدان شخصيا واستسمحه في الرحيل. غير أني منذ جئت إلى هنا لم أر الحاج رهدان ولم يرني، إذ إن كل شيء هاهنا يتم وحده. والريس مهران يسلمني أربع أو خمس لفات من الحشيش أوصلها لناس في نجوع بعيدة وأجيء بثمنها مربوطا في حزام حول وسطي، أو لناس في بلدان مجاورة كميت رهينة والبدرشين وغيرها أذهب على هيئة بائع سريح يحمل «جبنة»، سمك أو لفص مانجو تحته لفص أحمر ملفوف بالورق علامة أني بعت محتوياته، في حين يقع الحشيش في قعره.

كل مضمع جُمَّع ملوم ببعض الرحلة إلى حيث تهبط الطائرة لتعود بكميات من التموين تنتهي صلتنا به بمجرد وصول القافلة إلى حدود المنجم، ليتولى الرجلان الشبيهان نقله في مخازن لا يعرفها غيرهما. وكل مشوار له ثمنه، خلاف الكيف والمزاج الذي يأتينا بغير حساب. فكل واحد منا يسحب من أجود حجرين بعطيه ربع أوقية. أما الأكل فقد يتم جماعة في نزل مهران أو غيره. وقد يجيء الأكل لمن لم يحضر ومن يطلبه في نزله. خرفان تذبح

وعجول وطيور تربيها نسوان الحضراء وتبيعها لمن يطلبها منا بتراب الفلوس. وكنت أخشى أن ألح في طلب الحاج وهدان حتى لا يضيق أو يضيقوا بي بالحال. ولم أكن أجرؤ على الذهاب إليه في الدوار حتى لا يغضب مني أو يشك في. وكانت الظروف قد خدمتني مرتين ثلاثة في مشاوير إلى الدوار. وفي المرات الثلاث لم أجد الحاج وهدان هناك. فلما تكاثر القلق في دماغي حول موضوع الشقة والمعلم شندويلي دبرت للزيارة. فبعد أن أوصلت طلبا قريبا من بر الجيزة قلت ما من بد. وركبت الأوتوبيس النهري، فحضرت بعد دقائق في قهوة المعلم شندويلي في مصر عتيقة.

* * *

كان المعلم شندويلي منحنيا على النصبة يصب الشاي في الأكواب، حين زحف على الأكواب ظل أرهص حشي. فرفع رأسه فرأى أمامه شخصا شقيا بينه وبين المتسولين درجة قصيرة. القشف على قفاه كالصدأ كصبغة الدخان على واجهات أفران الحمامات، يلبس جلبابا من الصوف «السهري» أكل عليه الدهر وشرب، ويبدو كأن أحدا أحسن به عليه، حافي القدمين. وذلك الشقي لم يكن سواي.

وضع المعلم شندويلي كفه على عينيه كالمظلة وأمعن النظر في شخصي جيدا، وهو لا يصدق أني ظهرت أخيرا على هذا المنظر. كان منظري فعلا كالخارج لتوه من السجن. ثم إن المعلم شندويلي

تذكرني، فبان عليه الأسف الشديد وصاح في جدعنة: «حسن أبو ضب؟! ما معقول!»، وطلع من حدود النصبة واحتضنني بالحضن وصار يطبطب على ظهري قائلا: «قلبي عندك يابو علي! إيش أحوالك؟». قلت: «كما ترى! لقد طلعت رجلا يحق كما جبت مني! ولو قلت لي إرم نفسك في البحر لفعلت!». تبسم في فرح وهو يجلسني: «أعرف يابو علي! أعرف. وعشمي فيك كبير!». قلت: «كسبنا صلاة النبي!». وضع كفه على ركبتي قائلا في نبرة اعتذار:

- «لا تؤاخذني يابو العم! لم أعرف أين كنت وإلا جئت لزيارتك! سألت عنك في الحجر فقيل لي إنك رحلت إلى المديرية وأخيرا بلغني أنك في سجن القلعة. هذا الخبر وصلني بدوبك من يومين اثنين! جاءني به واحد أعرفه، له يد كبيرة في الحكومة. وكنت أدبر لزيارتك قبل دخولك الآن ببرهة قصيرة. يه! القلوب عند بعضها حقا! إيش أحوالك؟!».

نهض واقفا متجها إلى النصبة، فصب لي (واحد شاي) على بوستة ثقيلة، ومزع من خلف أذنه ورقة أفيون تساوي عشرة جنيهات، رمى بها في حجري قائلا: «روق صراجك!». ثم مد يده تحت النصبة فسحب شيشة مخصوصة لها رنة عالية سالكة لربها بحوى، سحب حشية مرصوص عليها عشرون حجرا معلومة بالعسل. نزع قطعة حشيش مما كان يلصقها في حرف الرخامة من أسفل، جعل يوقع منها فوق الحجارة. وضع الحشية

كلها تحت العصبية. سحب من الوجاق قطعة نار صاحية. فقشها على الرخامة وعبأها في المصفاة، وناولني صلى مني له، صد رد، والدوخان يزحف على بالي. لكن كلاكيع القلق وامضة خلف دماغي تريد أن تذوب وتمحى قبل أن أشرف مراجي جدا. ثم إني لست الآن ملك نفسي، ولابد من رجوعي للنجع قبل حلول الظلام، بواسطة بغل سينتظرني به سعدون عند نهاية الطريق الخارج من البلدة إلى مشرف الصحراء، في خدمة يبلغها مراجه. إذ أن وظيفته توصيلي وتوصيل أي واحد كان من مشوار ببضاعة خارج حدود البلدة، وهو يعرف أن حامل البضاعة ربما يقع في ظروف غير مواتية تؤخره قليلا أو كثيرا، لكنه يعرف كذلك أن الواحد منا لابد أن ينتهز الفرصة ويتلكع في الطريق يتفسح من الناس ويشتري ما يشاء من أشياء. إني واثق أنه سوف ينتظرني، ولكن الظلام إذا دخل قبل وصولي إليه ستحدث مصيبة، سيبلغ سيده في الحال بعدم وصول القوات إلى قواعدها سالمة، أو قد يتهور فيبلغه أن العدو قد أصابنا في المال والعتاد. إن حدث أنه بعد وصولي حضر من ذلك إلى الحاج وهدان فإن الشك لابد أن يعصف بهدوئه وأنا لا قدرة لي على مناطحة السحاب بالخال.

لكن المعلم شندويلي صهين، وغير الحشيشة محشيات وكان في استمتاع كبير وهو راح يحكي لي كيف بلغه خبر المشكلة التي تشاكلتها مع غرمائه المواسي في العمارة.

بدا أنه يعرف رجلا متصلا بالحكومة من سكان هذه المنطقة له أفضال كثيرة على أهل الحتة، يفرج عن مساجينهم ويثبت أقدام أماناتهم في محاضر الشرطة. وهو - نبي وبيحه - يحب هذا الرجل، لكنه - الرجل - لا يجلس في المقهى. إلا أن هذا الرجل مر عليه في المقهى على غير انتظار مما جعل المعلم شندويلي يتوجس ويلعن العار في عبه. قابله بترحاب وقام معه بالواجب، فإذ به يهمس له: «عندك خبر لي يسوك؟» ثم قال: «عندك ولد شحطي صعيدي بلطجي! دخل عمارتك واختك بسيدتين من سكانها وانهال عليهما ضربا وتشليتا وتمزيقا حتى أحدث بهما عاهات مستديمة ونقلتهما عربة الإسعاف إلى المستشفى بين الحياة والموت. إذ إن الولد ضربهما بمطواة قرن غزال وحدة في بطنها والأخرى في ثديها، وأما الولد فقد قبضوا عليه وسيق إلى قسم الشرطة فقال في المحضر إنه ضربهما انتقاما لرجولته المهانة حيث شتمته إحداهن قائلة له: يا خول، وشتمته الأخرى قائلة له: يا علق، ولما ذهبت الشرطة للسيدتين في المستشفى ذكرتا في المحضر أن هذا الولد من طرفك، وأنت حرضته عليهما وأكتريته لقتلهما لخلاف قديم بينك وبينهم. وعند الرجوع للولد وسؤاله عمن الذي أدخله العمارة من الأصل؟ أدلى في أقواله أنه يسكن في العمارة وليس يمت إليك بصلة قربى. الحقيقة أنه ذكر في كلامه كلاما كثيرا في صفك يبعد عنك الشبهة، وأنا بالصدفة أعرف هذا الولد معرفة سطحية، ولكني لما رأيت اسمك واردا في المحضر -

وأنت رجل يمر عليّ ـ قرأت المحضر وعليك حتى المضي على موقفك! فهل الولد يسكن عندك حقا؟».

وهف غمره شندويلي بالورقة أم عشرة جنيهات قائلا: «دبرني أنت في هذه المصيبة. أنا لم أحرض أحدا». فقال له الرجل ـ الذي هو بسبوسة كما أعرف:

ـ «نصيحتي أن تختفي بضعة أسابيع عن الأنظار، لأن النيابة تطلبك للتحقيق! سيجيء مخبرون لاستدراجك لسراي النيابة، فإن كنت تحب أن أتفاهم لك معهم فأنا أمنعهم من المجيء إليك، وأما عن أمر هذا الولد فإن كان ساكنا عندك حقا فإنك يجب أن تكافئه على شهامته. وأما إن كان يكذب في مسألة السكن عندك هذه فإن موقفه وموقفك سيكونان في منتهى الصعوبة، ستعامله النيابة على أنه ولد بلطجي مأجور مدفوع للاحتكاك بالسكان، أو تظهر كذبه بحسب موقفك! ولو اتضح أنه يقيم في الشقة فقط مجرد إقامة فهو إذن من طرفك وهذا يجعل النيابة تصدق أنك حرضته».

فقال شندويلي على الفور:

ـ «الحقيقة أن هذا الولد ساكن عندي بالفعل وليس لي أي فضل عليه حتى يجاملني، بالعكس لقد أخذت منه خلو رجل أضعاف ما كان سيدفعه غيره!».

فقال الرجل: «ولكن النيابة طالبته بتقديم عقد إيجار أو آخر إيصال فلم يجد معه أي ورقة تثبت شخصيته سوى بطاقته!

فأعطوه أربعين يوما استمرار حبس لأن تلك المضروبة في بطنها على وشك الموت!».

فمص المعلم شندويلي على شفتيه: «الحقيقة أنني لم أكن كتبت له عقدا! ولم أعطه وصلا! فالثقة بيننا متبادلة؛ لأنه من أسرة طيبة أعرفها».

صارح الرجل قائلا: «عليك إذن أن تنجيه من ورطته! على الأقل لتخفيف الحكم عنه، اكتب له العقد وإيصال الإيجار وأرسله له! وإن كنت تستطيع مساعدته في السر يكون لك الأجر والثواب. وأنا في خدمتك إن أردت أن توصل له شيئا في سجن الاستئناف».

قال المعلم شندويلي: «غدا تشرفني بشرب فنجان قهوة معي في الصباح أو في العصاري فأعطيك عقد الإيجار وإيصال آخر شهر! وسيكون العقد بتاريخ استلامه الشقة، ولو فيها زيارة سأعطيك بعض المأكولات والمشروبات توصلها له. إنه ولد في النهاية محتاج للعطف! وخصوصا المضروبين فهناك ثلاثون جنيها وزعها عليهم ولا تدع أحدهم يريني وجهه أبدا لأن منظرهم عدم المؤاخذة شؤم ولست أحب الفضيحة. ضرب ما ضربت وانتهى ما انتهت ولا يهمني سوى الفضيحة والبهدلة؟ هؤلاء سكان مع بعضهم لا شأن لي بعراكهم، فليحرقوا بعضهم بعضا!».

قال الرجل مشيرا إلى عينيه: «من دي! ومن دي!».

وفي عصر اليوم التالي مر عليه الرجل بالفعل، وأخذ منه عقد الإيجار والإيصال، وخرطوشتين من السجائر وباكو شاي وخمسة كيلو سكر وثلاثة كيلو كباب ونصف أوقية حشيش.

وأنهى المعلم شندويلي حديثه قائلا «لعلك تكون مبسوطا ياعم! وتكون هذه الأشياء قد وصلتك!».

قلت مفتعلا التذكر والأسف «آه! هذا إذن هو الرجل الذي سأل عني في سجن الاستئناف؟ لقد أخبرني زملائي المساجين أصل الحكاية أني قمت بأعمال شغب كثيرة فنقلوني إلى طرة! ومن طرة إلى بني سويف! وفي بني سويف تعرفت على حارس من الحراس يقرب لوالدتي، يحبني ويثق فيّ! وطول الليل يبكي من أجلي ويوصي بي زملاءه في الورديات! وقد علم أني مساق إلى الجلسة غدا صباحا! فدبر خطة لتسريبي من السجن متنكرا! وجاء بي إلى هنا لكي آتيك لآخذ العقد والوصل لأعرضهما على القاضي غدا! والعسكري يقف الآن بعيدا بلباسه المدني حتى لا يلفت النظر في انتظار أن أعود إليه لنتسلل عائدين إلى السجن قبل ساعة التتميم!».

قال المعلم شندويلي والدموع تترقرق في عينيه «ادعه يشرب القهوة ونعطيه حسنة»، قلت وأنا أنهض واقفا «لا، لابد من الانصراف الآن! ولكن ماذا سأفعل في هذه الورطة وأنا لا أعرف أين مكان هذا الرجل؟!»..

ويبدو يا حاج أني أتقنت الدور، إذا بي أنفجر باكيا بحرقة، وإذا بالمعلم شندويلي يتأثر جدا، ويشرد مفكرا لبرهة قصيرة ثم يصيح مبتهجا: «هو إذن لم يصلك ولم توقع عليه! تاعت

ولقيناها!»، وصاح «يا ولد ياعوف! اشتر لنا عقد إيجار ودفتر وصولات!».

راح قلبي يرقص من الفرح والطرب حتى جاء الولد بالعقد مطبوعا من الدكان. وراح شندويلي بالقلم الجاف يملأ البيانات وأضاف إليه شاهدين من حسابه. وحرره بتاريخ استلامي للشقة، وحرر إيصالا بآخر شهر، ووقع بإمضائه العاجز وبصم فعلت مثله، وطويت الورق في جيبي وحضنت المعلم شندويلي وبكيت مرة أخرى فبكى هو الآخر. ثم إني تركته واندفعت نحو العلاء مهرولا. ومنه إلى محطة الأوتوبيس النهري. ووقفت برهة نظرت فيها إلى العمارة كأني أطمئن على شقتي فيها. وكانت صورة بسبوسة في دماغي تنظر لي في شقاوة جهنمية. وكنت ابتسم في جذل حقيقي وأقول لصورته: والله يابسبوسة إنك لتستحق ألفا من الجنيهات، أنت رجل ممتاز ويجب أن أحبك، لتكن ما تكون فأنت اليوم أصدق أصدقائي وأجدعهم. روح إلهي ربنا يفتحها في وجهك أيها الولد.

وقفزت إلى بر الجيزة لأمرك سعدون بعربة التاكسي والشمس ما تزال بعد حمراء الخدود من فرط الخجل قبل أن تحتويها نهائيا عباءة الفجر الرمادية.

* * *

طموحي كانت فوق الوصف يا بوي. تحلف اليمين تقول إني شاربـ عشر زجاجات من ذلك المسمى بالويسكي. رغم أني لم

أشربه طول عمري يابوي، من فرط الشعور بالنشوة والفرح. عرفت أن اليوم سيخاصمني. فاليوم لا يخاصمنا يابوي إلا عند الفرح أو قلق الحزن. استقصيت جوزة ومد برغاص وعشرة حجارة، وباكو معسل قص. وبعد أن رفعت العشوة المعتبرة مع رجال النجع أتممتها على جروين مشويين محروقين من راح ضمال. آنستهم بالخير واتكلت على الله إلى حجرتي - عشتي - فأغلقتها على نفسي وتربعت في ضوء اللمبة نمرة خمسة. جعلت أشعل النار وأرص الحجارة. وصهد الأفيونة يشوي دماغي على نار هادئة. حجر فالثاني فالثالث. شعللت ركبة النار في دماغي وتمت كور الشاي، فاستمعت موسيقى الغليان تسكرني.

فيما أسحب الحجارة للمرة الثالثة مع كوب الشاي بدأت عيني ترى الحجرة وتتجول بين جدرانها. كنت مرتكنا للحائط المسلح ووجهي في اتجاه باب العشة المطل على الصحراء. تلكأت عيني على الباب المجاور لي على اليمين وقد تصاعدت منه روائح اللبن الحليب الطازج والقشدة والسمن المقدوح بشكل زاعق. وكان ثمة حركة وكركبة تجيء من وراء الباب. الذي أرهفني أنه كان شبه موارب. وخط من الضوء واقف بين خشب الباب وحائطه. فانذعر قلبي يابوي. حقيقة، بقيت أرتعش في قعدتي، وقد تشبث بصري بالباب مركزا على خط الضوء. راعني أن خيالا من الظل كان يحجبه لبرهة مصحوبا بحركة خلف الباب مباشرة. مع صوت انزلاق شيء من صاحن إلى صاحن. وصوت أوان متقارع. فإذا بي

رغما عني والله ياحال - أتنحنح. ففي الحال انفسحت ورّبة الباب وأطل منه وجه جنية تبارك الخلاق فيما خلق. عينان واسعتان ساحرتان، تتمرجحان وسط جدائل شعر أسود مضفور. من فتحتي الجيبين تطل حبتان كحبتي المشمش الطايب. يسيل عنهما خالان على هيئة صدغين ينتهيان بذقن صغير عليه طابع الحسن. فكأن وجهها رسم في الهواء. وكانت عليه ابتسامة كأنها اعتذار، وفي عينيها نظرة تستهين بكل شيء. شالتني وحطتني في قعدتي عدة مرات. أما أنا فظللت مسمرا في مكاني ياحال. جمعت اقرأ الفاتحة في سري لعلها تصرف عني هذه الجنية المخيفة أو تقويني عليها. قلت لنفسي لعلها تهيؤات السطل والأفيون وكبسة دخان المحروق. لكن الجنية أبت إلا أن تريني الفرق بين الحقيقة والخيال. إذا بيدها البضة العارية تخرج من الفتحة عن ذراع ملفوف مغطاه بالأساور الذهبية على المعصم. وإذا بهذه اليد تشير لي أن تعال. إشارة آمرة. تعال يعني تعال. لكن من ذا الذي يجيء؟ فرض من يتحرك من مكانه يابوي. من أين لي بقوة تحركني يابوي؟ وإذا بصوتها يطلع رنانا كشخللة الذهب: «قم يا شمال لا تخاف». فقمت في الحال منتفضا. أعض على شفتي وأقرص نفسي لأتأكد من صحوي. خطوة ونصف خطوة صرت واقفا أمامها خاشعا أرتعش. قابلتني بنظرة باسمة: «يا عيبي على الرجال!». ضحكت. نظرت في فتحة الباب من ورائها. رأيت حاصلا لجمع الألبان يمتد إلى بعيد جدا. ومملوء بالطواجن والأنجر والبرمات والبلاليص. قالت فيما يشبه الاحتقار: «إنت متعمل إيه

هنا»، قلت «الريس مهران مسكني هنا»، هزت رأسها وراحت، ثم دفعتني أمامها وخرجت ساحبة الباب خلفها.

الغزال الأعظم مقبل لأن أمامي في قلب حجرتي، ترتدي قميصاً من النايلون رهيفاً لا يستر أي شيء في جسمها الوردي، معلق بحمالتين كالحبلين في كتفيها، ومن فوق قميص مفتوح كالعباءة من نفس اللون. تحرك الفخذ السمهري قليلاً حتى بحصيرة. هوت عليها متربعة ورمقت بصرها الساحر محوى أمرة «قعد». فقعدت متربعاً قبالتها. قالت «رص لنا حجرين»، قلت «حاضر». وجعلت بكل حماس أصحي النار وأرص الحجارة. قدمت لها البوصة فشدت النفس مثل أجدع حشاش في البر كله. سحب الدخان تندفع من منخريها. قلت «ماشاء الله» واحد آخر، ولحقتها بآخر وثالث ورابع حتى شربت وحدها عشرة حجارة وبشهية فائقة. وأنا أصمم لها الحجر بالماشة، وأضع رتبة إصبعية فوق سر، وهي تشرب، حتى اتسعت عيونها أكثر، وشعت الحمرة في بحيرة العينين. وقالت وهي تريح البوصة «احك لي حكايتك».

فبصوت هامس حكيت لها حكايتي. فحكت لي حكايتها هي الأخرى.

هي بنت أخت الحاج وهدان شخصياً. وزوجة ابن أخته أيضاً أي ابن خالتها. كانت عروساً طازجة لم يمض على زفافها سبعة أيام حين هاجم البوليس زوجها يقود مركباً قادماً من أسوان، موسقة بمخدرات وقطع الآثار النادرة. كان برامله في المركب كل من أبيها وأخيها. آخر من تبقى لها في الحياة بعد موت أمها وإخوتها الذين لم يكونوا مصريين. سيق زوجها وأبوها وأخوها إلى محكمة الجنايات، التي قضت كل واحد منهم بمؤبد في عين العدو. كان ذلك منذ عام مضى، ومنذ ذلك اليوم وهي حبيسة السرايا الصغيرة التي ابتناها خالها. كان زوجها هو ذراعه اليمين ولقد حزن عليه حزناً يفوق الوصف. وحزن عليه النجع كله. وكلما اشتد حزنهم عليه نقموا عليها كأنها المسئولة عن ضياعه ووجهها الشؤم قد بات يلغي من العيون كلها جمالها. فكانت تهرب منهم إلى العمل في شغل الدار، ونسوان النجع كلهن عملها طوالة في سلوانة فتركن لها كل شغل الدار المحتاج لشقة وسهر ومن جانبها كانت تعمل بلا كلل لعلها تنسى. ولقد فكرت في الهرب، ولكنها موقنة أن خالها سيجيء بها من تحت الأرض. لكنها رغم ذلك لم تستطع نسيان أنها عروس، وأن عشها وسريرها لايزال فيه رائحة الفرح. راغبة بأنت تتخيل كل ليلة ـ وهي وحدها في السرير ـ أن الباب سيفتح لتراه داخلاً عليها يكمل واجب العرس يكمل تسليك الطريق الذي حرم فيه ثقيب، فباتت كل يوم بعد أذان المغرب تستحم وتلبس أحسن ما عندها من القمصان الشفتشي لعلها تفاجأ به داخلاً.

ثم وضعت يدها على معصمي قائلة وهي تنهض

ـ «الست تحب أن ترى سرير الفرح؟ تعال أريه لك؟ سوف تراه جديداً وورق الفل ملفوف عليه. أما المراتب والألحفة فمن الحرير الساتان؛ ثم لأريك العش الذي حشنا به من دمياط».

لكني تسمرت في مكاني يا بوي، بل تجرأت وشددتها بقليل من القوة فأقعدتها كما كانت. ونظرت في عينيها فوجدت تصميما أكيدا على طلبها، ممزوجا بدهشة واستغراب، وغيظ دفين. وفي الحال تفطنت أيقنت أنها مجنونة أو على طريق الجنون. وقلت لنفسي لابد من العقل والحكمة في صرفها بصنعة لطافة وقلت لها وأنا أسرح برص حجرين

– «ما تؤاخذيني يا الحاجة! مجنون أنا حتى أدخل سرير معلمي الغائب في السجن؟ ألقي بنفسي في النار».

رجعت نحوي ضارعة «من أجلي! لا تخف! لا تظنني مجنونة! ولست أحسب لك فخا لأختبرك! جميع رجال الدار ونسائها ذهبوا لحفلة فرح في صحاري سيتي! قالوا لي تعالي معنا! قالوها من مناخيرهم! وأنا لم أرض! عملت نفسي مريضة وتعبانة! وحمدت الله أن تركوني وحدي! البيوت كلها الآن خالية! حتى الخفر والعربجية نزلوا إلى البلد ليقضوا مصالحهم! تعال وشف بنفسك!».

وقربت وجهها مني فرأيتني أترك ما في يدي وأطوق رقبتها وأسحب رأسها نحوي، وأنقض على شفتيها لثما ومصمصة وعضا. صارت هي كالسمكة تنتفض في شبكة الصياد. ثم لم أدر بنفسي بعد ذلك يا بوي. ركبني الجنون فلم أفق إلا وضوء الصبح يدخل من تحت عقب الباب. وجدت أني عار تماما، وعلى الأرض حطام

امرأة عارية متفسخة كل عضو منها في ناحية، وقمصانها ملقاة هنا وهناك، وبطنها يعلو ويهبط، وهي غائبة في ملكوت بعيد.

أول شيء فعلته أن لبست ثيابي، وصرت أربت على وجه القتيلة وأدلكها في كل ناحية حتى أفاقت، ونهضت جالسة فألبستها القمصان وبدني مشتعل يكاد يغريني على إعادة الكرة من جديد. كانت شيئا لا يوصف يا خال. وكنت أستحسر أن أدعها تمضي، لكنني دفعتها دفعا للقيام. فقالت وهي تفتح باب الحاصل وتنسل داخله «انتظرني غدا!» قلت «حاضر!». وساعدتها في جلب الباب، ولما استترت رأيت كل جدران العشة محترقة بمواسير البنادق المصوبة على صدري. كدت أصرخ. جعلت أدعك في عيني، ثم فتحت باب العشة، لأفاجأ بالصحراء تنطرح أمامي بلا نهاية، وليس ثمة من أحد. ووجدتني ألم فلوسي وأحشرها في حزامي، وأتجه نحو الريس مهران مدعيا المرض والإعياء، طالبا منه أن يسمح لي الحاج وهدان في إجازة أقضيها تحت رعاية أمي وأهلي. وكان عليّ أن أنتظر حتى الضحى لأرجع مع أحد البغال العائدة لجلب المياه. وحين وضعت قدمي على أول طريق القاهرة أيقنت أن الله قد نجاني من جنة في قلبها نار الجحيم، لكني كنت أنتفض وأنتفض من شدة الأسى كلما تخيلتها إذ تفتح باب الحاصل فلا تجدني.

الثامنة ـ مفاجأة غرزة المطار

ليس في هذه الدنيا محال يا حال، لا ولا فيها ما يسمى بالمستحيل. مستعجب ماذا يا بوي؟ البني آدم مما فرعون ولا تقف أمامه سباع الدنيا ولا أسودها. أنا مثلا يا بوي، هل كنت تصدق أني يمكن أن أتعلم القراءة مثل أولاد المدارس؟ بعدما شاب راح الكتّاب. المسألة كما اتضح لي كانت أخف مما تصورت. أصل الحكاية أني كنت تعلمت الهجاية من وكيل النيابة الذي رافقني في الزنزانة ذات يوم بعيد وكتب الله لي النجاة على يديه. إلهي ربنا يعافيه بالعافية إن كان لا يزال حيا ويطرح البركة في خلفه. لقد كنت واثقا من أنه مظلوم فلابد أن الله فك ضيقته من زمان. تعرف يا حال، لو كان به مس من النصب أو الاحتيال أو الزيف ما انعطف على حالتي ومسى حالته. علمني حروف الهجاية ونطقها بعد تشكيلها وتسلى بمسطري وأنا أنطقها شهورا طويلة؛ نقش أصوات الحروف في قلب دماغي فباتت مسموعة على الدوام في صدري. ولما صرت الآن ولدا شلبيا أرتدي الكشمير والصوف والجوخ في قفاطين وعباءات ومن تحتها الحرير والسكروتة، فضلا عن العمامة الكبيرة حول رأسي والمركوب المضفر في

فمي، رأيت نفسي لا شغلة لي ولا مشغلة سوى القعود على المقاهي ليل نهار. من حسن الحظ أنها لم تكن مقاهي كالتي يعرفها الناس وإلا لانجرفت فيها إلى لعب الكتشينة؛ إنما هي غرز لتدخين الحشيش قد وقعت على واحدة منها في حي فاطمة النبوية وراء جامع النبوية حيث الزقاق. مكان خفي غريب الشأن يا حال، لا سبيل إليه إلا بحيل متحرجة، لو أراد غريب أن يزوره أو يهجم عليها لاستحال عليه ذلك. دلني عليها المعلم أبو كريشة حين اصطحبني لشرب حجرين في السر والكتمان. دخلنا من باب بيت مفتوح ترتفع في صحنه الواسع أدخنة الكوانين وترتع أسراب البط والإوز والدجاج، وأطفال صغار يزحفون في الحواري يهرشون يجارون بالصراخ، وطشوت غسيل متناثرة على الأرض فيها مياه غسل الهدوم مصبوغة ومرغرغة، ونساء يجلسن أمام وابورات جاز مشتعلة تحت حلل الطبيخ. خرجت وراء المعلم أبو كريشة في حرج شديد وسط هذا المدخل الواسع الذي تطل عليه غرف كثيرة. ثم حودنا شمالا حيث بدأت السماء تظهر؛ فإذا بنا بعد خطوتين في حوش واسع، سرعان ما تبين لي أنه بيت تهدم من سنين طويلة وما تزال بقاياه أنقاضا مرصوصة ومكبسة، عروق خشب كالح مسوس وشبابيك متقصفة، وطوب وهديم، وحبال ممدودة منشور عليها هدوم مغسولة. ظننت أننا سنقعد في هذا الحوش؛ لكن أبو كريشة ظل ماشيا نحو جدار مواجه هو جدار البيت الخلفي المجاور، وهو بيت من دور واحد. تحت الجدار أكوام من الهديم والقمامة المتحجرة، تسلقناها حتى صرنا فوق

سطح هذا البيت ومشينا على حافة الجدار بمهل، ثم هبطنا منحدرا من هدم آخر لبيت آخر، ثم صعدنا على تل من هدم لنجد أنفسنا بعد قليل قد صرنا فوق ربوة عالية وأمامنا الأرض صحراء مترامية في السطح لكنها مسورة بالأسلاك الشائكة وقد تناثرت فوقها جرارات ولوريات على مسافات متباعدة بدت لنا كقربان باركة على الأرض. قيل لي إن هذه القطعة من الأرض من بين الأراضي الكثيرة التي يمتلكها المقاول المشهور عثمان أحمد عثمان. مشينا فوق الربوة التي كانت عبارة عن أتربة تغطي مقلب قمامة اندكت في بعضها وتصلبت. كانت تواجهنا، وتقترب منا، شرفة عظيمة مبنية بالحجارة على طريقة الهرم الأكبر، فلما اقتربنا منها وجدناها غرفة عالية جدا ومستديرة وذات عواميد وشرفات دهاليز يا بوي، لكأننا دخلنا شرفة قصر من قصور الفرعونيين أو العهد القديم. على مقاعد من الخيزران المذهب جلسنا أمامنا طقاطيق نحاسية لامعة، ومقاعد من القيشاني وعلى بعد كبير من الشرفة الجوانية عشة صغيرة مبنية حديثا لتكملة الفائدة، وضعت فيها مصنعة الشاي والبوتاجاز، وبرميلا من الصفيح ممتلئ بالبيع المخصوص محروسة والمخمر بطريقة مخصوصة ذات علامة عصرية غريبة لكنها جذابة، وبرميلا آخر مملوءا بالحجارة الفخارية المحترقة، وزيرا كبيرا يرشح بالماء الرطب وعددا من القلل المغطاة فوق صينية.

بمجرد قعودنا جاءنا براد الشاي مع الأكواب على صينية تفوح بعطر الشاي المعتاد. يحملها شاب سمهري القوام حلو التقاطيع

أسمر الوجه كأبي ناس، خجول مؤدب؛ وضع الصينية بعد أن نظف الترابيزة بذيل قميصه الخارج من حزام البنطلون الكاكي. قال «مساء الخير يا معلم»، ورفع وجهه؛ ففي الحال تيقنت أنني رأيته في السجن من قبل وبقي أن أتذكر اسمه؛ قلت له «إستني يا جدع»، وأمسكت رسغه؛ فوقف يحدق في وجهي باسما كأنه هو الآخر تذكر وجهي. قلت له «إنت اسمك إيه؟»، قال «حداك بلال»! صحت جذلا «بس»، وقبلت قبضة يدي ثم فردتها وصفقت بها فوق كفه في حرارة «أريك يا بلبل! إنت طلعت إمتى؟» فأعاد النظر في وجهي بتدقيق وتركيز قال «العبرة»، قلت أنا حسن بتاع السلاح!» فأرتمى في حضني. وانضم أبو كريشة يرقبنا باسما كأنه قد وفق رأسين في الحلال بالها من مصرية عبيطة يا بوي: تحلف اليمين يا حال ما عشت في حياتي بكل هذه الحلاوة والعبطة. انجعصت كأنني السلطان برقوق، أرى الخلق يمشون على مسافات بعيدة جدا كأنهم الفئران، والسيارات تتدفق رائحة غادية، فخيل لي في عز الصهد أنني أعيش في جنة عرضها عرض السماوات والأرض في مدينة لم أعرفها من قبل يا بوي: وعجبت كيف أن في هذه البلدة ناسا لا يجدون لقمة خبز يتلقون بها وتحت بصرهم وسمعهم ناس يرتعون في النعيم بلا حساب دون أن ترتفع السيوف والحناجر لتطير الرقاب وتتقزز بطون اللصوص الذين سرقوا خيرهم. حمت أبرفة وحيرة لكنني تذكرت أنني في مصر أم العجايب التي تحمي جار اللصوص بل تقدسهم وترفع مقامهم بقدر كراهيتها لجوعى

والمساكين وأبناء السبيل الذين هم في العادة أغبياء عاجزون قليلو الحيلة قلم الإسلام أظافرهم وعشمهم بالحياة الآخرة. تحلف اليمين يا بوي صدقت حين نبهني المعلم أبو كريشة إلى أن هذا الطريق الذي تراه من بعيد هو طريق صلاح سالم، وأن هذه البناية مجاورة له على بعد قليل هي القلعة التي بناها صلاح الدين الأيوبي، بعد أن المكان الذي يجلس فيه هو برج الظفر، أحد أبراج سور القاهرة القديمة الذي انهدم ولم يبق منه سليما سوى هذا البرج، ليخرج من السجن فيحتله ويحيله إلى غرزة تدر الذهب ليل نهار. والله لقد حسدته يا بوي، لكني حمدت له شجاعته وذكاءه في الانتباه لهذا الموطن المجاني. قال أبو كريشة إن بلالا فعل ذلك بالاتفاق مع البوليس، ماذا وإلا عاد إلى نشاطه الإجرامي إذ أن قلبه ميت كما تعرف والقتل عنده كمثل واحد شاي. إنه ناجح، يفوت في النار والحديد، ليس يمشي على عمره أبدا ما أبسط أن يطبق في حدق أي ضابط، فكل الضباط تمشي على حيلتها معه يمكن أن يكسر رقبة الواحد منهم كالسيجارة، مع ذلك فهو لطيف جدا معهم، ومؤدب، وحنون، وشهم، ولذلك فهم يحبونه وفي نفس الوقت يتقون بطشه، يفوتون له مراجهم ثم إن أحدا منهم لايستطيع الوصول إلى هنا بسهولة، وحتى يصل يكون كل شيء قد صار على التمام فلا يجد الضابط شيئا يضبطه، والضابط في النهاية محتاج لصداقة بلال، لأنه يدله على ألاعيب اللصوص وعصابات المجرمين لكن حدثته أنه لايساعده في القبض

عليهم ولايمكنهم من ذلك بل إنه حريف في تعطيل الحكومة حتى يهرب صديقه اللص. ولد جدع بحق وحقيق

في تلك العصرية البهية رجع أبو كريشة إلى داره بعد صلاة العشاء وبقيت وحدي مع بلال. فلما جن الليل فوجئت بطوائف من الأندية المحترمين والمعلمين الكبار يهلون علينا بفاخر الحشيش والأفيون والكباب المشوي الساخن وعلب الكوكاكولا والبيرة. وحتى شروق الشمس كانت الطوائف مترال تنصرف، وقد عرفت أن البيت الذي اخترقناه لنصل إلى هنا هو بيت بلال، تسكنه عائلته، يعني لاحرج علينا أن دخلنا وخرجنا في أي وقت. في عشية هذا البيت عجوز ضامرة لم نرها عند دخولنا تتكور خلف الباب تقرر بفطرتها السليمة كل داخل لتعرف إن كان باحثا عن مراجه أم يقصد شرا بابن ابنها بلال؛ هي بارعة في إثارة الدمر إن تشككت في الوافد الجديد، لبعد برهة قصيرة يكون بلال قد نط على صوتها فصار في قلب البيت يرى بنفسه جلية الأمر

بلال مغرم بقراءة الصحف والمجلات والاستماع إلى الراديو إذ إنه من حملة الشهادة الإبتدائية، ومغرم بقراءة الروايات البوليسية التي كان يحضرها في السجن ويحدثنا عن مغامرات أرسين لوبين والمدعو جيمس بوند. في أصل ابتدا كان يقرأ الجرائد بحثا عن الوظائف الخالية ثم بات يقرؤها ليقف على أخبار الحوادث واللصوص وكيف خططوا ودبروا وهربوا من ثبوت التهمة، أما الروايات فكانت غرامه الأكبر، يتعلم منها فنون الإجرام المتقن

أصبحت أذهب إليه في باكورة الصباح فلا أنصرف إلا إن كان ورائي مشوار مهم عن شغله في الليل؛ وفي النهار يذهب لشراء المونة، ويكون مسئول الدار قد نشط في تنظيف براميل العجارة وتحضيرها وتسييحها، في مقابل أجر معلوم. وقت العصاري ووقت الليالي الخاملة نقضيه كله في القراءة حيث قطع على نفسه عهدا بأن يعلمني القراءة كما أردت، وقد فعلها يا بوي، أيقظ في صدري أصوات الحروف وذكريات الفتحة والضمة والكسرة والسكون، وأضاف مي قواعد النحو والإعراب، وهذه الأخيرة لم أفهمها جيدا لكنني في النهاية أصبحت أمسك بالجرنال وأقرأ فأعرف كل ما فيه، وأقرأ الرواية فأفهم كل شيء فيها. كل ذلك بفضل بلال في وقت لا يزيد عن عام. كنت من جانبي أساعده في الشغل، وأحشش وأنبسط آخر انبساط بل وأقبض بقشيشا ثمينا من الزبائن متريشين. طب ما قولك يا بوي أنني ولفت على بلال وبرج الظفر حتى صرت لا أرى شقتي إلا عند النوم. وكان مشمي أن يكون بلال سندا لي وعونا على إرهاب الموسات اللاتي سكنت بجوارهم. وطوال هذه المدة الطويلة لم أر البوليس في الغرزة أبدا. لكنني رأيت بسبوسة مرتين، مرة حين طرق الباب ذات ليلة ليبارك لي الشقة ويطلب حلاوتها، ومرة في الشارع وهو ذاهب لمشوار. قال لي وهو يسرع في المشي: «شلة المحس تسأل عنك، حاول أن تراهم». غير أنني كنت ميالا لنسيان الشلة ووجع قلبها، لكنني لم أكن أعرف أني محاصر منها يا حاج. فهي بنت مصرية رقيقة المشاعر. وربما كنت وبلال نتبادل القراءة في

رواية اسمها الكابتن مورجان، إذ بهمّ الموت يهبط علينا. أي والله يا بوي، بربش وعزولي وهندي، هكذا دفعة واحدة، فجاءة رأيت خيالهم يقترب منا. كيف دخلوا؟ كيف صعدوا ربوث الهديم؟ كيف لم نشعر بهم؟ هذا ما لم نعرفه يا بوي. إنما أنا أول من رآهم، فتسمرت في قعدتي مبهوتا لا أقوى على النطق بل إن قلبي سقط في بئر سحيق، ظننتهم جاءوا للبحث عني يا بوي. سرح خيالي بعيدا. تخيلت الماج السمي وقد اكتشف ضياع الآثار من مقبرته فحقق وتحرى ثم هاتوا لي حسين من تحت طقاطيق الأرض. أدهلني أن الولد بلال ما إن رآهم حتى انتفض قائما يرمي بالكتاب وهلل بالأحضان يا سلامات. وتعالى يا قبلات وروحي وجيئي يا شتائم بذيئة يقشعر منها البدن، فيما بينهم وبينه عجايب. أنتم تعرفون بلال؟ هكذا قلت وأنا أسلم عليهم. فنظروا لي ساخرين وعيونهم تقول: أتعرفه أنت؟

تكفل بلال بالجواب: «كنا زملاء في المدرسة يا أبا علي. بربش هذا زاملني في قضية شيكات بدون رصيد وشركة وهمية لتشغيل المصريين في الدول العربية! عزولي كان مكلف بالقبض علي في قضية سرقة بالإكراه واعتداء على الشرطة، وكان عزولي يقابلني كل يوم فيقتسم الفلة معي ويتركني أنام في بيتي. هذا المفتري كثيرا ما دلني على الضحايا التي يجب أن نسرق شيئا من ورائها». أما هندي فقد زاملني سنتين في قضية ترويج عملة مزيفة. إنها عشرة عمر يا أبا علي، عيش وملح السجن أقوى من

العيش وسمع أحمر وأنت أدرى طبعاً». ثم استكمل محوهم"
«وكيف حال مستوسة باشلة المحس والحريشة؟»، أشار بربش
نحوي بلهجة ذات معنى. «اسأل أبا علي؛ إنهما الآن حبايب سمن
على عسل. يخدمان بعضهما خدمات كبيرة من وراء ظهورنا؛
هنيئا لهما على كل حال؛ نحن لا ننكره؛ ولكن كنا نتشمم أن تكون
لنا الحلاوة ولو بسهرة صغيرة على القد؛ لكن هذه حال الدنيا؛ من
هو يعلو وعلى الباقي السلام». قلت مبتسما في زهو: «طلعوا
عليهم بربش؛ أما يا دوب سالمين من وجع الدماغ؛ وعلى كل حال
ها نحن التقينا وجاءت القعدة وحدها؛ أنتم الليلة ضيوفي». كان
الزهو يتيه بي لحظتها ليس لأنني تمهرت عنهم بشقة ثمينة يحلم
بها وكلاء الوزارات بل لأنني صرت أعرف القراءة وإن كنت غير
قادر على الكتابة إلا أنني أصبحت أفهم ماذا تقول الجرائد. قال
مرزلي: «الحب غيرها يا حسن؛ البنية نحن معزومون عند بلال منذ
شهر مضى؛ لا تأكل بعقلنا حلاوة؛ وعزومتك لا بد أن تكون
كبيرة لا أقل من خروف يذبح ودجاجة ويسكي تفتح وأوقية
حشيش تحرق في شقتك ومعنا بلال». «حقق قلبي يا بوي. أنا
تحت أمركم في اليوم الذي يعجبكم ورقبتي بدلا من الخروف».
قال بربش: «نحن معزومون وأنت معنا يوم الجمعة القادمة عند
الحاج أحمد نور الدين السني بمناسبة عيد ميلاد ابنه؛ تصور أنه
رعق لنا من أجلك؟ هل أننا أسأنا معاملتك حتى ابتعدت عنا وقال إنك
أجدع واحد فينا في نظره؛ طبيعة أنت وهو في يوم واحد».

ضحكت بغير اطمئنان؛ لكن صوتا في رأسي قال: رح معهم
ولا يهمك وضع أصبعك في عين التخين ما دام حاميها
حراميها.

في تلك الليلة سهرنا حتى شروق الشمس. ظهر لي بلال
أجدع وأرجل مما توقعت. دفع جديا صغيرا، واشترى دجاجتين
من الكوبابك، ونصف أوقية حشيش. جهز كل ذلك دون أن أعرف
وجاء به في وقته؛ فكانت ليلة ولا كل الليالي.

التاسعة ـ الولاعة المنسية

صرت أشتري الجرنال كل يوم طبعا يا بوي، بل صرت أحرص على شرائه وقراءته من الأفندية الذين يتأبطونه ولايقرءون فيه سوى اللافتات الكبيرة. أما أنا فأقلبه صفحة صفحة ركنا ركنا، سواء فهمت أو لم أفهم، فلعبة فك الخط نفسها لذيذة غاية اللذة يا بوي، ومن قال إني لم أفهم؟ لقد عرفت أشياء يكاد رأسي ينوء بحملها، وأسماء ما كان لي أن أعرفها من عماء الأمية رغم أنها الكل في الكل في حياتنا وأمورنا. عرفت من يكون الوزير ومن يكون الخفير، وما الوزير وما الخفير، حتى الانتخابات التي كثيرا ما دوشوا بها دماغنا في البلدة وتقاتل القوم بسببها عرفت حقيقة أمرها وعرفت الدار التي يجتمعون فيها ويتكلمون في أمور الخلق ومشاكل البلاد لكي يحلوا في النهاية مشاكلهم هم. عرفت ما معنى أمريكا وروسيا ومجلس الأمن والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. عرفت أننا والعرب أخوة في الدم والعرق والأرض واللسان كما أننا نصلي لإله واحد ويهددنا عدو واحد قصير القامة لكننا لانرى سوى ظله الشبحي مستطيلا إلى ما لا نهاية. فلما عرفت ذلك اندهشت يا بوي. كيف يكون إخوة

بكل هذا العدد وبلاد بكل هذا الاتساع ويهددنا عدو جربان اسمه إسرائيل؟ نحلف اليمين يا خال أنني ما كنت سمعت عن إسرائيل هذه من قبل. أصلهم ما أدخلونا مدارس منهم لله. ووالله العظيم ثلاثا يا بوي غير حانث ولا آثم إنني انقبض قلبي لما عرفت الآن أن خمسة من ولد أعمامي ماتوا في حروب معها هذه المدعوقة بجاز دون أن يعرفوا من هو العدو أو لماذا هذه الحرب. ما كنت أعرف شيئا من هذا يا خال، فمحمدين مات في السويس وهذه بلدة نعرفها ولنا فيها أقارب، وعريبي مات في سينا وهذه منطقة جبلية ما كنت أعرف أنها تبعنا لأني كنت أسمع الفقيه يقول إن الله كلم موسى فوق جبل الطور في سينا وأن موسى هو نبي اليهود، وحسان مات في الإسماعيلية التي كنت أعرف أنها بلدة البطيخ، وعوضين مات في العريش ولم أكن أعرف أنها من ضمن سينا، وصابر مات في بورسعيد. ماكان أحد يقول لنا إن التي قتلت ولد أعمامي هي إسرائيل، حتى أيام كنت أبيع أشاريب في المعسكر لم أكن أعرف شيئا من هذا. كل ما عرفته أننا في حرب، وأي حرب لنا لابد أن تكون مع الإنجليز، طول عمرنا لانعرف لنا عدوا غير الإنجليز، الدور والباقي على هذه التي طلعت لنا في البخت واسمها إسرائيل. سألت وأين يكون مكانها؟ قالوا في فلسطين في القدس الشريفة. شخصيب شوكة من إذن وانغرست في قلبنا. أول ما عرفت ذلك قلت من طستي: وإيه يعني؟ ننزعها ونرميها. الآن رجع لي عقلي فأيقنت أن نزعها يعوزه مخرجها فما العمل إذن يا بوي؟ وأنا مرادي الآن أن آخذ بثأر ولاد أعمامي؛

بعد ما يؤرقني الآن يا بني لكني قلت لنفسي: هذا موضوع كبير عليك يا ولد أبي حسب فدعك منه حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا

— «بنا يا رجالة؟»

— «على الظالم!»

ثم وقفنا لحظتين انتهت إلى أن الحشيش البريمو قد سرح بدماغي ونحن في جلوس في قهوة صفصف مصطبح عصرا وبهين؛ أدمغتنا قبل ذهابنا إلى حفلة عيد ميلاد ابنة الحاج أحمد نور الدين السني. طويت الجرنان ووضعته في سيالتي، ومضينا في الشارع العمومي لقيت ولدا ينادي على جريدة المساء فاشتريت واحدة وجعلت أتطلع في لافتاتها ونحن ماشين، وثلة العمس تتغامز عليّ وتضحك ملء الأشداق وأنا غير حافل بهم ولا بالسيارات الدائرة من حوالي

بش الحاج أحمد نور الدين السني حين رآني، تهلل اليمين كأنه مشتاق وبه لوعة: بالحضن يا ولد، فارتميت في حضنه شاعرا بالطمأنينة من ناحية حلقاتي النظيفة مثله وأكثر. صار الكروت ينعدي عن صدره ويحدق في وجهي وعيني بنظرات حبيبة ماكرة: «جبت الوجاهة دي كلها منين يا ولد؟ ما شاء الله! ما شاء الله! ربنا فتح عليك! أنت على كل حال تستاهل كل خير يا مقصوف الرقبة!» كان واقفا على باب الشادر ليستقبل ضيوفه، وثمة من يصطحب القادمين إلى الداخل. وكان

الشارع قد امتلأ بالسيارات الفخمة ذات المناظر الفاخرة اللامعة، بعضها بلوحات نمر زرقاء وحمراء وبعضها يرفرف على مقدمته الأعلام، ومنها ما يبدو أنه طالع لتوه من الفابريقة. وكان واضحا أن الحاج أحمد نور الدين السني مشغول بمقدم ناس مهمين إذ كلما هدأت سيارة تقدم ناظرا في داخلها مستعدا للترحيب. طالت وقفتنا والحاج مبسوط بوقوفنا معه بدون مشكل، وبدا بأس به في استقبال الوافدين. ثم إن سيارة فخمة مهيبة رست على الضفة المقابلة للشارع انفتح بابها ونزل منه سائق يرتدي بدلة سوداء، تقدم نحو كشك للسجائر وتكلم مع صاحب الكشك ولاحظنا أن صاحب الكشك يشير له نحو الشادر. فركب السائق ولف بالسيارة حتى حاذانا. السيارة بنمر قليلة العدد، ومكتوب عليها ملاكي أسيوط. هب الحاج للاستقبال هاتفا: «يا مرحب يا مرحبا». فنزل السائق مسرعا وفتح الباب الثاني فنزلت منه سيدة ترتدي أفخر الثياب، وفرو الثعلب على كتفيها، رأسها ملفوف بطرحة بيضاء من الحرير الشفاف يشي بوجه كالقمر، سمهرية القوام ممشوقة القد منضبطة الهندام والعضو كضابط أنيق مهيب. مدت يدها للحاج السني، فسلم عليها بحرارة شديدة، وانحنى فقبل يدها. كانت عيناها تخترقان قماش الطرحة وهي تحط علينا واحدا بعد الآخر مع ابتسامة تحية. لكن عينيها عندما وقعتا على وجهي تلكأتا قليلا ثم بان في نورها ما يشبه الدهشة أو المفاجأة، حتى أن العينين بعد أن تحولتا عن وجهي عادتا فنظرتا فيه من جديد بشيء من التأكد والاشتياق، ثم انصرفتا عني نهائيا

قلبي أكلني يا بوي؛ فهذه الساحرة المتنكرة في ثياب الأبهة تخفي وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر مني ومن عشرين من أمثال بربش وعزولي وبلال. يبدو يا بوي أن وحدة الصياعة والعربشة المطلة من عينيها هي التي جعلتني أحس لها كأنها ممن يهمني أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهي تختبر حربشتي أم هي تصطادني؟ أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد المخربش تقع على مخربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مزاج من الخوف وإرسال التحية. على أن الذي استقر في قعر دماغي يا خال هو أن هذه الحسناء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادني. طبعا يا بوي، فما الذي يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصي إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها. ولابد أنها في حورة مع مكسور العينين مهيض الجناح. أيًّا ما كان أمرها يا بوي فقد وجدتني أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفي، والحاج السني يحاذيني ويمسك خلسة بأطراف أصابعي هامسا في تمهيد شفقي «بالراحة! بالراحة!». فهدأت من حصوي، ولاح لي أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشي في حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا في انبهار «من الأميرة هذه يا حاج؟». فمال على أذني هامسا في جدية شديدة «دي هي الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها في مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفي من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط"». وعمري لأسكته فقلت في لجاجة «لكن ما شغلتها يا بوي؟ أسألك عن شغلتها!». عمري مرة أخرى، قال في حدة «عرافة! لامثيل لها في العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكم!». ثم نكزني وتقدم إلى البوابة الكبيرة ففتحها كي لا تنحني الشيخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال، بحر من الأضواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء ومدرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات والجواري يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد المبسطة على الأرض والجدران ومدرجات السلم العريضة التي تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف في أي طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكنني أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السني ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كفرس النبي، ومن خلفي شلة العصص التي صارت تتكاثف وتترادف، ويقرصني همسهم بأن الله قد نفخ في صورتي؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر في بالي أنني لابد أن أكون محترما في حضرة الشيخة سعادة بأي شكل: لا أدري يا بوي كيف جاءني الوحي بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحي قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتجود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

قلبي أكلني يا بوي؛ فهذه الساحرة المتنكرة في ثياب الأبهة تخفي وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر مني ومن عشرين من أمثال بربش وعزولي وبلال. يبدو يا بوي أن وحدة الصياعة والعربشة المطلة من عينيها هي التي جعلتني أحس لها كأنها ممن يهمني أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهي تحتبر عربشتي أم هي تصطادني؟ أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد المعربش تقع على معربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مزاج من الخوف وإرسال التحية. على أن الذي استقر في قعر دماغي يا خال هو أن هذه الحسناء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادني. طبعا يا بوي، فما الذي يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصي إلا إذا كانت نائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها. ولابد أنها في حورة صبي مكسور العينين مهيض الجناح. أيًا ما كان أمرها يا بوي فقد وجدتني أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفي، والحاج السني يحاديني ويمسك خلسة بأطراف أصابعي هامسا في تحذير شفقي «بالراحة! بالراحة!». فهدات من حصري، ولاح لي أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشي في حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا في انبهار «من الأميرة هذه يا حاج؟». فمال على أذني هامسا في جدية شديدة: «دي هي الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها في مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفي من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!». وعمرني لأسكت. فقلت في لجاجة «لكن ما شغلتها يا بوي؟ أسألك عن شغلتها!» عمرني مرة أخرى، قال في حدة «عرافة! لامثيل لها في العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكم!» ثم نكرني وتقدم إلى البوابة الكبيرة فقتحها كي لاتنحني الشيخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال، بحر من الأضواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء ومدرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات والجواري يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد المبسطة على الأرض والجدران ومدرجات السلم العريضة التي تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف في أي طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكني أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السني ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كفرس النبي، ومن خلفي شلة الصحب التي صارت تتكاتف وتترادف، ويقرصني همسهم بأن الله قد نفخ في صورتي؛ وأما أكتم الضحك وقد وقر في بالي أنني لابد أن أكون محترما في حضرة الشيخة سعادة بأي شكل: لا أدري يا بوي كيف جاءني الوحي بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحي قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتحود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

بنظرة مشرقة ينجاب في ضوئها عن وجهها قماش الطرحة البيضاء الحريرية فأرى على وجهها سعادة فائقة، حقا صدق من أسماها الشيخة سعادة..

صرنا في مواجهة بهو كبير ممتد كسرادق عظيم فخم، يحتشد بالأضواء الملونة الخافتة ينبعث منها الهدوء والدفء كأنها شموع خفية، يحتشد كذلك بطنين خافت لكنه عميق تسمع في أعماقه دورة آلات موسيقية حبيبة ودندنة أصوات سرحانة بنفسها و ماكل هذا البشر يا حال؟" تحسب اليمين أنه قاعة السينما أو مسرح الريحاني، كلهم يجمعون ينقلدون البكوية والبشوية وثمة خدم يلبسون الطراطير والجبب المزركشة بالقصب يمرون بين الجلوس حاملين الصواني الملآنة بالكئوس المترعة بجميع أنواع الخمر. ينعطفون نحو الجالسين في حلقات حلقات جماعات جماعات أسر أسر، فإذا بكل واحد من الجالسين يأخذ من فوق الصينية صنفا صنفا من المشروب الذي تحفل الصواني بجميع أنواعه ألوانه ماركاته، نساء كجمار النخيل يا حال، ورجال كنوار القطن تنعكس عليهم الأضواء بألوان خلابة، والجميع في شرب ولغو هامس وضحك رنان ضحك النساء هو الأوضح كنقرات الإيقاع كشخللة الدفوف في معزوفة فرحية بهيجة، تنبعث من كل جميلة شقشقة عصفور أو عصفورين. من الواضح يا حال أن محلا كبيرا من محلات الخمور و الأطعمة والحلواء قد تكفل بإحياء هذا الحفل الكبير أما المقاعد والسجاجيد فكلها ملك الدار وهي راسخة في

مكانها متصلة على أماكنها، فهذه خمينة من الكنب البلدي الفاخر، وأخرى من الكنب العباسي المطعم بالأصداف على شكل المشربيات، وثالثة من صالونات القصور المذهبة بمساند على شكل التاج الملكي، ورابعة من أسرّة وأرائك فرعونية كالتي نراها في صور توت عنخ آمون ولد بلدي، وخامسة من الشلت والبفت الجلدية والحصير الخشبية المنجدة كالتي نراها في معروضات خان الخليلي، وسادسة وسابعة وعاشرة على امتداد بهو طويل عريض تتخلله حواجز رمزية من ستر وعمدان وقوائم خشبية مشغولة كالمشربيات متحركة

جعلنا نمشي كالبلهاء نتصادم في الخدم والموائد، والحاج ماضٍ أمامنا بنفس مشيته التي يمشيها وهو ذاهب إلى المسجد، محني القامة قليلا مبرزا من بين كتفيه ما يشبه القتب الخفيف، واضعا يديه خلف ظهره فوق مؤخرته تماما، والمسبحة تتدلى بينهما، وشفتاه تسبسبان كالعادة بكل ما تيسر من التسابيح والأوراد، ظلال لحيته الطويلة ترتفع وتنخفض صاعدة هابطة فوق الأجساد والكئوس والأعمدة واجهنا مربع محدد بسور من الخشب يرتفع عن الأرض بأرض خشبية ارتفاعا مقداره ثلاث درجات سلم، يجلس فوقه فريق من الآلاتية والمغنيين وفي المنطقة المجاورة لهذا المربع تجلس وجوه كثيرة مشهورة كلها ممن تنشر الصحف صورهم وكنت أعرف أن وراء هذا المربع المسرحي غرفا صغيرة كغرف الحرملك ومحلات أدب، ووراءها فراغ السقف كشرفات متعددات وأفاريز عالية مخروطية

اقتادنا الحاج إلى أكبر شرفة، وهي خلف مربع المسرح مباشرة ويستطيع الجالس في نهايتها قرب الخلاء أن يرى كل ما يدور على المسرح وفي بقية القاعة عبر ممر في عرض المسرح، في حين أن الجالس في القاعة قد لايتمكن من رؤية الجالس في هذه الشرفة. أما الشرفة فمفروشة بمقاعد وأسرّة لا مثيل لها، لا أحد يعرف إن كانت من الخشب أم من الذهب، محشوة بالقطن أم بريش النعام. ثمة ناس كثار يجلسون متربعين كالعمد ومشايخ العرب. أمامهم الكراسي العباسية فوقها الصواني الفضية تعج بالكئوس والزجاجات من كل الأشكال والألوان. ما إن رأوا الشيخة سعادة مقبلة عليهم حتى انتفضوا جميعا واقفين كأنما دخل عليهم أبوهم المرعب. توقفت الشيخة سعادة لبرهة طويلة، ثم تقدمت لتسلم على أقرب واحد. وصار الحاج من جوارها يبلغها اسم كل من تسلم عليه ووظيفته، وعند الوظيفة العظمى يمسك عن ذكرها ويكتفي بتفخيم الاسم وتفخيمه. فلما جاء عند الرجل الشبيه بأنور السادات الخالق الناطق أشار إليه برعشة خجل مصطنع كهين، قائلا: «محمد بك أبو شناف! طبعا تعرفينه!». فهزت الشيخة سعادة رأسها وكررت السلام بحرارة: «أهلا! أهلا وهل يخفى القمر؟». فاستدرك الحاج: «... ولما علم أنك ستشرفيننا الليلة كاد يرقص من الفرح! وقد شرفنا بالحضور وأمله أن تقتني له الكتاب». قالت الشيخة سعادة: «ربنا يوفقنا في خدمته، إن كتابه مفتوح وليس محتاج إلا لمن يحسن قراءته». ابتسم محمد بك أبو شناف عن حنك واسع وقال: «هذه إذن هي مهمتك». وبدا

في نبرة صوته كأنه يصدر أمرا بذلك، وكانت زبيبة الصلاة على جبينه المزرق تبدو كالمرسومة بهباب الفرن أو كحبة توت مشبوكة في لحم جبهته المتثنية، أخذت تعلو وتهبط علامة المرح وهو يستدرك: «ولكن عفوا ست الشيخة، إن كتاب حياتي حافل وصعب ومكتوب بكل اللغات». فقهقه الحاج السني وبعض الحاشية، مع أفرى محمد بك أبو شناف بالقهقهة معهم كأنه قال دررا نادرة. قالت الشيخة سعادة: «كتاب المرء مقروء إلا لصاحبه هو نفسه وقد من يستطيع قراءة نفسه!». الغمزة ثبتت الزبيبة في جبهة محمد بك أبو شناف فأخذت تنتفض، فيما استدركت الشيخة سعادة بسرعة: «إني على كل حال لست راجمة بالغيب! ولست عالمة به أو بأي شيء من أمره، إنما أملك مرآة ورثتها عن أجداد أجداد أجدادي! وقد وهبني الله حاسة أرهف ونظرة أعمق وأبعد وعقلا أقدر على ربط الأمور والأشياء ببعضها! قد أصيب وقد أخطئ، لكن الصواب والخطأ إنما يكونان على قدر ما في نفس صاحب الكتاب المقروء من صفاء أو كدر، من روقان أو عبوس، من شفافية أو إعتام. وفقنا الله ووفقكم إلى فهم أنفسنا على خير ما يمكن!».

قالت هذا وهي مطرقة برأسها في قليل من الحياء وكثير من الأدب، فيما كانت الزبيبة على جبين محمد بك أبو شناف قد تجمدت تماما في مكانها، وصدر منه الأسعر يتدلى فيما لا نعرف إن كان يبتسم أم يتلمظ، لكنه قال بشيء من الشهامة مشيرا إلى

مقعد بجواره «تفضلي بالجلوس!». فاستوت الشيخة سعادة جالسة، وكانت قد خلعت قلبي بكلامها. ثم إنني تأهبت للانطلاق إلى الحفل، لكنني ما كدت أستدير في الممر النازل إلى قاعة الاحتفالات حتى رفعت الشيخة سعادة ذراعها مشيرة لي. «تعال ياولدي! ما اسمك؟» «شفشت من الفرح. «حنانك حسن أبو ضب». هزت رأسها كأنها تقول: «أعرف» وأحسست أنها تعتقل ابتسامة شقية بين شفتيها الدقيقتين! وتبسم الحاج السني قائلا في شقاوة صبيانية مرحة: «تعرفينه يا ست؟ لنتما بلديات على كل حال!» قالت: «ابعى مساعدا لي في مهمتي الليلة! وقد توسمت فيه الطهر والعفة!». الصياعة كلها لعت في عيني الحاج السني، فاندفع ضاحكا ببهجة حادة ذات معنى وهو يهز في وجهي: «هذا؟ آه من هذا!» ألقيت إليه نظرة استرحام، لكن الشيخة سعادة ردت مسرعة: «أعرف إنه ربما ارتكب بعض المعاصي تحت ضغط قاهر لكن من المؤكد لي أن قلبه سليم! ودمه نقي! وصدره خال من الشوائب والأحقاد! وضميره منها للصمو في كل لحظة! لولا أن الحجة أحيانا تكون أقوى منه! كفانا الله جميعا شر الحاجة والعوز! إن الله سبحانه وتعالى يغفر للمحتاج!». الولية تعرفني إذا يا حال، تحلف اليمين كأنها نشأت معي، لكنها يا حال تبدو كما لو كانت تقول كلاما حفظته من قبل ودربت على نطقه. قال الحاج بنفس الشقاوة: «هات كرسيا يا ولد واجلس بجوار الشيخة لا تبرحها أو تعال فاجلس هاهنا مكاني!». وتخلى عن كرسي خشبي منجد كان يجلس عليه بالعرض، أما أنا فاستويت عليه

مؤقتا بعد أن عدلته لأتمكن من رؤية الفرقة كلها! لكنني بعد أن جلست داخلني الكثير من الكدر والضيق والندم! فمنذ هذه اللحظة قد حرمت على كل هذه الخيرات المبثوثة هنا بغير حساب، وقد كنت أمني النفس بجمع كئوس أرطب بها جوفي الصادي، فكيف أشرب الآن يا بوي بعد أن شهدت بي الشيخة سعادة بهذه الأوصاف؟ الحق لله أن حالة من الرضاء عن النفس رطبت جوفي يا بوي. أهكذا أنا إذن وأنا لا أدري؟ كيف يا حال؟ لعن الله الشرب بعد الآن، ولكن لا، فلتكن هذه الليلة هي آخر الليالي التي أعصي فيها عصيانا بسيطا!

ثم ظهر الحاج السني مقبلا من شرفة جانبية خلفه سنيورة كيميت من بنات الصور اللاتي تحكي عنهن الحواديت. فرع من الزان السرح له بروزات شيقة دقيقة من الخلف والصدر، وعنق من المرمر، ورأس مدبب الذقن كرأس نفرتيتي، أي والله يا حال أميرة فرعونية من سلالة لم تنقرض بدرنها. تحلف اليمين يا بوي إن الحاج السني لابد أن يكون قد عثر عليها حية في حفرية فاقتناها وألبسها فوق لبس العصر حليها القديمة. قلت لنفسي: لايمكن أن تكون هذه هي ابنته صاحبة هذا الحفل المهيب البهيج! في نفس الوقت لايمكن أن تكون من بين الفنانات المشتركات في الحفل: فمثل هذا الجلف الصدي لا يخرج من صنعه هذه القشدة الطازجة، والفنانات عندنا ليس يعرف عنهن هذا الوقار الجميل وهذا الكبرياء الشامخ الذي لاشك ورثته كأميرة من ظهر أمير

يا "نهر بالي عنها، وهي تتقدم مقبلة، ورائحة عطرها القروسوقرطي يغطي على كافة العطور المنتشرة في القاعة. اقترب الحاج السني من الشيخة سعادة وانحنى مشيرا إلى السنيورة الفارعة "ياقوت القلوب! ابنتي!". فنهضت الشيخة سعادة وعانقتها وقبلتها في وجنتيها، والحاج السني يواصل الكلام في نبرة راعشة شجية "ما عندي في الدنيا سواها! لا ولد ولا زوجة ولا أحدا منذ أن استرد الله والدتها حرمت على نفسي الزواج ووهبت كل وقتي وحبي لياقوت القلوب! مناي كله أن يأخذ الله بيدها ويفتح لها أبواب السعادة على مصاريعها! تعالي ياقوت القلوب وسلمي على عمك محمد بك أبو شناف!". فلمعت الأسنان المعدنية المحدودبة في حنك محمد بك أبو شناف وتراقصت الزبيبة على جبينه وهو ينتفض واقفا. ولولا الحياء من الشيخة سعادة لالتهم البنت في أحضانه ومصمصها بشفتيه هاتين الغليظتين الشهوانيتين. يا لهول يا حال! إن البنت شعرت بالرعب لما واجهته، فتسمرت في مكانها برهة ثم تقدمت خطوة واحدة على حذر، وانحنت قليلا لتختصر المسافة بينهما، مادة أطراف أصابعها وهي تضحك في حذر؛ ثم اضطرت للسلام على بعض القريبين منه لأنهم تهيأوا للسلام عليها. قال الحاج السني: "فتستأذن منك ياقوت القلوب يا ست الشيخة لتحتفل بصاحباتها وفي آخر الليل تجيء لك لتنفردين بها على رواقة!". هزت الشيخة سعادة رأسها في أريحية: "ليلة سعيدة يا ياقوت القلوب! إن شاء الله نحضر في الليلة الأكبر وأنها لقريبة بعون الله وفضله!". فضحكت البنت في

خجل وتفاؤل، ثم هزت رأسها مستأذنة ومضت. تابعت مؤخرتها الساجية حتى اختفت في ممر الشرفة الجانبية. أما الحاج فقد راح يتحكك في الضيوف كالديب الأبلق. ثم ما لبث حتى اختفى. إن هي إلا برهة حتى دعيت الشيخة للعشاء فنهضت ومضت خلف الداعي في ممر الشرفة الجانبية. فانتهزت أنا الفرصة وقمت أطوف حالي أبحث عن شلة النحس. مضيت في نفس الممر، مررت بأكثر من شرفة، هبطت سلما إلى الدور الأسفل، فإذا أنا بقاعة تمتلئ بالموائد الصافنة. كلها مستديرة وكل مائدة يلتف حولها عشرة أشخاص. تقوم عليهم مجموعة خدم يرفعون الأطباق ويضعون غيرها حتى يجيء حلو الختام إيذانا لهم بمغادرة المائدة ليتم تنظيفها في الحال ليحتلها عشرة آخرون. كانت شلة النحس منهمكة في غسل أيديها إلا بسبوسة. فقد كان قدما بتوه صاعدا من أسفل احتضنته، ثم جلسنا معا على مائدة واحدة. جيء بسلطانيات الشوربة، ثم أطباق الخضار باللحم، ثم أطباق المحشي على مختلف ألوانه، ثم الشعرية بالفراخ، ثم أطباق الأرز بالصلصة، ثم أطباق الفاكهة من برتقال وموز وتفاح وتين وبلح وعلم جراء، ثم أطباق خير حلو اسمه الجلاش، ثم المهلبية والأرز باللبن. مسك الختام فانتهض يا بوي! في طريقي إلى دورة المياه لغسل يدي لمحت غزولي في نهاية القاعة قرب السلم، فصمر لي شفتيه وعينيه في اتجاه الصعود، ولما رآني تعثرت في الفهم شوح بذراعه نحو غرفة البرج الفوقانية. هززت رأسي بالفهم والموافقة ومضيت فغسلت يدي مسرعة ثم اتجهت إلى السلم. لاحظت يا

بوى أن الرجل المهيب قد رفع كل التماثيل والتحف والانتيكات التي كانت متناثرة في كل مكان، لم يبق إلا على اللحمية داخل دواليب زجاجية مغلقة بأقفال خفية. رجل كهين يا بوى وليس سهلا أبدا أبدا أبدا.

ظننت أن شلة الحمس تريد أن تقيم لنفسها قعدة جانبية في غرفة البرج تشوف مزاجها يا بوى، حقها. صعدت السلم يا بوى، مررت في صعودي بضجة الفرح صاعدة من بئر السلم وقد بلغت الصهللة مداها يا بوى، وثمة مغنية من مغنيات الراديو تغني إبوه آه، وعشرات من الأكف البلهاء تصفق لها على الواحدة وزغاريد. على السطح فوجئت بحفل آخر، نفس الأضواء، نفس التجهيزات ولكن بستائر ملونة فوقها شلت. والجوز شغالة تبرق باللهب بين مجاميع متعددة، وكل من عروالي وبربش وهندي ممسكا بجوزة ومصفاة نار متوليا سقيها جماعة. كان بسيوسة قد لحق بي على البسطة الأخيرة للسلم وهمس في أذني قائلا فيما متباطئا في الصعود.

- دمثك لايجلس مع العظم الثقيل يا حمص، إنما مبرر وجودنا معهم أن نكون خدما لهم. خدم خدم المهم أن نذوق طعم الحلاوة، الحشيش البريمو العالي! الشمبانيا والويسكي والكرفورية، هؤلاء الذين تراهم أمامك الآن بين برق الحجارة ولهب الكيف هم صفوة من يملكون الأمر والنهي في البلاد، ليسوا أصحاب مناصب ولا يحزبون، الصحف لاتعرف صورهم

ولا أسماءهم، كما أنهم لايدخلون معارك انتخابية ولا ديوانية، يتركون غيرهم يقوم نيابة عنهم بتدبير المكائد ودس الدسائس ولبس العوازيق النهائية وهم - هؤلاء - جالسون يحششون ويسكرون ويرقصون في أثداء الراقصات في أحسن الليالي من أشد الأزمات التي تمر بها البلاد، يقولون إن الثورة أممت الأراضي والشركات والمصانع وصادرت الباشوات والإقطاعيين، أما هؤلاء الذين يجلسون أمامك الآن فإنهم أمموا الثورة نفسها!! إنهم فتوات التنظيم، ترى أبناءهم وأبناء عيشهم يكتبون افتتاحيات الجرائد ويتكلمون بالإرهاب في الإذاعة ويصيحون بالحماس في سرادقات المحافل ويعيشون نفس الحياة التي كان ينعم بها الباشوات في عز ثرائهم، يلحقون أولادهم بالمدارس الأجنبية يستعيرون لهجة الميوعة والمشوبة تقليدا لأبناء الباشوات. إنهم يملكون الأموال والنفوذ ويمولون كافة المعارك بجميع أنواعها ابتداء من معركة في حارة درب عجور بين اثنين من متسلقي الاتحاد الاشتراكي إلى معركة بين عبدالناصر وعبدالحكيم، ومنهم من يلبس ثياب الثورة وهو من ألد أعدائها! وقد سمعت الحاج السني ذات مرة يقول إنه لا يستبعد أن يكون هؤلاء لهم دخل في المعارك بين أمريكا وروسيا، وبين روسيا والصين! وهم وراء الموارنة والشيعة في لبنان! والأكراد في العراق، والبربر في المغرب! والجنوب في السودان! والإخوان المسلمين ومسيحيين في مصر، هكذا قال الرجل الكهين مصمصمة لسانه عن هؤلاء، رأيي يا حمص أن تبعد عن هذه المجموعة، فلو عرفوا أسماءنا

وشخصياتنا فلن نفر منهم إلى الأبد! سنبقى مدى الحياة خدما لهم! يغروننا بالفتات الدسم لكن أحذيتهم فوق رؤوسنا!" دعنا نكون أذكى منهم فنلتقط الفتات من بعيد لبعيد من وراء ظهورهم! إنهم لابد لهم من إلقاء الفتات في صفائح القمامة مالم يكن هناك من يلتقطه من تحت أقدامهم مباشرة!" فرولي وبريش ومعدي أرباب سوابق محترفين جعلوا من أنفسهم صفائح زبالة تلقى فيها كل الفضلات النتنة!" تعرف؟ وسمعت الليلة أنك ابن نسل طاهر طيب! وأنا أبشرك! من الليلة ستكون صاحب الحظوة عند الحاج السني وكل أتباعه ومعارفه! هنيئا لك ياعم! فأنا إذن يحلو لي أن أنصحك نصيحة أخ غالية. ابعد عن شلتنا هذه نهائيا! شلة النحس ما أقصد! أنت لست مثلي عديم المؤاخذة! أنا أعرف كيف أسلك معهم دون أن أتلوث بقذاراتهم! ولكن تعال. ففي غرفة البرج ناس أعلى من هؤلاء الذين يملئون السطح وأهم بالنسبة لنا ولابأس أن نكون خدما لهم! إن الخدمة عندهم شرف لنا يعطينا هيبة وأبهة ومهابة! محمد بك أبو شناف الشهير بسندرل نظرا لإفراطه في الأناقة ولبس الشباب رغم أنه عجوز كركوب! ويحب الفتيات الصغيرات! رجل متصل بالرئاسة شخصيا! لا أحد يدري ما شغلته في البلاد بالضبط لكنه وارد في كل مناسبة واسمه مدرج في كل مصيبة! يقال إنه المضحك الخصوصي للرئيس وأن الرئيس يعتمد عليه في كثير من المهمات والمشاوير كما أنه سفير للرئيس في كل مكان يتحرج الرئيس من ارتياده! هو رجل مرآة حل بالك! لكنه خفيف الدم مسمسم! غير أن احترامه من احترام

الرئيس مع الأسف! وهو وزوجته دائران على حل شعرهما في كل مكان لا تقف أمامهما حواجز أو سدود! كل واحد من ناحية! ولهما صداقات عالية المستوى في جميع أنحاء الكرة الأرضية فيا لطالعك! تعال نقتحم مجلسهم لترى بنفسك".

كف الكلام. قد صرح بنا إلى حافة سور بعيد وقفنا مستندين عليه. ومصر عتيقة من تحتنا سديم قديم ذو قباب ومآذن تسبح في برك القمامة ومياه الصرف والكآبة. وعلى البعد تبدو القاهرة مثل جلابية أمي السوداء تبرقشها نقوش بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء. لحظتها جاءني خاطر يقول لي: خير لك يا ولد أبي ضب أن تنسلخ عن هذه المدارات كلها وتبحث لك عن فلك جديد تربط نفسك في مداره. وجاءني خاطر آخر يقول: وهل تقدر على ذلك يا ولد أبي ضب؟ ما أنت ترى أن جميع المدارات تؤدي كلها إلى فلك واحد كما أن جميع الأفلاك والمدارات زفت والعراي. فشعرت يا بوي بهذا الخاطر يقبض على ذراعي يكاد يقرصه بوجهه؟ فإذا هي قبضة بسيوسة ممسكة بذراعي تسحبني إلى غرفة البرج.

رأينا محمد بك أبو شناف جالسا في الصدارة متربعا وسط مجموعة من أتباعه كالعمدة يرتدي جلبابا واسعا من الصوف بأكمام واسعة ومن تحته الصديري الشاهي المعتبر، وفوق رأسه طاقية من الصوف، كالزعبوط، وعصاه الأبنوس أم عوجاية مركونة خلف ظهره. أما بقية الأتباع فيرتدون فاخر البدلات

وربطات العنق المفكوكة قليلا كما أن أزرار الياقات الحريرية مفتوحة وفوقها الصديريات؛ أما السترات فمعلقة على مشاجب أنيقة مزروعة في الحوائط. أمامهم الصواني الفضية عليها الكئوس مترعة بجميع أنواع المشروبات. وثمة أفندي أنيق غاية الأناقة من الواضح أنه عربجي أصيل رغم الوجاهة والأبهة قد راح يقوم بالواجب خير قيام، تحلف اليمين لا أنا ولا أجدع مني يشخط هكذا. وثمة أفندي آخر لايقل عنه شياكة ولا أبهة راح يوالي تقليب النار وتكسيرها وتحسيرها في المصفاة ليغترف منها بالملقة ويضع على الحجر بحيث لاتتوقف الجوزة عن دورتها لحظة.

بدا أنه لا مكان لنا بسبوسة وأنا؛ شعرت أن وقفتنا على الباب سوف تطول، لكن بسبوسة بوجهه المكشوف دفعني نحو الباب قائلا: سلام عليكم. فإذا بهم يردون السلام ويتبعونه بكلمة: تفضلوا. فما أن دخلت حتى تقدم بسبوسة دون إذن أو دستور نحو صينية النار، فتقرفص بجوار الأفندي ساحبا الصينية نحوه، ثم التقط الماشة مع المصفاة وورقة التهوية، ثم اندمج في مباشرة العمل. فانزاح عنه الأفندي قائلا: «كنت فين من الصبح». وكان عليّ أن أفعل مثل بسبوسة، فصافحني الأفندي الممسك بالجوزة ومددت يدي فوضعتها على الجوزة قائلا: بعد إذن سعادتك متركها لي في الحال. فنزعت عنها الحجر المحترق ونفخت دخانها وسيَّحتها بسرعة ثم أفرغتها في جردل معد لذلك وملأتها

في جردل آخر به ماء مثلج نظيف. كان الدور على محمد بك أبو شنافه، فمددت له البوصة قائلا: مساء الخير. وانحنيت أمامه حتى يشرب براحته. فالتقط البوصة بأطراف أصابعه الطويلة السمحة، ووضعها بين شفتيه الغليظتين، وطقطق ثم شد نفسا واحدا كاد يخنق منه الحجر؛ فعرفت أن أبخرة الويسكي وريق الأفيون يدخنان الدخان الدهني لدخان حامي الوطيس. أما الأفنديان اللذان كانا يتوليان أمر النار والجوزة فقد توليا أمر مرجيحات والكئوس دراية من آخرين كانا يقومان بنفس العمل من نفس المجلس. الأفندي القريب مني تكفل بي، والأفندي القريب من بسبوسة تكفل به. كأس وراء كأس وحجر يتلوه حجر صرت كأسي مجرد سحابة من هذا الدخان. آخر تمام يا بوي. ورنت الساعة في معصم أحدهم فنظر فيها قائلا: «إلى برى الفرح». قالوا جميعا: «وجيه» وتأهبوا للنهوض.

كان علينا أن نبقى، بسبوسة وأنا، كي ننظف المطرح ونلم العدة. إذن يجب أن نحمل بأكلنا على الأقل يابوي. وهكذا نظفت المطرح ثم رتبنا حسابنا؛ وقد راعني أن وجدت بين ثنيات المساند هدرا لمهنا، ولاعة ذهبية في حجم علبة ثقاب ثقيلة. عليها رسوم ونقوش ماودا، ذهبية كالى رأس ملك الرمان شخصيا. قطل من بداو ا. وعمها قطعة حشيش في ورقة مبرومة. بعينة الفوى، أصدم الذي قال أما هذه فمن نصيبي وأخذ الولاعة فتحت أصابعه وصح لي في الحال أنها تخص محمد بك أبو شنافه

ولابد أنه حبطها من أحد الملوك العرب، وهي لن تفيدني، إذ أنها ستفضحني لو استعملتها أو فكرت في بيعها يا حال؛ المرء لابد أن يحسبها جيدا يا حال؛ وإن فرحة صاحبها بعودتها ألذ عندي من فرحتي بها يا بوي؛ لأن فرحته هذه ستحل في الحفل تأكيدا جديدا على طهارة عنصري الذي أعلنته عليهم الليلة الشيخة سعادة. وهكذا انطلقت لاهثا أجري كي أحظى بشرف التبليغ قبل أن يبعث هو من يسأل عنها ويركب على أكتافي. قال بسبوسة في فضول «ما وجدت يا أبا علي؟». قلت: «تعال!»

هبطت السلم جريا إلى قاعة الاحتفالات في الطابق الثالث من الدار. كان الفرح حابكا، والجميع غائب عن الوعي، وراقصة لعلها سهير زكي، مدملجة مرتطة الجسد كالرخام الشفاف تتلوى على المسرح كعامود من الضوء يتصاعد من حلة موسيقية تغلي بالإيقاعات الحادة الحراقة في نشوة بالغة. فالجميع ثمل حتى سحب الدخان المتصاعدة من السجائر والشلابين. جنة هذه أم جنون يا حال؟ وصلت إلى قرب المسرح أتخبط كالدخل الأعمى من فرط السكر والسطل والهياج. صارت عيني تقع على وجوه الجالسين فلا تعرفهم إلا بعد تدقيق وفحص طويلين. تجاوزت المسرح إلى الشرفة الملغمة فما وجدت أحدا؛ فقفلت عائدا أبحلق في وجوه الصفوف القريبة من منصة الرقص. ميزت عيني سعادة تجلس في الصدارة بيدين تستندان على مقبض العصا، وبراس من غير رغبوط. حرمت عليه مباشرة. فلما اردمت قربا

منه لاحظت وجود الشيخة سعادة بجواره. عجيب لأنني مررت عليهم من قبل وتوقفت أمامهم فلم أتعرفهم. تقدمت من محمد بك أبو شناف، شجعني بابتسامة استهلال حذرة تشي بخوف غامض خفي من احتكاك أمثالي بمثل هؤلاء الأسياد خاصة إن كانوا أسيادا ضياعا في الأصل كمحمد بك أبو شناف، وبقد شممت رائحة خوفه تلوح من جوفه حين فوجئ بي أميل على أذنه، التي - مع ذلك - سلمها بي في طواعية، فهمست فيه بكثير من الحرج «سعادتك نسيت شيئا فوق؟». نظر في وجهي بارتياب شديد؛ طاشت من عينيه طلقات كثيرة متوالية ترميني بالشك والاتهام فأصابني الرعب يا حال. وكنت ممعنها تجاهه فخفت أن تصطك ركبتاي ببعضهما لشددتهما وشددت لساني ليتحرك في حلقي؛ قلت على الفور وأنا أبرز الولاعة الذهبية أمام عينيه «قد وجدت هذه بين المساند». فروى ما بين حاجبيه متمعنا فيها دون أن يلمسها أو يحفل بها، ولوى شفتيه قائلا «لا! لا شأن لي بها!» فوضعتها في جيبي. وكانت الماشية كلها قد لاحظت كل شيء مع ذلك. تلكأت في مشيتي في انتظار أن يستوقفني أحدهم قائلا إن الأمانة تخصه؛ لكن شيئا من ذلك لم يحدث يا بوي، فانسللت خارجا من إطار المجلس، أتعثر في الأضواء والموسيقى المجنونة و يا بوي واه؛ لقد حانت مني التفاتة عابرة نحو الشيخة سعادة، فتلامست نظرتي بنظرتها عبر الطرحة الحريرية البيضاء فأصابني منها لسع حارق يا حال. تحلف اليمين يا بوي أنها بعينيها نظرة أمي ولسعة البرق هذه لم أعرفها إلا في عيني

أمي لحظة تضيق بأخلاقي وتيأس من صلاحي. أرعبتني يا بوي وكدت أقع من طولي. وقد دهمني شعور بالرهبة من أنني أتيت أمرا أغضب الشيخة سعادة. نعم يا بوي، لقد خيبت ظنها بي. العمايل التي عملتها في روحي يا بوي، شعرت أن الطريق مسدود وأن لا أمل في عفو الشيخة سعادة إلا بعد لأي شديد. شعرت كذلك أن أيام نحوس قادمة سوف تعترضني لا محالة. وحطت على كآبة ثقيلة يا حال، وباخ العقل في عيني، وتحولت الراقصة إلى حية رقطاء تتلوى تبخ السم حيثما ترنحت. لله در محلق من نفوسهم الأمارة بالسوء. وهكذا يا حال رأيتني أجلس في الشرفة الخلفية وحدي على يميني القاهرة وعلى شمالي الفسطاط وتحت قدمي مصر عتيقة وأمامي منيل الروضة والجيزة. قرط من الأضواء الملونة تتشابك أقواسه وتتنافر وتتناثر، معلق في صدر معتمة، تلك العتمة التي تبرك على كيمان من القمامة والأسرار المنتنة. فما لي ضاق بدني البسيط يا بوي؟ .

إلا وخطوات تدب من حوالي تنتزعني من وحدتي، كانت الشيخة سعادة مقبلة تعدل هندامها، ومن خلفها موكب جعلت أتبين فيه الحاج السني ومحمد بك أبو شناف وبقية الحاشية. كان الحاج السني قد شرع يعدل الوسائد ويهيئ للشيخة مجلسا. أما هي فقد بدا أنها تتأهب للانصراف، فها هي ذي تتأبط حقيبتها الثمينة المنمقة. وتلفتت طالبة عم رهدي السائق، الذي

كان الطوع لها من لفتتها. وقف الحاج السني محتجا بشدة «ما ينفع هذا يا ستنا الشيخة، نحن لم نجلس مع بعضنا بعد!» قالت الشيخة: «ورائي سفر طويل كما تعرف، وعما قريب يكون بي الشرف بزيارة أخرى!». قال محمد بك أبو شناف: «وأنا ما مصيري يا ست الشيخة؟ على الأقل خمس دقائق معي. اقرئي لي حتى العناوين الكبيرة من كتابي!». قالت الشيخة بكبرياء ولباقة: «كل العناوين تؤكد أنك الليلة غير مؤهل لقراءة أي شيء! فلست وحدي التي ستقرأ كتابك، بل إنك الذي سيقرأ، ولست إلا محاولة لك أنا والورق. لكنني أعدك يا سيدي الفاضل أنك لو قابلتني في حالة أصح وقلب أخلص ونزعة أطهر فسوف أعدك بأنك تفهم كتاب حياتك سطرا سطرا، وتستوعبه معنى معنى! خذ رقم تليفوني من الحاج واتصل بي ولتما تشعر فتحدد لقاء ها هنا!» ثم إنها شفعت بابتسامة مهذبة، ثم استدارت إلى كأسها في غير حاجة لرد محمد بك أبو شناف وسلطت على نخرتها الساخرة «أما أنت أيها الشقي التعس فلي حساب معك في وقت يحين عما قريب!».

شعرت والله يا حال كأن الأرض تميد بي، لكنني شعرت مع ذلك أن في أعماق صوت الشيخة نبرة عطف وأنها سوف تحنو علي ما دامت وصفتني بأنني التعس، لا بد أنها ستشفق لتعاستي، قالت ذلك ثم سلمت على الحاج وعلى محمد بك أبو شناف ثم الحاشية. وتوقعت أن تسلم علي أنا الآخر، وصدق توقعي يا بوي: فانتثرت على الأرض نبذا صرت أقبل يديها في طلب

العفو والسماح؟ فربتت بيدها الأخرى على ظهري في حنان حقيقي قائلة بصدق حقيقي استشعرته «ربما يهديك ويطرح البركة فيك، آمين يارب العالمين». فإذا بالجميع يرددون خلفها مثل بطانة المغني «آمين يارب العالمين»، فشعرت والله يا خال أنه سوف يستجيب لابد لهذه الصيحة الجماعية. وقد أصر الجميع على توديع الشيخة سعادة حتى باب السيارة، حيث راح الحاج السني وأبو شناف يوصونها بتبليغ سلامهما إلى السيد المحافظ وشكرهما العميق، وكان عم رهدي السائق يهز رأسه كأنه المعني بالشكر. كلمة من هنا وكلمة من هنا فهمت أن السيارة هي سيارة المحافظ، محافظ أسيوط والله يا خال. وأنه مجاملة منه لسماح ولأبي شناف تطوع باستدعاء الشيخة سعادة وتوصيلها إليهم بسيارته الخاصة. حاجة تهوس يا بوي وحق الله. بعد أن تحركت السيارة شرعوا ينصرفون. وقبل أن أنصرف شدني الحاج من كم جلبابي قائلا في عشم وصرامة «خليك تحت عيني باستمرار يا ولد يا عكروت! لقد أوصتني الشيخة بك كأنك منها بموضع الأخ الشقيق، فلا تجعلني أسأل عنك بعد الآن!» قلت في غبطة: «حاضر يا حاج!» ومشيت أترنح لا أدري كيف الوصول إلى أي شيء في أي مكان.

العاشرة ، طيف الخيال

العيال المفتحة ليست بالساهل يا بوي. ولد مثل بسبوسة هذا ملقط أبي ملقطة! يجمع المعرفة والمعلومات بكل سهولة ودون أن يبذل أي مجهود. ولقد يسعى الواحد منا لمعرفة أشياء بعينها أو معلومة عن شيء معين فيقضي في ذلك شهورا وربما سنوات، وقد لا تجيء هذه المعلومة صحيحة بعد التعب. أما بسبوسة، فهي عليه باردة، يجيء لك بالخبر اليقين من أيما مكان تريد، هو ولد ناعم، جذاب يا بوي، يدخل في الزوارق دون أن يسبب أي وجع لأحد، وينصت لكل شيء ويجعل باله من كل شيء. ولد واع بحق، مولود ليكون مخبرا، وعلى وجه الخصوص عن بيوت الدعارة، غير أنه يوسع دائرة عمله فيشمل بيوت الدعارة بجميع أنواعها، يجمع الأخبار لا ليبلغها للحكومة بل لينتفع بها عند اللزوم، هو خير من ينتفع بها، هو خبير بأمر إعلانها لا يكشف عنها إلا عند اللزوم، حيث يكون لإعلانها ثمن كبير، هو مع ذلك لا ينسى المعلومة حتى تتعفن وتصبح معروفة، فقبل أن ترمع الحكومة مهاجمة الجرسوميرة يكون هو أسرع ولو بدقائق تكفي لنقض المعلوم وتفويت الفرصة على الحكومة

واه يا بوي! النكتة تطلعته من ولد الأبالسة هؤلاء، ليس المرء يكون ابن ليل لمجرد أنه يعاشر أولاد الليل أو يفعل أفاعيلهم. الشاهد يا بوي: قل إن الولد بسبوسة دخل علي شقتي مبتسما ابتسامة ملونة يا بوي، قلت سترك يا رب، صحبته ورائي إلى المطبخ قائلا "تعال أعمل لنفسك شايا"، وقف بجواري يحمل الأكواب على رخامة الحوض وجسده كله يهتز ويترجرج من فوق لتحت ومن تحت لفوق! وأنا به يضحك ضحكا مكتوما مطلقا في نفس الوقت. قلت معطيا إياه ظهري فيما أشعل عين البوتاجاز وأضع البراد فوقها "ما الشقشقة عائمة يا ولد القرطوس؟" فكأنني أعطيته الإذن الشرعي بالانفجار في الضحك يا حال، فصار يترنح ويتمايل من فرط الانبساط والسخسخة، وكان يتكلم خلال ذلك بكل تخلف اليمين ما فهمت منه كلمة واحدة توحد ربها! إنما هو مندمج في الهبطلة والفأفأة والبغبغة، كل ما فهمته من كلامه يا بوي أسماء الحاج السمي ومحمد بك أبو شناف والملك فاروق ورجال الثورة والعائلة الخديوية والدنيا والدين وربطة وربيلطة. واه يا بوي، ما الذي لمّ الشامي على المغربي؟ وما الحكاية بالضبط يا ولد القرطوس.

*

وكنت أظنها نكتة جديدة للولد بسبوسة منها لنقضي على حسها عصرية ممتعة. فإذا به جاءني ببلوى كبيرة يا حال، صرت أجمع نفسي على كومة الشاي وأنا جالس معه في الصالة لعلي أفهم جلية الأمر، فلما كف عن الضحك مسح دموعه وبدأ يلخص الأمر

كأنه المضطر للكلام المباشر يائسا من غبائي: "يعني يا مفتش الكنز الذي عثرت عليه أمت ليلة ميلاد ابنة الحج طلع على فشوش، مش أونطة! لا إنه بصريح العبارة مش يكش كنز بل هو بلوى سوداء مسيّحة!". قلبي راح يرفرف كطير مذعور في قفص من الجريد المخرّج، مثل ريق ناشف كالعصا قلت "كنز ماذا يا ولد القرطوس؟" فلسعني للبت كرا!! لكرسي صائحا: "لا تستعبط علي لسانك! إنني ما قصدت إلا مصلحتك يا صعيدي، يا صعيدي يا عطف! أنت تتلاءم علي؟ أما أنت فما تدري الله على قوله في حقك الله وأجري على الله!". وكنت أفهم ما قد بدأ يرمي إليه الحديث، لكنني والحق يقال تمسكت بالاستهبال لعلي أفهم أكثر دون أن أتورط في اعترافات تضع يدي في الحديد، ولد القرطوس هؤلاء علموني أن أكون حريصا معهم، بسبوسة نفسه حذرني منهم خلال الليالي حين تذكرت نصيحة بسبوسة المخلصة لي، رددت بنفسي على التلاؤم عليه، لكنها، لكن صوتا في نفسي رن قائلا إن تحذير بسبوسة لي من رفاقه لا يمنع من أن أستفيد به في التعامل معه أيضا؛ فهو في النهاية واحد منهم. عمومًا من خاطري الهام بأسلئي ما دمت قد فهمت ما يرمي إليه فخير لي أن تظهر صورتي بريئة كما قد أردتها في ليلة فوت القلوب، رن الصوت في صدري: لقد أظهرت سذاجتك أربعة وعشرين قيراطا نزلت [illegible] الولاعة وقطعة الحشيش وعرضتهم على الجالسين علم [illegible] ما رآهما أحد بل تجاهلوا الأمر من أساسه كأنه لا يخصهم ولا [illegible] إذن وعاد الصوت نفسه ليرن في صدري ثانية ولكن

الولد بسبوسة ورطك الآن ولا يصح أن تظهر أمامه في صورة من يريد أن يضرب الحوامي على اللقية التي التقيتها.

وضع الولد بسبوسة ساقا على ساق، عوج رقبته محوى قائلا في لهجة ذات مغزى «هات لف سيجارتين من الحلويات التي معك! أم تراك تلهطها وحدك؟» إياك تقول إنها نفدت! تكون أكبر مفترى لو قلت ذلك» وركز بصره في عيني بشكل جعلني كالقرد المقيد بالسلاسل. حاولت الفلفصة فلم أقدر يا بوي، ثم إنه أسرع فأخرج علبة سجائره ودفتر البافرة وشرع يفرط السجائر وينقيها من العيدان الخشنة ويشرشر ورق البافرة؛ فيما أتابعه أنا في لامبالاة. فلما انتهى من ذلك أبقى الدخان مكوما على ورقة البافرة ثم فرك أصابعه في الهواء أمام عيني كلما يقول: هات ما ستفركه، فلما أن تلكأت قليلا شخط في مشوحا بذراع مبرومة لا شعر فيها كذراع الأنثى قائلا «ما تجيب يا لوطي!»، فبكل هدوء وبساطة قمت ذهبت إلى حجرة النوم فسحبت الحشيشة من بين الكراكيب فوق دولاب الثياب واقتطعت منها قضمة لا بأس بها، والفت بقيتها فرميت بها مطرح ما كانت؛ وعدت إلى بسبوسة. رميت بالقضمة أمامه على الطقطوقة؛ فانقضت عيناه انقضاض النسر على فريسة. ثم أمسكها بأطراف أصابعه قائلا في غبطة شديدة «يا ابن الكا...لب!! دي حشيشة طيبة ما أنزل الله من مثلها في الأرض! شف أولاد الكلب والحشيش الذي يشربونه من دوننا أي عدالة في هذه الأرض يحق الله؟» عدالة الشيطان

وحدها هي التي تجعل هؤلاء القوم وحدهم يشربون أجود حشيش في الدنيا ويضاجعون أحلى نساء البلاد ويفترشون ريش النعام ويأكلون الندى والجمبري والكابوريا، ونحن نحمل نعلهم حتى لا تتلوث أقدامهم بالأرض؛ ليتنا نحملهم إلى القبر آه لو كنت أستطيع أن أصبح لصا محترفا! إذن لعرفت كيف أحكم هذا البلد!!»

وصار يتحسس التعميرة ويفرك منها حبات سمسم ينثرها فوق الدخان، ويلف السيجارة بحذق ومهارة وأعصاب رائقة، كأنه يتعبد في جامع الكيف، وإذ انتهى من لف السيجارة التي صارت تشبه القرطاس وضعها بين شفتيه بعناية ونظر لي محركا إبهامه فوق زناد وهمي؛ ففهمت أنه يطلب الإشعال. سحبت علبة كبريت من جيبي وجعلت أشعلها؛ فصدني بيده قائلا من بين شفتيه المضمومتين على السيجارة، «لا يا حدق! أشعل بالولاعة الذهب! خلها شبرقة في شبرقة بالمرة؛ إن هذه التعميرة لا يليق بها الكبريت! مقامها الولاعة الذهب!».

يا ولد الصايعة؟! هكذا قلت في نفسي، ثم شوحت له قائلا «ليس معي ولاعات!» شوح قائلا كأنه يعني انسحابه من القضية كلها: «بلاش! الكبريت أحسن!». واختطف العلبة فتحها وطش عودا صار يلوح بشعلته في مقدم السيجارة ويشرب بلذة فائقة والسيجارة تنساب في فيه منكمشة على نفسها شيئا فشيئا، فلما شعر أنه انتشى وطره منها سلمها إلي كأنه يحابيها من مجرية

وشرع يشرب واحدة أخرى، وقد بدا أنه صار في نفس واحد سهلة كبيرة، قال وهو يشعل الثانية «سأحكي لك حكاية بسيطة لكنها مضحكة ومسلية وفيها موعظة». قلت بغيظ «كلمني أولا فيم جئت تكلمني فيه». قال «لن أكلمك في شيء إلا بعد أن أحكي لك هذه الحكاية البسيطة المضحكة». قلت بضيق «احك!». فاعتدل في قعدته قائلا «لما قامت ثورتنا المباركة وطردت الملك فاروق ووضعت يدها على العرش، وضعت يدها أيضا على كل مجوهرات العائلة المالكة، حلو؟».

قلت: «حلو!».

قال: «وكونت لجنة لجرد هذه المجوهرات أعضاؤها كلهم من الضباط الأحرار ومن مجلس قيادة الثورة، حلو؟»

قلت «حلو».

قال «مجوهرات العائلة المالكة هذه ليست لعبة. ففيها تحف وحلي وتماثيل وأشياء للاستعمال كالملاعق والأطباق والصواني والساعات والولاعات كلها من الذهب والفضة بعضها مطعم بالأحجار الكريمة كالدر والياقوت والماس، وكل هذه المقتنيات تخص العائلة المالكة من عهد محمد علي حتى الملك فاروق، منها ما صنع خصيصا بتكليف ومنها ما أهدي إلى أحد ملوك العائلة وبعضها نادر لا مثيل له في الدنيا، كلها أشياء لا تقدر بمال. كلها أشياء سلطانية خطيرة، حلو؟»

قلت «حلو».

قال: «يتجول الثوار في البلاد في الغرف المغلقة والمشورات السرية أن الأجهزة التي جردت ووضعت اليد على المجوهرات لقيتها إلى مكان يحفظ فيها فيه حتى يحين الحين لوضعها في المتاحف. هذه الأجهزة قد تحمست في الجرد حبتين، كلهم بالطبع أبناء ناس فقراء في الأصل، بعضهم طمع في قرط ذهبي ثمين فسربه إلى جيبه لزوجته! ومنهم من تحفظ على مرح من الألماظ يعده أنوار فواره في جلبابه بيده. ومنهم من طمع في خواتم وساعات، ومنهم من لم يتمكن لعيبته أو حسن أخلاقه من غير شيء فاستفرضه الآخرون بهدية تملأ العين، جميعهم أرادوا شراء ذمم بعضهم بعضا ولمم بعض كبار القوم ممن بأيديهم الحل والربط فسارعوا لهم بعض الهدايا النادرة ذات التاريخ لكي يسكتوا عنهم إذا عدر عادر، ويقال إن بعض أبناء علية القوم ضبط في أوروبا يبيع ماسة أهدتها ملكة إيران ذات يوم لملكة مصر، حلو؟»

قلت «حلو».

قال «محمد بك أبو شنب من بين أعضاء اللجنة، وقد احتفظ لنفسه ولكبار وجوه عائلته ببعض التحف الثمينة ومن بينها ولاعة من الذهب الإبريز الخالص المطعمة بالدر والياقوت، وكان الملك فاروق قد تلقى هذه الولاعة من شاه إيران! وقيل إن الذي نقشها أبوه الملك فؤاد، حلو؟»

قلت «حلو"».

قال: «الطريف يا جدع أن محمد بك أبو شناف هو الذي يتكلم اليوم كثيرا عن مجوهرات العائلة المالكة! وعن الذين نهبوها، يفرح غاية الفرح عندما تظهر إشاعة عن أحد اكتشفوا عنده شيئا من مجوهرات العائلة المالكة، وبعض الناس الأكابر الذين كانوا جالسين على السطح ليلة قوت القلوب وقد حدثتك عنهم ليلتها يقولون إن شيوع الإشاعات حول بعض الناس يبعد الشبهات والأنظار عن محمد بك أبو شناف وإنه لربما يقف وراء بعض هذه الشائعات! حلو؟"».

قلت «حلو!!"».

قال: «محمد بك أبو شناف ينسى نفسه دائما ويضع هذه الولاعة في جيبه ليتباهى بها أمام بعض الناس الذين يحب أن يثبت لهم أن له صلات وثيقة بالملوك والرؤساء وكل الناس الأبهة؛ حلو؟».

قلت «حلو"».قال: «ومن شدة هبل محمد بك أبو شناف ومن شدة سطله على الدوام جاء بالولاعة معه إلى حفل عيد ميلاد قوت القلوب ولصق بها أوقية حشيش ليصنع بهما مصيبة في قلب الحفل. شف وساخة الرجل! على فكرة: كل الموجودين فهموا حقيقة ولا أعرف السبب في هذا! البنت قوت القلوب مسكينة وقلبها أبيض ومحرومة من حنان الأم ولهذا ربما ستر ليلتها فلم يشعر أحد بشيء سوى نفر قليل: الحاج السمي وأنا، أصلي على

علاقة طيبة بالحاج دون شلة النحس كلها! أنا الذي عرفتهم به إنه يحبني جدا ولا يقدر يستغنى عني! يحبني أكثر من المرحومة زوجته، بصراحة إنه يتعشقني! فهاو أو يقلبني على حوه! حير وبركة، أنا أيضا أتركه يتحسس أثدائي على سبيل المزاح، يطبطب على إليتي من باب المشم، يكلمني بصوت متهدج، لكن على من؟ إنه يبوح لي بأخطر الأسرار، لو طلبت عينيه لنزعها في الحال وسلمها لي، لكنه إذا كان ولدا صايعا مان أصبع منه! إنه لم يجر هاربا وراء عربات الرش ولم يبت في الحرامات مثلي ولم يتشعبط في سلالم الترامواي بحثا عن قوته، وبعد، فأنا أعرف كيف أستفيد منه! إنه سهل وصعب في نفس الوقت، إنه كالمال العام يسيل بين يديك لكنك تدخل السجن إن ضاعت منك قطرة واحدة منه. وأنا ألتصق بالحاج السمي لكي لا أتركه يدخلني، فلو دخلني أو دخلته ضاعت حياتي! في كل يوم أرى فيه موعظة. هل تتخيل أنه كان على علم بالمصيبة التي يديرها محمد بك أبو شناف في منزله في حفل ابنته؟! أخشى أن لا تصدقني إذا قلت لك أن الحماس لإقامة الحفل لم يكن عيد ميلاد البنت فحسب، بل من أجل إتمام «مصيبة» تصور يا ولد يا أخا على أن الشيخة سعادة هي التي شعرت بأن في الحفل جوا غير طبيعي، الواضح أنها شقية من قطاع الطرق، القطع ذراعي إن ما كانت من مطاريد نجيب! عندها خبرة وموهبة في معرفة رجال الشرطة السريين بشم رائحتهم عن بعد فلما شعرت بذلك انصرفت قبل أن تقرأ بخت البنت وبخت محمد بك أبو شناف، إنها موهوبة ولديها كتاب عتيق عجيب مليء بالصور

الغريبة المدورة كأوراق اللعب نكن كل واحد من بني آدم يجد نفسه بكل مشاكلها وأوجاعه ملخصا في صورة من صوره التي تقرأها الشيخة سعادة كالبلبل. ظهرت حديثا وقد سمع بها محمد بك أبو شناف والحاج عن طريق ناس من أعيان أسيوط فطلباها عن طريق المحافظ الذي تحرى عن مكانها فبعث في طلبها وأرسلها مع سائقه الخصوصي. أفهم يا أبا علي أن مصيبة محمد بك أبو شناف حين فشلت ولا بد أن تكون الشيخة سعادة قد قرأت تعريمة أفشلتها - عاد محمد بك أبو شناف إلى منزله وطلب الحاج السني بالتليفون ليقول له إنه نسي ولاعته في غرفة البرج: شف العهر يا جدع!».

قلت في عبيد: «اسمع يا بسبوسة. أنا أحرق عين التجني: فأنا الذي عثرت على هذه الأمانة وذهبت من فوري إلى حيث يقعد محمد بك أبو شناف وحاشيته والأبيشة: وعرضت عليهم الولاعة؛ بل قلت له بصريح العبارة: يا سعادة البيه هذه الولاعة ضاعت منك؟ أتعرف ماذا فعل يا بسبوسة؟ وطريقة أبي نظر لي كأنني لص هجم نفسه بسرقته. فكيف تجيء أنت الآن وتقول إنه كلم الحاج في التليفون؟ حاجة من اثنين يا بسبوسة: إما أنك تختلق هذا الكلام بعد أن علمت بالخبر مني رأوني أعرض الأمانة على العمدة؛ وإما أن البيك أبو شناف واسع الذمة وقد طمع في الولاعة مدعيا أنها ولاعته».

انفرط بسبوسة من شدة الضحك ما نوى حتى لم يعد قادرا على أن يلم نفسه من جديد، فخيل لي أن رأسه في مكان ويداه في مكان وكل جزء من أجزاء جسمه في مكان حتى صوته كان ميدانا هو الآخر في ضحك تتخلله حركات بذيئة وشخر ونخج. وكدت أوشك أن أتبدد مثله؛ لكنني صحت فيه بغيظ: «أما تثبت يا ولد الفرطوس؟» فمسح دموعه بكم جلبابه وصار يعتقل الضحك بقوة قائلا: «أنت أصلك صعيدي قحف! يا له من منظر. ألم تفهم معنى الورطة التي أوقعت فيها محمد بك أبو شناف؟ » تورث لية كبيرة في دماغي يا بوي في ضحوتها رأيت الورطة التي أوقعت فيها الرجل. لوحت بأصبعي تجاه موطن مقلي كأنني أحييه على نزوله إلى منطقة الضوء؛ قلت ضاحكا: «نعم نعم يا بن العم؛ أنا فعلا أحرجت الرجل يا بن العم إحرِج هي! صاحبنا وقعت منه سرقة مشهورة. فجئت أنا بسلامة مخي التخين لأردها له وسط جمع غفير في حفل كبير! لم يكن يلصني سوى أن أقول له بالفم المليان: خذ يا سعادة البيه الولاعة التي كنت سرقتها سيادتك من مجوهرات العائلة المالكة؛ هي! كلانا مثل الصعيدي الذي سرق الكلوب المشتعل بالضوء وراح يختبئ به في مكان مظلم!».

وصرت أخبط بكفي على ركبتي في التصديد واستحسان كأني فهمت شيئا كبيرا يا بوي. تحلف اليمين يا بوي أنني فرحت فرحا فاحشا. على أن الولد بسبوسة الملعون عاد يستأنف الضحك من جديد أقوى مما كان، وأنا أشاركه الضحك حينا وأكتفي بالنظر إليه حينا آخر فإذا هو خلال اندماجه في الضحك يبعبص بي بأصابعه في الهواء؛ ثم اعتدل في قعدته فلم جسده وأخذ مظهرا

جديا واسعى فوق الترابيزة وراح يفرك السجائر على ما تبقى من قطعة الحشيش، فيما يقول بلهجة حميمة: «أنت غشيم يا حسن وعلى نياتك!». ثم أشعل السيجارة واستطرد

- تظن أنك فهمت حقيقة المنظر! ولو عرفت الحقيقة لضربت رأسك في الحائط من الدهشة والعجب! محمد بك أبو شناف طماع ولص كما تقول هذه ليست محتاجة لتفتيح مخ! هو يا حدق ليس يفتقد إن جئت أنت بسلامة نية ورددت له الولاعة! إن وجهه والحمد لله مكشوف على الدوام لفحة هواء القهر والتبجح حتى احترقت دماؤه وتكلست عضلاته مثل القدم الحافية إذا مشت على الأرض بغير حذاء مدة طويلة صنعت لنفسها حذاء بكعب صلب لو جرحته بسكين يلتوي السكين ولا ينفذ فيه! هكذا وجه محمد بك أبو شناف! وأنى أحدسه في قعدات كثيرة من سنوات بعيدة بعد الحج السني وغيره! كما قدر لي أن أعرفه منذ طفولتي قبل قيام الثورة حيث كان أبو شناف هذا يعمل في مهن كثيرة! فمرة كان ضابطا في الجيش المصري ورفدوه! وقالوا إنه جاسوس ألماني فاضطهدوه. أول ما تعرفت عليه كنت أسقيه الحشيش في دورة في مدينة السويس! كنت طفلا صغيرا وكان هو سواق عربة نقل كاميون مع شلة من السواقين ومنش المطرح! إنني من السويس كما تعرف ولم أستوطن هنا إلا أثناء الهجرة! الحكومة عينتني في الحكومة نظرا للظروف المؤلمة التي عشناها في السويس: حيث فقدت بيوتنا وإخوتنا وآباءنا وأمهاتنا وعقارنا وذكرياتنا وكل شيء

واخترعنا في أماكن أخرى! المهم مجرد تعرفت فيها على محمد بك أبو شناف اتضح لي أنه في الأصل عتال شغلته تحميل عربات النقل بالبضائع والمرة الثانية كانت ثالث مرة كنت أسقيه الحشيش في فيلا في مصر الجديدة يملكها رجل كان أعلى رتبة في الحرس الملكي حيث كانت أمي تعمل دادة ومربية في بيته فكنا أنا وإخوتي ننتهز الفرصة لنجد لأنفسنا أعمالا في البيت وسط العز والنغنغة! اتضح لي في هذه المرة الثالثة أنه ضابط في الجيش حيث قد عاد إليه بعد رفده. ثم بعد ذلك صرت ألتقيه في أماكن كثيرة عن طريق صاحب الفيلا وخدمتي لأصدقائه وبواسطته تعرفت على أجواء كثيرة مدهشة وانفتحت لي بوابات لو دخلتها أنت لتهت فيها! من حسن حظي أنني رأيت ناسا كثيرين قبل أن ... منهم من الضباط الأحرار لكن العجيب أنني كنت أرى الواحد منهم واحدين. أحدهما ضابط وهذا ما لا أراه أبدا والآخر مقاول أو تاجر تحف نادرة أو صاحب محلات وإقطاعيات وعزب! تعودت ألا أندهش من أي شيء! تعودت كذلك ألا أصدق القانون إلا إن كان في مصلحتي! لم أعد أخدم الحكومة وإن كنت أقبض منها ماهية قاصرة جدعة الفر علقة! أنا أخدم نفسي أولا ثم أعطي ما فاض مني للحكومة!! إذا كانت الحكومة كلها غارقة لأذنيها في الفسق والمجون والعهر فبأي وجه أروح لأقبض على بقية تعيسة الحظ ليس وراءها أو قدامها معين ولا سند؟ يا بحث من نفع واستنفع! أنا بصراحة أجيء في صف الناس فأحذرهم من الحكومة وهم في المقابل يكافئونني بالحب والإغداق!!»

وشد السيجارة من شفتيه وقدمها لي وقد احمرت عينه واربد وجهه، وبدا أن الحشيشة اللعينة قد سرحت بمخه فشردته وبعثرته في كل مكان فصار يلقي ببقع من الضوء الشح في مناطق متعددة من الأمور والنواحي، ولما شفطت النفيسات المتبقية في السيجارة حتى الذبالة وتعشش الدخان في جبهتي تذكرت أن أمر محمد بك أبو شناف لم ينته بعد، وأن الولد بسبوسة قد سرح بي وبعثر مخي أنا الآخر في مكان ألقى عليه لمة صوره هنا ولد ساحر يا بوي، هذا سريسي حريق كان يجب أن أعرف سريسيته قبل أن يطلقها يا بوي لكنني كنت مبسوطا ومشعشعا إلى حد يهيج يا خال؛ حتى فكرت في التنازل عن قطعة حشيش أخرى تشعلل بها هذه الحالة التي صرناها لولا أنني نظرت فالتقيت التعميرة قائمة ما تزال على الترابيزة بين بقايا ورق البافرة وشارات الدخان مثل بنية كبيرة مرتلطة لامعة كالمدهونة بالزيت لافافي المكروث سيجارة ملفوفة، سحبت عدة أنفاس متلاحقة كتمت دخانها في منخري تاركا القليل منه يتسرب كأنني أجلو مخي من الداخل باللبعة الخشنة وقلت وأنا أرد له السيجارة متوجعة

ـ « فتحت لي موال محمد بك أبو شناف فلم تتمه؛ أنت حين شرعت تتكلم أوهمتني أنك ستقول شيئا عن محمد بك أبو شناف يبعد عن مداركي ومفهوميتي! ثم سبت موضوع محمد بك أبو شناف وحكيت لي قصة حياتك!! أعرف أن التعميرة جيدة تسرح بالدماغ لكنني متفحص ما أزال!»

فلمع الذكاء الحاد في عينيه كبرق الشمس، فعاجلته قبل أن يسرح ثانية موثقت لي إن محمد بك أبو شناف دبر مصيبة في الحفل ولم تقل لي ما هي هذه المصيبة والعياذ بالله!!» محبا بريق الشمس تحت جفنيه وهو يغلقهما في نشوة جذب الأنفاس ثم قدم لي بقية السيجارة وقد ميل رأسه على كتفيه تاركا سحب الدخان تهدر على صدره. ورفع رأسه قائلا من خلال أنف مدمعة بالمخاط

«الأمر باختصار أن الورطة التي وقع فيها محمد بك أبو شناف كانت معقدة! لا أنت ولا غيرك لو كان جن مصورا يستطيع أن يفهمها! محمد بك أبو شناف كان يريد أن يدس الولاعة مع قطعة الحشيش على واحد من الأفنديين اللذين كانا يتوليان السلب الحفل حضوريا! الأفندي الذي كان ممسكا بالجورة! إنه ضابط مخابرات ويقال إنه ذو منصب مهم في تنظيم لم نسمع به من قبل اسمه التنظيم الطليعي من داخل الاتحاد الاشتراكي كف أفهمني الحاج المسمى! يكرهه محمد بك أبو شناف لاعتقاده أنه مدسوس عليه لكتابة التقارير عنه والتسجيل له إن أمكن! ومحمد بك أبو شناف يقربه منه ليمص سمومه ويتمكن في نفس الوقت من قطع رقبته!! شاء الصدفة أنني حين نزلت بعدك من غرفة البرج العلوي اصطدمت في زحام الحفل بهذين الأفنديين جالسين بين جمع من الصبيات المهلبة يسكرون ويمصون السجائر ملفوفة والدنيا زئيط وكل واحد في حاله الأفنديان كانا يضحكان بعمق

ويشخران! توقعت خلفهما لعلي أستلقط من حديثهما بعض الأخبار عن البنات اللاتي يجلسن معهما خاصة أن شكلهن يقمن بأعمال لصالح المخابرات، وكنت أرسم على نفسي هيئة من يقف رهن الإشارة لأداء الخدمات باعتباري من أهل الحفل، عونا بي أفهم موضوع حديثهم وسخريتهم! حكي الأفندي الذي كان ممسكا بالجوزة أنه ضبط محمد بك أبو شناف يسرب يده في الخفاء ويسقط في جيبه الولاعة وقطعة الحشيش! فأحس بالذعر والرعشة خاصة أنه كان علم من طرف خفي أن شيئا يدبر له في الخفاء! أيقن أن البوليس واقف يترصده على عتبة الباب لكنه مع ذلك لم يجرؤ على صنع فضيحة مزعجة في الحفل! ولو أنه صاح ولفت الأنظار فسوف يزعم محمد أبو شناف بكل بساطة أنه لا يعرف شيئا عن الموضوع، ما صدق صاحبنا أن يخبئ الجوزة حتى جلس متربعا على الشلتة وبصبعه لطاقة أخرج المصيبة من جيبه وصار يحركها بيده خلسة حتى حشرها بين المسند والـ[illegible] محمد بك أبو شناف مباشرة».

تعلق البعض يا خال أني شعرت كأن تركيبة الدنيا كلها قد تفككت ولم يعد فيها ضلع يمسك بالآخر، والهواء يصفر بين الشروخ صفيرا مرعدا مزلزلا. أفي الحياة نحن يا بوي أم في جهنم حمراء اللون كالدم؟ لابد يا خال أن محمد بك أبو شناف هو أحد الزبانية، أو لعله إبليس نفسه، ويبدو أن منظري كان متجمدا على الدهول كأنني انمسخت حجرا بملامح مفقودة، فها هو ذا

الولد بسبوسة يغرق في ضحك ماجن لبرهة طويلة فيما يشرح لضيوف بيده في غمر انعقد دماغي لبرهة أطول فشعرت كأنه يستجمع كل إدارته ومندوبيه ومراكزه ليعقد اجتماعا طارئا يدلي فيها كل بدلوه في هذه الكارثة الكونية المسماة بمحمد بك أبو شناف إنه آفة من آفات الزمن وأسخم من الحج السمي بطوفين، دماغي يا خال صار مردحما بالحنق وبالأخذ والرد والحاغة والضجيج، ولحظة أن أوشك كيس دماغي يتفرتك ويضيع كل ما فيه سدى، خلت الفكرة في رأسي فوجدتني أصيح في بسبوسة واضعا ساقا على ساق «لكن من الذي أخبرك يا حبر أن محمد بك أبو شناف كلم الحاج السمي في التليفون ليخبره بأمر الولاعة؟!» نظر إليّ الولد في استهانة شديدة وشوح بجوار رأسه علامة على ضياع مخي، وقال «تقولوا طور يقولوا احلبوه!» ثم انفجر ضاحكا وراح يمسح دموعه

على كل حال الحاج السمي قلب عليك الدنيا! وأنت من يوم الحفل لم تره وجهك رغم أنه أوصاك بالمجيء، هو على فكرة مقتنع ببراءتك ومقتنع أيضا أن الولاعة في جيبه لأنه واثق أنك لن تستطيع التصرف فيها بأي شكل!».

وكان قد برم آخر سيجارة وقدمها لي لأفتتح إشعالها قائلا في جدية كبيرة «نشرب هذه السيجارة ونتكل على الله إلى عمك الحاج قلت فيما أجذب الأنفاس مغمض العينين «وماله»، ثم سلمته السيجارة معلقها بين أصبعيه حتى تسترد أنفاسها قائلا

«لا تنس أن تجيء بالولاعة معك». ولم أسترح للهجته في قول هذه الكلمة يا بوي. شيء فيها نخسني كالدبابيس الدقيقة وقال صوت في دماغي: إياك أن تذهب معه الآن يا حسن فإنك لو ذهبت معه الآن على هذه الصورة فسيظهر للحاج الصعيدي أن بسبوسة هو الذي قبض عليك وجاء بك، وربما تبجح بسبوسة وغمز للحاج بأنه لولا همته ما رأى الحاج وجهك. وجدتني أرد على هذا الصوت: باه! أعطل أنا يا بوي؟ ولاد المدينة القحباء يستغفلون الصعايدة؟ كيف يا بوي؟» ثم قلت لبسبوسة بلهجة خشنة: «اسمع يا بسبوسة يا صاحبي! أنا أثبت نيتي وأمانتي! والأمانة في الحفظ والصون. ولكن إذا تصورت أنني يمكن أن أذهب معك الآن يكون تصورك كحلم إبليس في الجنة. أنا كنت سأذهب إلى الحاج تلقاء نفسي يا بن العم. لست منتظرا أن يأخذني أحد من يدي ليسحبني إلى الحاج! أم أنك تريد أن تصغرني أمام الناس يا بسبوسة يا خوي؟ شف يا بن العم! إذا ما كان الحاج قد استغباني فوالله ثلاثة ما قضيت أمرش! اذهب أنت وسأكون في عقبيك بعد نصف ساعة».

رأيت الرجل الصعيدي ظاهرا في عينيه، فصعب علي والله يا خال فطيبت خاطره بأن أريته الولاعة. طارت عينه كالصقر وانقضت على الولاعة بركت فوقها جاحظة مبهورة مندهلة. «يا ابن الكا ل ب! جوهرة ثمينة لا تقدر بثمن». وقبض عليها في الحال بيديه فاستصعط قلبي صار يقلبها بتمعن يرسل اللعن

والاستحسان لدقائق طويلة كانت على شكل علبة مستطيلة مبططة لحمية تحوطها اللآلئ من جميع الأنحاء على أرض من الذهب الأحمر اللامع وكنت قد عالجت فتحها برفق حتى عرفت كيف يقدح زنادها. وإنه لعجيبة من العجائب يا خال فكل ما عليك أن ترفع غطاءها. ولكن عليك الأول أن تعرف أين غطاؤها، إذ أنه مدمج فيها سائح عليها وليس من خط فاصل يشير إلى الغطاء. فالصبر مع الشد والجذب من كل أضلاعها إذا بالغطاء شريحة رقيقة في سمك قطعة الشكلاطة. لا بس في مدى الولاعة بأوصال خفية، ما إن تجذبه إلى أعلى حتى ترى الشمعة والفتلة مزمهرة كأنها كانت قاعدة تحت الغطاء صاحية فإذ يحجب عنها الغطاء تهب والفتلة كمن الخاتم السحري قائلة: نبيك. ولقد ظلت ليتداك بطولها يا خال أفرج عن الشمعة ثم أغطيها حتى أحرقت خرخوشة سجائر، فلما كشفت سر اللعبة لبسبوسة ظل هو الآخر يفعلها بغير توان كأنه اكتشف سلوى جديدة رائعة صحت فيه: «احذر أن تفسدها يا بن العم أو ينفد ما لابد في جوفها من غاز وحجارة! فهي لنا أن نسلمها سليمة من كل عيب يا بسبوسة يا خوي» وقد فعت ذلك، مسمعه لطامة، بأن دحليت يدي فقمت على الولاعة وتاويتها في جيبي. ثم ما لبثت حتى قمت إلى حجرة النوم فواريتها في مكانها الخفي وعدت إلى بسبوسة، لأراه شاردا سابحا في ملكوت الله يا خال.

جلست قبالته واضعا يدي على ركبتي كأنني أستحثه على البوح الفاتري لكنه أشعل سيجارة وقال

– «هذه بالفعل هدية ثمينة؛ ثمنها يغنينا جميعا من الفقر شرط أن تباع خارج البلاد؛ على فكرة أنا أعرف عددا كبيرا من تجار الآثار والعاديات بعضهم دون أسماء كبيرة في شغل الصحافة ممن يسافرون كل يوم إلى بلد جيوبهم عمرانة بالورق الثقيل؛ هم رجال بمعنى الكلمة؛ وخبراء يعرفون كيف يتصرفون في مثل هذه الهدايا الأثرية الثمينة، ولا يجيء من ورائهم لبط؛ إنما إنهم يعرفون طرق الأشياء، يعرفون من الذي تنقصه هذه الهدية أو تلك فيذهبون بها إليه في خطة مدروسة يشترون بها ما يشاءون من قواه المدية. والأشياء تتسرب إلى من تليق بهم ويليقون بها بصرف النظر عن مصدرها؛ فمن يسألك أحد من أين جئت بها؛ ولا يعنيه هذا؛ كل ما في الأمر أن شخصية البائع هي التي تحدد قيمة الشيء ومستواه؛ فلو ذهبت أنت مثلا أيها الصعيدي القفل لبيعها فلربما طلبوا لك البوليس؛ غيرك ربما أعطوه فيها بضعة جنيهات وصرفوه! وهناك من يعجز نهائيا عن بيعها مهما كان مفتحا وهناك من يستطيع بيعها في غيبتها بالسعر الذي يشاء؛ المهم الشخصية؛ والشخصية تكشف الشخصية؛ يعني لا أنت ولا أنا نستطيع الادعاء بأننا شخصيات مهمة! فالحوائط التي سنطلع فيها ستفضحك من صراحتنا بعد أول مطلحة!».

طب ما قولك يا خال أن ولد الفرطوس قد أثر عليّ؟ تحلف اليمين إنه إبليس ونجح في الدخول في مشاشيشي! لكنني انتفضت فجأة ثم صحت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!».

فضحك ولد الفرطوس، وأخرج من جيبه قطعة حشيش! اتضح لي في الحال أنه كان قد حصرها خلسة من حشيشتي وسربها إلى جيبه، ثم شرع يفركها على دخان السيجارة قائلا: «دع مشنعه الآن بحق النبي!» صحت فيه مارها: «تريد وضعك في تأديبه يا بسبوسة؟!» وشوح قائلا: «على فكرة أنا أستطيع تخليصك كخروج الشعرة من العجين؛ أنت أصلا في السبيم؛ ألم تذهب بها إلى محمد بك أبو شناف وتعرضها عليه؟ إذن فقد أصبح معروفا للجميع أنك كنت تبحث عن صاحب ولاعة ضائعة!» ثم استطرد: «سيسألك الحاج السني: أين الولاعة التي عثرت عليها في غرفة البرج يا حسن؟ تقول له بكل بساطة دون أي خوف: أخذها صاحبها يا حاج! صاحبها؟ صاحبه من يا ولد؟ هكذا سيقول لك فتقول له: بينما كنت أعرضها قائلا يا من ضاع منه شيء ظهر لي أفندي فقال أنها ولاعته فأعطيتها له؛ سيجيئون لك بالأفندية يعرضونهم عليك؛ وأنت تستهبل! تزعم أن الأفندي ليس بينهم! فيعرفوا أنك وقعت ضحية نصاب؛ وأن الذي ساتولى توزيع الأمانة في السر ولا من شاف ولا من درى. هه، قلت؟!».

ولد الفرطوس لم يكن يمزح يا خال. تحلف اليمين أنني سمرت عيني في عينيه بحثا عن ظل المزاح فلم أجد. ووجدت يا خال أن ما يشغلني عليه أن أقوم فأضربه حتى يتحرشم ولا يعود يقلني في مثل هذا الأمر ثانية. لكنني اكتفيت بأن قلت له: كلها «فال عطالة يا بسبوسة يا حوى!». فمصمص الهوى قائلا في استخفاف ورزاية

- «خذ!! إن ثمنها كما قلت لك يعيدنا من الفقر في خبطة واحدة! إن ثمنها ليس ثمن ما فيها من ذهب حر! ولا ثمن الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت وماس! ولا ثمن الآلة الدقيقة الموجودة في داخلها كل ذلك له ثمن أي نعم! ولكن لا تنس أنها منسُبة! ولها تاريخ وأصل وفصل! وهذا له ثمن كبير! إننا يمكن أن نخبط فيها فوق العشرين ألفا! والتاجر يمكن أن يخبط فيها مائة ألف بالراحة! أنا أعرف رجلا من زبائن الحاج يدفع لنا فيها مثل هذاالمبلغ وأضمن أنه لا يأتي بسيرتنا في أي حديث! إنه دائما يوصيني إن وقعت في يدي مثل هذه التحف أن أخش بها عليه مباشرة!!»..

قلت وقد بدأت ارتعش خوف الوقوع في الموافقة:« ربنا يغنيها بالحلال ياولد الفرطوس! حل عني يا شيطان المدينة يا غليظ القلب! ما كنت أظنك واعرا هكذا!!» فقال بحماس شديد: «يا صعيدي يا وجه النحس! إن رجال الثورة الذين توزعوا في كل مكان نهبوا البلاد وباعوا ما قدروا على نهبه! الآثار يبيعونها! مجوهرات العائلة المالكة يتصرفون فيها على راحتهم وكل يوم تظهر قطعة منها في مكان ما من العالم!! ولا أحد يحقق مع أحد! هذه فرصتنا الكبرى! ومحمد بك أبو شناف لن يستطيع أن يفعل معك أي شئ! والبوليس إن تابعك فسيعرف أنك لا شأن لك إذ أنا المسئول فما خوفك؟!»..

سلطت عليه نظرة ثاقبة ذات معنى وقلت له: «بسبوسة! أتتكلم الجد أم تمزح؟! أم لعلك تريد الإيقاع بي في شر أعمالي؟!».

قال بسبوسة: «أتكلم الجد طبعا! ولابد أن تطاوعني الآن! فمن يدريك أن الحاج السني أو محمد بك أبو شناف لم يبلغ الشرطة؟! وقد أخرج من هنا فيطبق عليك البوليس من هنا ليأخذك بها متلبسا؟!» ألقتني هذه الغمزة يا بوي، شعرت أنه يلوح مهددا بشئ كالذي قاله؛ فتضايقت منه يا خال، وأسرعت قائلا: «قبل مجيء البوليس تكون هذه الأمانة في جيب صاحبها! وأحسن شئ تفعله الآن أن تتفضل من غير مطرود! فإن ورائي مشوارا مهما سأفعله قبل ذهابي إلى الحاج، ونهضت، فنهض على مضض شديد، ومضيت أمامه نحو الباب، فمضى في تثاقل يكاد الغيظ يفريه: «مع السلامة يا بسبوسة؟ أشوفك عند الحاج بعد ساعة واحدة» ومددت يدي أسلم عليه، فمد يدا باردة متراخية؛ ظل ينظر لي برهة طويلة، ثم لوى شفتيه مشمئزا وانصرف. أغلقت الباب خلفه ونظرت من العين السحرية فرأيته يطرق باب الجيران فانتظرت حتى انفتح الباب وزرق هو إلى الداخل، فخرجت متسللا على أطراف أصابعي كي أسبقه إلى دار الحاج السني ! فإذا بي أصطدم بسنيورة تبارك الخلاق فيما خلق، تفوح منها العطور الفاغمة وينكسب الجمال على كعبيها وردفيها وخصرها وعنقها ووجهها وجدائل شعرها الأسود الفاحم، المصيبة العظيمة أنها قالت لي: «تصبح بالخير يا حسن!»، فكأن الدنيا بذاتها نطقت باسمي على شفة القيثار، وإذا أنا كطفل غرير أندفع صائحا: «يا مسيو صباح النور! أهلا ثم نزلت السلم أكاد أتعثر في خجلي وحيرتي فيما هي تلوح لي بيدها مودعة.

يا مثبت العقل في الدماغ يا رب؛ فالحاج السنى قد زعزع كل أبراج عقلي يا بوى ـ أقصد يا رب ـ وقد طيرها برجا وراء الآخر. إنه متخصص في سرقة كله من كل أبراجي أنا الآخر. أقصد كل الأفكار فلا تعود إلى ثانية إذ تكون قد ولفت على أبراجه الشامخة التي تجتذب حمام البلاد كلها فإذا هي تولف عليها فلا تعود إلى أصحابها، حتى الحمام النادر الذي يبيعه للغاوين إليه ثانية. الحمام ليس عبيطا يا بوى! كيف يكون عبيطا وهو يرجع إلى مسكنه الأصلي في وطنه مهما طالت به الأميال أو احتجزته الصحارى والوديان بأسرع مما يتخيل البشر؟ البنى آدم منا قد يتوه عن داره إذا شرب حجرين زيادة أو جرع قرعة بوظة. أما الحمام فلا يغترب أبدا. لابد أن يعود إلى بناتيه في المساء كما يعود الفلاح بمواشيه إلى داره. تخيل يا بوى أن هذا الحمام يفهم مثلنا في أمور الحياة، فمثلنا يكره الفقر يهفو إلى العز والنغنغة والعش اللين الطرى، طبعا يا خال، كل الطيور تصنع عشها بنفسها وتتفنن في صنعه ولا أجدع مهندس، إلا الحمام فإنه من فرط الدلال والكبرياء الخارق يترك أمر عشه لمن يقع في هواه لن يغواه، متقنزح أخر قنزحة على قدر الهوى تكون الغية، والغية في خيال الحمام قصر بلا حدود، وطيرك الذي يولف على غيرك منشؤه الحمام، والحمام سيد من يولف. إنه يموت في الجماعة يا خال، كلما تزايد في تجمع مهيب سعى كل فرد للانضمام إليه والالتحام به في فخامة وشرف ليذهب به الركب الحافل المهيب إلى حيث تشاء طلائعه المتقدمة في اختراق وشموخ وثقة إلى

هدف لاشك معلوم، إلى مسكن وديع أمين أليف بكثرة الجماعة يملأه بالهديل والغزل حتى يتكاثر ويتكاثر يصير نقوشاً ملائكية في قبة السماء. ما حيلة الأبراج الخربة إذا كان الحمام يهفو إلى العز وعزه في التكاثر والتكاثر دينه وديدنه؟! لابد أن الحاج السنى لديه شئ لله لمس به أبراجه العالية هذه حتى أغرى حمام البر كله بالسكن فيها؟!

أنادني خادم إلى بناية بعيدة خلف الدار الكبيرة كأنها ضريح الحسين مضروباً في عشرين ضعفاً. قل يا بوى إنه مجمع أضرحة فخيمة المنظر ترتفع قبابها وتضيق شيئاً فشيئاً حتى تصير كالمئذنة تشق السحاب، تطل على حوش واسع دائرى، والأبراج والأضرحة ملتحمة كلها ببعضها وإن استقل كل واحد منها مجسداً بكل أضلاعه. فلما صرت في قلب هذا الحوش خيل لي أنني في قلب برج هائل خرافي وإذ رفعت رأسي إلى أعلى شعرت بدوخة عظيمة وخيل لي أنني غاطس في قلب الأرض إلى أعماق بعيدة. عدلت نفسي متطوحاً أتساند على الهواء فرأيتني وحدي وقد اختفى الخادم شعرت بخوف مفاجئ يا خال، داهمني شعور كالذي يعترى من يجد نفسه فجأة في قلب مقبرة. كانت الأبراج السبعة الملتحمة ببعضها في دائرة محكمة حول نفسها قد دورت لنفسها سقفاً من السماء على قدها، تلقى على فراغ الحوش آلافاً من العيون المقفولة في صفوف دائرية من الأرض إلى السقف لا نهائية ورمادية، تفصل بينها وبين بعضها شرائح من

الجدران البيضاء كأنها الجفون التي توشك أن تتسدل. ما إن يسود الهدوء الساكن برهة إلا وتشرخه انطلاقة فرخ من إحدى العيون كرصاصة مدفع، في الحال يتبعه فرخ آخر، سرعان ما تستجيب لندائهما أفراخ أخرى كثيرة تتدفع من العيون السامقة، ليلتئم شمل الجماعة على ناصية الهواء المتلاطم. ولقد يؤدى رقصة سريعة خاطفة، تتقارب الرءوس تتشاور لتتسلك في رحلة بعيدة، فيعم الهدوء لبرهة تبدو من عمقها دهراً.

ـ « أنت يا.. هوه! ماذا تفعل عندك؟ ما وقوفك كاللوح؟!».. كان الخادم واقفا في باب صغير قصير. صحت فيه:

ـ « أين أنت يا جدع؟ لقد اختفيت من أمامي!»..

أشار خلفه إلى عمق الباب:

ـ « قلت إنك تريد لقاء الحاج! ها هو ذا الحاج ينتظرك فادخل». هرولت نحوه. فإذا بالباب الذي كان يبدو من بعيد كباب الفن قد استطال، وإذا هو باب أحد الأبراج، وإذا هو من الداخل دائرة كبيرة تطل على حوش مثل الذي كنت واقفا فيه؛ وإذا جدران دائرية كلها عيون لا حصر لها من الأرض صعدا إلى عنان السماء. وقضبان حديدية تنتظم بعضها البعض في صفوف متجاورة متقابلة متعاكسة معا تتصل بقضبان عمودية غاطسة في الأرض تتفرع منها دوائر حديدية بشباك نحو العلو الشاهق بحيث يستطيع أي إنسان أن يصعد بكل راحة وسلام وأمان لتتمكن يده من الدخول في العين للحصيد، حصيد الفراخ أو زبل الحمام الذي

هو أغلى من الفراخ نفسها عند من يسمدون به أراضي البطيخ، هذه مملكة أخرى يا بوى ولسوف أنقلها عن الحاج أحمد نور الدين السني..

كان مندمجا بنفسه في تنظيف الأعين، وملاعبة الحمام وإغرائه بالمجيء إليه ناثرا أمامه بعض حبوب الدنيبة. إذ هو يعرف أن الحمام يتكفل بكسب قوته بعرق جبينه حيث يسعى إليه زرافات زرافات ولو في أقاصي الأرض البعيدة قال حين رآني تسمرت في مكاني كالأبله متنملا بإمبراطورية الحمام هذه:

ـ « أين كنت يا ولد يا عكروت؟! لم نرك من زمن!»..

ـ « مشاغل والله يا حاج!».

ـ « آمر! أي خدمة؟!».

ـ « آمر أنت يا حاج! ألست تسأل عني؟!»

ـ « أسأل عنك في كل وقت! ولكن ما الذي ذكرك بي الآن؟!»

ـ « فرغت من انشغالي فجئت!».

قال كأنه يطردني بصنعة لطافة:

ـ « شرفت وآنست! لكني الآن مشغول كما ترى! على كل حال سأفرغ من هذه المشغولية بعد غد في مدخل الليل! فحاول أن تجيء! لك الآن أن تشرب الشاي في استراحة البوابة الكبيرة أو تتغدى إن أحببت! اطلب من الولد ما تشاء في سبيل أن تعذرني على انشغالي عنك الآن!»..

ـ « تشكرا تشكرا لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكل كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمنى بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!».

ثم نفض كفيه فى بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه، أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكني قلبي لم يطاوعني، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها فى دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتنى رعشة باردة: «هذه هى الولاعة التى ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأنى أنا بها؟! قلت: لكي تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر فى عينى: أين وجدتها؟!» قلت: « فى حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخذها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندى لأنها مسئولية! انت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!!» أغرقتنى الحيرة: «لكنك بحثت فى طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه!!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة فى بلبلة

تتوالى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالى

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق